أيمن العتوم



الرُّعب

حكاية الحرب في غزّة ٢٠٢٣-٢٠٢٤م

ALGWTHANI®
KITABEVI


الرُّعب



عطاءٌ و إحسان 2024

العنوان : الرُّعب .

تأليف: أيمن العتوم .

عدد الصفحات : 416 – قياس الكتاب : 14×20 سم .

١٤٤٦هـ – ٢٠٢٤م

الطَّبعة الأولى

دارُ الغَوثاني




دمشق - سورية / SYRIA
+963 944 453 638


إسطنبول - تركيا / Turkey
+90 541 898 36 88


بيروت - لبنان / LEBANON
+961 78 920 707

info@gwthani.com - www.gwthani.com

أعضاء في :

- اتحاد الناشرين السوريين
- اتحاد الناشرين العرب
- اتحاد الناشرين الأتراك
- نقابة اتحاد الناشرين في لبنان
- جمعية الناشرين الإماراتيين
- جمعية ناشري الكتاب العربي في تركيا
- الرابطة الدولية لصناعة النشر العربي



معًا لنشر الكتاب الهادف

جميع إصداراتنا متوفرة الكترونيًا على :

منصة كتابي الهادف

info@kitabialhadif.com

+90 552 560 77 31



معًا لتسويق الكتاب الهادف

شركة إمداد لتوزيع الكتاب حول العالم

info@imdat-books.com

+90 544 523 98 74



كلمة الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين الذي انتدبنا لجهاد أعدائه واختار منا الشهداء إلىٰ جواره، وتفضل علينا بأجر المرابطين والمجاهدين، والصلاة والسلام علىٰ نبينا المجاهد الشهيد وعلىٰ آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلىٰ يوم الدين.

وبعد: فقد عزمت دار الغوثاني بأن تنحو بمحاولة جديدة ورائدة في عالم الرواية الهادفة من تأليف وترجمة بين اللغات الأخرىٰ، وكانت الروايتان الأولىٰ والثانية مترجمة من اللغة التركية للعربية (جدي السلطان عبد الحميد - كنت سلطانـًا فغدوت فاتحـًا).

وتشرَّفت الدار بهٰذه الرواية الثالثة -**الرعب** (حكاية الحرب علىٰ غزة)- بأن تكون لها السبق في سرد قصة من واقع الحقيقة من خلال استخدام نمذجة الخيال من بين آلاف القصص في الحرب الغاشم علىٰ غزة (العزة) بقلم بل بقلب الكاتب الكبير الأستاذ المبدع **أيمن العتوم** رعاه الله، الذي أكرمنا الله بالتعاون معه في هذ الرواية، ونتشوق بالتعاون بروايات أخرىٰ ماتعة مثل أخواتها، وهٰذا الرواية جسدت جزءًا مما يحدث علىٰ أرض الواقع الأليم، بطريقة قصصية تغوص في أعماق القارئ وتلامس شَغاف قلبه، ونقله إلىٰ قلب الحث كأنه يعيشه بكامل أحاسيسه.

الناشر

إسطنبول ٦-٧-٢٠٢٤

(٠) الكتابةُ عملٌ ثوريٌّ

أنا فرج أبو العوف. وُلِدتُ عام ١٩٧٤م، من حي الرّمال في غزّة. ليسَ لديّ شيءٌ أخسره، لأنّني خسرتُ كلّ شيءٍ، ولم يتبقّ لي ما يُمكن أنْ يكونَ وليمةً لهٰذا الخسران الّذي لا ينتهي. لم يتبقَّ في رصيدي سِوىٰ أحزاني، وأنا مُستعدّ أنْ أخسرها باللامبالاة نفسِها الّتي خسرتُ فيها وطني كلّه!

نحنُ في غزّة نعيشُ في سجنٍ كبير، مُحاصَرون من إخوتنا العرب قبل أنْ يُحاصرنا الكيان الغاصب. هٰذه الحكاية البائسة ليس فيها أيّ فائدةٍ كبيرة، لو كان لي أبناء أو أحفاد لكتبتُها من أجلهم، ولٰكنّني مقطوع من شجرة، وأنا اليوم جذعٌ يابسٌ مَرميّ على الطّرقات.

كنتُ أعمل في مهنة التّمريض أيّام كانتْ زوجتي علىٰ قيد الحياة، في منتصف مايو من عام ٢٠١٩م قُصِفنا بعشرة صواريخ أو عشرين أو ثلاثين لا أدري، لا يهمّ الرّقم ما دامت النّتيجة واحدة؛ قُتِلَ كلّ مَنْ له علاقةٌ بعائلتي، زوجتي في مقدّمة الشّهداء، وإخوتي، ووالِدَاي، وعشرون آخرون من أعمامي وأولادهم وزوجاتهم.

أنا النّاجي الوحيد أو قُلْ الباقي الوحيد، فتعريف النّاجي هنا يختلفُ بحسب الوجع المُختّر أو الرّاحل، وإذًا؛ فأنا الباقي الوحيد من هٰذه العائلة في هٰذا الحيّ الّذي يحكي قِصّة البُؤس من أكثر من سبعين عامًا أوّلَ ما تأسّس. لا أريدُ أنْ أشغلكم بحياتي التّافِهة كثيرًا، ولٰكنّني قررتُ أنْ أنقل لكم - ما استطعتُ - الحرب علىٰ غزّة الّتي ابتدأتْ بعدَ السّابع من أكتوبر

من هٰذا العام، عام ٢٠٢٣م. في الحقيقة لم أكنْ أريدُ أنْ أكتبَ هٰذه الحكايات من أجل أنْ أوثّق هٰذه الفترة الّتي عايشْتُها، فأنا أزهدُ النّاسِ في ذٰلك، ومَرَدُّ زُهدِي إلىٰ أنّنا نعيشُ في غزَة كلّ يوم بل في كلّ ساعةٍ ودقيقةٍ مذبحةً أو هدمًا أو تشريدًا. فماذا سأكتبُ وماذا سأنتقي؟ وعمّن سأتحدّث؟ وهل يُمكن أنْ أحيطَ بكلّ هٰذه المآسي الكبيرة المُتجدّدة؟ أشعرُ أنّني لو انتقيتُ جرحًا وكَتبْتُه فإنّني بهٰذا أخونُ جرحًا ثانِيًا أو ثالِثًا في فؤادي الّذي تهتّكَ لكثرةِ ما فيه من جِراح. ولو انتقيتُ ألفَ قِصّة من قصص المأساة، تخيّلوا ألفَ قِصّة فإنّني بهٰذا أخون آلاف القصص الأخرى الّتي كانتْ أكثرَ وجعًا، ولٰكنّني لم أكنْ شاهِدَ عِيانٍ عليها!

نحنُ شعبٌ مكتوبٌ عليه أنْ يظلّ ينزف ويمشي، ولا بُدّ أنّه في نهاية هٰذا المَمشى الطّويل سوفَ ينتهي الدّم الّذي فيه ويسقط، غير أنّ الخيطَ الّذي امتدّ على التّراب من هٰذا الدّم النّازف يُنبِتُ كلّ يوم شهيدًا أو مُقاتِلاً أو ناقِمًا أو حاقِدًا. المشكلة أنّا جميعًا ننزف في غزّة، وأنّنا جميعًا نُنجِبُ هٰؤلاء المُقاوِمين الّذين سينزفون في القريب العاجل من جديد، ولا أدري متىٰ يتوقّف كلّ هٰذا... أعودُ لأذكر لكم لماذا أكتبُ هٰذه الحكايات.

السّبب بسيطٌ وموجعٌ في الوقتِ نفسِه؛ حينَ قصفت الطّائرات الإسرائيليّة حيّنا في عام ٢٠١٩م كما حدّثتُكم، كنتُ رئيسًا لقسم التّمريض في مستشفى الشّفاء، وقد مضىٰ علىٰ عملي في هٰذه المهنة ما يقربُ من ربع قرنٍ قضيتُها في معظم مستشفيات غزّة القديمة والحديثة. جاءني خبرُ القصف للحيّ، فعرفتُ أنّ بيتَنا لأنّه في القلب سيكون قد دُمِّر بالكامل. لأكنْ صادِقًا، أوّل ما خطَر علىٰ بالي زوجتي، إنّها أثمنُ ما يُمكن أنْ أفقده، ثُمّ قِطّتنا الذّكيّة. هٰكذا كانتْ تجري حياتي. ليسَ مُهِمًّا

أنْ أقول لكم إنّ البيت الّذي سُوِّيَ بالأرض لم يخرجْ منه أحدٌ.

هُرِعْنا أنا وعددٌ من سيّارات الإسعاف ومجموعة من الأطبّاء والمُمرّضين إلى المكان. لم أشاهدْ عمارتنا السّكنيّة في مكانها. كانتْ هناك بدلاً منها كومة من القُضبان الحديديّة والإسمنت والأغبرة السّوداء، وحرائق صغيرة تتراقص هنا وهناك.

نزلتُ كأنّني أنزلُ على شاطِئٍ نظيف مُهيّأٍ للاستِجمام، كانتْ عيناي ساهِمَتين، لا أشعر بشيء، سِرْتُ وسطَ الرُّكام بشكلٍ هادِئ، أو قُلْ إنّه يبدو كذلك، لم أبكِ، ولم أرتجفْ، ولم أصرخْ، فقط كنتُ أسمعُ ضجيجًا عاليًا في أذنَيّ. ثُمّ بدأ المُسعِفون بإخراج الجُثث، هذه جُثّة أخي ناصر، وهذه جُثّة أختي منال، وهاتان جُثّتا ابنتَيها، وهذه الجُثث الثّلاث تعود لبدر وسعاد ولين أولاد أخي الأكبر سليم، وهذه... كنتُ أراقبُ الجُثث وأعدُّها بشكلٍ رتيب، كأنّني أسخر من الواقع الّذي أراه، أو كأنّني أركلُه بقدمي قائلاً له: «فلتذهبْ إلى الجحيم أيّها الواقع المريض». وتتابَع سَيْرُ الجثث الّتي تخرج، كانتْ زوجتي هي الجثّة العاشرة... مُسّجاة على النّقالة، يحملها اثنان يتهادَيان بها، تتموّج وسطَ الرُّكام، كنتُ لا أزال وسطَ لا مبالاتي، حينَ صارتْ بمحاذاتي، فتحتُ عينَيّ أكثرَ لأتأكّد أنّها هي، تأكّدتُ من أصابعها، وفجأةً سقطت.

صحوتُ بعدَ ستّ ساعاتٍ في المُستشفى. «أينَ رجاء؟!» هتفتُ كالملدوغ. هدّأ من روعي زميلي في المهنة (بسّام مكّي)، وقال كأنّه يسوق لي خبرًا عاديًّا: «البقيّة بحياتك». «رجاء لم تمتْ»، صرخت. ظلّ مُمسِكًا بيدي يُحاول تهدئتي. لم أصدّق أنّ حبيبتي يُمكن أنْ تموت، لا أدري كيفَ صدّقتُ أنّ عائلتنا عائلة أبو العوف قد أُبيدتْ بكاملها،

وأنّ واحدةً من هٰذه العائلة ستنجو وأنّها لا يُمكن أنْ تموت؟ لماذا؟ أهي امرأةٌ خالِدة أو مُخلّدة؟ لِمَ لا أصدّق حتّىٰ ساعة كتابة هٰذه الحكايات أنّها ماتت؟ لا أدري. ربّما لأنّها كانتْ تُمثّل بالنّسبة لي عالَمي كلّه، والعالَم لا يُمكن أنْ يموت فجأة ومرّة واحدة، لا بُدّ أنْ يموت علىٰ مراحل، أمّا أنْ ينتهي بهٰذه السّرعة الخاطِفة، فهو أمرٌ فوقَ التّصديق، أرأيتَ لو كانَ هُناكَ حريقٌ سطا علىٰ غابةٍ كثيفةٍ من الأشجار، إنّ نيرانها ستلتهم الشّجرة الأولىٰ ثُمّ الثّانية، وقد يصل إلى العاشرة أو أكثر أو أقلّ قبل أنْ يتمكّن عُمّال الإطفاء من السّيطرة على الحريق ومنع امتداده، أمّا أنّ تسقطَ آلاف الأشجار في الغابة مع أوّل شرارة فمن الّذي يُمكن أنْ يُصدّق ذٰلك؟!

لقد كانت بالنّسبة لي أكثر من ذٰلك، كانتِ الذّكريات الجميلة، اليد الحانية، الصّوت الملائكيّ، البسمة المُشرِقة، الرّضا بالقليل، وانتظار المولود الّذي لم يأتِ، والأيّام الحلوة والمرّة، والسّهر والتّعب، والجَمال والجَلال، وأيّام العُطل على الشّاطِئ، وأيّام الرّكض في ساحات الحياة الغامضة، لقد كانتْ لي ذٰلك كُلّه وأكثر، فهل يُمكنُ أنْ تُصدّقوا أنّ هٰذه العوالم جميعها تنهار دُفعةً واحدة؟!

قفزتُ من فوق السّرير ورحتُ أجري وأنادِي: «رَجاء... رَجاء...» وحينَ ضمّني من الخلف (بَسّام)، همسَ في أذني: «احتسبْها عند الله». «أريدُ أنْ أراها». «عليكَ أنْ تكون قويًّا». «أريدُ أنْ أراها». «لله ما أعطىٰ ولله ما أخذ». «أريدُ أنْ أراها» وصرختُ هٰذه المرّة صرخةً جعلتْه يشعر بالخوف. أرسلَ زفرةً طويلة، ونظر حولَه واقتربَ منّي وهمس: «إنّها في ثلاّجات الموتىٰ». «أريدُ أنْ أراها يا بَسّام» قلتُ بإصرار أشدّ. تلفّتَ حولَه مرّةً ثانية. «سآخذكَ إليها في المناوبة اللّيلة». «أريدُ أنْ أراها الآن». ولم

يتحمّل أكثرَ من ذلك، ولم يجدْ بُدًّا من أنْ يرضَخَ لي، مضىٰ بي إلىٰ هناك، بعدَ أن استرقَ مفتاح غرفة الثّلاجات، أشار إلى الرّقم (١٣): «إنّها هنا». أغلقَ الباب عَلَيّ وتركني وحدي مع هٰذا العدد من الشّهداء، لم يكونوا جُثثًا كانوا غيومًا مُسافرة في سماءٍ لا نهائيّة، وكنتُ طيرًا مقصوص الجناحين أتسمّر في مكاني أحاول أنْ أحرّك قَدَمَيّ الجامدتَين. بعدَ محاولاتٍ فاشلة تمكَّنْتُ من نقل خطواتي من وسط غرفة الثّلاجات إلىٰ حيثُ ترقدُ الطّاهرة الشّهيدة.

اقتربتُ بتوجّس، وقبل أنْ أفتحَ بابَ الثّلاجة ذات الرّقم (١٣)، شعرتُ بالبرد، ورحتُ أرتجف، وراحتْ ساقاي ترتجفان تبعًا لذلك، وسالَ علىٰ خَدَّيَّ دمعٌ غزيرٌ كأنّما فُتِحَتْ له مجارٍ واسعة، تمالكتُ نفسي قليلاً، سحبتُ الدُّرج ببطء، ومن هناك فاحتِ الرّائحة الّتي أعرفُها، إنّها رائحتها الّتي امتزجتْ بخلاياي طَوال عقدَين من حياتي معها. فجأةً تتمدّد هٰذه الحبيبة بكلّ هٰذا الهدوء في هٰذا الثّلاّجة الباردة، نزعتُ القميصَ الّذي ألبسه، ولففتُه عليها: «لا بُدّ أنّكَ تشعرين بالبرد يا حبيبتي». هل يشعر الموتىٰ بالبرد؟ كانتْ مُبتسمة. هل يبتسم الموتىٰ؟ ربّما خُيّل إليّ ذلك، لكنّني رأيتُها تبتسمُ على الحقيقة، ورأيتُ شفتَيها تتحرّكان، ولا أدري إنْ هُما هَمَسَتا أو أنّني سمعتُ ذلك منها حَقًّا: «لا تترك حياتَكَ تذهبُ سُدًى». وسألتُها وأنا أضعُ خَدّي علىٰ خَدّها وأبكي بصمت: «وماذا أفعل بدونك؟!». «اكتبْ ما رأيت». ماذا أكتبُ والجراحُ كثيرةٌ والموتُ يرقصُ في الضّلوع وينتشي... ونمت وهي لا تزال تهمسُ في أُذنَيّ بكلماتٍ من حريرٍ حزين، نمت أو أُغمي عَلَيّ، أو أنّني ذهبتُ إلىٰ عالَمٍ آخر، لقد رأيتُ حياتنا الجميلة السّابقةَ كلّها في ذلك الحُلم. ولم يُوقِظني منه إلاّ (بَسّام)

في صبيحة اليوم التّالي، كي يأخذوا الجثث كلّها إلى المقبرة لِتُدفَن.

رجعتُ في ذٰلك المساء الجنائزيّ إلىٰ بيتنا المُهَدَّم، بقيتُ أسبوعًا وأنا في الرّكام أبحثُ عن بقايا من بقاياها، شالِها، ربطةِ شَعرها، وِسادتِها، صوتِها... وأكثرُ ما بحثتُ عنه عيناها.

لم أخرجْ من الرّكام يومًا واحِدًا. عَرضَتْ عَليّ بعضُ المنظّمات الخيريّة أنْ تبني البيت. قلتُ لهم: «أزيلوا فقط الرّكام. وضعوا بابًا من دون نافذة على الغرفة الّتي كانتْ تبيت فيها زوجتي». فعلوا. وانقطعتُ أنا عن العالَم. لزمتُ غرفتها أربع سنوات، علىٰ جدار الذّكريات أُسند رأسي، وعلىٰ سرير الأمنيات أُريح جسدي، تقاعدتُ بعدَ أسبوع من الحادثة، وأغلقتُ غرفتي علىٰ نفسي طيلة هٰذه السّنوات. واليوم؟! أنا أكتبُ هٰذه الحكايات من أجل عينَيها، ولهما فقط، لأنّهما في تلك الثّلاجة المقرورة في ذٰلك اليوم البيئس قالتَا لي: «اكتبْ يا فرج... اكتبْ... الكتابة عملٌ ثوريٌّ كذٰلك».



(١) الطُّوفان

إنّها فَراشةٌ مُكبَّرةٌ ألفَ مرّة أو أكثر بطريقة الذّكاء الاصطناعيّ. ليس هٰذا حقيقة. وهم. خيال. خُدعة بصريّة. مَنْ يُصدّق أنّ هٰذا سيكون أبلج الحقائق المُمكنة في عالَم الزّيف المُستقرّ في كنف هٰذا الكوكب التّائه؟! الحقيقة الأنصع في هٰذه الحياة المليئة بالأكاذيب والتّرّهات والخمول والسّكون والبلادة والصّمت؟!

الرّكون إلىٰ عدم التّصديق في مثل هٰذه المواقف أسهل بكثيرٍ من التّصديق. التّكذيب راحة؛ راحةٌ للضّمير، راحةٌ للعين، والأهمّ راحةٌ للعقل الّذي لو راحَ يُفكّر قليلاً أنّ هٰذا يُمكن أنْ يحدث فسيُصاب بالدُّوار، ولو فَكّر أكثر فسينفجر. وأنا؟ لا أريدُ لعقلي أنْ ينفجر، أريدُ أنْ أرتاح. لقد تقاعَدْتُ من مهنة التّمريض من أجل أنْ أرتاح، صحيحٌ أنّني في أواخر الأربعينيّات من عمري، ولٰكنّني شاهدتُ في غُرَف العمليّات وفي المستشفيات ما يجعل الوِلدان شِيْبًا، ولذا قرّرتُ أنْ آخذَ استراحةً من رؤية الدّم، وأنام ما تبقّىٰ لي من العُمر في بيتي، لا أخرجُ منه ألبتّة! الرّاحة من اللّون الأحمر الّذي صار يُسبّب لي ضيقًا في الصّدر وحُزنًا واستفزازًا كلّما رأيتُه من جديد، من أجل هٰذا أنا هنا؛ أُغلق علىٰ نفسي باب بيتي، وأنقطعُ عن النّاس، ولا أريدُ أنْ أرىٰ أحدًا!

زوجتي - الّتي لم تُنجِب ماتتْ في قصف بيوتنا - كما قلتُ لكم - عام ٢٠١٩م في عمارة آل أبو العوف، أرسلَ الجيش الإسرائيليّ بصواريخ الموت حوالي ثلاثين من عائلتي إلى الآخرة، هكذا فجأة، في غَمضة عينٍ، في غفلة من هذا العالَم المجنون المريض القاتل، صاروا على الضّفّة الأخرى. من يومِها وأنا أقول في كلّ يوم: أريدُ أنْ أرتاح، أريدُ أنْ أتركَ هذه الذّكرى الأليمة ورائي، وأنظر إلى ما تبقّى من حياتي لأعيشه وحدي بوتيرةٍ أقلّ ألمًا وصخبًا من حياتي السّابقة، ولكنّني هربتُ من الذّكرى إلى الذّكرى، كان صوتُ زوجتي يُناديني في ليالي البرد وأنا وحيدٌ في غرفتي، فيدخل إلى حَزّ العظم، وإلى مجرى التّنفس، اختناقٌ فظيعٌ وآلامٌ أفظع. وإذًا؛ كيفَ يُمكن للإنسان العاشق أنْ ينسى؟!

وَلْنَعُدْ إلى الفراشة الّتي رأيتُها صباح اليوم، مُلَثَّم، يرتدي البِزّة العسكريّة، مَشدود الجِسم، أمسكَ سربًا من النّمل، لا أدري، ربّما هي شبَكَة صغيرة مَطويّة بحجم قبضة اليد أو هي أصغر، وأطلقَها بهدوء وثِقة كأنّه يلعبُ مع ابنٍ له، انطلقتِ الشَّبَكَةُ من يدِه، كان ضوء الفجر يصعدُ في الأفق البعيد، لم يكنِ اللّيل قد لملم سِربالَه كامِلاً، بدا هذا المُلَثَّمُ شَبَحًا، ولكنّه - مع انشِقاق أولى خيوط الضّوء الّتي التقتْ به فشَكّلتْه على هيئة ظِلٍّ غامضٍ أكثر منه رجلاً حقيقيًّا، وأحاطتْه بالسّوادِ الجُزئيّ - بدا شَبَحًا أليفًا. كبرتْ قبضةُ الخيوطِ الّتي أطلقَها، تشكّلتْ شبَكَةٌ من الخيوط الّتي راح مجالُها يتّسع. على الطّرف الآخر كان هناك اثنان يُراقِبان المشهدَ كأنّهم رأوه عشرات المرّات قبل هذا، مشهدٌ غريبٌ سورياليّ لا يفهمه إلاّ من اعتادَ رؤيته، كان هذان يقفان يُمسك كلّ واحدٍ منهما بيُمناه جهازًا لا سلكيّا فيما يبدو، ويعقد يُسراه على جذعه كأنّه

في حالة نُزهة. كبرتِ الشّبَكَة، أخيرًا انكشفَ شيءٌ من الغُموض الذي أحاطَ بها أوّل الأمر، إنّها خُيُوطٌ لطائرةٍ شراعيّة، ليستْ طائرة؛ مَنْ قال ذلك؟ إنّها مِظلّة مصنوعةٌ من قماشٍ محلّي، رُبّما أُخِذتْ رُقَعُه من قِماشٍ قديمٍ لم يعدْ يسترُ أجسادَنا العارية. كانتْ تُشبه في انحناءَتها موزةً عِملاقة. رَبطَ أحدُهم خُيوطَها المتّصلة بها إلىٰ بِزّته العسكريّة، وركبَ درّاجةً لا يُمكن أنْ تراها إلاّ في هٰذه الشّواطِئ، الشّواطِئ القادرة علىٰ صُنع المُستحيل، والمُبهِر، والمُعجِز في آنٍ واحدٍ، شواطئ غزّة الّتي تلدُ - مثلَ اللّيالي - كلّ عجيبة. جاءَ أحد المُلثّمين - كأنّه يريدُ أنْ يُعانقَ غائِبًا أو يُصافِحَ صديقًا - إلى الفراشة المركّبة علىٰ ظهر هٰذه الدّراجة، نسيتُ أنْ أقولَ لكم إنّ هٰذه الدّرّاجة ذات دَفْع ثلاثيّ، عجلاتُها الثّلاث تُشبه عجلات عربةِ نقل الباطون، وهي بلا جِسْمٍ واضح، مجموعة من قُضبان الحديد المتفاوتة في الحجم، ومقعد وثير للطّيّار الّذي سيقودها يتألّف من خشبةٍ بلا إسفنجة... أينَ كنتُ؟ كنتُ أقولُ جاء أحدهم إلىٰ صديقٍ غائبٍ، فأرادَ أنْ يُصافَحه، فَمَدَّ ذراعَه القويّة، وحرّكَ الفراشة الّتي تلتصق بظهر الدّرّاجة، لا أدري كيفَ راحتْ هٰذه الفراشة تدور بسرعة، كأنّها تلقّتْ تيّارًا كهربائيًّا صاعِقًا من ذراعٍ قويّةٍ حتّىٰ راحتْ تدور بهٰذه السّرعة المُذهلة، أو كأنّما كانتْ تنتظر لمسةً حانيةً وقبلةً حارّة تطبعها أصابع ذلك المُلثّم الّذي تعرفُه ويعرفها من أجل أنْ تدور حول مركزها كما يدور الصّوفيّ المَجذوب.

دارتِ الفراشة الّتي في الخلف هٰذه الدّورات السّريعة، وتقدّمَ اثنان من المُلثَّمين يجرّان العربة من الأمام، وفيما كان هٰذان الاثنان يدفعان العَرَبة بهٰذه الطّريقة الغريبة، كانتِ المِظلّة ترتفع في السّماء بتلك الخُيوط

الّتي أُطلقتْ من ذلك السّاحر المُلثَّم أوّل الأمر. دَرَجَتِ الطّائرةُ العَرَبةُ على الرّمال بِضعةَ أمتار، ثُمّ رَفَعتْها المِظلّة الّتي تُشبه الموزة، تأرجحتِ العربة يمنةً ويسرةً قليلاً قبل أنْ تستوي في الأفق الصّاعد، يا إلهي إنّها تُشبه الطّائرة الحقيقيّة، إنّها تتأرجح في صعودها كتأرجحها، هل صرنا في غَزّة المُحاصرة قادرين على صناعة الطّائرات ببضعة شيكلات؟!

لم تكن هذه الطّائرة الغريبة المُهَجّنة وحدها، كان في السّاحة الرّمليّة عددٌ منها، وكلّ طائرةٍ تُسابِقُ الأخرى لتُؤكِّدَ نجاح عمليّة الإقلاع. أهكذا يكونُ أثرُ الفراشة؟ «من هنا، الكاميرا من هنا». كان هذا الطّيّار يُوجّه الكاميرا أم يوجّه الطّائرة الغريبة؟! لا أدري، أعتقدُ أنّه لم يكنْ يهتمّ بالتّصوير بقدر ما كان مُهتمًّا بالهدف، وإنْ كان التّصوير مُهِمًّا من أجل أنْ يرى العالَم جزءًا من هذا المشهد السّوريالي الّذي أنتَجْته عقليّةٌ عبقريّة.

يا إلهي، هذا المشهد لأوّل مرّة يُمكن أنْ يُرى في سَماء غزّة، عشرُ طائِرات على الأقلّ بعجلاتٍ عربات الباطون، بمِظلاتٍ موزيّة، براكبٍ واحدٍ، بقناعٍ أسودَ وعصبةٍ خضراء، بأذرع مفتولة تُمسِك بخيوطِ اللّعبة، تطير في هذا الكرنفال الأقرب إلى احتفال دولة أوروبيّة بسباق المناطيد... كان الجِدار العازِلُ الضّخم العالي قد بدا من هذا العُلُوّ كما لو كانَ ألواحًا من الخُشُب المُسنّدة غير قادرةٍ أنْ تقفَ في وجه هذه الطّائرات، ثُمّ... ثُمّ هبَطوا.

هبطوا في كلّ مكان، في (الكِيبُوتْسات) الّتي كانتْ تضمّ أمثالَ مؤسّسي الكِيان الأُوَل، بن غوريون وجولدا مائير وإسحاق رابين وغيرهم... دخَلَ عددٌ منهم مبنًى يبدو أنّه سجن، أطلقوا العيارات النّاريّة وفتحوا الأبواب والزّنازين، واندفق من هناك موجٌ بشريٌّ غاضب، وفيما

كانتْ جرّافةٌ غريبةٌ تُزيل الأسلاكَ الشّائكة، كانَ عددٌ من المُلثّمين يركبون درّاجاتٍ ناريّة لا أدري من أينَ جاؤوا بها يتجوّلون في شوارع المُدُن النّظيفة، ويُخرِجون النّساء والأطفال، يقتلون الرّجال، ويقتادون عددًا آخر منهم إلىٰ سيّارات يُدخلونهم فيها، ويرحلون.

علىٰ جانبٍ آخَر، في شارعٍ رمليّ لم يره المُلثّمون من قبل، كان بضعةُ مُسلّحين منهم يصعدون ظهر الدّبّابة ويُخرجون مَنْ فيها ويقتادونهم، جرّب أحدهم أنْ يقودَ الدّبّابة، ولٰكنْ إلىٰ أين؟! هل كان يعرفُ كيفَ تُقادُ الدّبابّة؟! بدتِ الدّبّابةُ - في هٰذا المشهد الّذي لا يُصدّق - ترقص علىٰ رِجلٍ واحدة؟! منْ رأىٰ منكم دبّابةً ترقصُ من قبل؟! هل كانتْ تلكَ رقصتَها الأخيرة قبل أنْ تُذبَح، أمّ أنّها كانتْ تشعر بالانتِشاء مثلهم؟!

من هنا، من هٰذا المشهد الّذي يرصُد حركة الشّوارع، كانت السّماء تعجّ بِمِئات الصّواريخ الّتي تذرعها مُخلّفة وراءَها هديرًا غريبًا وخُيُوطًا من الغيوم البيضاء الرّفيعة، وعلى الأرض بدا عددٌ كبيرٌ من مواطني تلك المُدُن يركضون مذعورين في الطّرقات، من لباسِهم يُمكنك أنْ تعرفَ أنّهم غرباء عن هٰذه الأرض، وأنّهم أُلصِقوا بها إلصاقًا. كانت الأرضُ تتقيّؤهم بشكلٍ مُتتابِع!



(٢) أريدُ أنْ أختفي... ولكنْ!!

بدأت العمليّة الّتي سَمَّتْها حركة المُقاومة بـ (طوفان الأقصىٰ) السّاعة السّادسة صباحًا. وخلال أقلّ من نصفِ ساعةٍ، في تسعةٍ وعشرينَ دقيقةً بالضّبط. كانت المُستوطنات القريبة من غلاف غزّة تعجّ بالفوضىٰ والقَتْلىٰ.

قُتِلَ المِئات أو الآلاف، لا أحدَ يُحصي العمليّة المجنونة الآن. أُسِرَ عددٌ كبيرٌ من الجُنود والضُّبّاط ومن الرّجال. الجدار الحصين الّذي كانتْ تختبِئ خلفه إسرائيل انهار كأنّه جِدارٌ من ورقٍ أو من طينٍ طريّ، ذاب كما يذوب الشّمع إذا تعرّض للفحةٍ من نارٍ هائلة!!

صَفّارات الإنذار الّتي تدوّي إلىٰ هٰذه اللّحظة بدتْ من غير فائِدة، فالمُقاوِمون الّذين دخلوا إلىٰ هنا أخذوا كلّ ما يريدون من الأسرىٰ والمعلومات وعادُوا. أجهزة الإنذار، والرّادارات الّتي تلتقطُ دبيب النّملة لم ترصدْ شيئًا حتّى الآن. كيفَ دَخَل هٰؤلاء المُلثّمون وكيفَ خرجوا؟! لا أحد يدري. من أينَ نَبَتُوا؟! كيفَ تسلّلوا؟ هل حفروا أنفاقًا تحتَ هٰذه المُستوطنات وخرجوا منه؟! لا أحدَ يدري. أهم جِنٌّ أم بشر؟! لا أحدَ يدري. هم أقربُ إلى الأشباح. مَنْ يستطيعُ أنْ يقتل شبحًا فضلاً عن أنْ يُصوّب نحوه أو يراه؟! كيفَ للرادار الّذي له ألفُ عينٍ أنْ يكونَ أعمىٰ؟! وكيفَ تُصبحُ آذانه المُوجّهة إلى الجهات السّتّ صَمّاء لم تسمعْ شيئًا؟! لا أحدَ يدري.

كان يبدو أنّنا سنذهبُ إلىٰ حربٍ جديدةٍ مُختلفةٍ هٰذه المرّة، الحروب السّتّة السّابِقة ستبدو نُزهةً أمام هٰذه الحرب القادمة. إنّها حربٌ طاحنةٌ ضَروس ستبتلع كلّ شيءٍ في طريقها. ولٰكنْ لماذا أكترث؟! لتنطبق السّماء على الأرض، وليبدأ الجحيم، أكنتُ في معزلٍ عنه فيما مضىٰ؟! إنّني منذُ رحلتْ (رجاء) لا زلتُ أعيشُه إلى اليوم!

كانتِ السّاعة الثّامنة صباحًا حينَ رأيتُ علىٰ شاشة التّلفاز هٰذه المناظر الّتي لا تُشبه شيئًا، ولا يُمكن أنْ تُعطيها وصفًا. شعرتُ ببرودةٍ في قَدَمَيّ، سحبتُ عليهما الغِطاء، ونمت، كأنّني شاهدتُ فيلمًا سينمائيًا، نمتُ وأنا أغرقُ في حيرتي. هل أنا أهربُ بالنّوم مِمّا سيأتي؟!

صحوتُ من جديدٍ في الحادية عشرة سمعتُ بيان (محمّد الضّيف) الّذي يُعلن فيه بدء عمليّةٍ عسكريّة، سمّاها (طوفان الأقصىٰ). قال إنّ الضربة الأولى استهدفتْ مواقع العدو ومطاراته ومواقعه العسكرية وتجاوزت الـ (٥٠٠٠) صاروخ. الصّواريخ يصنعونها من الرّمال في غَزّة، هل لديه مثلاً مليون صاروخ حتّىٰ يبعثَ في الرّشقة الأولىٰ هٰذا العدد؟ من أينَ يأتون بكلّ هٰذا؟! هل مساحة القِطاع قابلةٌ لأنْ ينطلقَ منها كلّ هٰذا الهَول؟! لو وُزِّعتْ هٰذه الصّواريخ علىٰ أرضِ غَزّة فإنّها ستُغطّي كلّ شبرٍ فيها، بل كلّ حبّة رمل!

ظلّ صوتُه حاضِرًا في أُذني وأنا أحاول النّوم من جديد: «من أجل تدنيس قُطعان الصّهاينة لمسرى الرّسول الكريم». وإذًا فهو ثأرٌ لهٰذا المسرى المُدنّس، للمسجد الأقصى الّذي هو آيةٌ في كتاب الله.

ليسَ له من رَسْمِهِ شيءٌ، يبدو قِصّةً مَرويّةً علىٰ لسانِ أجيالٍ قديمةٍ بدأتْ مع النّيران الّتي يجتمع حولَها الفَلاّحون للسّمر بعدَ يومِ حصادٍ طويلٍ

من أجل أنْ يقصُّوها عن النّضال، عن مواجهة الذّئاب، عن قِتال الوحوش الّتي تتربّص بهم، عن مقاومة أسباب الموت الّتي تنهضُ في وجوههم، عن التّعب من أجل الحياة، عن المسير من أجل الغاية، ثُمّ استمرّتْ تلك الحكايات جيلاً بعدَ جيل، كلُّ جيلٍ يحكي قِصّة كِفاحِه الخاصّة بهِ إلىٰ الجيل اللاّحق، وهٰكذا...

ثُمّ عَنّ ببالِ أحدِ هٰذه الأجيال أنْ يجعل لكلّ هٰذه الحكايات بطَلاً، فراحَ في البداية يأخذُ هٰذه القِصص ويجمعها ثُمّ يجعلُ هٰذا البطلَ راوِيَها، إنّ راوِيًا واحِدًا سيجعل هٰذه القصصَ حقيقيّةً أكثر، واضحة، سَهْلة الانتقال إلى الأجيال القادمة، مُركَّزة، ومُلهِمة، ومُثيرة في الوقت نفسه... هٰكذا تحوّلت الحكايات إلىٰ أساطير في الكِفاح، وهٰكذا تحوّل البطل إلىٰ أسطورةٍ ورمز.

ثُمّ نُسِيَ البطل الأوّل بعدَ تتابُعِ الأجيال، نُسِيَ اسمُه، وفُقِدَ رَسْمُه، ولم يبقَ منه إلاّ حكاياتُه، هي حكايات النّضال الّتي تتشابَه وإنِ اختلفتْ، وتتقابل وإنْ افترقت، وتلتقي وإنِ ابتعدتْ، الصّورة تتغيّر والمعنىٰ واحد، البطل ينسربُ في كلّ حكايةٍ مع كلّ جيل، ووجهه هو هو... ثُمّ عَنّ ببالِهم أنْ يُطلِقوا علىٰ هٰذا البطل الّذي تجتمع فيه هٰذه الصّفات كلّها اسمًا، فخافوا أنْ يحدثَ معه ما حدَثَ مع الأبطال السّابقين، إذ ما قيمةُ الاسمِ أمام الفعل الحقيقيّ، وما نَفْعُ اللّقب إذا كان يُغني عنه الأداء، فتواطأَتِ الأجيال بعدَ ذٰلك علىٰ أنْ يرووا هٰذه البُطولات دون أنْ ينسبوها إلى اسمٍ صريح، وإنْ كان ظِلُّ هٰذا البطل ما زال مُختبِئًا داخل هٰذه الحكايات يُطلّ برأسه مهما تقادَمَ الزّمن.

ثُمّ قال أحدُهم لا بُدّ من أنْ نُشيرَ إليه؛ بُطولةٌ دون بطلٍ كيفَ تكون؟

فاقترحَ أَمْثلُهم أنّ يُسمّوه الرّجل الصّفر، أو رجل الظّلّ، أو الرّجل الأوحد، أو الرّجل الذّئب، أو البطل، وهٰذه تكفي...

من يومِها أُطفِئت النّار، ولم يعدِ الفلاّحون يجلسون حولَها يروون حكاياتهم، ولم تعدِ الأجيال تتناقل القصص القديمة، والبطولات الغابرة، صار لكلّ جيلٍ في أيّامنا هٰذه بَطَلُه، وصارتْ له حكايتُه، ومع أنّ النّار أُطفِئت، ولم يعدِ الفلاّحون من حقولهم، إلاّ أنّ الذّئاب لم تنقرض، ولم تتناقص، بل تزايدت، وصارتْ تدخل بين الإنسان وجِلده، وصارَ لا بُدّ من استِنْهاض الرّجل الصّفر من جديد، من أجل مرحلةٍ جديدةٍ أخرىٰ من النّضال للوقوف في وجه هٰذه الذّئاب المُتوالِدة.

أعرفُ (محمّد الضّيف) منذُ أكثر من ثلاثين عامًا. لا أريدُ أنْ أقول كم عمليّةِ اغتيال تعرّض لها. هٰذا أمرٌ طبيعيّ، تعرّض لمثلها مُقاوِمون آخرون، لٰكنّني أتحدّث عن الرّجل الصّفر، عن الرّجل الظّلّ. لا أحدَ يعرفُ شكله، ولا لونَ عينَيه، ولا موجةَ صوته، حتّىٰ صوتُه في المرّات القليلة الّتي تكلّم فيها، كانَ صوتًا ينتمي إلىٰ أسراره الّتي لا تنتهي أكثرَ مِمّا ينتمي إليه.

أعرفُه في أواسط التّسعينيّات. كان قد تحوّل منذُ تلك الأيّام إلىٰ صندوق أسود، جرّة مملوءة بالأسرار والحكايا لم يُفتَح بابُها إلاّ بمقدار ما يسمح لنسمة هواءٍ أنْ تمرّ، كأنّ كلّ هٰذا الّذي فعله ليسَ إلاّ تلك النّسمة، وأعرفُ أنّ باب الجرّة لو فُتحَ نِصفُه فإنّه سيتحوّل إلىٰ إعصارٍ يقتلعُ كلّ شيءٍ في طريقه ويدمّره.

الرّجل الّذي ظلّ سِرًّا حتّىٰ عن نفسه، لم يكنْ يملك هاتِفًا نَقّالاً،

وإذا اضطرّ أنْ يتحدّث عَبره، فإنّه لا يتحدّث أكثر من ثلاثين ثانية، نصف دقيقة كافية ليقول ما يريد، ثُمّ يتخلّص من الهاتف بِسَحقه، لم يتحدّث في هاتفٍ واحدٍ مرّتين، ولم يكنْ ينظر من نافذة، إنّ وجهه مُحرّمٌ حتّىٰ علىٰ إطار النّافذة، النّافذة الّتي قد تكون خائِنة في بعضِ اللّحظات الغادرة فيستلّل إليه العدوّ من خلالها، وتكون الضّربة اليتيمة الّتي تتسبّب في إنهاء حياته.

كيفَ هو شكله؟ كيفَ يمشي؟ كيفَ يأكل؟ كيفَ ينام؟ كيفَ يضحك؟! هل يضحك بالفعل مثل بقيّة النّاس؟! كيفَ يربطُ ألفَ خيطٍ صعبٍ في طرف إصبعه؟ لا يملكُ أحدٌ جوابًا، ولا حتّىٰ أقرب النّاس إليه، أو الدّائرة الضّيّقة المُحيطة به. الأصح أنّ نقول إنّه لا يوجَد أحدٌ قريبٌ منه، إنّه ليسَ قريبًا حتّىٰ من نفسه، مُنغلقٌ عليها كأنّه صخرةٌ صَلدة عصّية أنْ تُمسّ فضلاً عن أنْ تُفتَح أو تُكسَر. ومن هو إذًا؟ سِرّ من أسرار الله. ومَنْ يستطيع أنْ يصعدَ إلىٰ ذٰلك السّر أو يغوصَ فيه ليرىٰ طرفَ خيطٍ من شخصيّته؟ لا أحد. نفحةٌ علويّة تُحَسُّ ولا تُرىٰ. تلمسُ أثرها على الأرض دون أنْ تقبضَ كَفٌّ علىٰ أثرها الهارب. كيف لبشريّ من لحمٍ ودم ومشاعر وأحاسيس أنْ يختفي عن الأنظار ثلاثين عامًا؟! كأنّه اسمٌ دون جسد، حُفِر ذٰلك الاسمُ علىٰ صخرة المناضلين النّادرين دون أنْ يكونَ له وجود. أعني وجودًا فيزيائيّا كوجود أيّ بشريٍّ آخَر. كيفَ يُمكن لروحٍ سجينةٍ من الأساس داخل جسدها الفاني أنْ تجلسَ في بقعةٍ ليستْ أكثر من مترين مُربّعين علىٰ عمق سبعين مترًا أربعين يومًا مُتواصِلة دون أنْ ترى الشّمس أو تشمّ الهواء الطّبيعيّ؟! إنّه جنون؛ جنونٌ تشكلّ علىٰ هيئة رجل، لٰكنّه رجلٌ ليسَ له نظير، ولا يُمكن أنْ تجدَ له نظيرًا

ولو استعرضتَ آلاف المُناضلين في التّاريخ بكبريائهم وقوّتهم وشِدّة بأسهم وغُموضهم... أنتَ تتحدّث عن جينٍ مختلف. أتمنّىٰ أنْ يدرس العُلماءُ الجيناتِ الّتي شكّلتْ خلايا هٰذا الرجل الصّفر؛ لأنّها ستكون فتحًا عظيمًا في تاريخ تشكّل البشر المتفرّدين الّذين لا يُمكن أنْ تعثر علىٰ نظائرهم ولو أجريتَ مسحًا تاريخيًّا لألفَي عامٍ سابقة وألفَي عامٍ لاحقة!! هل يُمكن أنْ يُستنسَخ (محمّد الضّيف)؟!

مرّ اليوم كعادته، مُمِلاًّ بالنّسبة لي، كأنّه سلحفاةٌ تسير خطوتين، وتتوقّف شهرَين. أيّامي منذُ رحيل (رجاء) مُتشابهة لولا قِطّتي (جودي) الّتي كانتِ ابننا، ما الّذي سيكون في هٰذا اليوم الّذي سَمّوه (طوفان الأقصىٰ) مُختلِفًا حتّىٰ أشعر أنّ الرّتابة الّتي تقتلني وتخنقني قد تزحزحتْ صخرتُها قليلاً عن صدري؟! لا شيء. ولهٰذا شربتُ كأسَ ماءٍ أذبتُ فيها مُنوِّمًا، و... نمت.

دأبتُ منذُ سنوات الفقد علىٰ أن أخرجَ من بيتي مرّة واحدة في الشّهر، غالبًا في اليوم الـ (٢٥) منه، أذهبُ إلىٰ وسطِ حيّ الرّمال، أشمّ رائحة البحر من بعيد، وأخاف أنْ أقتربَ من الماء. أبحثُ عن أقربِ صَرّافٍ، أسحبُ راتبي التّقاعديّ أو بعضَه، وأشتري ما أحتاجُ من أغراضٍ تكفيني أنا و(جودي) مؤونة شهرٍ كاملٍ، وأعودُ للبيت، ولا أخرجُ منه إلاّ في اليوم الـ (٢٥) من الشّهر الّذي يليه.

كنتُ أضعُ في كلّ مرّة أخرج فيها طاقيّة الإخفاء علىٰ رأسي، لا أريدُ لأحدٍ أنْ يراني، ولا أريدُ أنْ أرىٰ أحدًا. هل أثّرَ فِيّ (محمّد الضّيف) حتّىٰ ركنتُ إلىٰ هٰذه العزلة الاختِياريّة من أجل أنْ أختفي؟! أنا كنتُ أريدُ أنْ أختفي تمامًا. أنْ يذوب جسدي دون أنْ يكون لي خَيار.

لماذا لم أكنْ في بيتنا حينَ قُصِف؟! كان هٰذا أكثر سؤال يُعذّبني. لماذا لم أرحلْ من هٰذا الكوكب البئيس مع (رجاء)؟! لقد فكّرتُ في إنهاء حياتي أكثر من مئة مرّة. ما الّذي يُغريني في هٰذا الوجودِ حتّىٰ أبقىٰ؟! أنا لستُ هنا ولستُ هناك، ولستُ في أيّ مكانٍ. ولا يعنيني وجودُ أيّ أحدٍ، ولا يعني أيَّ أحدٍ وجودي؛ فما قيمة البقاء علىٰ قَيْد الحياةِ إذًا؟!



(٣) الانفِجار العظيم

بُمْ... بُمْم... بُممم... ارتجّت الأرض ارتجاجَها يومَ تُخرِجُ أثقالَها! صحوتُ مذعورًا على صوت الانفِجار العظيم. ومع ذُعري كانتْ سحابةٌ من الطّمأنينة تغلّف قلبي: ماذا سيفعلون؟! أيريدون أنْ يُفجّروا بيتي؟! لديه مناعة فقد أخذَ الجرعة قبل أربع سنواتٍ، فهل يُمكن أنْ يُفجّروا المُفَجّر؟! أنْ يهدموه على رأسِي؟! لقد هَدَمُوه من قبلُ بالفِعل. غيرَ أنّ دفقةَ دمٍ حارّةً مع ذُعرٍ طبيعيّ أيقظني في السّاعة السّابعة مساءً. إنّ الأرض كلّها تميد... و... شيءٌ غيرُ طبيعيٍّ يحدث!

فتحتُ الباب الوحيد الّذي أغلقتُه على غرفتي فانهارتْ كومةٌ من الحجارة في وجهي، تراجعتُ سريعًا أمام الكومة الّتي لو لم أفعل لغطّتْ قَدَمَيّ. لعنتُ الصّهاينة الّذين أفسدوا عَلَيّ هدأتي، ورحتُ أزيل الحجارة عن المدخل، المدخل الّذي غُطِّيَ نِصفُه بها، وزحفتُ في النّصف المُتبقّي من الأعلى، ولم يكنْ يكفي لمروري فوقَه واقِفًا، وخرجتُ من الباب زحفًا، أرسلتُ نظرةً كاشِفةً على المكان، فرأيتُ الدّمار الواسِع الّذي لَحِقَ بكلّ شيءٍ، أطلقتُ صيحةً حادّة: «أيّها الملاعين ماذا في بيتي حتّى تُدمّروه من جديد؟!». خرجتُ إلى الشّارع، بيوت جيراننا مُدمّرةٌ هي الأخرى، الحُفر تُغطّي الممرّات، ولا شيءَ في مكانه. سمعتُ أصواتًا تصيح في البيوت القريبة، والنّاس تخرجُ من تحت الرّكام مثل النّمل المذعور، ووجوه مُغطّاة بالدّم والغُبار، ونساء تركض في كلّ اتّجاه.

بقيتُ مُتسمّرًا مكاني كأنّني لا أشاهدُ شيئًا. لم يتحرّك مع نداءات الاستغاثةِ فِيّ شيءٌ، غيرَ أنّني استطعتُ من بين هٰذه الأصوات المذعورة المُتداخلة أنْ أميّز صوتَها الهادِئ الحَنون، كانَ صوتَ رجاء، لم أتبيّنْ ما تقول، ولا ما تريد، غيرَ أنّني شعرتُ أنّها تدفعني إلى الخروج... بيدَ أنّه مع الأصوات الّتي تصكّ الآذان، راحَ صوتُها يخفتُ تدريجيًّا، وانتهى بعدَ ذٰلك، فشعرتُ بحرّ الزّفير الّذي أخرجتُه من جرّاء كتمانه في صدري أثناء سماعي صوتَها. صمتُها الّذي آلتْ إليه في النّهاية جعلني أشعرُ بالرّاحة، فهممتُ أنْ أعودَ إلى الدّاخل لأنظّف الحجارة المُتراكمة أمام الباب، وأتركَ العالَم خلفي.

تحرّكتُ بالفعل باتّجاه الباب، غيرَ أنّني سمعتُ من بعيدٍ أصوات سيّارات الإسعاف وهي تُطلِقُ زَعَقَاتِها: «وي... وي... وي...» حرّكَ ذٰلك الصّوت الّذي كان أكثرَ صوتٍ أسمعه في حياتي السّابقة شيئًا من الدّم في عروقي، ونثرَ كنانة الحنين الّتي نسيتُها فوقَ ظهري... إنّه صوتٌ من الصّعب أنْ تتعامَى عنه، إنّه نِداءُ الواجب، لي تاريخٌ طويلٌ مع هٰذه السّيّارات... رأيتُها تقترب من بعيدٍ في مسارٍ مُتعرِّجٍ وهي تتفادَى كُتَلَ الإسمنت المُتبعثر في الطّريق... رمقتُها بنظرةِ الأيّام الغابرة، شعرتُ أنّها تُحرِّكُ قَدَمَيّ نَحوها، ومع استمرار خروج النّاس الجرحى وأولئك الّذين يصيحون وهم يضربون على صدورهم من الخوف والألم وما شاهدوه، تحرّك الدَّمُ فِيّ أكثر... رأيتُ المُسعِفين ينزلون من السّيارات، كانتْ قد قَدِمَتْ إلى هنا أربعُ سيّاراتٍ منها... فتحوا الأبواب، وقفزوا منها قبل أنْ تُتِمّ السّيّارات وقوفَها... وأنزلوا معهم المِحَفّات، وراحوا يركضون باتّجاه الجرحى

والقتلىٰ... أطلقتُ تنهيدةً تحوّلتْ وهي تخرجُ من أعماقي إلىٰ صوتٍ أشبَهَ بِعُواء ذِئبٍ جريح... ونفضتُ يَدَيّ، وأعطيتُهم ظهري، وأنا أهمسُ لنفسي: «سيقومون بالواجب، ليسوا بحاجةٍ إليّ».

دخلتُ إلىٰ غرفتي، لم أزلِ الصّخور والرّكام كلّها من أمام الباب، ولم أحاول أنْ أغلقه بالكامل عَلَيّ، كانَ اللّيل قد هبطَ، أخذتُ حبّة مُنوِّم، ومدَّدتُ جسدي الّذي لم يرَ الشّمسَ كثيرًا إلىٰ جانب (جودي)، وغرقتُ في النّوم.

جاءتْني في النّوم علىٰ هيئة مَلاك. هي تعرفُ أنّني أضعفُ كثيرًا أمامَها. ابتسمتُ في الحُلُم وشعرتُ بخطّ باردٍ من الدّموع يسيل علىٰ وجنَتَيّ. لماذا أبكي وأبتسم؟ مسحتْ بكفّها الحانية علىٰ شَعري، همستْ: «مَتىٰ تخرجُ من عزلتك، لم تكنْ أيّامَ كُنتُ معك تفعل هٰذا؟ أتريدُ أنْ ترىٰ هٰذه الدّماءَ كُلَّها تسيل، وتهربُ منها بالنّوم. لم أعهدْكَ جبانًا تهربُ من مسؤوليّاتك...». خنقتْني العَبرة. حِرتُ بِمَ أردّ، توقّفتِ الكلمات في فمي كأنّها حجارةٌ تملؤه فلا يستطيع أنْ ينطقَ حرفًا. شعرتُ بالعجز، أردتُ أنْ أقول: «لماذا رَحلتِ وتركْتِنِي وحيدًا؟!». فرأيتُها تهمسُ قبل أنْ أفوه بذٰلك: «أنا معك. لٰكنْ عليكَ أنْ تكونَ معهم». «لا أستطيع. أنا إنسانٌ تافه. عاجز. أقعي في بيتي منذُ رحيلك ككلبٍ عجوز». «أنتَ نجمُ دُنياي وآخرتي. أنتَ بطلي في الدُّنيا، وأريدُ أنْ تكون بطلي وأنا هناك بعيدٌ عنك. لا تدعِ الذّكرىٰ تقتلك». وبدأ طيفُها يغيب، مددتُ ذراعَيّ أريدُ التّشبُّثَ بها، ولٰكنّها غابتْ. شعرتُ بأنّني فقدتُها من جديد. كيفَ يتجدّد الفقد بهٰذه الصّورة الفجائعيّة، لماذا أخذْتِ قلبي معك، فلم يعد لي قلبٌ هنا؟ لماذا عَلَيّ أنْ أعيشَ هٰذا الرّحيل والموت بشكلٍ دائم؟

ليتني كنتُ حجرًا مُلقًى على الطّريق يركله كلُّ عابر... ظلّ طيفُها يغوصُ في الظّلام حتّى اختفتْ تمامًا. وكطفلٍ عنيدٍ لم يحصل على ما يريد، همستُ لنفسي وأنا في الحلم: «ما دمتِ تُمعِنين في الرّحيل، فليس لَدَيّ أيُّ دافعٍ لكي أنهضَ من نومي». أدرتُ هيئتي على جانبي الآخر، ورفعتُ الغِطاءَ الّذي تفوح منه رائحة الماضي على رأسي، وأرسلتُ نفسي إلى وادي نومٍ سحيقٍ.

بُمْ... بُممم... بُمممم... لعنةُ الله على اليهود، أصواتُ القصف تواصلتْ بعدَ تلك الليلة. يا كلاب... يا حَوَش... يا هَمَل... أنا هنا مُنكفِئٌ على نفسي منذُ أربع سنوات، ماذا تريدون منّي؟! حبيبتي وأخذتموها، أبَوَايَ... عائلتي... سلبتموني كلّ شيء... ماذا تريدُون بعد...؟! نهضتُ من النّوم السّاعة الثّانية فجرًا، فركتُ عينَيّ من نومٍ مُتقطّع وأحلامٍ جارحة، تلمّستُ الطّريق بأقدامي... كانتْ لا تزالُ كومةٌ متبقّية من الصّخور أمام الباب الّذي سَمَح للهواء البارد أنْ يلفحني.. خرجتُ إلى الفضاء... ما هذا؟ إنّ سماء غزّة مُشتعلة... الصواريخ تملأ الفضاء برقصةٍ جماعيّة مُرعِبة... أقواسٌ من النّيران المُتحرّكة تجوب السّماء، قناديلُ ترشّ الموتَ في كلّ مكان، وحمم تسقطُ على كلّ رأس... و... هل قامتِ القيامة؟ هل هو يومَ تمور السّماء مورًا وتسير الجِبالُ سيرًا؟

انحنيتُ على نفسي كقنفُذ، ورحتُ أبكي، لم أكنْ أبكي لهولِ ما رأيتُ. بل رحتُ أبكي للعجز الّذي أنا فيه. إنّ قرارًا بالخروج من قوقعتي الّتي رميتُ فيها نفسي أصعبُ من أنْ أنتزعَ روحي من أعماقي وأرميها للضّباع... أمسكتُ بالحجارة الّتي أمام بيتي، ورحتُ أقذفها بشكلٍ

هستيريّ في كلّ اتّجاه وأنا أصرخ: «لن تقتلوها مرّتين يا كلاااااب». وبقيتُ أنحني وألتقطُ الحجارة وأرميها في الفراغ وأجري هنا وهناك بلا غاية حتّىٰ صرتُ ألهثُ، وتقطّعَ نَفَسِي، وتباطأتْ حركتي، ثُمّ انهرتُ في مكاني، وسقطتُ في غيبوبة...

أيقظَتْني الشّمسُ صباحَ اليوم التّالي ومُواء قِطّتي الّتي كانتْ قد تَبِعتْني إلىٰ هنا وكانتْ حارسي الأمين.. كيفَ نمتُ هٰذه السّاعات الأربع دون أنْ توقظني أصواتُ الانفجارات؟ لا أدري. نهضتُ بتثاقلٍ مثلَ جنديٍّ خاضَ عشراتِ الحروب ونَجا منها رغم كلّ ما شاهدَ وعايَنَ، مشيتُ وأنا أُرخِي ذراعَيّ علىٰ جانبي مع انحناءةٍ لأعلىٰ ظهري حتّىٰ صار مثلَ قُبّةٍ صغيرة، وجررتُ أقدامِي إلىٰ أنْ دخلتُ الباب، بحثتُ عن حبوب المُنوّم وأنا ألعنُ الصّواريخ الّتي لم يسقطْ أحدها علىٰ جسدي فيحوّله إلىٰ أشلاء وأرتاح من هٰذا العذاب... فتحتُ العلبة، كانتْ فيها حَبّةٌ وحيدة، تردّدتُ قبلَ أنْ أزدردها... مرّتَين... ثلاثًا... ثُمّ تغلّبَ علَيَّ صوتُ اليأس، فتحتُ فمي، وقذفتُها فيه، وأتبعتُها بشربةِ ماءٍ، ثُمّ رميتُ الكأس في الجدار، فتكسّر، ومشيتُ إلىٰ سريري، حضنتُ (جودي) وألقيتُ جسدي عليه جُثّةً مُتهاوية، وغصتُ مثل حجرٍ كبيرٍ في بحر النّوم!



(٤) هل تريدُ أنْ تواصِلَ اختفاءك؟!

لا أدري كم نمتُ بعدَ تلك الحبّة الأخيرة. ذٰلك أنّني لمّا استيقظتُ بعدَ يومٍ أو يومَين وجدتُ أنّ مثانتي تكاد تنفجر. وأنّ جسدي قد تحوّل إلىٰ خشبةٍ لا أستطيعُ تحريكه بسهولة.

نظرتُ في الفراغ. في عُمقِ الغرفةِ الّذي كان بابُها لا يزال بعضُه مفتوحًا، شيءٌ من الظّلام الخفيف إلىٰ ضِياءٍ رماديّ ملأ ما أرىٰ. حدّقتُ جيّدًا، رأيتُها... هِيَ... هِيَ... أردتُ القفز من السّرير، فشعرتُ بآلامٍ فظيعةٍ في ظهري، كانتْ محاولتي القفزَ فجأةً قد حرّرَتْ شيئًا من تَخشُّب جسدي مع آلامٍ لا تُطاق.. استدرتُ علىٰ مُؤخّرتي، وأنزلتُ رِجلَيّ علىٰ الأرض، وهممتُ أنْ أقوم، حينَ رأيتُها تُشيرُ إلَيّ من ذٰلك العُمقِ بكَفِّها: « لا تفعلْ».

جمدتُ في مكاني. سألتُها: «أأنتِ أنتِ؟». «أنا هي، عينُ القلبِ لا تُخطِئ». «ما الّذي جاء بِكِ؟». «أنا لا أغادرك. أنتَ تعرفُ ذٰلك أكثر منّي». تأوّهتُ، وهززتُ رأسي بيأسٍ: «ما فائدةُ ذٰلك؟». «هل تريدُ أنْ نأخذَ نُزهةً على الشّاطِئ؟!». همستُ في أعماقي: «نُزهة، وعلى الشّاطِئ!!». «أنا لا أزال معك. سنمضي كما كُنّا نفعل. نمشي علىٰ تلك الضّفاف. نلعبُ بالرّمل. تغوصُ أقدامنا في التّراب المُبَلّل. نأكلُ السّمك في مطعمٍ بحريّ. نشربُ القهوة على الطّرق. ألا تريدُ أنْ تجرّب ذٰلك؟!». «لقد تعبتُ يا رجاء». وصدرتِ العبارة الأخيرة منّي بتثاقُلٍ ويأسٍ. ردّتْ:

«أعرف. وآنَ لكَ أنْ تخرجَ من هٰذا اليّأس». «ولٰكنْ كيف؟! أتمنّىٰ يا رجاء... لٰكنّني لا أستطيع». «تُنقِذ الأرواح الّتي لم تتمكّنْ من إنقاذها يومَ هُدِمَت عمارتنا». «كيف... كيف...؟!». «لا تحملْ تَعَبَ الماضي، لا تدعِ القدر الّذي أجراه الله علينا يُحطّمك... لم تُخطِئ... ولم تُقصِّرْ...». «ولٰكنْ لو كنتُ موجودًا هل سيتغيّر شيء؟! هل ستنحرف الصّواريخ عن بيتنا وتسقط في البحر مثلاً؟! هل ستذوب وتتحوّل إلىٰ فراشاتٍ أو عصافير قبل أنْ تُهدّم كلّ شيء؟! أكان بمقدوري أنْ أُنقِذكم؟». «لم يكنْ بمقدوركَ أنْ تنقذنا في الماضي، ولٰكنْ يُمكن أنْ تنقذنا اليوم، نحنُ لا يَسُرّنا ما أنتَ فيه؟». «أُنقذكم اليوم؟! كيفَ يا رجاء، وقد ذهبتُمْ وتركتموني؟!». «إنْ أنتَ ساهَمْتَ في إنقاذِ هٰذه الأرواح الّتي تراها تسقطُ في كلّ حينٍ فكأنّما تُنقِذنا وتُنقِذها... كلّ روحٍ تحملها بين يديك قبل نَزْعِها الأخير أو تُعيدُ إليها الأمل تُقرّبني منكَ قليلاً... وتهدمُ هٰذا الجدار الّذي يقفُ بيني وبينك... ألا تريدُ أنْ نجتمع من جديد؟ إنّ رجوعي إليك لا يَمُرّ إلاّ عبر هٰذه البوّابة؛ بوّابة مداواة الجراح... إنّ جراحهم جميعًا هي جراحك وجراحي.. كلّ جرحٍ تُطبّبه فكأنّما تُطبّبُ جرحي أنا... وإذا لم تكنْ متيقّنًا من حرارة ما أقول فاسألْ قِطّتَنا جُودي». كنتُ أستمع مذهولاً قبل أنْ تغيبَ في الغَبَش وتصمتَ كأنّها لم تكنْ.

بقيتُ في مكاني، لم أتحرّكْ أكثرَ من ساعتَين، حتّىٰ عَمّ النّور كلّ مكان. ثُمّ... عزَمْتُ علىٰ أنْ أقوم. أنْ أستمع هٰذه المرّة لصوتها، وأنْ أمضي في عملي الّذي كنتُ قد تركتُه لأربعِ سنوات.

أيقظَتْني من أحلامي وهدأتي أصواتُ الانفِجارات. الأمر يستحقّ إذًا.

سأحطّم قوقعتي وأخرج إلى الحياة؛ أعني أخرج إلىٰ هٰذا الموت من أجل الحياة.

تتابعتْ أصواتُ الانفجارات الّتي لم تهدأ. الملاعين يرسلون حِمَمَهم إلىٰ كلّ مكانٍ. إذا كانوا يريدون القضاء على المُقاومة، فلماذا لا يُقاتلونها وجهًا لوجه؟! لماذا يحرقون كلّ ما تقع عيونهم عليه؟!

نهضتُ. سرتُ بقوّةٍ عجيبةٍ إلى الباب ورحتُ أزيل الصّخور المُتراكمة أمامه. استغرقَ منّي الأمر أكثرَ من ساعتَين حتّىٰ صار الباب قابِلاً للانْغِلاق. لٰكنّني لن أغلقه علىٰ نفسي بعدَ اليوم. سأعمل مثلما قالتْ رجاء. إنّ كلّ روحٍ أساعدُها في أنْ تستمرّ في الصّمود ستكون خُطوةً إلىٰ تقليص المسافة بيني وبين حبيبتي.

سأُجهّز البيت من أجل أنْ أستقبلَها فيه. لماذا سأجهّزه؟! إنّنا راحِلون قريبًا، وسنترك متاع الدُّنيا كلّها خلفَنا. سأبنيه، سأعيدُ بناءَه وأُزيّنه، علىٰ الأقلّ سأُزيّن الغرفة الّتي كانتْ عُشَّنا أنا ورجاء، لماذا سأُجهّزه؟! الحياة أقصرُ مِمّا نعتقد، تبدو كأنّها ليستِ الحياة، لا بُدّ أنّها هناك حيثُ هي، وإذًا؟ فَلِمَ كلّ هٰذا التّعب؟! سأنهض من رقدتي وسأمضي على النّحو الّذي أرادَتْه منّي، وهٰذا يكفي.

من دون دموع، وبلا حيرة، وبهٰذا الحُزن الجميل الّذي يكفي بعضُه من أجل أنْ أستمرّ سألقاكِ. كانتْ أغانينا المُشتركة تميمةَ بقائنا وستبقىٰ، إذا رحلتِ فإنّ هٰذه الأغاني لم ترحل. ومن دون أنْ أتردّد سأمتطي حِصان الذّكريات دون لِجام وسأجعله يطير في الفضاء حتّىٰ يُبلّغني منازِلَكِ. النّسور الّتي حملتْ علىٰ خوافيها رسائلنا، وعلىٰ قوادِمها ضَحِكاتنا ستطير إليك، ستقرئين هٰذه الرّسائل وتسمعين هٰذه الضّحكات ريثما

أوافيكِ. في زحمة الضّباب، وفي زحمة الذّكريات، وعلىٰ هدير القطارات الّتي فاتتْنا، سأصلُ إلىٰ حيثُ أنتِ. لقد قرّرتُ بكلّ ما فِيّ من عزيمةٍ أنْ أعمل لهٰذا الشّعب المَطحون من أجلِ عينَيكِ!! ألا تكفيني عيناك من أجل أنْ أرىٰ، من أجل أنْ أدع نهر الحُزن والدّموع يغور في بِئر الماضي، وأغلق عليه بابَه، وآتيك. أنا آتٍ لا محالةَ فانتظريني.

ذهبتُ إلىٰ غرفةٍ كنتُ قد اتخذْتُها مُستودَعًا. فتحتُ رِتاجَها المُغلَق، وانداحَ غُبارٌ كثيفٌ يُشبِه الماضي في وجهي. بحثتُ عن بقايا المُستلزَمات الطّبّيّة الّتي كانتْ هنا أيّام عملي. أكثرُها من أدويةٍ ومُطهّرات لم يعدْ صالِحًا. انتقيتُ ما يُمكن أنْ يُستخدَم من الشّاش والقُطن والمحاقن وبعضِ الإبر الّتي تُستخَدم لخياطة الجروح، جمعتُها في حقيبةٍ وخرجتُ.

مضيتُ باتّجاه مستشفى الشّفاء. المجمّع الطّبّي الأكبر في غَزّة التّابع لوزارة الصّحّة هنا، يتكوّن من ثلاث مستشفيات تخصصية، هي: مستشفىٰ الجراحة ومستشفى الباطنيّة ومستشفى النساء والتوليد. المُستشفى الّذي أنشأتْه قوّات الاحتلال البريطانيّ عام ١٩٤٦م، سُلِّمَ للنّظام المصري بعدَ أنْ رحل البريطانيّون، وظلّ تحتَ حُكم مصر حتّىٰ حربِ عام ١٩٦٧م، حيثُ تحوّلتْ إدارته إلى الاحتلال الصّهيونيّ. يقع المستشفىٰ في المنطقة الغربيّة الوُسطىٰ من مدينة غزّة، علىٰ مُفترَق تقاطع شارع عزّ الدّين القسّام مع شارع الوحدة وهو من الشوارع الرئيسة في المحافظة، تُحيط بالمُستشفىٰ ثلاثةُ شوارعَ فرعيّة من باقي الجهات.

توسّعتِ القدرة الاستِيعابيّة للمُستشفىٰ مع الزّمن، وأحدثَ الاحتلال الإسرائيليّ توسعةً فيه عام ١٩٨٠م. وقامتْ شركة إسرائيليّة بتصميم أنفاق تحته لأغراض عسكريّة في عام ١٩٨٣م، وظلّ مُستخدَمًا كخندق

للقيادة العسكريّة الإسرائيليّة حتّىٰ سُلِّمَ للسّلطة الفلسطينيّة عام ١٩٩٣م عقب (اتّفاق أوسلو) المشؤوم. في أيّامنا هٰذه يتّسع المستشفىٰ لـ (٥٦٤) سريرًا.

ليسَ لديّ سيّارة لأقودَها إلىٰ هناك. وليسَ لدَيّ درّاجة. عندي درّاجة هوائيّة كنتُ قد ركنْتُها تحتَ دَرَجٍ مُهَدّم أيّامَ القصف الأوّل. أصلحتُ من شأنِها، وركبتُها، وقلتُ: «هَيّا امضي بي إلى المُستشفىٰ».

في الطّريق رأيتُ غَزّةً أخرىٰ غير الّتي أعرفُها. كنتُ سأنكرها قبلَ القصف، فأنا مُنقطعٌ عن أحيائِها منذُ أربع سنواتٍ، ولٰكنّ القصفَ أعطاها وجهًا آخر لا يُمكن أنْ تتعرّف إليها ولو كنتَ تدور في مناطقها سحابة النّهار في كلّ يومٍ.

يا إلهي كيفَ تُغيّر الحروب وجوه المُدُن. إنّها تصبغها بالرّماد، تُمشّطُ شَعرَها بالحديد فينثعب الدّم في كلّ اتّجاه، تقلعُ عينَيها، وتخلعُ رقبتها، وتجعل كلّ جارحةٍ منها في جِهة.

وصلتُ بحزنٍ مُضاعَف إلى المستشفىٰ. حملتُ حقيبة المُستلزمات الطّبّيّة، وهممتُ بدخول مبنى الجراحة حينَ رأيتُ سيّارات الإسعاف كأنّها طائراتٌ تحوم في المدرج لا تدري أين وجهتها، ولا أينَ تهبط، كانتْ كأنّما ضُربَتْ علىٰ رأسِها بألفِ مِطرقة!

دخلتُ مبنى الجِراحة تارِكًا هٰذا الزّعيق كلّه، وأصواتَ المُسعِفين، وتَداخُلَ النّاس وهَلَعهم، ونداءاتِهم المغلّفة بالموت والهلع، وعلىٰ باب الاستِعلامات سألتُ الموظّفة: «أين بسّام مكّي؟». أشارتْ لي دون أنْ تنبس بحرفٍ وهي منشغلةٌ بالرّد على الاتّصالات الكثيرة إلىٰ آخر الممرّ، حيثُ يتلقّى المُمرّضون الجرحى القادِمين من كلّ ناحية.

غذذتُ الخُطا إلىٰ حيثُ أشارتْ. واقتربْتُ من مجموعةٍ تحمل المحفّات والنّقّالات وتدخل بها إلىٰ أقسام العِلاج، رأيتُ الوجوه الّتي أنكرَتْني وأنكرتُها، دقّقتُ فيها لأعثرَ علىٰ وجه بَسّام، لكنّني لم أعثرْ عليه. طفتُ على العشرات مِمّن يلبسون اللّباس الأزرق، فلم أرَ وجهه من بين الوجوه، فكّرتُ في أنْ أستدير وأعودَ إلىٰ قوقعتي، حينَ سمعتُ صوتَها: «لقد عاهَدْتَني ألاّ تهرب من واجِبك». أطلقتُ تنهيدةَ عجزٍ وغَضب، وركنتُ حقيبة المُستلزَمات في زاويةٍ من الزّوايا، ورحتُ أصرخ: «بسّام... بسّام مكّي... أينَ أنتَ يا بسّام؟ هل تريدُ أنْ تواصِلَ اختفاءك؟!». لم يُعِرْني أيٌّ من الكتل البشريّة المُتدفّقة أيّ اهتِمام. انخرطتُ في التّيّار البشريّ المائج، وواصلتُ صراخي بوتيرةٍ أعلىٰ، حتّىٰ رأيتُ أحدَ الّذين يُعطونني ظهرهم المُنهمِكين في عملهم يستدير نحوي، كانتْ يداه مُلطّختَين بالدّم، راحَ الشّاش الّذي يحمله في يُسراه تسيل نُقَطُ الدّم منه على الأرض، والتقتْ عينانا، تجَمَّدَ في مكانه، ضَيّقَ عينَيه ليتأكّد من أنّ الّذي يُنادي هو صديقُه القديم، كان جِدارٌ عالٍ من التّرقّب يقوم بيننا وانهار فجأة، ركضَ نحوي وهو يهتفُ: «فرج... أنتَ فرج... قُلْ لي إنّكَ فرج». واعتنقْنا، وراحَ يبكي، وأمّا أنا فرُحتُ أنشج، وبقيتُ مُعانِقًا له حتّىٰ لطّخَ ما تبقّىٰ من الدّمِ في يدَيه ظهري. «لقد عُدتَ إذًا». «نعم عُدت». ورفعَ ذراعَيه اللّتين كانتا لا تزالان تلتفّان حول جذِعي، وشَدَّ بكَفَّيه علىٰ ساعِدَيّ، وهتف: «أهلاً بعودتك». «أهلاً بك». كانتْ دُمُوعٌ لا تزال يدفعُ بعضُها بعضًا علىٰ خَدَّي، لم أدرِ ما أقول. كانتْ عيناه تنطقان بالحُبّ. «ما الّذي أخرجكَ من عزلتك، وأعادَكَ يا فرج؟!». وهمستُ وأنا أُحوِّلُ عَيْنَيّ عنه، وأرفع وجهي، وآخذُ شهيقًا عميقًا، ثُمّ أُخرجه زفيرًا حارًّا: «رجاء... رجاء هي الّتي أعادَتْني».

(٥) ماذا يعني أنْ نُعاني وحدنا؟!

كان قد تهدّم منذُ الصّباح، غارة إسرائيليّة في الخامسة فجرًا، جعلتِ المبنىٰ كلّه يخرّ علىٰ قدمَيه، ويجثو علىٰ رُكبتَيه. لم يكنِ المبنى الوحيد. توزّعْنا نحن المُسعِفين الّذين يبلغ عَددُنا عشرين شخصًا على الأبنية المُجاورة الّتي تكتظّ بها المنطقة.

يُمكنك - مع سطوع الشّمس قويّةً هٰذا النّهارَ - أنْ ترى الأدخنة الّتي تحجب السّماء مع هبوب ريحٍ خفيفة. الدُّخان راقصةُ الحرب السّوداء. والنّيران إلهُها الأحمر.

كان أهل المنطقة قد تلقَّوا إنذارًا منذ الأسبوع الأوّل للغارات الإسرائيليّة بمغادرة الحيّ كامِلاً. لذٰلك لم يكنْ بإمكانِكَ أنْ تسمعَ صوتًا واحِدًا في الأنحاء، باستثناء صدىٰ صوتِنا يتردّد في هٰذا الفراغ ونحن نُنادِي: «هل وجدتَ أحدًا؟». «لا». «أيّ حاجة؟». لا». «فتّش كويّس». «ما تقلقش».

كان يُريد أنْ يقول لي هٰذا الصّوت: «لا تقلق»، مع أنّ القلقَ كان يلبسني من رأسي حتّىٰ أخمصِ قدمَيّ، كأنّه ثوبٌ مُلتصقٌ بجسدي الّذي كان يرتجفُ أحيانًا لهول ما يرىٰ، وخفقات قلبي الّتي كانتْ تُسمَع دَقّاتها كلّما دخلتُ غرفةً من هٰذه الغرف المُهدَّمة البائسة.

على الجدار الّذي عن يميني قرأت بيتًا للشّابي يبدو أنّ طالبًا في الابتدائيّة خَطَّهُ هنا:

ومَـنْ يتَهَيَّـبْ صُعُـودَ الجِبـالِ يَعِـشْ أَبَـدَ الدَّهْـرِ بيـن الحُفَـرْ

انتزعتُ ابتسامةً من بين شفتيَّ، وأنا أردّد: «أيّ حُفَرٍ أسوأ مِن هٰذه الّتي نعيشُها هنا في غَزّة».

لم يكنْ لديّ وقتٌ طويلٌ لأتجوّل في غرف الطّابق كلّها، كان علينا أنْ نمضي قُدُمًا باحثين عن ناجين، غيرَ أنّه لسببٍ ما تجاهلتُ نِداءات صديقي، ومضيت إلى العُمق، قفزتُ فجأةً مُبتعدًا عن كتلةٍ إسمنتيّة أفلتتْ للتّوّ من السّقف الّذي بالكاد تعلّقَ ما تبقّىٰ منه بالقُضبان النّازلة، نجوتُ بأعجوبة. خَفَقَ قلبي، لماذا عَلَيّ أنْ أمضي وسطَ هٰذا الرّكام الّذي ما زالتْ أجزاء منه قابلة للسّقوط في أيّة لحظة؟! خُيّل إلَيّ أنّني أسمعُ صوتًا خافِتًا قادِمًا من العُمق. ركضتُ باتّجاه الصّوت، أو ما خُيِّلَ إلَيّ أنّه هناك. ذرعتُ الغُرَفَ، فتحتُ الأبواب، قفزتُ فوقَ الرّكام، عبرتُ الفجوات في بعضِ الجدران، وخلال أقلّ من خمسِ دقائق كنتُ قد جُبتُ هٰذا الطّابقَ والّذي فوقَه دونَ أنْ أعثر علىٰ حَيّ، كانتْ هناك بعضُ ألعابِ الأطفال المُمزّقة، والمُتناثرة في الأرجاء، والمُغطّاة بالغبار والأتربة. خُيِّلَ إلَيّ أنّني سمعتُ صوتَ طفلةٍ تسأل بهدوء وحيرة: «هل وجدتَ دبدوبي؟!». بحثتُ لم أعثرْ إلاّ على الرّكام، غير أنَّ صوتَها القادم من أعماق الوجع والحنين لم يُغادر أُذُنَيّ!

خرجتُ من المبنىٰ كلّه، كان أحدُ المسعفين في الأسفل يناديني وقد بُحَّ صوتُه: «علينا أنْ نبحثَ في ما تبقّىٰ من مبانٍ، هيّا...» مضيتُ إلى المبنى المُجاور كانَ بينهما شارعٌ لم يعدْ كذٰلك لكثرة ما تغطّىٰ بالرّدم والأنقاض... وفجأة تسمّرتُ مكاني، لقد سمعتُ صوتًا آخرَ في المبنى الّذي تركتُه يُنادي، مسحَ الصّوتُ ظهري بيدٍ من رَجَاء،

نفضتُ رأسي، وهمستُ: «لا بُدّ أنّني أتخيّل...»، ابتعدتُ عن المكان خُطوتَين أُخرَيين، غيرَ أنّ الصّوت ناداني من جديد... توقفْتُ وضيّقتُ عينيّي: أمن المعقول أنّ هٰذا الصّوت يأتي من مكانٍ لا يُرىٰ. بعضُ الأصوات تدلّ على الأرواح لا الأجساد. جعلتُ أصواتَ أصحابي خلفَ أُذُنَيّ، ومضيتُ للطّابق الّذي ظننتُ أنّ الصّوتَ قادِمٌ منه. قفزتُ الدّرجات قفزًا. دخلتُ في العُمق. تجاوزتُ بعضَ الغرف الّتي أعرفُ أنّ الصّوت لم يكنْ يأتي منها، حتّىٰ صرتُ علىٰ بابِ غرفةٍ شَطَرَ شُعاعُ الشّمسِ رَدْمَها من جهة، وشَطَرَ ظلُّ الجدار المُتهدّم نِصفَها من جهةٍ أخرىٰ. رأيتُ يدًا تتحرّكُ من تحت الرّدم، كانتْ ترفع السّبابة وتُلوّح ببطءٍ مثلَ سفينةٍ غارقة يتهادَىٰ ما تبقّىٰ منها فوقَ الماء مع الموج. صرختُ: «إلهي... ها هو... أحدُهم هنا لا يزال حَيًّا». بذراعَيّ رُحتُ أُبعِدُ كُتَل الإسمنت، وبقيّة الأخشاب والحديد والأنقاض... وأسابِقُ الزّمن لأستبقي آخر أنفاسِه كي لا تُفلِتَ منه فتبعثَه في لحظةٍ من ضِفّة الحياة إلىٰ ضِفّة الموت... صرتُ أُزيل الأتربة بأصابِعي وأنا أصرخ علىٰ أصدقائي في الخارج: «ساعِدوني في إخراج هٰذا النّاجي». ولم أعرفْ حتّى اللّحظة إنْ كان رجلاً أو امرأة، شابًا أو هَرِمًا... لم يسمعْني أحدٌ من المُسعِفين... أزلتُ آخر ما تبقّىٰ من الرّدم، بدا وجهه رماديًّا مِمّا غَطّاه من شظايا وأتربة... كان الرّدم قد ملأ فمَه وعينَيه، فَتَحَهما بصعوبة، سَحَبّ جُزءًا من الهواء فاستعادَ جزءًا من الحياة، أتممتُ إزالة ما تراكمَ علىٰ جذعه وباقي جسده، وبحذر رفعتُه من تحتِ ظهره... ووضعتُه علىٰ جانبٍ آمِن من الغرفة، خرجتُ صارِخًا... تلقّاني أحدُ المُسعفين الّذين كانوا يتساءلون عن سبب تأخّري، صرختُ به: «النّقّالة... بسرعة...». أتىٰ بها، وحملناه

معًا، ثُمّ مضينا لسيّارة الإسعاف الّتي تبعدُ أكثر من ٥٠٠ متر. لم يكنْ لها أنْ تقف في نقطةٍ أقربَ من هٰذه، فالشّارع الّذي كان كذٰلك تحوّل إلىٰ تلّةٍ من الرّكام... كان ينظر إلى السّماء بعينَين صامِتَتَين، بدا رجلاً عجوزًا في السّبعين علىٰ ما قدّرتُ... حينَ انطلقتْ بِنا سيّارة الإسعاف إلىٰ مستشفىٰ الشّفاء ظلّ صامِتًا، غيرَ أنّه مدّ كفّه لتشدّ علىٰ كفّي بحرارة، وتنطقُ عيناه بمعاني الشّكر العميق دون أنْ ينبِسَ بحرفٍ واحد... بقيتُ شادًّا علىٰ كفّه، وجرتْ بيننا دِماءٌ من المودّة، لا أدري لماذا رأيتُ فيه أبي وهو ينظر إلَيّ بهاتَين العينين الصّافِيتَين رَغْمَ ما عِلَقَ حولهما من غبار... مسحتُ وجهه بالماء، فابتسم، تجرّأتُ وسألتُه: «لماذا لم تخرجْ من البيت؟». ظلّ صامِتًا، سألتُه من جديدٍ آمِلاً أنْ يقول شيئًا: «هل خرجَ أهل العِمارة قبلَ أنْ تُقصَف؟». ردّ بالإيجاب بإشارةٍ من رأسه. أعدتُ عليه السُّؤال بحرارةٍ مَشُوبة باللّوم: «لِمَ لَمْ تُغادِرْ معهم إذًا؟». حرّكَ شفتَيه، لم يكنْ قادِرًا علىٰ الكلام، قرّبتُ أذني من فمه، هَمَس: «كنت أريدُ أنْ أموت شهيدًا». قالَ ذٰلك وابتسم، وأردف بوهن: «لم يعدْ للحياةِ معنىٰ». وصلتِ السّيارة للمستشفىٰ، هبطتُ أنا وزميلي بالنّقالة، وتلقّانا آخرون... في الطّريق رأيتُ بعضَ الجُثث المُتناثرة... الدّمُ في كلّ مكان...

كان الطّريق إلى الدّاخل زَلِقًا. مليئًا بالبُقَع والمحاليل والماء المُلوّث وما رشَحَ من الأجساد من عَرَقٍ ودماء ودوع ومُخاط. ضاقتْ غرفة العمليّات بالنّاس. لم أكنْ أتصوّر يومًا أنْ يحدثَ هٰذا. إنّه جنون. الّذي يحدثُ جنونٌ حقيقيّ. في طريقِنا إلىٰ هنا، رأيتُ اثنَين من الشّباب قدّرتُ أنَّ كلّ واحدٍ منهما في العاشرة أو الحادية عشرة، كانا مُغطَّيَين بالكامل بالسُّخام، وشعرُهما صار رماديًّا من نُثار التّفجير،

وكذٰلك ثيابهما الرّثّة المتمزّقة، وكان يحملان طفلاً في مثلِ سِنّهما قد هوتْ كتلةٌ من الحديد والإسمنت والنّار علىٰ قدمه اليُمنىٰ ففصلَتْها عن السّاق أو كادتْ، وبقيتْ تتأرجح وهم يركضون به إلاّ من جلدةٍ رفيعةٍ تُمسِكُها، ولا أظنّها ستصمدُ طويلاً.

في غرفةِ العمليّات، كانت الجِراحاتُ تُجرَىٰ على الأرض، خمسةٌ في آنٍ واحدٍ، لم يكنْ هناك أكثرُ من طبيبٍ ومُمرّض علىٰ رأسِ كلّ مُصاب، محظوظٌ من وجد ذٰلك، بعضُهم كان يُجري العمليّة له الطّبيبُ نفسه، وعشراتٌ آخرون كانوا ينتظرون في السّاحات والممرّات.

كيفَ يُمكن أنْ يرى الإنسان هٰذه الخريطة من الدّم ولا يتحرّك؟! كيفَ يرىٰ كلّ هٰذا الرّعب ولا يسقطُ في بِئره؟! شيءٌ ما بعدَ ثلاثةِ أيّامٍ من القصف المُتواصل زَرَعَ في يقين النّاس أنّ الموتَ لا يأتي إلاّ بِقَدَر، ولا يُصيبُ سهمُه إلاّ بِأَجل، ولذٰلك كانوا ينتظرون أنْ يُمسِكَ بأيديهم فيعبرَ بهم إلىٰ حيثُ يريد، هٰذا الفريق من النّاس الّذي يُمسِكُ الموت فيأخذ بيده كانَ حُلُمَ الكثيرين هنا، إنّه بوّابة العبور إلى الرّاحة الأبديّة والتّخلّص من كلّ هٰذا الواقع القاتل، والعالَم الظّالِم. غير أنّه لم يكنْ ليتحقّق بسهولة؛ ذٰلك أنّني رأيتُ الموتَ يمشي معنا وبجانبنا وأمامنا وخلفنا، وينظر في وجوهنا جميعًا، ولا يأخذ بيده إلاّ المُختارين، ولم يكن لأحدٍ أنْ يختار رفقاءَه سِواه!!

على الأجساد خُطُوطٌ من الجراح، مَن يراها يظنّ أنّ أنهارًا من الدّم أرادتْ أنْ تسقيَ هٰذا الجسد، وما الجسد إلاّ صحراء عطشىٰ إلىٰ هٰذا النّوع من الماء. إنّ المشهد ليسَ بهٰذه البشاعة؛ حتّىٰ لو كنّا نرىٰ أيادِيَ مبتورة، وعيونًا مفقوءة، وسيقانًا مكسورة، وعِظامًا مُتهتّكة.

هل كان ذٰلك اعتِيادًا؟!

ماذا يعني أنْ نعاني وحدنا؟! لا شيء. ماذا يعني أنْ نموتَ وحدنا؟! أنْ نُذبَح وحدنا؟! أنْ تُقدَّم أرواحُنا قرابينَ سائِغة لهٰذه الوحوش البشريّة الّتي لا تشبع؟ لا شيءَ... لا شيءَ مُطلقًا، ما الجديدُ في ذٰلك؟ إنّه استمرارٌ لهٰذا الخُذلان والجحود من الشّقيق، إنّها الطّعنة الّتي تحمل بصمةَ الإخوة الخاذِلين الجُبناء... وهٰذه الحرب لن تكون الأولىٰ، ولن تكون الأخيرة، إنّها السادسة أو السّابعة في أقلّ من عقدَين، في هٰذا العَدّ الّذي لا ينتهي...



(٦) في كلّ مَنفى سُنبلاتٌ يابِسات

كان يجلسُ على الرُّكام. مُستلقِيًا ينظر بعينَين زائغتَين إلى السّماء، كأنّه يقول: «لماذا هِيَ يا ربّ؟! لماذا أخذْتَ خطيبتي يا ربّ؟!» اقتربتُ منه، حاولتُ أنْ أكلّمه، لكنّه لم يلتفتْ إلَيّ، كان غارِقًا في تساؤلاته: «لماذا أخَذْتَها وتركْتني أيّها الموت الانتِقائيّ؟!». كانَ ينتظرُ يومَ الفرح، خَطّطَ معها لحفل الزّفاف بتفاصيله كافّة، ثوب الفرح، هذا يليقُ بعروسٍ مثلك، لا هذا واسعٌ أكثرَ مِمّا ينبغي. هذا أفضل. هذه الطّرحة تزيدُ من طهارة هذا الوجه الملائكيّ. صباح اليوم وقبلَ العُرْس بعشرةِ أيّام فقط، كان لصواريخ إسرائيل رأيٌ آخر. «هل يُمكنُ أنْ نتابِعَ النّقاش حول تفاصيل الحفل في الجَنّة؟! هل يُمكن أنْ نُقيمه هناك؟ تُرىٰ مَنْ سندعو إلىٰ الحفل؟! أفراد خمسٍ وعشرين عائلةً أخذهم الموتُ إلىٰ عالَمه معك؟ الشّهداء أم الأنبياء؟! علىٰ فِكرة هناكَ سؤال يراودني: هل يُمكن أنْ ندعو النّبيّ يحيىٰ أو النّبيّ عيسىٰ إلىٰ حفلنا في الجنّة؟ لماذا هذان بالذّات؟ لأنّهما لم يتزوّجا مثلَنا، ربّما كان سيفرحان لنا ومعنا أكثرَ من غيرهم!

نادَيتُه: «لماذا عليكَ أنْ تجلس هُنا؟». «أنا أنتظرها». «لقد ماتتْ؟». «مَنْ يدري، ربّما تقوم من الموت لنُتابِعَ معًا ما بدأناه». «إنّها ليستْ هنا». غَضِبَ. حرّك قليلاً من هدأته، وهتف: «وما أدراك؟». لقد قالوا: «إنّها ماتت». «وهل تظنّ أنّ الموتىٰ لا يسمعون؟». وقفَ علىٰ قَدَمَيه، ثُمّ انحنىٰ جهةَ فراغٍ في الرّكام وراحَ يُنادي: «هديل... هديل... رُدّي عَلَيّ». تركتُه ومضيتُ. الجنون هو الوجه الأبشع للحرب.

كان هناك شابٌّ في الثلاثين يأخذُ رأسه بين يَدَيه وهو يدور في حلقةٍ مُفرَغة ويهذي بكلماتٍ مُختلطةٍ بأنينٍ خافتٍ مَسموع. اقتربتُ منه: «هل شاهدتَ القصف؟». «لو شاهدتُه لكنتُ تحتَ هٰذه المباني المُهدّمة، أنا خرجتُ لأشتري لأهلي بعضَ الأغراض، ولمّا عُدتُ لم أجدِ البيت ولا أهلي».

شارعٌ من خمسٍ وعشرينَ بنايةً كان قد سُوِّيَ بالأرض. هٰذا بيت دار العاصي، وهٰذا بيت دار عزيز، والّذي بجانبه بيت دار مسعود، وهٰذا بيت دار عليّ، والّذي خلفه بيوت دار النّصر، والبيت الّذي في تلك النّاحية بيت نعيم عكاشة، ثُمّ بيت دار عمر أبو سلطان، بجانبه بيت دار أبو القُمصان، ومعه بيت شاكر القرموط، وعندَ ذٰلك الشّاب الّذي ينتظر خطيبته أنْ تخرج من تحتِ الرُّكام بمعجزة بيت دار حجازي... هل ترىٰ منهم أحدًا حَيًّا؟!

جاءتْ جرّافة لتُزيل الأنقاض. الحياة هي الحياة، قد لا تنتظرنا، لكنّنا بالضّرورة ننتظرها ونُحبّها. ربّما نعثر علىٰ ناجٍ. صعدت الجرّافةُ جبلاً من الرّكام، وقفتْ أمام الواجهات الّتي انكسرتْ أعمدتُها فمال السّقف بكلّ ما فيه واستوىٰ جدارًا هازِئًا علىٰ حافَته بالأرض، كيفَ يُمكن أنْ تُزال هٰذه الأنقاض؟! من المُستحيل أنْ ترفع هَدْمًا لخمسةٍ وعشرين بيتًا. أمعقولٌ أنْ يكون هناكَ تحتَ الأرض مَنْ يسمعنا نحنُ الّذين مِن فوقها كما يسمعُ الميّتُ في القبر أحبابَه من فوقه؟! كيفَ يكون شكل الموت الّذي جاءهم، أو الّذي يُناورهم الآن ليقبضَ ما سال مِنْ أرواحهم؟! كيفَ ينظرون إليه؟! كيفَ يُقارِنون بين حياتنا الّتي تبدو غايةً في الرّفاهيّة أمام موتِهم البطيء؟!

جاءتْ جرّافةٌ أخرىٰ من أجل المُساعدة، أزالت أوّل سقفٍ مائل، لٰكنّ إزالته دعتْ ما كان عالِقًا علىٰ سيقان الأعمدة المُكسّرة جزئيًا أنْ تهوي. سقطتْ، فدوّىٰ صوتُ الموت، وارتفعَ الغُبار. صرختُ: «إنّكَ لا تُنقِذهم، أنتَ تقتلهم». همسَ أحدُ المُسعِفين الّذين إلىٰ جِواري: «الإنسانُ لا يموتُ مرّتين».

علىٰ حَرفِ جُرُفٍ هارٍ وفي خَطٍّ مُتعرّجٍ وصاعدٍ إلى الأعلىٰ كان هناك عددٌ من ذوي المدفونين تحت الصّخور يحاولون الدّخول إلىٰ ما يُمكن عبوره في هٰذه الرّكامات إلى الدّاخل بحثًا عن صوتٍ. يُنادُون: «سميّة... كاتيا... صادق...» ولا أحدَ يُجيب. كان الموتُ والذّعر قد عقدَ الألسنة.

تطوّعتُ مع فريقٍ تدرّع بالشّجاعة للولوج إلىٰ بيتٍ قدّرْنا أنّنا يُمكن أنْ نعثر فيه علىٰ أحياء. بعضُ السّقوف الإسمنتيّة كان قد تفتّتْ. تحتَ هٰذا الفتيت كانتْ هناك أجسادٌ كثيرةٌ لأطفال ونساءٍ انقطعَ منها حبلُ الحياة المُرخَىٰ.

كنتُ أدخلُ في الظّلام. أضأتُ الضّوء المرتكز على الخوذة الّتي فوقَ رأسي، فكشفَ عن هولٍ لا يحتمله قلب. كانتْ هناك جُثث في كلّ مكان، رأيتُ يدًا حاولتْ أنْ تلحقَ بالحياة الهاربة فعاجَلَها الموتُ تحتَ الرّدم، فدُفِنَ الجسدُ مع الرّأس كامِلاً وظلّتْ اليدُ هٰذه مفتوحة الأصابع مشدودةَ الرُّسغ تحاول أمرًا مُستحِيلاً، كانتِ اليد تقول: «أنا الّذي نجوتُ من جسدي». كيفَ يُمكن أنْ تشعر بانطِفاء العينَين في لحظة الموت؟! كيفَ يتحوّل النّور إلىٰ ظلامٍ تامّ في أقلّ من ثانِيةٍ؟!

حفرْنا بما نملك من أدواتِ حفرٍ بسيطة، وبقينا أكثر من ثلاثِ ساعاتٍ حتّىٰ أخرجنا ستَّ جثث، لا أدري ماذا وجدَ الآخرون تحتَ البيوت

المُهدّمة الأخرىٰ؟! حينَ خرجتُ بالنّقالة ومعي الجُثّة السّادسة رأيتُ الشّابّ الّذي فقد خطيبته لا يزال في مكانه كأنّه علىٰ موعدٍ حقيقيّ معها، هل كان يعرفُ أنّها إذا ضربتْ له موعدًا فلن تُخلِفه؟!

مضينا إلى المُستشفىٰ. كان في سيّارة الإسعاف الّتي ركبتُها ثلاثُ جُثث، صففْناها مُتجاورة. يُوحّد الموتُ بين الموتىٰ. إحدىٰ الجُثث كانتْ مبقورة البطن كأنّ القنبلة نفذتْ منها. أحشاؤها كانتْ سوادًا يسيل، الغُبار لوّن الدّم، صارَ دمًا أسود. من هنا ترى الأمعاء المُقطّعة والمعدة الممزّقة، وأشباه جوارح أخرىٰ قد صارتْ عجينًا. غطّيْتُ وجهي بِكَفَّي، ورفعتُ ناظِرَيّ إلىٰ سقف السّيّارة، تخيّلتُ للحظة جرّاء أصوات القصف الّتي لم تهدأ أنّ هٰذا السّقف سيطير في أيّة لحظة، وستتحوّل نحنُ مع هٰذه الجُثث إلىٰ طيورٍ تحلّق في الفضاء للحظات قبل أنْ تصعد رُوحُها إلى السّماء تاركةً أجسادَها تسقطُ إلى الطّين.

وصلْنا إلى المستشفىٰ بعدَ حوالي نصف ساعة. كانتْ هناك سيّارات إسعاف تصل من كلّ مكان. صارتْ غزّة كلّها مقبرة. نحنُ نأتي بالموتىٰ أكثر من أولئك الّذين يُمكن أنْ تُكتَب لهم حياةٌ جديدة.

دخلتُ بالجثث إلى المستشفىٰ علىٰ أمل أنْ يكونَ أحدُهم يُمكن إنقاذه. أعرفُ أنّهم موتىٰ، ولٰكنّ الأمل حتّىٰ مع الموتُ يظلّ قائِمًا. في بهو المدخل رأيتُ أبًا يحتضن طفلةً أمام امرأةٍ وطفلٍ آخر كانا قد فارقَا الحياة، لَفَظَا أنفاسهما الأخيرة هنا، كانوا يرون كلّ هٰذه الخيالات تتداخل أمامهم وهم يمضون خارجَ هٰذا العالَم، كانتِ الطّفلة الّتي يحتضنُها أبوها تبكي بُكاءً متقطّعًا، ومن خلال دموعها كانت تقول بصوتٍ باكٍ: «الله يرحمِك يَمّه... يمّه يا حبيبتي الله يرحمك...»

وهي تُلوّح بكفٍّ مُتراخِية الأصابع، وعينَين نَطَقَتا بالبُؤس الّذي لا يُمكن وصفه، وصوتُ نشيجها المُتقطّع: «يا حبيبتي يا قلبي... هاي حمزة مع أمّي... مع السّلامة يا حبيبتي» أردتُ أنْ أبكي، ولٰكنْ ما فائدة البُكاء؟! أردتُ أنْ ألعنَ كلّ أنظمة العالَم، ولٰكنْ ما فائدة ذٰلك؟ نحنُ نجوع وحدنا ونموتُ وحدَنا ونعاني وحدنا ولا نجدُ في النّهاية مَنْ يمسحُ آلامَنا ولا مَنْ يَخِيطُ جُرُوحَنا ولا مَنْ يقول لنا شيئًا... لا نريدُ شيئًا من هٰذا العالَم الظّالم، نريدُ أنْ نرحل منه إلىٰ مكانٍ أفضل، الرّحيل منه في هٰذه الظّروف نَجاة، لا نريدُ شيئًا أكثر من ذٰلك.

مضينا خُطُواتٍ أخرىٰ إلى الدّاخل، كان هناك طفلٌ لا يتجاوز السّادسة، يُمسكُ بالطّرف الحديديّ لسرير أمّه الّتي لم يبدُ غيرُ وجهها، وقد أمالَتْه إلىٰ جهتها كأنّها أرادتْ أنْ تقول له شيئًا في لحظتها الأخيرة، ولٰكنّ الموتَ لم يسمح لها بذٰلك، كانتْ ترقدُ بلا حِراك. لا أدري كيفَ يفهم طفلٌ في مثل سِنّه أنّ أُمّه لن تعودَ إلى الحياة مرّة أخرىٰ، لن توقِظه في الصّباح، أو تُغنّي له أغنية النّوم حينَ يأوي إلىٰ سريره، أو تلفّ له شَطِيرةَ الزّيت والزّعتر، أو تُزرّر له قميصه الكُحليّ... كان هدوء الموت السّاكنِ وجههَا مُحيِّرًا، ولِذا لم يفعل الطّفل شيئًا سِوىٰ أنْ يستمرّ في الإمساك بيده الصّغيرة الحافَة الّتي تنظر منها إليه، وهو جامِدٌ مكانه، عيناه جامِدتان، ولِسانه جامد، وحركتُه جامدة، فقط نَظَرات لا تقول شيئًا، ولٰكنّها تقول كلّ شيءٍ. متىٰ ستُوارَى الثّرىٰ هٰذه الأمّ الّتي كانتْ أحنّ عليه من أيّ شيءٍ؟! متىٰ سيصحو فيجد نفسه وحيدًا دونَها؟! متىٰ سيُدرك أنّ الموتَ الّذي أخذ أمّه لن يُعيدَها حتّىٰ يموتَ هو الآخر. إنّ أعظمَ مآسي الموت أنّه لا يُعيد مَنْ تُحبّ إليك ولو للحظات من أجل

أنْ تقول لحبيبك: أنا آسف، لقد أخطأتُ كثيرًا في حقّك، كلّ ما أريدُه أنْ تسامحني... أنْ تتركني أقبّل يديك ولو لمرّة يتيمة، أنْ أعانقك، أنْ أحضنك، أنْ أرتمي علىٰ كتفَيك من أجل ألاّ يأكلني النّدم علىٰ أيّام مرّتْ بشكلٍ عاديّ ولم ألتفتْ إلىٰ وجعي، ولا إلىٰ حُبّي الّذي ظننتُه عاديًّا أو غير موجود ولـٰكنّه كان أثمنَ ما في الوجود، أكانَ قدرًا علينا أنْ نفقد أحبّاءَنا فجأةً لنكتشف كم كنّا نُحبّهم قبل ذٰلك؟! وكم ستكون الحياة صعبةً وقاسية من دونهم؟!

كُنّا نَرَىٰ هَذِي الحَياةَ جَمِيلةً مِثلَ الحَياةْ... مَملوءةً بالذّكريات الذّاهِباتِ الآتِياتْ... مَحفوفةً بالزّنبقاتْ... كُنّا نُغنّي ثُمّ نزرعُ حُبّنا في الأغنياتْ... اليومَ أَسْكَتَنَا نِدَاءُ المَوتِ قَطّعَ كُلَّ ما في رُوحِنا مِن أُمْنِياتْ... الموتُ وَجهُ رَحِيْلِنَا وبَقائِنا... المَوتُ مَنْفَانا الّذي لا يَنتهي، فِي كلِّ مَنفىٰ سُنبلاتٌ يابِسَاتْ... وحِكايةٌ لا ظلَّ فيها، كلّ ما فيها احتِضارٌ وانفِجارٌ وانْبِتاتْ... يا لَلَّيالِي المُوحِشاتْ...!!

بدأ توافدُ النّاس إلىٰ مُستشفى الشّفاء راكبين سيّاراتهم أو درّاجاتهم أو ماشِين علىٰ أرجلهم... بدؤوا يُغطّون كلّ فراغٍ في باحات المستشفىٰ وساحاته الدّاخليّة والخارجيّة. صار مستشفى الشّفاء بعدَ يومٍ أو اثنين ملجأً. الملاجِئ في غزّة غير موجودة، نحنُ نهربُ من الموت بمواجهته، نلقاه في كلّ شيء، في الخبز، في كوب الشّاي، في الطّريق المهجور، في الحواري والأزقّة، في الضّحكات والدّمعات... لا شيءَ يحمينا منه، لا بيوت ولا شوارع ولا سُقُف ولا جدر، ولا سماء ولا بحر ولا ماء، ولا شيء... نحنُ الموتُ في هيئة بشرٍ يركضون في كلّ اتّجاه...

أقامَ النّاسُ خِيَمًا منصوبةً بشكلٍ عشوائيّ هنا وهناك، وتحتَ أشعّة الشّمس حتّىٰ يأتي دورهم في العِلاج وهم يُعانون آلامًا لا تُحتَمل، أو يحصلوا علىٰ رشفة ماء، أو نظرةٍ من حبيبٍ غابَ في غَمَرات الموت، أو فردٍ من أفراد العائلة ماتت الإجابة الّتي تبحثُ عن وجوده، وما ماتَ السُّؤال!



(٧) لعنةُ اللّه على الحرب

عدتُ للبيت في اليوم الثّالث لأطمئنّ علىٰ قطّتي (جودي). لا أدري ما فعلتْ؟ هل خافتْ من أصوات القصف الّذي لم يهدأ؟! إنّ للحيوان أحاسيسَ ربّما تتفوّق علىٰ أحاسيس البشر. هل أكلتْ جيّدًا؟ هل نامتْ جيّدًا؟! هل أصابها البردُ في اللّيل؟! هي مثلي لم تعتدْ على الخروج من البيت حتّىٰ تأكل من خَشاش الأرض. كانتْ تقضي الوقتَ معي في أحضاني. اليوم اضطَرّتْني الحربُ أنْ أبتعدَ عنها. تركتُ لها طعامًا يكفيها أيّامًا، ودرَّبْتُها علىٰ أنْ تأكل منه كلّ يوم بمقدار. الجوع ليسَ أوّل مرّة يُحاصِرنا في غَزّة! الجوع ليسَ كافِرًا؛ إنّه لا يعرفُ الله!

حينَ سمعتْ خُطُواتي، اقتربتْ تتهادَىٰ نحوي، تترقّبُ لحظةَ اللّقاء، وسَمِعتُ صوتَ حنينِها، قفزتْ إلىٰ حضني أوّل ما فتحتُ الباب، ورحتُ أمسحُ علىٰ رأسِها، وهي تُغمِضُ عينَيها: «كيفَ حالُكِ؟!». دفنتْ رأسَها بين ذراعَيّ وراحتْ تتمسّحُ بي: «لقد تأخّرْتَ عَلَيّ». «إنّها ثلاثة أيّام فحسب». «خُذني معك إلى المستشفىٰ». «لا يُوجَد فيه مُتّسع. أنتِ تعيشينَ هنا مَلِكة». ماءتْ مُواء العِتاب. جهّزتُ لها طعامَها. ووضعتُه لها فوقَ طبليّة صنعتُها بنفسي من بقايا أثاثنا الّذي قُصِف قبل أربع سنوات بعدَ رحيل رَجاء. كانتْ (جودي) تجلسُ فوقَها. وأنا أجلسُ إلىٰ كرسيٍّ. راحتْ تتناول طَعامَها وتنظر إليّ بين حينٍ وآخر كأنّها تقول: «لا تترُكْني وحدي». كانت (جودي) صديقتي ومُؤنستي في ليالي الوحدة.

ظلّتْ تُذكّرني بالرّاحلين، وتجعل لوجودي شيئًا من المعنىٰ وإنْ كنتُ قد فقدْتُه أو كدتُ منذُ ذٰلك اليوم.

أصواتُ القصف لا زالتْ تُسمَع من بعيد. عليّ أنْ أفكّر كيفَ أُديم مِطال الجوع في بيتي المُهدّم هٰذا. كلّ الّذين في شارِعنا غادروا المكان، ولم يأخذوا معهم شيئًا علىٰ أمل أنْ يعودوا. المساكين لا يعرفون أنّهم لو عادوا فلن يعرفوا بيوتهم لشدّة ما سُويّتْ بالأرض وهوىٰ بعضُها فوقَ بعض. وحدي هنا وسط هٰذا الفراغ الصّامت الّذي تفوحُ منه رائحة الموت من كلّ زاويةٍ فيه، مَنْ رآني أخرجُ من بين الأنقاض الّتي خوتْ من كلّ شيءٍ ظَنّني شبحًا أسكنُ الخرابات!

هٰذه ليلتنا الرّابعة منذُ بدء القصف. لا ليلةَ تُشبِه الأخرىٰ. كيفَ يكون للموت هٰذه الوجوه المُتعدّدة. كيفَ يكون لأصواتِ القصفِ في كلّ مرّةٍ رُعبٌ جديدٌ. كُنّا أنا وجودي كلّما هوىٰ صاروخٌ - ولو كان في أقصىٰ شمال غزّة وسمعنا صوتَه - نشعرُ أنّه سقطَ في شارِعنا لهولِه، لا اعتياد علىٰ رُعبِ الأصوات. كلّ انفِجار يخلع القلبَ كأنّه أوّل انِفجار. لا نُسختَين مُتماثلتَين من هَلَعِنا، كلّ نُسَخِ هَلَعِنا فريدة. كانت (جودي) كلّما سمعتِ انفجارًا تركضُ إليّ وتحتمي بي. هي لا تدري أنّني أيضًا محتاجٌ إلىٰ مَنْ أركضُ إليه وأحتمي به.

مضتْ ليلةٌ سمعتُ فيه مع قِطّتي أكثر من ثلاثين انفِجارًا، لا بُدّ أنّ انفِجارًا واحِدًا منها كان كفيلاً بأنْ يقتل أكثر من مئة روحٍ بريئةٍ حالمةٍ في ثوانٍ سريعة. المشكلة أنّ المئة الّتي يقتلها فيها الكبارُ والصّغار، الرّجال والنّساء، الأطفال والشّباب... فيها كلّ هٰذا، ولٰكنّ كلّ واحدٍ من هٰؤلاء كان عالَمًا قائِمًا بذاته، كلّ واحدٍ له أسئلتُه وخوفُه الخاصّ، شَكُّه ويقينُه،

شعوُره بالجدوىٰ وبالعبثيّة، أحلامُهُ في رفيقة دربِه وأحلامُها في رفيق دربِها، خُططٌ مستقبليّة، أفكارٌ خلاّقة، إبداعات واختراعات لم يُسبَق إليها، الدّروب المُوصِلة إلىٰ غدٍ أبيض... كلّ هٰذا كانَ يُقضَىٰ عليه مع مئاتٍ آخرين، بكبسة زرٍّ واحدةٍ من طائرةٍ في السّماء يقودُها كائنٌ بلا قلب!

أردتُ أنْ أشاهِدَ أنا و(جودي) فيلمًا، كنتُ أتدثّر معها بِغطاء واحد. أفضلُ شيءٍ نفعله حتّىٰ ننشغل عن هٰذا الموت الّذي يُصَبّ علينا صَبًّا. من قبلُ اخترتُ قائمةً بأفلامي المُفضّلة؛ أفلام الكوارث في مقدّمتها، وأفلام الصّقيع، مع أنّ أكثر أيّامنا في غزّة دافِئة أو لاهِبة.

اخترتُ فيلم (العائد)، اجتمعتْ فيه الطّبيعة الّتي أحبّ أنْ أشاهدها، والصّقيع، والصّيد، وربّما الاسم الّذي يجعل لك فيما راحَ أملاً بالعودة، مع أنّ الرّاحلين في غزّة لا يعودون، حتّىٰ يعودَ الدَّرُّ في الضّرع.

نَغّصَتْ علينا أصواتُ الانفجارات أنْ نستمتع أنا و(جودي) بالفيلم. كان بعضُها يبدو قريبًا، لدرجة أنّ الغرفة كانتْ تهتزّ ويهتزّ معها التّلفاز. هٰذه الاهتِزازات تُسبّبها انفجارات علىٰ بعد ألفَي متر على الأقلّ. نحنُ يا سادة نتلقّىٰ أطنانًا من المُتفجّرات لا أعرفُ إنْ كان أُلقِيَ علىٰ سِوانا مثلها في التّاريخ. وهنا غَزّة مساحتُها كاملةً أقلُّ من مساحةِ عاصمة عربيّة ويُصَبّ عليها كلّ هٰذا، إنّ وطني الذّبيح يحتاجُ أنْ يشعر أنّه وطن، وأنّه بلد، وأنّ ناسه ناسٌ حقيقيّون، نحنُ لسنا ألعابًا أيّها الفَجَرة، نحنُ لسنا حجارةً ولا حديدًا ولا أدوات. نحنُ بشر، لا فرقَ بيننا وبينكم، إذا كُنتم تظنّون أنّكم نوعٌ خاصٌّ من البشر فوقَنا، فأنتم أحطّ خلق الله شعورًا، أين معاني الإنسانيّة الّتي تتشدّقون بها...؟! أستغفر الله... يبدو أنّني كفرت...

أيّ إنسانيّة في زمن الإبادة والتّطهير العِرقيّ؟! أيّها الوطن الّذي يُقتَل صباحَ مساء، ويُنحَر في كلّ حين، سلامًا لقلبك الموجوع، ولشعبك المذبوح.

غفتْ (جودي) بين ذراعَيّ. يا الله أَعْطِني قُدرتَها على النّوم في هٰذا اللّيل الّذي ليسَ له صَباح. سحبتُ الغِطاء عليها وعَلَيّ، ورحتُ أحاول أنْ أنامَ مثلَها. مرّتْ عشر دقائق سمعتُ فيها عشرة انفِجارات جديدة. هل كلّها صواريخ أم انفِجارات غاز أو نتيجة حرائق، لا أدري... غيرَ أنّني حمدتُ الله أنّ باب غرفتي ليسَ له نافذة، وإلاّ لتحوّل ليلي إلىٰ نهار لشدّة الضّوء النّاتج عن هٰذه الأهوال.

نصفُ ساعة. لم أنم. هٰذه قِطّتي تغطّ في نوم هادِئٍ وعميق. حسدْتُها. ساعةٌ ساعتان. أتقلّب يمنةً ويسرة. تعبتُ من التّقلّب ها أنذا أسير في نفق التّعب الّذي يُفضِي في النّهاية إلى النّوم. تناهتْ إليّ - وأنا أستسلمُ للنّوم في محاولتي العشرين - أصواتُ صرَخات الّذين أخرجْناهم أحياء من تلك الأنقاض طَوال الأيّام السّابقة. نَظَراتُ عيونهم وهم يريدونُ أنْ يقولوا شكرًا ولٰكنّ الجُرح أكبر من أنْ يسمح لألسنتهم بالنُّطق. مناظر لا يُمكن أنْ تنسىٰ. لون الدّم لا يُمكن أنْ يُمحَىٰ للحظةٍ من الذّاكرة. الأيادي الّتي كانتْ تتشبّث بِنا. الدّموع الّتي تختلطُ بتعابير الوجه الدّالّة على الامتِنان: «لقد كُتِبَتْ لنا حياةٌ جديدةٌ بسببكم». ولٰكنّها حياةٌ مرهونةٌ للموت علىٰ أيّة حال، والموتُ مُصابٌ بالجوع المُزمِن.

لم أستطع النوم حتّى الثّالثة فجرًا. كيفَ يكون النّوم عزيزًا وصعبًا إلىٰ هٰذا الحَدّ؟! قمتُ، ذرعتُ بضع خُطُوات في الغرفة. ذهبتُ إلى الحَمّام. شعرتُ ببعضِ البرودة على البلاط. خرجتُ. شربتُ كوبَ ماء، وعدتُ إلىٰ سريري.

(جُودي) لا تزال تتكّور علىٰ نفسِها مُستسلِمةً للنّوم. تمدّدتُ بجانِبها. سمعتُ هريرَ نومِها اللّذيذ، تمنّيتُ لو أنّني مكانها. حاولتُ النّوم. عاودَتْني الصَّرَخات، والنّداءات في باحة المستشفىٰ. بعضُ أصوات الضّحايا لا تخرجُ من الرّأس!

صحوتُ بعدَ نومٍ مُتقطّعٍ في السّادسة فجرًا. هَيّا إلى العمل. لا بُدّ أنّ (بسّام) ينتظرني مع بقيّة الزّملاء. قلتُ له: «انسَ أنّني كنتُ رئيسَك في العمل فيما مضىٰ، وانسَ أنّني كنتُ رئيس قسم التّمريضِ بأكمله، لقد صار ذٰلك ماضِيًا تركتُه خلفَ ظهري، أنا اليوم جِئتُكَ مُتطوّعًا. عُدتُ بإرادتي إلى العمل. أريدُ أنْ أكفّر عن ذنوبي تُجاه نفسي، وعن ألم الفقد تُجاه رجاء. أشعر أنّني أتطهّر بذٰلك حَقًّا». قال لي: «تنام معنا في غرفة الأطبّاء أو المُمرّضين». وافقتُ. في اليوم الثّالث لم يعدْ لي مكانٌ للنّوم بينهم، ولم يعدْ مكانٌ لهم أيضًا. احتلّ المرضىٰ جزءًا من مناماتهم. كلّ شبرٍ في المُستشفىٰ فوقَه حكايةٌ مغموسةٌ بالدّم. ما أوجعَ القصّة الّتي يكونُ حبرُها دمًا!

سأعودُ إليكَ يا (بسّام)، لا يُمكن أنْ أخذل (رَجاء). سأعودُ من أجل أنْ أشعر أنّ لحياتي قيمة. لعنة الله على الحرب يا (بسّام). لعنةُ الله علىٰ الدّول الكُبرىٰ. هٰذه الّتي يُسمّونها الدُّول الكُبرىٰ هي أصغرُ ما رأيتُ في حياتي. لعنة الله على المعابر المُغلقة يا (بسّام)، ألا يُمكن للمقاومة أنْ تقصفها أو تحتلّها، ثُمّ تتحكّم بها فتدخل لنا ما يُبعِدُ عنّا شبح الموت ولو قليلاً؟! لعنةُ الله على الدّول الّتي يُسمّونها شقيقة، لو كانتْ شقيقةً لَما تركتنا نموتُ أمام أعيُنها وهي تدير لنا ظُهورها لتبول في سراويلها علىٰ الجهة الأخرىٰ. لعنة الله على القنوات الّتي تتلذّذ بآخر الأرقام الّتي وصلَ إليها عَدّاد الشّهداء، كأنّنا أرقام في لعبة حسابيّة... لعنة الله... آخ بس!!

هٰذه ليستْ حربَ تحريرٍ يا (بسّام)، ليتهم يتوصّلون إلىٰ هُدنة، إلىٰ اتّفاق يوقف طوفان الموت الّذي ابتلع كلّ شيءٍ في غزّة. قلتُ لكَ يا بسّام: «هٰذه ليستْ حربَ تحرير، نحنُ نموتُ في غزّة، والشّعوب العربيّة تجلسُ في بيوتها علىٰ مؤخّراتها تتغنّىٰ بانتِصاراتنا، ألا يُمكن لهم كما تغنّوا بانتِصاراتنا أنْ يبكوا علينا، أن يُقيموا المآتم علىٰ ضحايانا؟! مَنْ وزّع على النّاس فاتورة الدّم؟! من قال إنّ دمًا أغلىٰ من دم، وإنّ رأسًا أغلىٰ من رأس؟! وإنّ دماءَنا رخيصة لا قيمة لها حتّىٰ تُهدَر بهٰذا الشّكل الفاضِح الآثم. نحنُ نريدُ هُدنة، نريدُ وقفًا ولو مُؤقّتًا لهٰذا الجنون. أمّا أنْ تطالبنا الشّعوب الخارجة عن الإحساس بأنْ نستمرّ في الحرب حتّىٰ التحرير، فعليهم أنْ يخجلوا قليلاً من الموت، وأنْ يحرّروها معنا إذا أرادوا ذٰلك!».

لعنة الله على الحرب. لن أملّ من ذٰلك يا بسّام. لم يمضِ عليها إلاّ أربعة أيّام كأنّها أربع سنواتٍ، لقد شِبْتُ فيها أكثر من عشرة أعوام، ألا ترىٰ إليّ، ألا تنظر إلىٰ وجهي. إنّ رحيلَ رجاء لم يكسرْني كما كَسَرَتْني هٰذه الحرب، إنّ رحيلها لم يهزِمْني كما هَزَمَتْني، ولَمْ يُهرِمْني كما أهرمتْني، لقد عَجِلَ إليّ الشّيب، إنّ هٰذا البياض يُغطّي رأسي كلّه أو يكاد، لم يكنْ كذٰلك قبل أربعة أيّامٍ يا بسّام. واحسرتاه!

لعنة الله على الحرب. مُشعِلِها، وحامِلِها، ومُغذّيها، وداعِمِها، والمُتفرّج عليها، والباكي علىٰ ضحاياها في الفنادق، و... هل تريدُني أنْ أقول: لعنة الله على العرب الّذين تركونا لمصيرنا وحدنا... أستغفر الله... كانتْ رجاء لا تُحبّذ أنْ ألعن أحدًا، ولٰكنّ طفولتي البائسة في مخيّم جباليا أدخلتْ هٰذه الكلمات إلىٰ مُعجمي الخاصّ. لعنة الله إذًا علىٰ...

لا أدري، ماذا يفيد أنْ ألعن؟ أنا أُنفّس عن غضبي يا بسّام، لا أعرفُ طريقًا أخرىٰ، إنقاذ الأرواح لا يُنفّس الغضب بل يزيدُه اشتِعالاً يا بسّام. هٰذه الدّماء الّتي أراها تملؤني غضبًا وحُزنًا وعجزًا معًا. «ماذا أفعل يا بسّام؟». «اِجْرِ في الطّرقات يا فرج». «لٰكنْ لم تعدْ هناك طرقاتٌ في غزَة صالحة لأنْ أجري فيها». «اصرخْ بصوتٍ عالٍ حتّىٰ تتشقّق الحنجرة». «صوتُ القصف غَطّىٰ علىٰ أعلىٰ صوتٍ هنا. ماذا يُمكن أنْ يفعل الإنسانُ يا بسّام؟! أنا لا أقبلُ من أي مخلوق يعيشُ بأمان أنْ ينصحني بالصّبر علىٰ الموت يا بسّام. أنتَ تشعر بما أقول؟!».



(٨) صَلِّ على النّبيّ. هذا من فضل ربّي!

فركتُ رأسَها. مسحتُ فروَها الأبيض بباطنِ كفّي، ثُمّ ضَمَمْتُها إلَيّ طويلاً، وهمستُ في أذنها: «قد تطول غيبتي هٰذه المرّة». قاطَعَنا صوتُ الانفِجارات بُم... بُمم... بُممم. تابعتُ: «أرأيتِ؛ القصف لا يتوقّف. عليّ أن أُساعدَ النّاس». ماءتْ. غطّى القصفُ علىٰ صوتِها المجروح. «سأغيبُ بضعة أيّام، حينَ تسنحُ لي الفرصةُ بالعودة إليكِ لن أتأخّر. تركتُ لكِ الطّعام مُصنّفًا حسبَ الأيّام. طعامُ اليوم الأوّل على الطّبليّة. واليوم الثّاني على المغسلة. واليوم الثّالث على المجلىٰ. واليوم الرّابع أمام المكتبة. أمام آخر كتابٍ في الرّفّ السّفليّ. واليوم الخامس علىٰ طاولة التّلفاز، دفعتُ التّلفاز إلى الوراء قليلاً فصار لكِ مُتّسعٌ حينَ تقفزين إلىٰ هنا لتتناولي الطّعام براحتك. واليوم السّادس قبل بابِ الحمّام. احفظي الأيّام والأدوار جيّدًا يا (جودي). واليوم السّابع... توقّفْتُ قليلاً، أتمنّىٰ أنْ أعودَ إليكِ قبل أنْ ينقضي الأسبوع. اليوم السّابع وضعتُه على السّرير، إذا أتيتُ في هٰذا اليوم فسنتناوله معًا». أشاحتْ بوجهها إلى الجهة الأخرىٰ، وأغمضتْ عينَيها، وشعرتُ أنّ دمعتين قد سالتَا من طرفِ عينَيها.

أرسلتُها على الأرض بهدوء. ابتعدتْ خطواتٍ عن قَدَميّ، وتكوّرتْ علىٰ نفسها فوق البلاط، وأشاحتْ من جديدٍ بوجهها، شعرتُ بحزنها: «لا تحزني يا قِطّتي العزيزة. الحرب تفعل هٰذا. أنتِ تعرفين كم هي صعبةٌ

هٰذه الحرب وقاسية وملعونة. لو كانتِ الظّروف أحسنَ من هٰذا ما تركتُكِ يومًا. لقد قضينا السّنوات الأربع الماضية دون أنْ يتركَ أحدُنا الآخر يومًا. أليسَ كذٰلك؟ ولٰكنْ هل أقول لكِ مرّة أخرىٰ إنّها الحرب؟ و(رجاء) لن تُسامِحني إذا بقيتُ معكِ دون أنْ نفعل شيئًا». أرسلتُ نحوها نظرةً أخيرةً وخرجتُ.

في الطّريق الّتي لم تعدْ طريقًا بالمعنى الحقيقيّ كان كلّ شيءٍ مُهدَّمًا. البيوت ركعتْ. الأعمدة الإسمنتيّة تقصَّفَتْ. أعمدة الكهرباء والهاتف والإنترنت سجدتْ على الأرض، وتناثرتْ أسلاكُها في كلّ مكان. مِظلاّت الباصات ذابَ حديدُها واحترقَ قِماشُها. رأيتُ إعلانًا لماراثون كان سيُعقَد أمس، ما تبقّىٰ منه كلمة: (يُمنَح...) لا أدري ماذا يُمكن أنْ يُمنَح المُشارِك في أرضٍ لم تعدْ صالحةً للحياة حتّىٰ تكون صالحةً للجري. المسافات الّتي لا أبنية فيها لم تسلمْ هي الأخرىٰ؛ كيفَ يُمكن أنْ تُهدِّمَ شارِعًا مُستويًا؟ تُطلِق عليه الصّواريخ فتُحدِث فيه حُفرًا واسعةً غائرة، ليس من المعقول أنْ تكون هٰذه الحُفَر الّتي يصل عمقُ بعضِها حوالي عشرين مترًا قد حدثتْ بسبب القذائف، لا بُدّ أنّ زَخّة من النّيازك العِملاقة هِيَ من تسبّبتْ بذٰلك!

رأيتُ في عُبوري هٰذا الخراب محطّة للبترول (كازيّة)، اسمُها (فارس للبترول)، ضحكتُ وهمستُ: أينَ كُنتَ أيّها (الفارس) حينَ قُصِفَتْ محطّتك؟ كان سقفُها قد انهار فوقَ عدّاداتها فتغطّتْ بالسُّخام. نصفُ الحروف من العنوان قد سقطتْ، لم يبقَ ما يدلّ عليها إلاّ (تنكًا) يبدو أنّه كانَ يُحاول الوصول إليها من أجل أنْ يفرغ الوقود في خَزّاناتها، فطَبعتْ قذيفةٌ عاشِقةٌ قُبلتَها الحارّة عليه فانشطرَ نِصفَين واحترق.

البيوت قذفتْ ما في أعماقِها إلى الشّوارع، تحتَ الرّدم أو فوقَه، الأرائك. اللُّعب. البراميل. الخزائن الحديديّة. كلّ ما في البطن نثرتْه الصّواريخ وبعثرتْه على الطُّرُقات هنا وهناك.

بعضُ البنايات لم تُصِبْها القذائف إصابةً مُباشرة. رَكّعتِ البيوت الّتي حولها، وطارتْ شظاياها إليها، فخلعتْ الأبواب الحديديّة للمحالّ التّجاريّة أسفَلَها. بدتْ مثلَ عجوزٍ تفغر فاهًا خاليًا من الأسنان، هٰذا الفراغ القاتِم كان بصمة الموت حينَ سَحَبَ يدَها قبل أنْ يفعل فَعلته!

لا حسّ هنا في هٰذه اللّحظة المُخيفة سِوىٰ صوتِ أنفاسي، وأنا أُجاهد بدرّاجتي الهوائيّة أنْ أقطَعَ المسافة إلىٰ مستشفى الشّفاء بأقلّ وقتٍ مُمكن. المكانُ كان خاليًا من البشر، ومن الحيوانات، ومن الشّجر؛ الشّجر احترق، البشر هربوا، والحيوانات ماتت. ولا يُوجد غير تلالٍ من الرُّكام، كلّ تلةٍ هي مآل بنايةٍ كانتْ قائِمةً هنا تضجّ بالعوائل والحياة، وكان فيها قصص لم يتسنَّ لأصحابها أنْ يَرْوُوها؛ قصص طويلة مُوجِعة حَدّ الانتِحاب!

السّيارات مبعوجة. مُلفّعة بالغُبار والسُّخام، مُكسّرة النّوافذ، مُحطّمة الأبواب، يجلسُ فوقَ سقفِها المطعوج بقايا الصّخور وبعضُ ما طار من محتويات البيوت فاستقرّ هنا، أقمشة، ستائر، خزائن. مشهد لم أره في الحروب السّابقة كلّها. المحلاّت الّتي حافظتْ علىٰ بعضِ عناوينها كانتْ شاهِدًا بائِسًا علىٰ ما حدث. نيون للاتّصالات مُعتمة. بكر للمفروشات دون أثاث. مطعم هنجري جائع، وحتّىٰ مظلّته المصنوعة من قماشٍ مُقوّىٰ تهدّلتْ أمام بابه المخلوع. حجارة بعض الأقواس تخلّتْ عن مكانها، فصار القوس ربع دائرة بعدَ أنْ كان نِصفَها. محلّ

صبري للخلويّات - نبيع بالأقساط. لم يعدْ مجالٌ حتّىٰ للموتِ أنْ يُباعَ بالأقساط، كلّ شيءٍ يأتي دفعةً واحدة!

ينفتح المشهد بعدَ أنْ تصل إلىٰ تقاطعٍ عن يمينك ويسارك مع شارعك علىٰ دمارٍ جديد، الشّوارع بلا وجه غير وجه الموت. كلّ شيءٍ كان قائمًا علىٰ حوافّها صارَ مُتناثرًا فوقَها. صمدتْ هٰذه المحطّة الّتي علىٰ رصيف الشّارع - حيثُ ينتظر النّاس الحافِلات ليركبوها - صمودًا أسطوريًّا مقابل ما يُحيط بها من دمار، لقد بُعثِرَ زُجاجُها، ونُسفَتْ إحدىٰ قوائِمها فسجدتْ تمامًا، أمّا القائمة الثّانية فركعتْ ركوعًا بزاويةٍ منحرفةٍ؛ هٰذا وجه الصّمودِ هنا. أمّا المقعد الّذي يجلسُ عليه المنتظِرون فلم ينتظرهم هٰذه المرّة، ولا أدري أينَ طار، ولا أينَ استقرّ، ولا كيفَ تَحطّم، ولا كيفَ تركَ مكانه للفراغ!!

بعضُ البنايات لم يكنْ قد اكتمل بناؤها، كانتْ بواجهات ونوافذ من دون زُجاج، ولا تقطيعٍ للغرف، هٰذه كانتْ أكثر البنايات حَظًّا، حينَ تدمّرتْ، كان علىٰ أصحابها أنْ يتحسّروا نصفَ حسرة أصحاب البنايات المُكتملة، كيفَ يكون النُّقصان كمالاً؟! كيفَ يكون التّمامُ نُقصانًا؟!

بنايةٌ هنا، كانَ قد نُقِشَ علىٰ واجهتها الأماميّة بعرض عشرين مترًا، وبكلماتٍ كبيرةٍ وبخطّ كوفيّ العبارة الآتية: «صَلِّ على النّبيّ. هٰذا من فضل ربّي». صلّيتُ على النّبي وأنا أقرأ العبارة، كانتْ هي كلّ ما تبقّىٰ لصاحِبها.

البنايات ذات الواجهات الزّجاجيّة الّتي ترتفع أكثر من ستّة طوابق كانتْ الأسوأ حَظًّا. لقد خرّ زُجاجها كلّه، ولم يبقَ إلاّ نوافذ محترقة تندبُ ما جرىٰ، وبعدَ أنْ كانتَ مظهرَ جَمالٍ فيما مضىٰ بزُجاجها الكُحليّ

الّذي يعكسُ الفخامة، صارتْ شاهِدَ قُبْحٍ وأسًى لا يُمكن أنْ تراه إلاّ في الكوارث؛ وأيّ كارثةٍ أشدُّ من الحرب؟!

تلال... تلال من الرّدم... تلال من الحجارة والزّجاج والخشب والحديد.. تلال علىٰ طول الشّوارع... يظلّ هٰذا المشهد يرافقك لمئات الأمتار، لآلافِها، هُنا بنايةٌ محترقةٌ بالكامل إلىٰ جانبِ صاحبتها الّتي لم يطلْها الحريق، مَنْ أرادَ أنْ يعرفَ الفرق الحقيقيّ بين الأسودِ الحالك والأبيضِ النّاصع فلْيقفْ للحظةٍ هنا، ويُرسلْ نظرةً داميةً إليهما!

مرّتْ سيّارة إسعافٍ بجانبي. لم تعدْ تهتمّ سيّاراتنا بالطّرق الصّالحة للمشي فوقَها، كانتْ تتعرّج وهي تحتال على الطّرق المُمكِنة، لٰكنّها كانتْ كذٰلك تصعدُ فوقَ كلّ ركامٍ أقلّ من مترٍ أو مترٍ ونصف المتر لتعبر فوقَه، كانتْ معرّضة لتنقلب في هٰذا الاقتِحام البطوليّ فتقتل مَنْ فيها بدلَ أنْ تُنقِذهم، لٰكنّها لم تكنْ تملك خيارًا آخر.

مررتُ بجانب مُستوصَفٍ طبّي، رأيتُ سيّارة إسعافٍ أمامه تُنزل بعضَ المُصابين. كان أمامه تجمهرٌ طفيفٌ للنّاس. لا بُدّ أنّ هٰؤلاء لم يستطيعوا الوصول إلىٰ أيّ مشفًى قريب، صرنا في غزّة نداوي الجرحىٰ في أيّ مكانٍ مُمكن. المهمّ أنْ تُمسِكَ بخيطِ الحياة قبل أنْ ينقطع من أجسادِ هٰؤلاء المَفقودين.

مضيتُ في طريقي إلىٰ مُستشفى الشّفاء، كيفَ يُمكن أنْ تتخيّل أنّ هٰذه السُّقوف المُسوّاة بالأرض كان تحتها عشرات الأحياء، سعيدُ الحَظّ مَنْ ماتَ تحتَ الرّدم دون أنْ يُعاني. آخرون يجلسُ معهم الموت تحتَ الرّكام، وهو يُراودهم في كلّ لحظةٍ أنْ ينتزعَ أرواحهم، وهم يُدافِعونه،

لكنْ كيفَ سيدفعونه عنهم وهم يُواجِهونه وحدهم دون أيّ مُعين. أصابني الرّعب فجأةً حينَ تخيّلتُ أنّ عددًا كبيرًا من هؤلاء في هذه اللّحظة الّتي أمرّ بها قريبًا منهم يستغيثون بنا نحن الأحياء من أجل أنْ ننقذِهم ولكنّنا لا نعرفُ كيف. حتّى الجرّافات والآليّات الّتي يُمكن أنْ تُساعدهم صارتْ قليلة وعزيزة، وأكثرها دُمِّر ولم يعدْ مُمكنًا استخدامُه.

هل يُمكن أنْ تشاهِدوا بنايةً نُسِفَ صدرها الأعلى، فأمال الجهة اليُمنى على اليُسرى، وهدّم أكثر الثّلث الفوقيّ، وتركَ السّيقان من الأسفل قائِمة؟! مشهدٌ غريب. ذابح. شبكُ الحماية الّذي على النّوافذ في الجزء السّفليّ أرخى قُضبانه واستسلم للفاعل، بعضُها أرادَ السّقوط الكامل المريح فتعلّقتْ به حافّةٌ لئيمةٌ فأبقتْه مُتأرجِحًا لا هو في مكانه ولا هو هاوٍ.

مرّتْ عَرَبةٌ (كارو) يجرّها حِمارٌ يركبُ على خشبتها المجرورة شابّان ويشدّان الحبل المربوط في عنقه ليُسرع أكثر، لوّحتُ لهما بيدَيّ، وابتسما في وجهي، وضَحِكَا كأنّهما يقولان: «نحنُ أسرعُ منك. لدينا حَظّ يا بائس الحظّ». كيفَ يُمكن أنْ يضحكَ أهل غَزّة وسطَ هذا الدّمار؟!

تابعتُ سيري باتّجاه المُستشفى. مررتُ بمنطقةٍ مُدمّرة، يركضُ في شارعها حوالي عشرةِ أطفال. من أين خرجَ هؤلاء. كانوا يلعبون بكرةٍ مُمزّقة. يقفزون بمرح كأنّ الحربَ لا تعنيهم، يصيحون، ويتشاتمون، ويتقاذفون كرةً مسحتْ حربٌ شعواء نصفَ جِلدِها بالسّواد، حَيَّيْتُهم. توقّف أحدُهم وهتف: «تعال العبْ معنا يا عمّ. الجوّ جميل». تابعتُ طريقي وأنا أضحك، للأطفال قدرةٌ على أنْ ينتزعوا منكَ الضّحكات في أحلكِ الأوقات.

العجائب لا تنتهي. رأيتُ سيّدة في السّتين من عمرها. استوقفتْني لهفتُها. نزلتُ عن درّاجتي، ومشيتُ إليها، كنتُ أريدُ أنْ أسألها ما الّذي جاء بها إلىٰ هنا في هٰذا الوقت؟! وهي تعلمُ أنّ الموت يتربّصُ بها، حينَ صرتُ قريبًا منها بادَأتْني بالقول وهي تُشير إلىٰ بيتِها المُهدَّم: «شايف كيف خلّوها يمّة زي الحلم... إيش عملْنا فيكم يا مقاطيع أهاليكم...». وكرّرَتْ وهي تمسحُ دمعةً سالتْ من تحتِ جفْنها الأيمن بحسرة: «إيش عملنا فيكم؟!». ومشتْ أمامي وهي تلبسُ الثّوب الفلسطينيّ الأسود المُطرّز كأنّما تريدُني أنْ أتبعها: «إيش عملنا فيهم الصّهاينة... دمار شامل... لا تصلح للحياة...» ووضعتْ كَفّها فوقَ عينَيها كمظلّة وهي ترنو إلىٰ آثار بيتِها. سألتُها: «يا حجّة ليش إجيتي اليوم لهون؟». ردّت: «جيت أبكي على الأطلال...» وضَحِكَتْ وهي تُدير وجهها إليّ وتتمعّن فِيّ: «هَمْ بِبَكّي وهَمْ بِضَحِّكْ». ومشتْ من جديد، وراحت تنحني وتنبشُ الرّكام، عَثَرتْ علىٰ صورةٍ يبدو أنّها لابنها، التقطَتْها من الأرض، ومَسَحتْ عنها الغُبار وقَبَّلَتْها ثُمّ ضَمَّتْها إلىٰ صدرها، خِفْتُ أنْ أسألَها إذا كان شهيدًا من قبلُ أم أنّه استُشهِدَ في هٰذه الحرب. وما الفرق؟! نحنُ إمّا شهداء ماضون وإمّا شُهداء آتون!

تابعتْ نبشَها الرّكام. عثرتْ علىٰ لعبةٍ قد تناثرَ شعرُ رأسِها وبُتِرت ساقُها. يبدو أنّها لعبةُ حفيدتها. نَكَتَتْ عنها الغُبار، ورفعتْها إلى الأعلىٰ كأنّها تُرقّصها، وهتفتْ: «إيش بدّي أقلّك يمّة... قلتُ بلكي ألاقي لي شي أقدر أسحبه من ها الأغراض...» ومسحتْ مرّة ثانيةً دموعًا تساقطتْ من عينَيها: «أبدًا.. أبدًا ما لقيت شيء... عليه العوض ومنه العوض... حسبُنا الله ونِعم الوكيل». ومشتْ خُطُواتٍ أخرىٰ إلىٰ ما كان مكان

المطبخ: «قاعدْ بطّلع بلكي لقيت أكل... أو أيّ شيء أستصلحه لها الأولاد اللّي تركتُهم وراي». وتنهّدتْ تنهيدةً طويلةً، ثُمّ أردفتْ: «لا... لا... كلّ شيء مطبوق على بعضه.. يا ريت أشوف لي حاجة هيك... ولا شنطة من شُنطي.. هييه... فيلا بيتي كان...». صعدتْ أعلى وأنا أتبعها ولا أدري ماذا أقول. كانتْ خزّانات الماء البيضاء قد هوتْ على بطنها، نَظَرتْ في داخلها، لم تجدْ قطرةَ ماءٍ واحدة... فيلا بيتي كان يا إبني... بيجي بِشْنَعْشَرْ ألف دولار فرشتُه... بسْ... وأنا قاعدْ بدّي أصلّي العشاء، ولا النّاس خُرْبُط خُرْبُط نازلين ع الدّرج... جانا ابن أخوي دَقّ ع البيت: الحقي يا عمتي اشرُدي... بقولّه: إيش فيه وله؟ بقولّي: إخلاء.. إخلاء.. نزلت أجري أَطَّرْبَق، من عَمَيان قلبي خلّيت كلّ شي وراي... والله ما طلعتْ إلاّ بها العباي المعفّنة... ما طلعتشْ إلاّ فيها وشنطتي هاي الّي ع ظهري... من كثر القصف بحسّ الأرض بدها تطلّع عين زُبيدة.. بدهم يطلعولنا ميّة من تحت الأرض من كثر القصف... هَدّوا بلادنا بالصّواريخ... لو كُنّا قوّة نوويّة أولى في العالَم ما ضربوها بهاي الصّواريخ... إيش إحنا عملنا فيهم.. بحبّوش يشوفوا أصلاً حدا مرتاح في حياته... احتلّونا وبدهم كمان يموتونا... حسبي الله ونِعم الوكيل فيهم، وفي كلّ مَنْ تواطأ معهم...».

نخلةٌ صامدةٌ لم تحترق بين عمارتَين مُهدَّمَتَين تمامًا. سألتُها: «هل أساعدك في شيء يا خالة؟!». مسحتْ بنظراتِها الحنونة رأسي حتّى قَدَمَيّ مرّتين، وهتفت: «الله يعينك ع حالك يا خالتي... روح الله معك!».

(٩) السِّباقُ مع الموت!

وصلتُ إلىٰ مستشفى الشّفاء مُنهَكًا لا من طول الطّريق، ولا من وعورتها رغمَ أنّها تعجّ بالحُفر وتحوّلتْ في أكثر أجزائِها إلىٰ خنادق، بل مِمّا رأيتُ في عُيون النّاسِ من الحُزن، وما في وجوههم من الأسىٰ، كيفَ لِمثْلِ هٰذا أنْ يُنسَىٰ؟!

أردْتُ أنْ أدخل بدرّاجتي إلىٰ درج الطّوارِئ وأركنَها في أسفله، في الزاوية الضّيّقة الواطِئة الّتي تحَوّلتْ مبيتًا لي بعدَ أنْ لم يعدْ موضعٌ في المُستشفىٰ لآوي إليه، ما كدتُ أركنُ الدّرّاجة حتّىٰ تلقّاني أحدُ الملهوفين، شَدّ الدّرّاجة نحوه وهتف وهو يلهث: «أريدُ أنْ أستعيرها». «إنّني بحاجةٍ لها». «لستَ أكثر منّي... أرجوك، أريدُ أنْ آتي بأمّي عليها من تل الهوىٰ، إنّها تموت». «لٰكنّ تل الهوىٰ بعيدةٌ من هنا». «أرجوك ليسَ هٰذا وقتَ الجِدال، إنّ أمّي تموت». أعطيتُه الدّرّاجة، رَكِبَها علىٰ عجل، هتفتُ: «لا تتأخّر عليّ، ليسَ لديّ وسيلةُ نقلٍ سِواها». رفَع يده من وراء ظهره شراعًا ليقول: «توكّلْ على الله».

كان مدخل الطّوارِئ قد تحوّل إلىٰ سيلٍ من النّاس الّذين يَغْدُون ويروحون، لحقتُ بِنَقّالةٍ عليها أحدُ الجرحىٰ، كان المُمرّضون قد أزالوا عنه قميصه، وعَرَّوْا نصف صدره الأعلىٰ، أمّا نصفه الأسفل فكان يقطرُ دمًا، وكانتْ قطرات الدّم تُشكّل خيطًا رفيعًا علىٰ بلاط الأرضيّة الّذي سرعان ما يتبدّد في فوضى الأقدام.

وقفتُ علىٰ رأسه، نَظَر في عينَيّ، أردتُ أنْ أقول له أنْ يتحمّل الوجع ريثما نُجري له الإسعافات، لٰكنّ عينَيه كأنّما أرادتا أنْ تقول إنّني أعرفُ ما تودّ أن تقوله أيّها الغريب، كلّنا في هٰذا الوطن غُرباء، نُقتَل لأنّه لا أحد يعرفنا أو يتعرّف علينا، راحَ يتلو قولَه تعالىٰ: «واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فإنَّكَ بأعيُنِنا». رَدَّدَها غير مرّة، وهو مُستْلقٍ علىٰ ظهره مُرجِعًا رأسَه إلى الوراء قليلاً لتلتقي عينانا، وكأنّه هو الّذي يُريد أنْ يُصبّرني، كانتْ عيناه تقولان ما لا يُمكن للّغة أنْ تقوله، إنّه الإحساس الّذي لا ترقىٰ إليه المُفرَدات، لا أدري لماذا أحسستُ بحرارةٍ في عينَيّ، وبرغبةٍ شديدةٍ في البُكاء، تماسَكْتُ حتّىٰ لا يَرانا نحن المُسعِفين ضُعفَاء وهو الجريح النّازف فينهار، راح يهتفُ: «ما بِدِّي إشي... أنا صابر». لم يتوقّف النّزيف عن التّدفق من بطنه، ولا من فَخِذَيه، كان النّزيف في المسافة القصيرة الّتي نسوق فيها النّقالة المُتحرّكة قد صبَغَ البياض حمرةً. هتفَ من جديد: «أنا صابر.. ربْنا يشفي أبويا وإبني». انحنيتُ برأسي نحوه، ورحتُ أشدّ بأصابِعي علىٰ عَينَيّ حتّىٰ لا تنفجرا بالدّموع، تابَعَ بصوتٍ أوهنَ من سابِقه بسبب النّزيف: «نِفْسِي الله يشفي أبويا... أشوف أبويا مليح يا ربّ، والله بكون مبسوط إذا رجع أبوي يمشِي علىٰ رِجلِيه يا الله، وإبني يشوف... أنا مش مهمّ.. لو استُشهِدت الله يرحمني...». لم أتمالكْ نفسي مع العبارة الأخيرة فرحتُ أنشج، أردْتُ أنْ أقول لزملائي الآخرين: «لا أستطيع أنْ أستمرّ معكم». توقّفْتُ بالفعل للحظة، واستمرّتِ النقّالةُ ذاتُ العجلات بالمسير إلىٰ غرفة العمليّات، صارتْ تبتعد، أعادَتْني إليها من جديدٍ كلمة: «أبوي، نِفْسِي يا الله تِشفي أبوي».

دخلْنا به إلىٰ غرفة العمليّات، كان طاقم الأطبّاء يملأ الغرفة الّتي كانتْ تجري فيها أربع عمليّات في الوقتِ نفسِه، كان علىٰ هٰذا الجريح الجديد أنْ ينتظر، كلّ مَنْ يدخل هٰذه الغرفة يدخل في سِباقٍ مع الموت، تُركَنُ عربتُه جانِبًا، ويبدأ الجري نحو الحياة، فيما يجري الموتُ وراءه، مَنْ يصل إلىٰ خَطّ النّهاية قبلَ الآخَر يكونُ هو الفائز! ولأنّ الموت اعتادَ الجري منذُ بدء الخليقة فغالِبًا ما يكونُ هو الفائز.

في السّرير الثّالث لم تنجح العمليّة مع طفلٍ في العاشرة، جرىٰ مثلَ غيره ولٰكنّ الموتَ كان أسرع. كان الطّفلُ ذو العاشرة قد غَطّى الشّاشُ الأبيضُ نصفَ رأسِه الأعلىٰ وجبهته، يبدو أنّ الصّاروخ قد مرّ من أعلىٰ هٰذا الرّأس الطّفوليّ المسكين، إنّه نصفُ رأس بنصفِ دِماغ، كانتْ عيناه تتحرّكان ببطءٍ يمينًا ويسارًا مثلَ بندول، كأنّما تبحثان عن طيفِ الحياة الهارب أو المُختبِئ في هواء هٰذه الغرفة الّتي لا يُوجد فيها غير البُؤس، أو ترجُوَان الموت أنْ يُؤخّرَ قدُومَه ولو للحظات ريثما ينطقُ بكلماته الأخيرة، بينما كان شقيقُه الّذي يكبُرُه فيما يبدو بعامَين فوقَ رأسِه يُلقّنه الشّهادَتين، يهتفِ بأخيه، قل: «أشهدُ ألاّ إله إلاّ الله»، وبالكاد تتحرّكُ شفتا أخيه، صوتُه الواهن الضّعيف يجعل الشّقيق الأكبر يُميل أذنه إلىٰ فَمِه: أيوه... أشهدُ ألاّ إلهَ إلاّ الله... وأنّ محمّدًا رسول الله». عيناه تَنُوسان أكثر، وشفتاه تُجاهِدان أنْ تُردّدا الشّهادَتين، أخوه يقترب بأذنه منه أكثر، يسمعُ آخر حروف الشّهادَتين، فيما كانت العينان تُسافِران إلىٰ نفقٍ غير مرئيّ وتنطفِئان انطِفاءة الذّبالة في عتمةٍ لا تنتهي.

مرّتْ سحابةُ النّهار مع عددٍ من الجرحىٰ والشّهداء لا يُحصَىٰ، كنتُ أقولُ إنّه الجريح السّادس والشّهيد الثّامن، عند العاشر أوقفتُ العدّ،

كانتِ الشمس ترحل في الأفق من هنا كأنّها لا تُريدُ أنْ تشهدَ مزيدًا من الدّماء، أو كأنّها خَجِلَتْ من أنْ تظلّ شاهِدةً علىٰ إجرامِ البشر، بدأتْ صُفرتُها تميل إلى الحمرة، كأنّ كلّ دماء شهداء اليومِ صبغَتْها بهٰذا اللّون الأرجوانيّ الّذي يبعثُ قليلاً من الدّفء وقليلاً من الطمأنينة في هٰذا الرّعب والجنون.

حينَ كانتِ الشّمسُ تغيبُ كنتُ أنا أغيبُ معها، انهارتْ قُواي، وارتختْ قدماي، وفجأةً سقطت. رأيتُ نفسي أهوي في بِئرٍ سوداء عميقة لا قرار لها، بقيتُ أهوي علىٰ أمل أنْ أرتطم في القاع، لٰكنّني لم أجدْ قاعًا لأرتطم به، كان سقوطي بلا نهاية، وحينَ أيقنتُ أنّني سأظلّ أهوي وأهوي، توقّف الحلم ولا أدري ما حدثَ بعدَ ذٰلك.

صحوتُ في غرفة الإنعاش، قال لي بسّام: وهو يُشير إلى المحلول الملحيّ، عليكَ أنْ تأكل وترتاح، إنّه إرهاق شديد. كانتْ عيناه تنظران إليّ بحنان: كيفَ يُمكن أنْ يكون للعينَين كلّ هٰذا التّأثير؟! شعرتُ بأنّ لي أهلاً، أنّني لم أعدْ وحيدًا أنتظر الموت، إنّ روح (رجاء) تدفعني إلىٰ الحياة من جديد، فكّرْتُ: يبدو أنّ الّذين أنقذْنا أرواحهم أنا والطّاقم الطّبّي قد أدخلا السّعادة إلىٰ قلبِها، مع أنّني أدرك أنّ حجم الفاجعة في الّذين يعيشون نصفَ أحياء ونصفَ أموات أكبر بكثيرٍ من حجم الفاجعة بالّذين رحلوا، فالموتىٰ أسعدُ حَظًّا!

لم يأتِ صاحبُ الدّرّاجة. سألتُ بَسّامًا عنه، وصفْتُهُ له، قال إنّه لا يعرفه. سألتُ فيما إذا كانتْ قد أدخِلتْ إلىٰ قسم الطّوارِئ أو أيّ من الأقسام الأخرى امرأةٌ كبيرةٌ في السنّ عمرها - تقديرًا مِنّي - ستّون عامًا وقد تكون أكثر من ذٰلك أو أقلّ، ضَحِكَ بسّام، وهتف: لقد دخل منذُ أمس

إلى اليوم أكثر من ثلاثين امرأةً بهٰذه المواصفات، لا بُدّ أنّ درّاجتك لن تعود، وعلىٰ أيّة حالٍ من حظّنا، تنامُ عندنا في المُستشفىٰ، وغدًا يومٌ جديد.

كيفَ يُمكن للغد أنْ يطلع مع هٰذا العدد المتضخّم والمتزايد من الضّحايا، هل يكون الغدُ رهينَ الموت، إذا كان الغدُ مصبوغًا بالدّماء والآهات والصّرخات فمنْ ينتظر طلوعه؟!

نمتُ تحت الدّرج في بهو المدخل عن يسار غرف الطّوارِئ، الدّرج المُفضي إلى الطّابق الثّاني حيثُ بقيّة الأقسام، نمتُ في الزّاوية الضّيّقة الأبعد، كنتُ أحشرُ نفسي هناك كأنّني أريدُ أنْ أذوب ولا يراني أحدٌ أو لا يطلعَ علَيّ صَباح. كان خروجي من قوقعتي من أجل (رجاء)، وكان من أجل أنْ أُساهِمَ في إنقاذ الأرواح البريئة، غيرَ أنّ الّذين يموتون بين أيدينا أكثر من الّذين نُساهِمُ في إنقاذهم. وأنا؟ كان يموتُ جزءٌ منّي مع كلّ روح تُزهَق، ومع كلّ نظرةٍ مُسافِرة، ومع كلّ ارتجافةِ شفةٍ قبل خمودها الأخير، ومع كلّ إنعاشٍ للقلبِ لا ينجح... كنتُ أموتُ علىٰ دُفُعات، إنّ الّذي خرجتُ من أجله يا (رجاء) لا يشفيني، ولا يُعيدُكِ إليّ، ولا يجعلني أتحرّر من سجني، إنّه يزيدُني غمًّا وألمًا. «لن تكونَ وحدَك، يكفي ما تجلدُ به ذاتَك، إنّكَ لستَ أحسنَ من هٰؤلاء الّذين يموتون، إنّهم يموتون دون أنْ يتذمّروا بكلمةٍ واحدةٍ، مع أنّ الصّواريخ ثقبتْ صدورهم، ومزّقتْ سيقانهم، وصنعتْ بهم الأهوال، وأنتَ تتذمّر علىٰ كلّ ما أنتَ فيه من نِعمةٍ، انظر إلىٰ نفسِك؛ إنّك تتمتّع بأعضاءِ جسدك كاملةً غير منقوصة، فأيّ رغدٍ تعيشُ فيه، وأيّ كُفرانٍ بنعمة الله أسمعها منك. ثُمّ ما هٰذه الدّموع الّتي في عينَيك؟ ألهٰذا الحدّ أنّتَ هَشّ؟ أتبكي مثل الأطفال علىٰ كلّ شيءٍ وعلىٰ أيّ شيءٍ. لماذا تبكي؟ قل لي لماذا

تبكي؟! لقد استمْتَعْنا بحياتنا أنا وأنت عشرينَ عامًا كاملة، أليستْ كافية؟!». شعرتُ أنّني كنتُ محتاجًا هٰذا التّقريع القاسي منها من قبلُ، يبدو أنّ كلماتها اللّطيفة السّابقة لم تُجدِ معي نفعًا، لا يُجدي غير صفعةٍ قويّة تُوقظني من سَكْرتي. خجلتُ بالفعل، لقد صدقتْ إنّني لم أرَ اليوم من الجرحىٰ مَنْ كان كامل الأطراف ولو جريحًا واحِدًا، كانوا يأتون وقد تركوا خلفهم في مواقع الانفِجارات عضوًا أو أكثر من أعضائهم، أفلا أشكر الله علىٰ نعمة الأعضاء الكاملة الّتي أتمتّع بها؟! ثُمّ علىٰ تلك السّنين الخُضْر الّتي أعطتْ فيها للحياة قيمة؟!

حاولتُ النّوم مُقِرًّا بخيبتي، وقلّة صبري، وكثرة تذمّري، غيرَ أنّ النوم في هٰذه الزّاوية - مع أنّني أحشرُ نفسي في كيس نومٍ - لم يأتني بسهولة، فكّرتُ في (جودي)، إنّها ذكيّة ولا بُدّ أنّها تتّبع التّعليمات الّتي أعطيتُها لها، لن تجوع ما دام جدول الغذاء واضِحًا لها زمانًا ومكانًا.

وأمّا درّاجتي فمن السّهل أنْ أتقبّل خسارتَها إذا كانتْ تخدمُ الآن في ساحات الحرب المُنتشرة في الشّمال والوسط فتُوصِلُ الجرحىٰ، والجُثَث، والأمّهات اللّواتي لا يستطعْنَ المشيَ علىٰ أقدامهنّ. لن تستطيع الشّعور بقيمة الأشياء مثلما تشعر بها في الحرب، ولنْ تقدّر النِّعَم مثلما تُلجئك الحرب إلىٰ تقديرها!



(١٠) للأَمَلِ رَأيٌ آخَر!

صحوتُ وأذان الفجر. كان للنّداء الخالد الصّاعد من المآذن القريبة وقعٌ آخر، له نغمةٌ شجيّة ساحرة، كلّ كلمةٍ منه تسيل في العروق فأشعر بنشوةٍ غريبة، بلذّة الرّاحة بعد التّعب، بلمعة الدّموع في العيون حينَ تُحرِّك مشاعِرَها الذّكريات، الذّكرياتُ البعيدة الّتي ظلّتْ تُمعن في البُعد حتّىٰ لم تعدْ تظهر إلاّ إذا استَدْعَتْها أصواتٌ حنونةٌ مثل هٰذا الصّوتِ الّذي أسمعه الآن.

لم يَنمِ المستشفىٰ، ولا طاقمه الطّبّي، ولا الجرحىٰ ولا الثّكالىٰ ولا حتّى الموتىٰ. الحرب عمياء، كلّ شيءٍ فيها قاتل، كلّ وجعٍ فيها أكبر من أيّ وجع؛ ذٰلك لأنّه يجرّ مع الإصابة الجسديّة جيشًا من الإصابات المعنويّة؛ الذّكريات السّعيدة، ونَظَرات العِتاب أو الوداع، والكلمات الّتي عاشتْ في القلب، والمواقف الجميلة، والحنين، والرّصيد الكبير من القُبُلات المُختَلَسة... لو كان الفُقْدان للجسد وحده لكان الأمر أهون من أنْ تفقد معه كلّ هٰذا، أيّ وجعٍ تقدر عليه الحرب حتّىٰ تطحننا طحنًا؟!

ماذا فعلتْ (جودي) في اليوم الثّاني؟! لا بُدّ أنّها أكلتْ وجبتها كما هُوَ مُخَطّط، محظوظةٌ قطّتي أكثر من البشر، إنّ الطّعام الّذي كان يفيضُ في بعضِ الأحيان في غزّة، بدأ يشحّ، لا أدري بعدَ شهرٍ من الآن ما الّذي سيحدُثُ لكلّ هٰذه الأجساد الّتي تنزفُ، ما الّذي سيُقِيتها، وما الّذي سيجعل عصب الحياة لا ينقطع منها؟!

هُرِعْتُ، توضّأتُ، صلّيتُ الفجر مع مجموعةٍ من النّاس في إحدىٰ غرف الطّوارئ، صار يَفِدُ أناسٌ بالمِئات إلى المستشفىٰ يمكثون فيه إمّا مع جرحاهم، أو من أجل أنْ ينقلوا شُهدَاءَهم، أو من أجل أنْ يهربوا من القصف. القصف لا يستأذنُ أحدًا، في اللّحظة الّتي يكون (كريم) ذو السّنوات السّبع يلعبُ فيها لعبةَ القطار الّذي يدور علىٰ سِكّةٍ بلاستيكيّة يدخل نفقًا ويخرج من الجهة الأخرىٰ تحدثُ اللّحظة الفارقة، يهبطُ الموتُ علىٰ شكلِ صاروخٍ، القِطار سيكون أكثر حَظًّا من كريم، إذْ إنّه يخرج من النّفق الّذي يدخلُ فيه، أمّا كريم وعشرةٌ من أفرادِ أسرته فإنّهم يدخلون ذٰلك النّفق دون أنْ يخرجوا منه أبدًا، أمّه وأبوه وشقيقته الأصغر منه، وعمّته، وأولاد عمّته الثلاثة، وابنا عمّه اللّذَان في مثل عمره، ووحده كريم ينجو، ينجو بمعجزة، يطير من وَقْعِ الانفِجار، في اللّحظة الّتي يكون فيها زُجاج النّوافذ قد تكسّر بفعل الضّغط والانفِجار معًا، تسمح له النّافذة المكسورة أنْ يعبرها لِيَعْلَق علىٰ شجرةٍ في الجهةِ المُقابِلة. لا يدري أحدٌ طريقة الموت في اختيار مَن سيقطعون معه النّهر إلى الضّفّة الأخرىٰ. تأتي سيّارات الإسعاف تنتشل الجُثث، وتسمعُ صوتَ أنينه، ينتبهُ أحدهم، يهتف: «كأنّني سمعتُ صوتَ ناجٍ هنا». تتوقّف أبواق الإسعاف عن الزّعيق، يسمعون صوتَ أنينه من جديد: «ساعِدوني». يأتون بالسُّلّم ويُنزلِونه من هناك، لم يرافقْه الموت، لأنّه اكتفىٰ بتسعةٍ وجبةً ملائِمة، أبقىٰ على العاشر من أجل أنْ يقصّ الحكاية، الحكاية الّتي إذا بدأتْ لا تنتهي، في غزّة آلافُ آلافِ الحكايا، كلّ حكايةٍ وارءها آلافُ الأبطال، لٰكنّ أكثرَها لم يُروَ؛ لأنّ الموتَ لم يتركِ لأصحابها الفرصةَ من أجل أنْ يقصُّوها، خنقَ أصواتَهم حينما همّتْ شِفاههم الحزينةُ بالكلام.

صرنا نُخرِجُ أكثر من عشرين شهيدًا كلّ يومٍ. الشّهداء يتحوّلون إلىٰ أرقام، أعوذُ بنور وجهكَ التّامّ يا ربّ أنْ يُصبِحوا أرقامًا، ولٰكنْ ها أنذا أقع في الفخّ مثل الآخرين، أعدُّ الشّهداء، وأقارن بين أعدادهم، كُنّا في البداية نُقارِن بين أعدادهم كلّ أسبوع، نقول: خرجَ هٰذا الأسبوع من المُستشفىٰ هٰذا العدد من الشّهداء، إنّه يزيدُ عن العدد الّذين استُشهِدوا الأسبوع الّذي قبله. لم يعدْ هٰذا مُمكِنًا لكثرتهم، فصرنا نقارن شهداء اليوم بشهداء أمس. لم يعدْ هٰذا أيضًا ممكنًا، صار عدد الشّهداء سيلاً، يبدو أنّه سيتحوّل إلىٰ طوفانٍ، صرْنا نقول إنّ عدد شهداء السّاعة الرّابعة من فجر هٰذا اليوم هو ضِعف شهداء السّاعة الثّالثة من اليوم نفسِه... يا الله كم يُحبّنا الموت، كم يصطفينا، كم يستأثر بنا، وكم يريدُ لنا لا لسوانا أنْ نتبعه!!

ضاقتْ بنا الأرض عن أنْ نُدفَن في قبورها. ضاقتْ بنا القُبور ذاتها. أحبابي كلّهم تحت الأرض، وقبور أحبابي كلّ مساءٍ أسمعها تُناديني: لقد طال الشّوقُ إليك! ما معنىٰ أنْ تتركنا في هٰذا البردِ وحدنا؟!

هُرِعتُ مع سيّارات الإسعاف إلىٰ مخيّم البريج، جاءنا نداء استغاثة من بعض الزّملاء الّذين سبقونا إلىٰ هناك. ركبْتُ إلىٰ جانب السّائق في السّيارة الأخيرة، السّيارة الخامسة، همسَ السّائق في أذني: هل تستطيع خمس سيّارات أو حتّىٰ عشر سيّارات أنْ تنقل الجرحىٰ والشُّهداء؟ لم أُجبْه عن سُؤاله، لم أكنْ لأتخيّل حجم الدّمار، نظَر عبر النّافذة وهو يُدير مِقود السّيارة خارجًا من موقفها الخلفيّ في المستشفىٰ: «يبدو أنّنا سنضطرّ إلىٰ أن نضع بعضهم فوقَ بعضٍ». بقيتُ صامِتًا وأنا أُغالِبُ دمعةً تكاد تفرّ من عينَيّ، شددتُ علىٰ أسناني، وقلتُ له كمن يُوبّخه: «قال الله

ولا فالك... المهمّ شِدّ حيلك، نصل أبكر حتّىٰ ننقذ ما يُمكن إنقاذه» ردّ كمن يُدافع عن نفسه: «إذا اتّجهْنا شرقًا حتّىٰ نصل إلىٰ شارع صلاح الدّين، ثُمّ مضينا جنوبًا إلى المُخيمّ فإنّنا سنصل في غضون ثلث ساعة». قلت: «يا إلهي، كلّ ثانية مهمّة، إنّ إنقاذ روحٍ واحدةٍ بإنعاش القلب قد لا تستغرق أكثر من خمسِ ثوانٍ، لكنّها قد تمنحه حياةً كاملة». خفتَ صوتي قليلاً وهمستُ لنفسي: «لا بُدّ أنّ غيرنا من سيّارات الإسعاف قد سبقَتْنا إلىٰ هناك، هناك بعضُ المستوصفات القريبة من المخيّم».

من النّافذة الأماميّة لسيّارتنا، رأيتُ كيفَ لَوّن الموتُ كلّ شيءٍ في الطّريق، كيفَ ألقَىٰ رداءَه علىٰ كلّ ما يتحرّك، كانتْ بعضُ الدُّور قد بدأتْ تخلو من سُكّانها، يبدو أنّهم آثروا السّلامة فبحثوا عن مكانٍ يُوفّر لهم نسبةَ أمانٍ ولو كانتْ ضيئلة بعيدًا عن هٰذا الجنون، أمام الموت المُحتّم نؤمن بالحياة أكثر ولو كانت فرصة الحصول عليها تبدو مستحيلة. أمام الموت نستحلف الحياة أنْ تبقَىٰ معنا لأيّام أخرىٰ نرتّب فيها ذكرياتنا وأسماءَ أحبابِنا حتّىٰ نرحل بهدوء ودون أنْ نفقد شيئًا من حنينا واتّزاننا.

كانت الشّوارع شبه خاليةٍ من النّاس، وباستثناء بعض الحيوانات الضّالّة فإنّه لم نُشاهد في الدّقائق العشر الأولىٰ من الطّريق أحدًا غير الحجارة الّتي كانتْ سيّاراتنا ترقصُ أو تَعْرُجُ وهي تحاول أنْ تتفادَىٰ الكُتل الإسمنيّة والرّكاميّة الشّاخصة والحفر العميقة. وصلْنا أخيرًا.

يُمكن أنْ تقول كلّ شيءٍ غير أنْ تقول إنّ صاروخًا واحِدًا مرّ من هنا. إنّه ألفُ صاروخ علىٰ ما يبدو، أو إنّه زلزال بقوّة عشر درجاتٍ علىٰ مقياس (ريختر)، أو إنّه بُركان ثار من أعمق أعماق الأرض حيثُ (الماجما)، ونَفَثتِ الأرض من باطِنها حُمَمها إلىٰ هنا قبل أنْ تبرد وتتحولّ رمادًا،

كان يومَ تُبَدّل الأرضُ غيرَ الأرض.

كان الدّمار - حينَ مشيتُ علىٰ أنقاضِ ما تبقّىٰ من البناية الأولىٰ بحثًا عن ناجين - قد شملَ مساحةً شبه دائريّة قطرُها أكثر من مئتَي متر، كان كلّ شيءٍ قد سُوِّيَ بالأرض، اللّون الرّمادي كان طاغِيًا، لم تكنِ الدُّورُ رماديّة بالطّبع، لكنّه رمادُ الاحتراق، الّذي أحرقَ كلّ ما هو قابلٌ للاحتِراق من الأثاث والخزائن الخشبيّة والأسرّة والكتب، ورماد الإسمنت الّذي فُتِّتَ ليسَ إلىٰ حصًى بل إلىٰ غُبار، تحوّلتْ هٰذه البنايات القويّة المُتماسِكة الإسمنيّة المُسلّحة بالحديد إلىٰ مسحوقٍ ناعم. أينَ يُمكن أنْ تعثر علىٰ ناجين هنا؟ يبدو هٰذا ضربًا من الخيال، أو نوعًا من الأمل الكاذب والخادع؟!

بقيَ من البنايات الأبعد عن مركز الانفِجارات بعضُ الجدران القليلة الّتي لم تُسَوَّ بالأرض، في هٰذه البنايات يُمكن أنْ يكون للأمل رأيٌ آخر في العثور علىٰ ناجين، ومع ذٰلك لم أعثرْ إلاّ على الكلمات، هنا قرأتُ علىٰ أحد الجدران بخطّ طفوليّ رفيع: «ريماس الملكة - بيت السّعادة - بيت الأحلام» لم يبقَ من ريماس ولا من أحلامها شيء، قتلتِ الحرب الأحلام كلّها، ووأدت الطّفولة، وذبحت الأماني، وقضتْ علىٰ لثغة الصّغار، وخنقت البلابل، وأزهقتْ أرواح الزّهور، وداستْ علىٰ كلّ أوجاعنا، ولم تشبع، ولن تشبع.

عثرتُ علىٰ دفترٍ صغيرٍ نجا فيما نجا من الموت، وإنْ كانتْ بعضُ أطرافه قد تمزّقت، أزلتُ عنه الغبار، بدا لي دفتر يوميّات لطالبة في الصّفّ السّادس، كانتْ تُشير إلىٰ ذٰلك في بعضِ الأوراق، كتبتْ في إحدى الصّفحات أسماء الكتب الّتي ستقرؤها هٰذا العام، ذكرتْ حوالي

عشرة كتب، أكثرها كانت كتب مغامرات وفانتازيا مثل كتب (هاري بوتر). وكتبتْ في صفحة أخرىٰ رأيها في زميلتها في الصّف (سهىٰ): «إنّها مُتكبّرة، ولا تريدُ أنْ تكون صديقتي وتظنّ نفسَها أحسنَ منّي. سأثبت لها حينَ نستلم الشّهادات في الفصل الثّاني أنّني أفضل منها. ياربّ». وجمعتْ في صفحةٍ أو صفحتين بعضَ الأشعار الّتي تتحدّث عن الوطن: «سلامٌ أيّها الوطن الذّبيحُ... وطني لو شغلتُ بالخلدِ عنهُ... ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعَهُ... وللأوطانِ في دَمِ كُلّ حرٍّ...». وكتبتْ في صفحة أخرىٰ بعضَ أحلامها: «لقد حلمتُ أنّني ذهبتُ مع عائلتي إلىٰ البحر، وهناك سبحتُ، ولأنّني أشعر بثقةٍ كبيرةٍ بنفسي، ابتعدتُ عن الشّاطِئ، ورحتُ أسبحُ في العمق، ثُمّ أحسستُ أنّ شيئًا يجذبني إلىٰ الأسفل، بدأتُ أغرق، كنتُ أخبطُ الماء بيدَيّ في محاولةٍ للنّجاة، وأصيح: أنقذوني.. أنقذوني... ولٰكنّ عائلتي كانتْ تنظر إليّ وتبتسم حتّى اختنقتُ وغرقتُ في الماء والظّلام.. قصصتُ الحُلْم علىٰ أمّي، فضَمَّتْني إليها وطمأنتني: لن يُصيبك سوءٌ ما دمتُ إلىٰ جانبك، ولولا أنّها ضَمّتْني إليها لبقيتُ خائفةً من الموت...». كانتْ هناك بعض الصّفحات الفارغة، ثُمّ صفحةٌ كُتِبتْ في وسطها بخطّ عريض جملةٌ واحدة: «الحرائق تحدث حينَ ينام النّاس». أشياء كثيرة تشي بما يدور في عقل هٰذه الصّغيرة، إنّ أحسنَ ما يُمكن أنْ يجعلك تُدركُ أنّك كبرتَ ونضَجْتَ هو اقتناص هٰذه اللّحظات وتوقيعها على الورق.

عزمتُ من يومها علىٰ أنْ أكتبَ يوميّاتي، وأنْ أحتفظ بهٰذه اليوميات وهٰذه الأوراق المكتوبة الّتي أجدها في البيوت المردومة، وأحتفظ بقصائد الشّعر أو الحكايات وإنْ كانتْ غير تامّة؛ لأرويها للنّاس

عندما تنتهي الحرب... عندها سأبكي علىٰ راحتي من الفرحة، ولن يمنعني أحد.

عُدْنا إلى المستشفىٰ نجرّ أحزان الدّهور؛ لقد صدق السّائق، إنّنا نحمل جُثثًا مُكدَّسة أكثر مِمّا نحمل من الأحياء، راكمْنا الجُثث بعضَها فوقَ بعضٍ مُضطرّين، كانتْ لدينا في الأيّام الأولىٰ لهٰذه الحرب اللّعينة رفاهةُ أنْ نُشرّحها وأنْ ننتظر ذويها ليستلموها، وأنْ يحظَوا بفرصةٍ الحصول علىٰ كفنٍ لائق، وعلىٰ قبرٍ مُناسب... كان هٰذا أيّام الرّخاء من الحرب، وا أسفاه وواحسرتاه علىٰ ما سيحدثُ من بعدُ!



(١١) هل رأيتَ أبي؟!

سقطتُ في بئر النّوم من تعب اللُّهاث وراء الأرواح الهارِبة، وراء النّقالات الّتي لا تكفّ عن أنْ تذرع باحات المُستشفى مُحمّلة بالأنّات والآهات، يا الله متى يتوقّف كلّ هٰذا، متى ينتهي هٰذا المشهد، ومتى يأتي دورُنا في الموت؟!

حَلُمْتُ أنّني عُدتُ إلى شُقّتي، وأنّ جرسَ الباب يرنّ في الثّانية فجرًا. أهمسُ لنفسي: مَنْ هٰذا الطّارق الّذي يُمكن أنْ يزورنا في هٰذه السّاعة المتأخرة؟ أُدير وجهي إلى الجهة الأخرى وأسحب اللّحاف على رأسي وأعودُ للنّوم، لكنّ الجرس يرنّ مرّة أخرى، أتغافلُه، فيرنّ ثالِثة، أزيحُ الغِطاء عنّي في محاولةِ القيام من الفراش، أنظر إلى جانبي فأراها، أجفل، نعم أراها؛ إنّها (رجاء)، يا لَشَقائي! لم يبقَ لي إلاّ أنْ أحلم بالموتى في مكانٍ يعجّ بهم، أُحاول أنْ أضحك من بؤس خيالاتي في اللّحظة الّتي يرنّ فيها الجرس للمرّة الرّابعة، تهتفُ بي: «هل سمعتَ الجرسَ مثلي؟!». لا أدري هل أضحكُ أم أبكي، أحاول أنْ أُقنِعها أنّها لم تعد موجودة وأنّها رحلتْ مع الموتى، فتُكْمِل: «قُم فافتح الباب للطّارق، لعله يكون مُحتاجًا شيئًا في هٰذه اللّحظة». لا أصدّق ما أسمع، أُدير نظري في الغرفة الّتي ضَمّتْنا عشرين عامًا أرى (جودي) تتّجه إلى الباب وتموء، كأنّها تريدُني أنْ أسمع إلى ما طلبَتْه (رجاء)، أنهضُ بالفعل، أحاول أنْ أتحسسَ جسدها، أهمسُ بخوفٍ: «هل هٰذه أنتِ؟». تبتسم وتختفي شيئًا فشيئًا:

«أأنتِ حقيقيّة؟!». تهمسُ قبل أنْ تذوب: «لا تتركِ الطّارق على الباب وحيدًا». أنهضُ فتتساقطُ الأوجاع مِنْ كتفَيّ إلىٰ ساقَيّ، أتّجه إلى الباب، أفتحُه، أنظر من خلاله فلا أرىٰ إلاّ الظّلام والفراغ، أبكي على البُؤس الّذي وصلتُ إليه، أعودُ إلىٰ فِراشي، وقبل أنْ أضطجع فيه، أصرخ بجودي: «نامي أنتِ الأخرىٰ... لعنةُ الله علىٰ...».

يدخلُ أناسٌ غريبون إلى المستشفىٰ؛ أطفال في عمر العاشرة يبيعون البرتقال أو البطاطا أو البندورة، وفي بعض الأحيان يبيعون الموز، أقول لأحدهم: «هٰذا مُستشفىٰ، ليسَ سوقًا للخضار. اذهبْ إلىٰ هناك» ينظر إلَيّ بعينَين ذابحتَين، تتجمّع دمعةٌ حمراء في زاوية عينِه اليُسرىٰ، تكاد تسقط، يردّ عليّ بصوتٍ جريح: «أريدُ أنْ أدفع ثمن علاجِ أمّي». «ولٰكنْ... قلتُ لكَ هناك... ليسَ هنا». «هنا يدفعون أكثر». أحضنُه وأمنع نفسي من البُكاء، واسأله: «لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟!» ينظر إليّ من تحتِ ذراعي مُرجِعًا رأسه إلى الوراء ويهتفُ كمن ينكر أنْ يكون لسؤالي معنىٰ: «ألا تعرف، لقد قصفوا مدرستي؟!».

أخرجُ في نوبةٍ جديدةٍ إلىٰ دمار غير مُؤجّل. أقضي عشرين ساعةً من يومي مع أنصاف الموتىٰ، الجرحىٰ ليسوا محظوظين كثيرًا، إنّهم يعيشون بؤسًا لا يُطاق، تعيش في خيالاتهم رعب اللحظة الأولىٰ لسقوط الصّاروخ، أو لحظة إدراك أنّهم شاهدوه بأمّ أعينهم يتّجه نحوهم بكامل حجمه الهائل، تعيشُ في ذاكرتهم أصواتُ أحبابهم ونِداءات استغاثاتهم الدّامية... في غزّة يكون الموتُ أرحمَ من الحياة، يكون الذّهاب إلى الضّفّة الأخرىٰ أرحمَ بكثيرٍ من الابقاء علىٰ هٰذه الضّفّة الرّماديّة المُحايدة الّتي لا يعرفُ المرء فيها أهو هنا أم هو هناك؟!

أشعرُ أنّني عمودٌ من الهواء، جرّة مثقوبة تريدُ أنْ تغنّي ولكنّها تبكي. خزانة ملابس عتيقة ليس فيها إلاّ العلاّقات. وِسامٌ صَدِئ على صدر جنرالٍ مُتقاعد لم تبقَ له من ذاكرة الحرب سوى عينه المفقوءة. كتابٌ قديمٌ تراكمتْ فوقَه طبقاتٌ سميكةٌ من الغُبار. قطعةٌ منسيّة في زاويةٍ مُعتِمة في متحفٍ قديم. عودٌ مُحترِق ووحيد داخل علبة ثِقاب. مرآة مشروخة بحوافّ مُهترِئة في بيتٍ مهجور. ورايةٌ سوداء مُمزّقة الأطراف في صحراء خالية!

لا أنامُ أكثرَ من أربعِ ساعاتٍ في اليوم، عشرُ ساعاتٍ لإخراج الجُثَث والجرحى، وعشر ساعاتٍ لمحاولة إبقاء خيط الحياة الرّفيع ألاّ ينقطع من أرواح النّاجين المُحتَملين... مع أنّ الخيطَ أرفعُ بكثيرٍ من قدراتنا على أنْ نرتقه، ودائِمًا ما ننهزم في اللّحظة الأخيرة أمام سطوة الموت!

لا شيءَ يُمكن أنْ يمنحك الصّبر على الألم غيرُ الوعد؛ الوعد بأنّ في الجنة غزّةً أخرى لكنّها غير مُحاصرة، إنّها غير محدودة الجهات، لا معابر تخنقها ولا أسلاك شائكة تَحُوطها، ولا مُدرّعات توجّه بنادِقها لكلّ مَنْ يُفكّر بأنْ يجتاز الحدود من أجل أنْ يقطفَ وردة. الوعد بأنّ أشجارًا كثيرةً في غزّة الجنّة تُعوّض كل هذا الحرمان من الظّلال، الحرمان من لُقمة الخبز، ألم يقولوا إنّ الخُبزَ كثيرٌ في الجنّة؟!

أطلقَ السّائق زعيقَ سيّارة الإسعاف وتَبِعتْه سيّاراتٌ أُخَر، توجّهْنا شمالاً هذه المرّة إلى مخيّم جباليا، كُنّا أقربَ إليه من المستشفى الإندونيسيّ، وإنْ كانت الطّواقم هناك تتّجه إلى مناطق التّفجيرات مثلنا، حينَ وصلْنا إلى مكان الاستهداف رأيْنا عشرات الأبنية قد مُحِيَتْ، لم يبقَ منها شيءٌ سِوى ما يدلّ عليها من بعضِ السّقوف الشّاهدة على أنّ البناية كلّها قد مُسِحتْ.

بدأْنا بانتشال الشُّهداء، ما أسهل أنْ تحضنَ الشّهيد وتنحني لتضعه علىٰ النّقّالة، كان هٰذا أيسر عملٍ لنا نحنُ طواقمَ الإنقاذ، لٰكنّ الصّرخات اليائِسة الّتي تصلُ إلينا من تحتِ بعضِ الرُّكام كانتْ أصعبَ ما يُمكن أنْ تُعايشه في ظلّ هٰذه المآسي الّتي لا ترحم.

بدتْ قُدُرات الدّفاع المدنيّ في انتشال النّاجين ضعيفة، الرُّكام يحتاج إلىٰ جرّافات حديثة ونشات ورافِعات، نحنُ لا نملكُ إلاّ الأزاميل وبعض المطارق، وعددًا قليلاً من كادر الدّفاع المدنيّ، كانتِ الأصوات تأتي من الأعماق تسترحم: «مشان الله أنقذوني...» لمْ يكنْ بإمكاننا أنْ نفعل شيئًا، عددٌ غيرُ قليلٍ كانَ يموتُ تحتَ الرّدم أمام أعيننا دون أنْ نقدر علىٰ أنْ نُنقذه، شعورٌ بالعجز أكبر من الكلمات، أصوات الاستِغاثة الّتي تأتي من تحتِ الرُّكام ذابِحة، كانتْ تحزّ القلبَ بسِكّين حادّ الشّفرات، نتوجّه إلىٰ مصدر الصّوت، نحاول أنْ نُطمئِنه: «نحن معك، سنُخرِجكم، لا تقلقوا». يطمئنّون قليلاً، ولا يدركون أنّ القلقَ كان ينهشنا نهشًا، لأنّنا كُنّا نُدرك أنّنا لن نقدر علىٰ إخراجهم، وأنّ أصواتَهم ستظلّ تبلغ مسامعنا حتّىٰ تبحّ ثُمّ تبدأ بسبب النّزيف أو الكسور بالخفوت إلىٰ أنْ تتوقّف، ثُمّ سيقودهم الموتُ إلى الضّفّة الأخرىٰ.

أحدُ النّاجين جاءَ ليتفقّد أمّه، كانتْ قد انشطرتْ إلىٰ شطرَين، نصفُها تبخّر في الجوّ، والنّصف الثّاني الّذي بدا أنّه محظوظ طار حوالي مئة متر، عرفَها الأب من خاتم الزّواج في البنصر الّذي ظلّ في النّصف الّذي لم يتبخّر، غَطّاها بلحافٍ، وسحبَه علىٰ وجهها وجلسَ علىٰ حجرٍ بقربها يبكي، رآه ابنُه، فأرادَ أنْ يرىٰ أمّه، صَدّه أبوه: «ليستْ أُمّك، إنّها جُثّة كلب». «أريدُ أنْ أراها»، دفعَ الّذين صَدُّوه من المُسعِفين، ورفَع الغَطاء،

نظر إلىٰ ما تبقّىٰ منها، وانهار.

حملْنا في السّيّارات أكثر من مئة شهيدٍ وجريح، حينَ تركْنا المكان خلفَنا باتّجاه المستشفىٰ كانتْ أصوات المُستغيثين - مِمّن كانتْ لهم فرصةٌ في النّجاة لٰكنّهم فقدوها بسبب عجزنا - تُلهِبُ ظهرنا، لم تمتْ أصوات الضّحايا من عقلي من أوّل يوم في هٰذه الحرب المجنونة لحظةً واحدة، إنّ الاحتِفاظ بأصواتهم أصعبُ وأنكىٰ من رحيلهم، تمنّيتُ لو أنّهم حينَ رحلوا أخذوها معهم!

حينَ وصلْنا إلىٰ مستشفى الشّفاء، هُرِعَ المُسعِفون بالنّقّالات فتلقّوا الأعداد المَهولة الّتي أتينا بها. في الدّاخل كان بهو المستشفىٰ يعجّ بالعشرات، رأيتُ بعضهم مُمدًّا على الأرض تكادُ تدوسه الأقدام بسبب التّزاحُم، كان الموتىٰ أكثر من الأحياء. الموتُ راحةٌ للمرتحل، عذابٌ للمُنتظِر.

أحدُهم كان يحتضن بيُمناه طفلةً بدتْ في الخامسة من عُمرها وهو يشدّ علىٰ أسنانه وينتحب، يبدو أنّه عمُّها أو خالُها. اقتربْتُ منه لأسأله عن حالته، أشار إلى الطّفلة الّتي كانتْ تلوذُ به وهي في ذُهولٍ مُطلَق: «ماذا أقولُ لها؟! أبوها وأمّها استُشهِدا وهي بقيتْ حيّة». هتفتِ امرأةٌ بدتْ في الخمسين من عمرها: «إيش بتحكي؟!». فقد الشّابّ نُطقَه علىٰ ما يبدو، صار يتكلّم بحركات يديه، وبأصابعه، صرختْ به المرأة الخمسينيّة: «احكي، مالك؟». خرجَ صوتُه خافِتًا جِدًّا لا يكاد يُسمَع: «أمّها وأبوها اُستشهِدا، وهي لا تعرف، كيفَ أقول لها يا أمّي ذٰلك». اقتربتْ منه أمّه، واحتضنَتْه وراحا يبكيان. سأله أحدُهم بصوتٍ مسموع:

«هل مات أبوها وأُمّها حَقًّا؟!». مدّ يده وعيناه حمراوان وعروق رقبته من كتم الصّوت بارزة، ووضعَ كفّه علىٰ فَم السّائل، ثُمّ علىٰ فِمه، وهتف: «اسكتْ. لا نريدُ لها أنْ تعرف». فيما كانتِ الطّفلة ترىٰ ذٰلك وتسمعه، وتحسّ بكلّ كلمةٍ، فبدأتْ تبكي هي الأخرىٰ، هتفَ الرّجل على ارتجافة الطّفلة: «يا عالَم، يا مسلمون. حسبي الله في كلّ واحد يرىٰ حالنا ويظلّ ساكتًا. لا نريدُ خبزًا ولا مُساعدات. نريدُ إيقاف الحرب فقط»، ثُمّ انهار على الأرض بعدَ جملته الأخيرة، وسقط مغشيًّا عليه.

ليسَ لي ألفُ عينٍ لأرىٰ مآسي شعبي كلّها، ولا ألفُ قلبٍ ليحتمل كلّ هٰذا، إنّني أموتُ مع كلّ شهقةٍ أخيرةٍ لناجٍ من الحياة إلىٰ ضفّة الموت، إنّ كلّ آهةٍ تنطلقُ من أعماق مكلومٍ ينطلقُ معها عشرُ آهاتٍ من أعماقِي الّتي لا أدري إلىٰ متىٰ ستظلّ صامدةً أمام هٰذا الرُّعب؟!

مضيتُ أحاول مع (بسّام) إنقاذ الأنفُسِ الّتي تتساقطُ من حولنا، يبدو (بسّام) أصلبَ منّي في مواجهة هٰذه الفجائع، لا أدري إنْ كان استمرارُه في المهنة قد هيّأه لذٰلك، وانقِطاعي عنها السّنوات الأربع الفائتة وعُزلتي قد رَقّقَ قلبي. مَنْ يدري قد يكونُ قلبُه مُتَخمًا بالمشاعر وبالانفِعالات الذّابحة ولٰكنّ قُدرتَه علىٰ إخفائِها هي الّتي تجعله يبدو بهٰذه الصّلابة. وأنا؟ كنتُ أخفَّ من كومة قشّ في مهبّ ريح، كلّما سمع أنينًا طار. وكنتُ أرقَّ من وترٍ خامسٍ في آلة عُودٍ كلّما رأىٰ روحًا تصعدُ إلى السّماء انتحبَ حتّىٰ كادَ ينقطع.

لم تكنْ هٰذه الطّفلة وحدها الّتي تُعاني اليُتم بعدَ أنْ فقدت عائلتها بأكملها. هناك العشرات إذا لم يكونوا المِئات من الّذين يُشبِهونها، مدّرس اللّغة العربيّة (محمّد)، وزوجته الصّحفيّة (إيمان)، وأولادهما

(هادي وعلي وشام)، انهدمَ البيت عليهم وماتوا تحته، ولم ينجُ سوىٰ عليٌّ، لكنّه نجا بجراحٍ لا تبرأ في النّفس قبل الجسد؛ عليّ الّذي ظلّ يسأل لسنواتٍ طويلة فيما بعدُ كُلَّ عابرٍ في الحيّ: هل رأيتَ أبي؟ لقد تركني وحدي في ذٰلك البيت ومضىٰ. ويُشير إلىٰ بقايا رُكامٍ لم تُرَمَّم بعدُ، ويُتابِع أسئلته الّتي لا يملك أحدٌ لها جوابًا لعابرٍ جديدٍ: هل رأيتَ أمّي، وأخي هادي وأختي شام، لقد كُنّا نعيشُ معًا في ذٰلك البيت، ويشير من جديدٍ إلىٰ رُكامٍ سفت الرّياح رَمادَه، وأنبتَ المطرُ وردةً حمراء علىٰ عَتَبَتِه!



(١٢) أيُّها البَياض ارفقْ بنا!

امتلأتْ ساحات مستشفى الشّفاء بالنّاس، لا يُمكن أنْ تطلبَ منهم أنْ يرحلوا، ويُخلوا المكان، أو أنّ تقول لهم: «عليكم أنْ تغادروا المستشفىٰ من أجل المرضىٰ والمُصابين، إنّكم تُعيقون تحرُّكَنا، وتصنعون ازدِحامًا يُقلّل من فرصة استقبال مَنْ هم أشدّ حاجةً منكم لهٰذه الأماكن»، هٰذا القولُ يبدو ضربًا من البلاهة والخيانة معًا، البلاهة كأنّك لا تعرفُ ما يحدثُ خارجَ أسوار المُستشفىٰ بل في غزّة كلّها من قصفٍ لا يتوقّف، والخيانة أنْ تطرد من فقد دارَه أو وَطَنه ولم يجدْ غير هٰذه الباحات ليحتمي فيها، الحرب تُغيّر كلّ شيء، الهروب من الموت لا يعني أنّ الموت لم يرَ الهارِبين، أو أنّه غفل عنهم لحظة، بل يعني أنّ الموت يُخطّط للمكان والزّمان المُناسِبَين لكي ينشب مخالِبه في ظهور هٰؤلاء الهاربين.

ما أصعبَ أنْ يكون كلّ شيءٍ في غزّة اليوم متواطِئًا مع الموت! ما أوجعَ أنْ يكون قدرُكَ أنْ ترىٰ هٰذا البؤس بشكلٍ مستمرٍّ، كأنّه مكتوبٌ عليكَ أنْ تشهد كيفَ تطير الأرواح مُحلّقةً خارجَ أجسادِها. كان من المُمكن أنْ أهب قلبي كلّه لِقاءَ ألاّ تسقط دمعةٌ واحدةٌ حَرّىٰ من عَينَي أمّ مكلومة تظنّ أنّنا يُمكن أنْ نُعيدَ لها مَنْ رحلوا وتركوها وحيدة.

مضتْ عشرة أيّام على الحرب كأنّها عشرُ سنوات، لا حلّ يلوحُ في الأفق، ظننتُ أنّها لن تطول أكثر من ذٰلك، أو أنّها لن تكون بهٰذه القسوة، غيرَ أنّ الحرب هي الحرب، قاسِيةٌ أنّىٰ جاءتْ. مَنْ يقول إنّ في الحرب

شيئًا من الحياة؟! كيفَ يُمكن أنْ يعودَ الإنسانُ مُنتصِرًا من الحرب؟! كلّ مَنْ يدخل الحرب إمّا أنّه يدخل جهنّم فيحترق حتّىٰ يتبخّر، أو يدخل بحرًا جليديًّا فيتجمّد حتّىٰ يُصبح صخرة!

عدتُ للتّفكير بقطّتي، إنّه يومُها الرّابع. ذكاؤها لن يقف حائِلاً أمام أنْ تبقَىٰ حيّة. الوجبات مُوزّعة حسبَ الجغرافيا والتّاريخ، لا خطأ ولا استِجلاب ولا استِباق. كلّ وجبةٍ في موعِدِها زمانًا ومكانًا. لٰكنْ كيفَ تنام؟ هل تشعر بالبرد؟ ماذا لو أرعبَها صوتُ القصف الّذي لا يهدأ؟! لِمنَ تلجأ؟! أيُّ حضنٍ يُمكن أنْ يُهَدِّئ روع المفزوعين جرّاء هٰذه الأصوات؟! ماذا يُمكن أنْ يكون شُعورُها وهي تعيشُ في الظّلام مُذْ تركتُها، لا شَكّ أنّها عاتِبةٌ عَلَيّ، أعرفُ ذٰلك وأُحِسُّ به، غيرَ أنّ الواجب أكبر من الحُبّ أحيانًا يا (جُودي). الوحدة قاسِية، أنتِ لا تُعانينَها وحدكِ، أنا أيضًا أُعاني منها، اليوم فقط اكتشفتُ أنّ الوحدة والحرب وجهان لعملة الموت، لا يُمكن أنْ تُحارِب نفسَك بعُزلِتها، أنْ تتركها نهبَ الظّنون والشّكوك والارتِياب. لعلّ وجودَكِ كان يقتل هٰذه الأسئلة، فلمّا ابتعدْنا نهضتْ من جديد. أتعرفين: أيّام (رجاء) لم تكنْ لهٰذه الأسئلة أنْ تخطر لي ببال؟!

خلال عشرة أيّامٍ أو أقلّ برزَ مُصطلَحٌ طبّيٌ نفسيٌّ عندنا في مستشفىٰ الشّفاء، إنّه موجودٌ من قبلُ، ولٰكنّه نادرًا ما يُستخدَم، لنقلْ إنّه لا يحدث إلاّ في الكوارث الكُبرىٰ، حينَ يأتي طُوفانٌ فيغرقُ مدينةً بأكملها خلال ساعةٍ أو اثنتَين، ولا يخرج منها إلاّ ناجٍ واحدٌ من كلّ مئة. أو حينَ يحدثُ زلزال أو بُركان فيُفجّر الأرض من تحت رُؤوس ساكِنيها فيمحوهم عن الوجود، ومَنْ نجا نجا بعاهة، ولا يعرفُ من الماضي إلاّ صوتَ الأرض وهي تتفجّر.

المُصطلح الطِّبّي هو (WCNSF)، ويعني: «طفلٌ مُصابٌ مات عنه جميع ذَوِيه»، وفي غزّة اليوم عشراتٌ بل مِئاتٌ من هٰذا النّوع من الأطفال. الطفلة الّتي كانتْ تدور مثل التّائهين في المُستشفىٰ ظُهرَ هٰذا اليوم ينطبق عليها الوصف، أخذتُها من يدِها: «علىٰ مَنْ تبحثين؟». صَمْت. «أينَ أهلُكِ؟!». صَمْت. «ماذا تريدين؟». صَمْت. أهبطُ علىٰ ركبتَيّ حتّىٰ تصيرَ عينايَ في مواجهةِ عينَيها الجامِدتَين. كانتا بحرًا من الحُزن الهادِئ الحائر. أسألُها من جديدٍ: «هل لكِ جرحىٰ هنا، شُهداء، أهلٌ، أمّ، أب...؟». تبقىٰ صامتة، أنظر في عينَيها عميقًا فأدوخ، كيفَ يكون للحزنِ هٰذا التّأثير، كيفَ يُمكن أنْ يتجمّع نِصفُ حُزنِ العالَم في هاتين العينَين، أسألُها هٰذه المرة بإشارةٍ من رأسي دون أنْ أنطق: «أينَ عائلتُك؟!»، تُشير إلىٰ جيبها، أمدّ يدي إلىٰ هُناك، وأُخرِجُ قُصاصةَ ورقٍ لا أدري مَنْ كتبَ فيها هٰذه الكلمات: «هٰؤلاء أسماء عائلتها: عشرةُ أسماء... الرّجاء البحث عنهم تحتَ الرُّكام. الاسم الأخير وُضِعَتْ بجانبه علامة (إكس) وتحتها: هٰذا اسم أختها لا تبحثوا عنها لقد تفحَّمَتْ».

أينَ نبحثُ يا صغيرتي، تحتَ أيّ رُكام وغزّة كلها رُكام؟! وعندَ أيّ ردم وغزّة كلّها أردام؟ وفي أيّ قصف وغزّة مقصوفةٌ في كلّ حين؟! اعذريني يا عزيزتي، كان يُمكن أنْ تكونَ لكِ حياة لولا أنّ الحرب أرادتْ لكِ غير ذٰلك، كان يُمكن أنْ تكون لكِ عائلة تظلّ بُستانَكِ الأخضر وجداركِ العالي، ولٰكنّ يدَ الموت تريدُكِ أنْ تبقَيْ وحيدة. بكيتُ. صرختُ: «يا بَسّام...». كان بسّام مشغولاً مع عددٍ من الأطبّاء في غُرَفِ العمليّات، صرختُ بصوتٍ أقوىٰ: «يا بَسّام... تَعال يا بَسّام...». جاءَ علىٰ صُراخي الفجائعيّ، حينَ صار عندي كانتْ علامات الاستِغراب والإنكار باديةً

علىٰ وجهه، سألني مُعاتِبًا: «لماذا تصرخُ بهٰذه الطّريقة... ماذا تريد؟!». «يا بسّام هٰذه الطّفلة فقدتْ عشرةً من عائلتها مرّة واحدة». رَدّ بشيءٍ من البرود واللّامبالاة: «وماذا يعني؟ نصفُ غزّة حدثَ معها ما حدثَ مع هٰذه الصّغيرة». «ولٰكنْ مَنْ يتولّاها؟ مَنْ سيكونُ لها أبًا؟ مَنْ ستكونُ لها أُمًّا؟». «سيقوم الهلالُ الأحمر بمهمّته؛ سيبعث هٰذه الطّفلة وأمثالَها إلىٰ مراكز الأيتام». «وهل ظلّ في غزّة مراكز للأيتام يا بسّام... لقد قصفوها». ورحتُ أنتحبُ وأنا جاثٍ علىٰ رُكبتَيّ.

تركني بَسّام ومضىٰ. ليسَ لدينا رفاهية الوقت من أجل أنْ نبكي. نحنُ لدينا بِحارٌ مُؤجّلة من البكاء. ليس لدينا رفاهيّة الوقت لِنقُصّ كلّ ما حدث لنا، نحنُ لدينا حكاياتٌ لو تُلِيَتْ من اليوم حتّىٰ قِيام السّاعة لَمَا انتهَينا منها. حينَ فتحتُ عينَيّ لم أرَ الطّفلة، كانتْ قد اختفتْ. اختفتْ في الزّحام. لا أحدَ يدري إلىٰ أين يُفضي زِحامُ الأقدام التّائهة الهاربة من الموت وتلك الّتي تفتح صدرها من أجل أنْ تستقبله.

مرّتْ أيّام قاسِية. قاسِية جِدًّا. لا تُحتمل. لا تُطاق. لا تُوصَف. لا يُمكن تخيّل الفزع الّذي فيها. أصواتُ الانفجارات صارتْ قريبةً من هنا. لا تهدأ لحظة. كلّ انفِجار تصطفق له الضّلوع قبل أنْ تصطفق الجدران وتتكسّر النّوافذ، نحن نسمع أصواتَ الطّائرات أكثرَ مِمّا نسمعُ صوتَنا. ما أبأس ما قُلت! كيفَ يُمكن للّغة أنْ تصفَ أحوالنا؟! تبدو عاجزةً تمامًا. لو كان للمشاعر لِسانٌ لكانتْ قُدرته أبلغَ من قدرة هٰذه الحروف الباردة الباهتة. لكنّنا لا نملك سِوى الكلمات من أجل أنْ نحكي للعالَمِ قصّتنا، وإذًا؟! فَلْنَحْكِ ما دام فينا عِرقٌ ينبض.

نعم فَلْنَحْكِ. يا أهل غزّة، كلّ مَنْ رأىٰ وشاهدَ وعاينَ الموت،

وكُلُّكم كذٰلك: قُصُّوا على العالَم بشاعة الإنسان، هٰؤلاء الّذين يقتلوننا ليسوا بشرًا، لا يُمكن أنْ يكونوا بشرًا، هٰؤلاء حيوانات. كلاّ. إنّهم وحوشٌ. كلا. الوحوش لها قلوب، أمّا هٰؤلاء فبلا قلوب. يا أهل غزّة العالَم اليوم أعمىٰ أصمُّ أبكم، لا يُريدُ لهٰذه الحربِ أنْ تنتهي، ولا لهٰذه الدّماء أنْ تتوقّف، لقد تُرِكتُم وحدكم. لقد علّموكم أنْ تلعنوا كلّ أحدٍ وحُقّ لكم ذٰلك... يا أهل غزّة عليكم ألاّ تتوقّفوا عن الحياة، صَوّروا للعالَم المريضِ المجنون قِصّتكم، ارْوُوا لهم سرديّتكم، سرديّتكم هٰذه إنْ لم تُوقِفِ الحرب اليوم، فإنّها قادرةٌ علىٰ أنْ تصنع الفرق غدًا، حينَ يقرأ الإنسانُ السّويّ في المُستقبَل هٰذا الجنون الّذي صُبّ عليكم سيلعن هٰذا الغول البشريّ ولن يُفكّر بالقَبول به. إنّه إذا لم تكنْ هٰذه السرديّة من أجل اليوم، فمن أجل الغد، من أجل الجيل القادم الّذي سيعرف كيفَ يستعيدُ أرضَه، وكيفَ يتشبّث بها، ولن يُفرّط بشبرٍ واحدٍ منها بعدَ اليوم.

هُرِعَ فوجٌ جديدٌ من الضّحايا تتبعهم أصوات الفجيعة من خلفهم يرفعها ذووهم. صار لون الدّم لونَ كلّ شيءٍ، حتّى الماء الّذي نشربه صار قانِيًا، اللُّقمة الّتي نأكلها مغموسةٌ بالدّم، كلّما هممتُ بشرب الماء احمرّ، وكلّما هممتُ برفع لقمة الخبز سالَ من تحتِ أصابِعي منها دم، وكلّما نِمت شعرتُ أنْ ثيابي كلّها دِماء، وأنّني أسبح في بركةٍ من الوجع، وكلّما انفثأ من شَغافِ قلبي صوتٌ صار الصّوت له لونٌ مثل لون الجراح الّتي يتفجّر منها الدّم والألم، أينَ نهربُ إذًا؟!

دخل هٰذا الفوج بالعشرات، تدفّقوا كأنّ شيئًا ما قذف الرّعب في قلوبهم فهُرِعوا إلىٰ هنا لعلّهم يَنجُون منه أو يفرّون، وما أحدٌ يدري أنّ الموتَ يتلقّاك في المشافي كما يتلقّاك في الطّرُقات.

ضجيج. آهات. تأوّهات. أنّات. أصواتٌ مُتداخلة. رجفةٌ في القلب. طعنةٌ في الرّوح. إغماءات. انهيارات. لماذا نشدُّ على الجراح بالشّاش الأبيض وهو أسرعُ ما يتفشّىٰ فيه الدّم؟! لماذا نلبسُ الثّياب البيضاء وهي تتلّون بأصغر قطرة دمٍ واحدة؟! لماذا ملاءات الأسرّة بيضاء وهي تعشقُ هٰذا اللّون القاني فتتشرّبه كما لو أنّها تسكر به؟! لماذا لونُ الكفن أبيض، والكفن يدري أنّه يضمّ جسدَ شهيدٍ يظلّ جرحُه ينزفُ حتّىٰ يوم القيامة؟! أيّها البياض ارفقْ بنا، نحنُ نُحبّك لأنّكَ تُذكِّرُنا بالحياة، فلماذا تُصرُّ علىٰ أنْ تسوقَنا إلى الموت؟!

ركضتُ مع المُسعفين كالمخبول. أحاول أنْ أحمل هٰذا الطّفل، أُضجِع هٰذا الشّاب علىٰ جنبه لكي نُزيل مِئات الشّظايا الّتي اخترقتْ ظهره وخرجَ بعضُها من بطنه. أين أذهب؟ فكّرتُ أنْ أسأل بسّاماً، نظرتُ إلى الزاوية المُقابلة كان مُنهمكًا علىٰ جريحٍ يضغطُ علىٰ صدره بكلتا راحَتَي يده من أجل أنْ يطرد الموت الجاثم علىٰ ضلوعه، ولحيتُه الشّقراء الّتي طالتْ في أيام الحرب هٰذه كانتْ تنزف. أشحتُ بنظري عنه، ورحتُ أركضُ بين المُصابين، بدوتُ فقاعةً تريدُ أنْ تطير من النّافذة، استغللتُ فكرة أنّ كلّ أحدٍ مشغولٌ بما في يدَيه من أجل أنْ أهرب. «يا جبان». هٰذه المرّة الأولى الّتي تقول فيها (رجاء) يا جبان، صفعتُ خدّي بباطن راحتي، ومددتُ ذراعي من بعدها كمن يُخاطبُ صورتَها الّتي انتزَعْتُها من بين مِئات الصُّور الّتي تتخايل في الفراغ تذرعه في كلّ جهة، لأقول وأنا أسحبُ نَفَسًا عميقًا إلىٰ داخل صدري كي لا أبكي: «مَعك حَقّ. أعتذر. وأعاهدك ألاّ أكون جبانًا بعد اليوم». ثُمّ ركضتُ كالمعتوه من جديد.

(١٣) لا أُريدُ مِنَ الدُّنيا سِوى أُمّي

ركَضَ الوحشُ، الوحشُ الأسرعْ. نزلَ الرّعبُ، الرُّعبُ الأفظعْ. هبطَ اللّيلُ، اللّيل الأظلعْ. طارَ غرابٌ، أسودُ أبقعْ. انهزمَ الصّبحُ، الصُّبحُ الأسفعْ. انطفأ الضّوءُ، الضّوءُ الألمعْ. هربَ الحُبّ، الحُبّ الأروع. انتشر الخوف، الخوفُ الأجمعْ...

أخذَ شبح الموتُ يضحك. دخل عبر النّوافذ. نظرَ في عيون النّاس كلّهم خلفَ الجدران. كانتْ لديه قدرةٌ كبيرةٌ على النّفاذ إلى الأعماق، اصطفىٰ أحبابَه، أخذَ يأكلُهم واحِدًا واحِدًا، في البداية راحَ ينهشُ أجسادَهم الطّريّة الضّعيفة ببطء، لكنّهم لَمّا تكاثروا راحَ يزدردهم ازدِرادًا، ويُسرِع في ذٰلك حتّىٰ لا يتركَ مِمّا انتقىٰ أحدًا، لكّنهم غالَبوه، وأصبحوا يملؤون كلّ شبرٍ في البهو، فراحَ يغصّ بهم، ولم يتوقّف عن التِهامهم، كان يبدو أنّه كلّما ابتلع عددًا كبيرًا منهم ازدادتْ شراهته ونَهَمُه. علىٰ مَنْ ستُبقي أيّها الموت بعد أنْ نهشْتَ ما نهشت، هتفَ وعيناه تنفجران من الأجساد المحشوّة في فمه والّتي ينتفخ بسببها خدّاه وتظهر منها عروقُ رَقَبته الجِلديّة السّميكة: «هل من مزيد؟!».

اليوم السّادس دون أنْ أعودَ إلىٰ بيتي. ما الّذي يُمكن أنْ يكون قد حدثَ مع (جودي)، تعرفُ ماذا تأكل، وماذا تشرب، وأينَ تقضي حاجَتها. لكنْ هل قُصِفَ البيت؟ مُحتمل. كان الجيش الإسرائيليّ في البداية يُخبِر النّاس بأنّه سيقصف العمارة الّتي يقطنونها. يخرجُ النّاسُ

مذعورين، ولكنْ إلىٰ أين؟ كلّ ما في الأرض قاتِل. بعضُ الصّواريخ لا تنفجر حينَ تُلقَىٰ، تترقّب خروج هؤلاء ثُمّ تنفجر، لا أحدَ يدري لماذا لم تنفجر أوّل الأمر، ولا لماذا انفجرتْ حينَ شَمّتْ رائحة النّاس المذعورين؟! ربما هم يُوجّهونها بالطّائرات المُسيّرة، ربّما هم يتسلّون برؤيتنا نتطاير مع الأدخنة والشّظايا لنُشوىٰ. يريدون أنْ يقولوا للعالَم: ها نحنُ نُحذّر النّاس قبل أنْ نُفجّر المبنىٰ، إنّنا نخوضُ حربًا أخلاقيّة، إنّ جيشَنا الإسرائيليّ هو أكثر الجيوش أخلاقيّةً في العالَم! لا أحدَ يدري من أين جاؤوا بهٰذا المُصطلح الّذي ليسَ صحيحًا فحسب، بل إنّه يأنفُ من أنْ يُلصَق بجيشهم النّازيّ الأكثر دمويّة ووحشيّةً في التّاريخ... ثُمّ ماذا؟ يقصفون البيت ويفجرّون البشر الّذين خرجوا منه، فلا هٰذا نجا ولا هؤلاء.

كان هٰذا في البداية، بداية هٰذه الحرب، ثُمّ لم يعد الجيش يفعل ذٰلك ألبتّة. صارت النّاس تصحو لتجدَ نفسَها ميّتة. كيفَ يصحو الموتىٰ فيجدون أنفسهم قد فارقوا هٰذه الحياة البائسة!

اقتربْتُ منه، فتًى في الثّانية عشرة من عمره، كانتْ ساقُه مكسورة، لا أدري كيفَ يحتمل مثلُه الألم، كان وجهه رماديًّا من الشّظايا، راحَ مُمرِّضٌ يمسحُ عن وجهه الرّماد بالشّاش، فيما أمسكْتُ أنا بقدمه في غفلةٍ منه وبقوّة أعدتُها إلىٰ مكانها، صرخَ صرخةً مُرعِبة، لم يكنْ لدينا مُخدّر من أجل أنْ نُخفّف عنه، وبسرعةٍ كُنّا قد جهّزْنا له الجبائر، أردتُ أنْ أُسلّيه ريثما ننتهي من عملنا: «كم عدد مخيّمات غزّة؟». ردّ بزمّ شفتَيه: «لا أستطيع أنْ أتذكّر شيئًا بعدَ أنْ حدث ما حدث». أدرتُ الحِوار إلىٰ جهته: «وماذا حدث؟». «كنا جالسين في البيت، وأمي تحاول أنْ تُنيم

أختي الصّغيرة منال، وأخي الأصغر منّي كان يضحك ومبسوطًا جِدًا. وأبي كان في الغرفة الأخرىٰ.. فجأةً ضوء أحمر كبير كأنّه بركان، ثُمّ اسودّ كلّ شيء، ولا أدري ماذا حدث بعدَها... صحوتُ قبلَ ساعة أو ساعتَين هنا في المستشفىٰ، وجدتُ رِجلي مكسورةً، ووجهي مُتغيّرًا كأنّني شخصٌ آخر، ورجلِي الأخرىٰ لا أحسّ بها، ووجعٌ فظيعٌ في منطقة الحوض، ورأيتُ وجهًا لا أعرفُه فوقَ رأسي يقول لي: الله بخاطرك.. الله يرحم أباكَ وأُمّك وأخاك وأختك... البقيّة بحياتك، والحمد لله علىٰ سلامتك». توقّف قليلاً، كُنّا لا نزال نصنع له الجبيرة، أكمل وهو يشهق: «الله يرحمك يا أمي وتكونين شهيدة في الفردوس الأعلىٰ. الله يرحمك يا أخي وتكون بجوار أمي شهيدًا بالفردوس الأعلىٰ.. والله يرحمك يا (مَنُّول) يا قلب قلبي وتكونين مع بابا وماما شهيدة وعصفورة في الجنة». سكتَ قليلاً، نَظَرَ في عينَيّ وهو يكزّ علىٰ أسنانه من الألم، شجّعْتُه بنظرةٍ منّي، فتابع: «والله ما عمري شعرتُ بالعجز مثل اليوم؛ أُمّي رَبَّتْنِي وتَعِبت عليَّ طَوَال عمرها من أجل أنْ أُصبِحَ رجلاً قادِرًا علىٰ حمايتها وحماية إخواني، وأنا لم أستطعْ أنْ أكون الرّجل الّذي كانتْ تتمنّىٰ أنْ تراه حينَ أكبر، كنتُ بجانبهم، نزل الصاروخ علينا كلنا، ماذا أستطيع أنْ أفعل أمام الصّاروخ، لم أقدر علىٰ فِعل شيءٍ، صحوت من الموت وجدتُ نفسي هنا، ولم يبقَ لي من أهلي أحد... لماذا يحدثُ هٰذا لنا، يا الله لماذا؟ أنا لا أريدُ من الدّنيا سوىٰ أُمّي. ما ذنبي حتّىٰ تحرموني منها؟!». ثُمّ علا صوتُه بالبُكاء إلىٰ أنْ خفت.

من بعضِ نوافذ المُستَشفىٰ من هنا صارَ بإمكاننا نحنُ الممرّضين والأطبّاء وحتّى المرضىٰ أنْ نرى الصّواريخ وهي تنزل علىٰ أحياء غزّة،

علىٰ حيّ الرّمال القريب من هنا، على البنايات المُقامة علىٰ شارع ابن سينا في الجهة الغربيّة من المستشفىٰ، أو شارِعَي أبي بكر الرّازي وطارق بن زياد، لقد صار القصفُ قريبًا إلىٰ هٰذا الحدّ، ومع تتابُعه صرنا نعرفُ علىٰ أيّ عمارةٍ سيهوي، ونعرفُ أكثر أنّه إذا هَوَىٰ في هٰذا الشّارع من هٰذا الحيّ، فإنّ الموجودين فيه كلّهم سيفقدون حياتهم، وأنّ المحظوظ هو مَنْ تستطيع طواقم الدّفاع المدنيّ والإسعاف إخراج جُثّته من تحتِ الأنقاض. أحدُ المرضىٰ كان يُتابع صاروخًا يهوي علىٰ إحدى البنايات غربيَّ جامعة الإسراء، عرفَ البناية من أسطُحها، وهتفَ بصوتٍ يرشح بالرّعب: «لا... لا... لا يا ربّ». كان يستند فوقَ السّرير علىٰ رُكبتَيه، هوىٰ فجأة، ووضع كَفَّيه علىٰ وجهه، وصرخ: «قتلوا عمّتي وعمّي وأولادَهما وأحفادَهما».

بدأتِ الجثث المردومة تحت الأنقاض تتعفّن. ثلاثة أيّام إذا لم تُوارَ الجُثّة الثّرىٰ فإنّها ستتحلّل، مضتْ تسعةُ أيّام. الرّوائح ستنتشر. وإذا لعبتِ الرّياح دورها في هٰذه الحرب فإنّها بعدَ أيّامٍ قليلةٍ ستجلبُ معها الأمراض الّتي ستكونُ موتًا يُضاف إلىٰ قائمة الموتِ المتعدّد في غَزّة.

اصطفّتْ أجسادُ أربعةَ عشر شهيدًا وشهيدة، بدأ منظر طابور الشّهداء يدخُل إلى المشهد، لم نكنْ نرىٰ ذٰلك من قبلُ، نعم طابورٌ من المُكفَّنين بالبَياض، وتبدأ نظرات الوداع الأخيرة تتوالىٰ، والكلمات المفجوعة الّتي مهما كان طعْمُ فجيعتها فإنّها لا تستطيع أنْ تُعيدَ ميّتًا إلى الحياة.

اكتمل الطّابور عندَ الرّابع عشر الّذي كان يُرفَع على النّقّالة محمولاً من الطّرفين بأربعِ أذرُعٍ لقريبَين له، انحنيا من الجِهتَين ليُتِمّا به هٰذا الصّفّ المُوشَّح بالبياضِ لأربعةَ عشرَ قمرًا غُطّيتْ أجسادُهم بأكملها،

وفُتِحَ أعلى الكفن لتظهر الوجوه، الوجوه الّتي قالتْ كلّ شيءٍ دون أنْ تهمسَ بحرف. سقطَ القريبُ من الجدار، فأسندَ ظهره على الحائط حتّىٰ لا يُتِمّ السّقوط، وراحَ يجأر.

الأوسطُ كان وجهَ طفلٍ، كان الدّم لا يزال يصبغ خدّه الأيمن، مسحَ أبوه عليه بكفّه، ثُمّ رفعها علىٰ وجهه فمسحَ بها خَدّه، وقرّبه من أنفه وراحَ يشمّه: «يا حبيبي يا بابا». من الكفن السّابع كان يظهر وجهُ فتاةٍ شقراء يبدو أنّها لم تتجاوز الخامسة تدلَّتْ خُصلةٌ من شعرها علىٰ وجهها، كان أبوها يجلسُ مُحتبِيًا، وقد رفع رُكبته حتّىٰ عانقتْ صدرَه، صدرَه الّذي لم يكفّ عن الارتِجاف. الكفنُ الرّابع من حيثُ أقف أَطَلَّ من فتحته العُليا وجهُ شابٍ في أوائل العشرينيّات من عُمره، كان الوجه قد أُميل نصفه الأيسر، فيما ظلّ نصفه الأيمن مكشوفًا، كانتْ لحيتُه شديدةَ السّواد ليستْ كثّة ولا خفيفة، فيما يبدو أنّ الإصابة الّتي قتلَتْه كانت في أعلىٰ الرأس، حيثُ موضع الدّم، هبطَ أخوه - على الأرجح - وانحنىٰ بكامله، وألصقَ خَدّه الأيمن بأعلى الرأسِ حيثُ الدّم وراح يُحرّك خَدّه حتّىٰ أخذ من الدّم قِسْمَته. الكفن العاشر لم يكنْ يظهرُ وجهُ صاحبه من هنا، لٰكنّني رأيتُ فتاةً في العشرين تهوي إلىٰ موضع الرأس وتقبّله يبدو أنّها زوجته، وحينَ رفعتْ رأسَها، هوتِ امرأةٌ أخرىٰ تبدو في الخمسينيّات من عمرها علىٰ ذات الموضع من الكفن وراحتْ تُقبّله وتحتضنه، فيما يبدو أنّها أمّه. الكفن الثّاني الأقرب من هنا، كانَ لطفلٍ كذٰلك لم يتجاوز الثّامنة، كان وجهه مُغطّىٰ قبلَ أنْ يرفعَ أبوه الغِطاءَ عنه، فتبدو عيناه تنظران إلىٰ السّماء، كأنّما يرىٰ مقعده من الجنّة، فيما كان أبوه لا يزال يطبع علىٰ وجنتَيه قبلاتٍ لا يعرفُ معناها إلاّ مَنْ جرّبها.

كان الموتُ يستعرضُ هيبتَه في هٰذا الصّفّ المُنتَظم، فيما سَمَح لنا في النّهاية أنْ نحملهم في سيّارات الإسعاف من أجل أنْ ندفنهم في أقرب مقبرة. لم تعدِ المقابر تتّسع. ضاقتْ بالشّهداء، يبدو أنّ كلّ شبرٍ في غَزّة سيضمّ في الغد قبرًا لشهيد أو شهيدة!

نحاول في طوفان الموت أنْ نتذكّر الحياة، أنْ نتذكّر أنّنا لا نزال بشرًا، وأنّ في الوقتِ فُسحةً نسرقُها من بين أشداق الموت لنحيا.. اشتقتُ في اليوم العاشر من الحرب لـ (جودي) إنّه اليوم السّابع من رحيلي عنها، لا بُدّ أنّ طَعامَها قد نَفِد، سيتعيّنُ عَلَيّ العودة إليها إذًا، لقد اشتقتُ لعينَيها الفيروزيّتَين بالفعل، اشتقتُ أنْ تنام في حضني، أنْ أقصّ عليها ما حدث معي، أحتاجُ أكثرَ من أيّ وقتٍ مضىٰ إلىٰ أحدٍ لأقول له كلّ ما اختزَنْته عينايَ وذاكرتي من مآسٍ، أيًّا كان هٰذا الأحد؛ صديقًا، قِطّتي، عابرًا في الطّريق تجمعنا الهموم المُشتركة، صخرةً أحفر عليها آيات الوجع، دفترًا أكتبُ عليه تأويل ما لا يُؤوّل، أو حتّىٰ جدارًا مائلاً قبل أنْ يسجد سجدته الأخيرة.

اشتقتُ للماء، لكلّ ما كان عاديًّا قبل الحرب، هل تُصدّقون أنّني اشتقتُ لصوتِ الماء في الشّطّافة أو لصوته في الدّوش أو لصوت الحنفيّة حتّىٰ لو علاها الصدأ الأخضر.. اشتقتُ أنْ أنظر إلىٰ وجهي في المرايا دون أنْ يكون مُلطَّخًا بالدّم، مُعفّرًا بالتّراب، مُلَوَّثًا بالمحاليل. اشتقتُ أنْ أمشّط شعري، شعري الّذي كان أسودَ فَعَلاهُ الشّيب، كانتْ (رجاء) تعدّ الشّيبَ في رأسي وفي لحيتي، كلّما عدّتْ شَعرةً بيضاء، تقول: «لقد كبرتَ يا فرج» وتضحك. اشتقتُ إلىٰ أنْ أنام علىٰ فرشة مريحة ومِخدّة، أنْ أنام علىٰ سريري بدل هٰذا البلاط البارد، اشتقتُ أنْ أجلسَ ساعاتٍ

كما كنتُ أفعل في السّابق أُحدِّق في الفراغ من دون معنىٰ. إنّ الحربَ لم تتركْ فرصةً لنا حتّىٰ نلتقي بأنفُسنا الضّائعة بين أزقّة الموت وشِدقَيه المفغورَين.

قبل أنْ ينتصف اللّيل وفيما كنتُ منهمِكًا في خِياطة أكثر من عشرينَ غرزةً في وجه أحدِ المُصابين، شعرتُ بيدٍ خفيفةٍ تنقر علىٰ كتفي بلطف، استدرتُ لأرىٰ مَنْ يفعل ذٰلك، فالتقتْ عينايَ بوجهٍ لم أتعرّفْ إليه في البداية، لٰكنّ نظرةً أخرىٰ إلىٰ يده الّتي تُمسِكُ بدرّاجتي عرفتُه. هتفتُ: «هو أنت؟». «لقد نقلتُ علىٰ درّاجتِكَ هٰذه أمّي من مستشفىٰ إلىٰ آخر، لٰكنّها لم تنجُ». قلتُ له: «إذا كنتَ بحاجةٍ للدّراجة فأبقِها معك». هتف بصوتٍ هادِئ «لقد ماتت الغالية فما حاجتي للدّرّاجة. أريدُ أنْ تُسامحني». ثُمّ هَمّ بأنْ يُقبِّلَ يدي مُعتذِرًا. احتضَنْتُه، ودعوتُ لأمّه بالرّحمة، فراح يبكي علىٰ صدري مثل طفلٍ صغير!



(١٤) قتلوا المسيحَ مرَّتين

صار يُستَشهد طفلٌ كلّ عشر دقائق. يقتلون الأطفال لأنّهم يعرفون أنّهم صُنّاع هٰذه المُعجِزات. لٰكنّهم لا يدرون أنّ الأطفال الّذين قَتَل الاحتِلالُ آباءَهم وإخوانَهم في حرب عام ٢٠٠٨م علىٰ غَزّة، والّذين كانتْ أعمارُهم بين السّادسة والثّامنة هم الّذين صنعوا طُوفان الأقصىٰ هٰذا العام. إنّ القتلَ لا يزيدُنا إلاّ حياة، وإنّ الموتَ لا يزيدُنا إلاّ قُوّة، وإنّ الشّهادة تصنع مِنّا جيل الثّأر الّذي لا ينتهي. نحنُ قدرُ الله الغالب!

قصفوا حيّ الزّيتون، وحيّ الشُّجاعيّة، وحيّ الدّرج... صِرْنا نعدُّ الأحياء المقصوفة بعدَ أنْ كُنّا نعدّ الجرحىٰ والشّهداء. أحياء بأكملها تحوم حولها الطّائرات في حركةٍ لولبيّة كما يحومُ الصّقر الكبير حول فريسته الصّغيرة، ثُمّ تهوي صواريخها، تهوي بأسرع ما يُمكن أنْ يهوي جسمٌ ساقِطٌ من السّماء، أسرع من الشّهب والنّيازك، بكلّ ثقلها المعدنيّ والنّاريّ، تمحو العائلات من الوجود، وتمحو معهم كلّ ما كان له علاقةٌ بهم. هٰذه ليستْ حربًا. هٰذه القاصِمة الّتي لا يكون بعدَها حياة، أكادُ لا أُصدّق أنّ النّاس يُمكن أنْ يعيشوا بعد هٰذا الرّعب، لا أدري إنْ كان الآخرون الجالِسون خلفَ الشّاشات يُشاهِدون هٰذا، إذا كانوا يُشاهدونه بالفعل فلا أدري كيفَ يستمرّون بعدَ ذٰلك في حياتهم، كيفَ تُستَساغُ لهم اللّقمة، وكيفَ يطيبُ لهم النّوم؟! أينَ يفرّ النّاس؟ إلى المستشفى المعمدانيّ، أقربُ مأمنٍ مُمكنٍ، ثُمّ إنّ الإشراف الكَنَسِيّ عليه سوفَ يزيدُ من فُرصة حمايتهم.

إنّ المسيح جاءَ من أجل أنْ يُغمِدَ السّيف، فمَنْ أَخذَ بالسّيف فبالسّيفِ يُؤخَذ، لكنّهم أرادوا أنْ يقتلوه، أرادوا لمن احتمىٰ بِحماه أنْ يقولوا: إنّه لن يحميكم لا المسيح الّذي أَوَيتُم إليه ولا المستشفيات ولا حتّى الله، نحنُ نريدُ لكم أنْ تموتوا ولو كُنتم في قبوركم، نحنُ شعبُ المذبحة لا شعب الله المختار، إذا كان قتلُ الأنبياء سهلاً علينا، فهل تظنّون أنّ قتلكم سيكونُ صعبًا؟! في المستشفى المعمدانيّ قتلوا المسيح مرّتَين.

إنّهم يُمشِّطون الشَّمال. يذبحون كلّ مَنْ يتحرّك فيه علىٰ رِجلَيه، يريدون لنا أنْ ننزح إلى الجنوب. يحشون صواريخهم بالموت، يطبعون عليها قُبلة الفَجَرة، ثُمّ يُرسِلونها إلينا وهم يُقهقِهون. يهتفون مُتشفِّين: «سنقتلُ التّراب الّذي تتركونه خلفكم، لن ينجو من المِقصلةِ أحد». أيُّ فضيلة لانتصار الدّبّابة على الوردة، وأيّ فخرٍ لتفوّق الطّائرة علىٰ الصّدر العاري؟! هزمتْكمُ ابتِسامة الشّهيد وهو يتلقّى الموت. لعنتْكُم قلوب الأجيال الّتي تستعدّ ليوم الثّأر. تفوّقتْ جذور أصحاب الأرض على الطّيور المُهاجرة. الفِئران والجُرذان لا يُمكن أنْ تعيشَ طويلاً في الأرضِ الطّاهرة، إنّ طهارة الأرض تُؤذيها، وإنّ قداسة المكان تُصيبها بالغَثَيان، وإنّ ثبات أصحابها يُفجّر الحقدَ في قلوبكم.

كان مِئات الجرحىٰ يُحاولون الخروج من المستشفى المعمداني بعدَ أنْ زعقتْ مُكبّرات الصّوت: «لا تُجرّبونا. نحن نقتل كلّ مَنْ يخرجُ من المستشفىٰ». كانوا يريدون أنْ يهدموه علىٰ رؤوس البشر. كان منظرًا مَهولاً، لا يُمكن أنْ تراه في الحروب، كلّ الحروب الّتي جرتْ في التّاريخ لن تُقدِّمَ لكَ هذا المشهد. هل يُمكن أنْ تتخيّل كيفَ يُمكن أنْ يهربَ من المُستشفى المُهدّد بالقصف أصحابُ الأقدام المبتورة، أو الأرجُل

المكسورة؟! كيفَ يُمكن أنْ يهربَ مَنْ كانوا في إغماءاتهم يحاولون أنْ ينتزعوا من الوقتِ فُسحةً للتّداوي؟! كيفَ يهربُ الشُّيوخ والعَجَزة؟! كيفَ تركضُ الحوامل؟! مَنْ يُمكن أنْ يرىٰ عجوزًا في السّبعين قد أحنىٰ الهرمُ ظهرَها تركض؟! لم يدرِ أحدٌ ما يفعل. غيرَ أنّ الخيارات كانتْ قليلةً جِدًّا، وبينَ أنْ تقضي في موتك السّريريّ أو بالقصف كان الموتُ يقفُ واضِعًا كفّه تحتَ ذقنه ناظِرًا نظرة استخفاف ولا مُبالاةٍ ينتظر دورَه لازْدِرادِ وَجْبته، في غَزّة أنتَ بين خيارَين: أنْ تموتَ من القصف أو أنْ تموتَ من النّزف، لا أملَ في الحياة، إنّه موتٌ فحسب، وعليكَ أنْ تختارَ أحدَ الموتَين.

فكَّرَ الأطبّاء، المُسعفون، طواقم المُمرّضين، لا يُمكن أنْ نفعل شيئًا، كان ذوو المرضىٰ أحدَّ ذِهْنًا فنبتتْ في عقولهم المرعوبة فِكرة؛ فكرةٌ لم تخطرْ علىٰ بالِ أحد؛ أنْ يسحبوا ذويهم من المستشفىٰ وهم علىٰ أَسِرّتهم، ويسحبوا معهم محاليلهم الّتي تُغذّي عروقَهم، وأنْ يُخرِجوا هٰذه الأسرّة من باب المستشفىٰ، ويهربوا بها وبمرضاهم إلىٰ مكانٍ أكثرَ أمنًا حتّىٰ يُفكّروا فيما بعدُ بطريقةٍ أُخرىٰ لإعادتهم إلى المستشفىٰ أو بطريقةٍ لتطبيبهم. لا أحدَ يدري مَنْ أوّل مَنْ فَكّر بهٰذه الفكرة، غيرَ أنّه لَمّا نَفّذَها وركضَ بسريرِ مريضه إلىٰ باب المُستشفىٰ لَمَعتِ الفكرة في أذهان الآخرين، وفي أقلّ من خمسِ دقائق كانتِ عشرات الأسرّة تصطفّ في طابورٍ طويلٍ مثل طابور السّيّارات علىٰ باب المستشفىٰ تحاول أنْ تنفذَ منها، خرجَ الأوّل، فالثّاني، فالثّالث، وفي غضونِ دقائق وعلىٰ صوتِ رُعب الطّائرات المُحلِّقة في الأجواء اكتظّت باحة المستشفى الخارجيّة بهم في مشهدٍ لم يكنْ ليرتسم في خيال أبعدِ النّاس تَخَيُّلاً، لقد ظنّوا أنّهم ينجُون،

ولـٰكنّهم لـم يكونوا يدرون أنّهم جمّعوا أنفسهم بهـٰذه الطّريقة ليكونوا لُقمةً سائِغةً للموت المُتربّص السّاخر من محاولاتهم المحمومة للنّجاة.

هبطَ الموتُ صاعِقًا، أوّلُ صاروخٍ بعثَرَ الّذين يقودون الأسرّة في أنحاء الباحة، سقطوا فأفلتتْ أيديهم الأسرّة، فراحتِ الأسرّة تتراكضُ بعَجَلاتها في كلّ مكانٍ، اصطدمَ بعضُها ببعض، انزلقتْ هنا وهناك، سبحتْ - من دون أيدي الّذين كانوا يُمسِكون بها - في بحرِ الموتِ المُتلاطِم. ماتَ من مات من المطروحين على الأسرّة. لم يكونوا خالِين من الموت من قبل، كان بينهم وبينَه شَعرة، فجاء الصّاروخ ليقطعها، تخيّل أنّهم بعثوا بأطنانٍ من المُتفجّرات من أجل أنْ يقطعوا ما تبقّىٰ من شَعرةِ الحياة الرّفيعة في أجسادِ هـٰؤلاء المرضَىٰ.

كان هـٰذا هو الصّاروخَ الأوّل. كان تسلية. لم يكنْ هدفَ الهجمة الوحشيّة، سقَطَتْ بعدَها صواريخ كثيرة، لا يُمكن أنْ تعُدَّها، ولو كانتْ تُعَدّ بصوتِ الانفِجارات وارتِفاع ألسنة النّيران لكانتْ بالمِئات!

هُرِعْنا نحن المُسعفين من مستشفى الشّفاء إلى المُستشفى المعمداني لنُساعِد في تأجيل الموت أو مُراوغته أو استجدائِه علىٰ ألاّ يقتل أكثرَ مِمّا قتل. ركبْنا عشر سيّارات إسعافٍ وانطلقْنا إلىٰ هناك.

من بعيد بدا المُستشفىٰ كُتلةً من اللّهب، كأنّ الموتَ تركَ كلّ أرواح البشر في العالَمِ كلّه وجاءَ ليتربّع هنا. شاهدتُ الصّواريخ أمامي وهي تهوي على المستشفى المعمداني، وأنا متوجّه إليه، كما لو كنتُ متوجّهًا إلىٰ صالة سينما تعرضُ ألعابًا ناريّة، لم أشعرْ بالخوف أو الشّجاعة، ولا بالرّعب أو الطّمأنينة، لم أشعر بشيْء، كنتُ أريدُ أنْ أتقدّم وفي قناعتي أنْ نسبة نجاتي أقلّ من واحدٍ في المئة.

فكّرتْ بعضُ السّيّارات الّتي معنا بالرّجوع، لا يُمكن الوصول وسطَ هٰذا الدّمار، كما أنّه لا يُمكن أنْ نُلقي بأنفسنا إلى التَّهْلُكة. بالفعل رجعتْ ثلاثُ سيّارات، أنا أمرتُ السّائق أنْ يُسرع في التّقدُّم إلى المستشفىٰ، فراحَ يضغطُ علىٰ دوّاسة البنزين بصورةٍ عصبيّة، رأينا صاروخًا يتّجه نحونا، إنّها ليستْ مزحة، ليستْ حلمًا، ليستْ كابوسًا، ليستْ فيلمًا، ليستْ طُرفة، إنّها حقيقةٌ نراها بأمّ أعيننا، صرختُ بالسّائق أنْ يُسرِعَ أكثر، كما لو كنتُ أشعرُ أنّ اقتِحام الموت يُنجِي من الموت، سقَطَ الصّاروخ علىٰ سيّارات الإسعاف مباشرة، دَمّر سبعة في الحال، أفلتَتْ اثنتان كانتا قد اختارتا الرّجوع، والسّيارة الّتي أنا فيها طارتْ، لكنّنا نجوْنا ولم نمت، أمّا السّيّارات الّتي كانتْ في الوسط وتردّدتْ في التّقدّم أو الرّجوع فقد سقطَ كلّ من فيها قتيلاً أو جريحًا.

كان رأسي ينزف، قدّرتُ أنّه جرحٌ خفيف، خلعتُ بعض الأشرطةِ الّتي علىٰ ذراعي، لففتُها حولَ رأسي ومضيت، نَجَا بسّام في السّيّارتَين اللّتين عادتا كما علمتُ لاحِقًا، وأنقذَ ما استطاع إنقاذَه من زملائنا الّذين قُصِفوا. لمْ يكنْ لديّ وقتٌ لأرثي مَن مات مِنَ الأطبّاء والمُسعِفين، عَلَيّ أنْ أمضي إلى الأمام. أنا واثنان فقط تمكّنّا من الوصول إلى المعمداني لِنُساهِمَ بما نستطيع.

زعيقُ سيّارات الإسعاف كاد يُصيبني بالدُّوار. غير أنّ صوتَها ليسَ صوتَ الموت الوحيد. كانتْ تأتينا علىٰ مبعدةٍ من هنا ونحن نقلّص المسافة المُتبقّية بيننا وبين المُستشفىٰ بالرّكض وسطَ الرُّكام أصواتٌ لو سُجِّلتْ في فيلم لتبثّ الرُّعب في قلوب سامعيها لكانتْ أكثرَ الأصوات المُرعِبة على الإطلاق، يتداخل فيها صوتُ الثّاكلة مع النّازفة

مع المصدومة مع المذعورة مع... وعلىٰ ظلال النّيران المُتراقِصة من هنا كنتُ أرى النّاس يَتدافَعُون في كلّ اتّجاهٍ كأنّهم أشباحٌ أسطوريّة، كانتْ أيديهم الّتي تعلو فوقَ رؤوسهم وتهوي علىٰ وجوههم طُيورًا تهوي في نار إبراهيم، وسيقانهم الّتي تهرول وتعدو سيقانَ قبيلةٍ من قبائل النّار باغتَها وحشٌ عملاق فهربتْ منه.

وصلتُ وأنا ألهث، ولا أدري كيفَ وصلت. وليتني لم أصلْ. لقد رأيتُ ما لا طاقةَ لبشريّ بتحمُّلِه ولو كانَ قلبُه مقدودًا من صخر. كانتْ ساحةُ المستشفىٰ تعجّ بالموتىٰ، بسرعةٍ تعلَّمْناها من الحروب أدركْنا أنّنا لا يُمكن أنْ نهتمّ بالجُثث في هٰذه اللّحظة، وأنّ علينا أنْ نهتمّ بمن ظلّ في روحه رمقٌ لعلّه ينجو.

السّاحة كانتْ مليئةً حقًّا بالجُثث، هٰذا غير الجُثث الّتي كانتْ في الدّاخل وفي الطّوابق، وفي مرآب السّيّارات، وتلك الجُثث الّتي تطايرتْ بسبب قوّة الانفِجار فَحطَّ بعضُها على الأسوار، وسقطَ بعضُها خارِجَها. ولَصِقَ بعضُها بالجُدران فشكّلتْ لوحةً سورياليّة، وتعلّقتْ جُثثٌ أخرىٰ علىٰ أعمدة الكهرباء والاتّصالات. لم يكن المشيُ في السّاحة سهلاً، كُنّا نعثر بالجثث، ونكادُ ندوسُ فوقَها، وأكثرَ ما يُؤلم أنْ تضطرّ إلىٰ العبور فوقَ جُثّة وتتحرّك من تحتك لبقيّة حياةٍ فيها، أو أنْ يصدر منها أنينٌ خافتٌ يُخبر أنّ الحياة لم تهربْ من الجسد بأكمله.

الدماء بِرَك. الدّماء لا تصبغ الأرضيّات أو تُلوّن الجُدران فحسب، بل تتجمّع حتّىٰ تصير بِرَكًا صغيرةًهنا وهُناك. حذاؤك الطّبّي إذا كنتَ محظوظًا ولا تلبس الشّبشب سيغطسُ في تلك الدّماء. أضعُ يدي على العنق، أجسُّه، أو على المرفق أتحسّسُ نبضَه إذا كانَ لا يزال في الجُثّة ذراع، أو

أضع أذني على فم الجُثّة لأسمع أو أحسّ بنَفَسٍ مهما كان ضئيلاً، إنْ لم تجدْ أيًّا من ذلك، فالرّوح لم تعدْ تسكنُ هذا الجسد. هذه جثّة. وهذه جُثّة، وهذه جُثّة. الرّابعة هممتُ أنْ أقول إنّها جُثّة لولا أنّ ترقوته تحرّكتْ حركةً أشبهَ بحركة فقاعة ماءٍ واحدةٍ على سطح بركةٍ هادئة. صرخْتُ: «ما زالتْ فيها حياة»، أصيح بالمُسعفين: «هاتِ النّقّالة». لم تكن النّقالات مُتوفّرة بكثرة، أو قُلْ إنّ عدد مَنْ يُمكن أنْ نحملهم فوقَها إلى الدّاخل أو إلى سيّارات الإسعاف كان أكبر بكثيرٍ منها. لم نكنْ نضعُ عليها إلاّ مَنْ كُنّا مُتأكّدين من أنّه حَيّ وإنْ بدا ميّتًا. أمّا الجُثَث فتعاون الممّرضون وطواقم الدّفاع المدني وأنا وبعضُ المُسعِفين - باتّفاق ضمنيٍّ سريعٍ - أنْ نبدأ بحملهم على ما توافر من نَقّالاتٍ أو على ظهورنا، وأنْ نَصُفَّهم في طوابير كلّ جُثّة عن يمين أختِها، فعلْنا ذلك طَوَال أكثر من ستّ ساعاتٍ وسطَ ضجيجٍ وصياحٍ وآهاتٍ مرعوبةٍ وصرخاتٍ مذعورةٍ حتّى عددْنا أكثر من خمسمئة جُثّة، هذا غير الّذي لم يُنقَل بعدُ من الدّاخل. ولا ذلك الّذي لم يعدْ جثّة، إذ إنّ كلّ عُضْوٍ صار في جهة. من هنا يُمكنكَ أنّ تنظر فترى السّاحة قد غطّتْها الجثث المصفوفة عن بكرةِ أبيها. أينَ يُمكن أنْ ندفنَ هذا العدد المهول من الشّهداء؟! فكّرْتُ في لحظةِ جنون أنْ نحوّل ساحة المستشفى إلى مقبرة، ثُمّ نفضْتُ من رأسي هذه الفكرة العبثيّة، وهمستُ لنفسي وسط هذا الذُّعر: «يا مجنون». لم أكنْ أعرفُ أنّ هذه الفكرة لن تكون مجنونة بعدَ شهرٍ أو أقلّ، ستكون أكثر فكرةٍ منطقيّة وسطَ هذا الجنون الكبير!

(١٥) لمن نروي هذه الحكاية؟!

لا أوحشَ الله منكِ يا (جودي). كان من المفترض أنْ أعودَ إليكِ هٰذا اليوم لأُحدِّثَكِ عمّا حصل معي، ولٰكنّ مذبحة المعمدانيّ وقفتْ حائِلاً بيني وبينك. أعرفُ أنّ طعامكِ نَفِد، وأنّكِ تواصلين العيش في العتمة، ولٰكنّني لن أطيل الغيبة، أعدكُ بذٰلك. أحمي عقلي من الجنون حينَ أُفكّر بك. إنّك الدرع الّذي يقيني من الانهيار وأنا أرىٰ وحشيّة البشر، وأنتِ مساحتي الّتي أدخلها لأرتاح من اللُّهاث خلفَ الأنفُسِ المُتساقِطة والأرواح المسافرة. هتفَ صوتٌ من بعيدٍ في أعماقي: «أنتَ بائس وتحتاجُ إلىٰ أنيس».

سنكون يومًا لا شيء، وسنأوي إلىٰ لا مكان. كلّ هٰذا الكون رماد، غُبارٌ، جُذاذة، نُثار. الأمواتُ صاروا إلىٰ تُراب، والأحياء سيصيرون إليه عن قريب، لِمَ كلّ هٰذا السّعي المحموم إلى البقاء؟! لِمَ كلّ هٰذا اللُّهاثِ وراءَ رغباتٍ لم تكنْ إلاّ فُقاعاتِ هواءٍ تنفثِئ بأقلّ نسمةٍ عابرة؟!

كلّ حيٍّ ميّت. كلّ باقٍ فانٍ. كلّ دَيَّار هالك. سنهلك نحنُ وأنتم أيّها الغُزاة، عَمّا قريبٍ سنكون نحنُ وأنتم أيّها الطُّغاة تحتَ الأرض، ما الفرقُ بيننا؟! لن نزيدَ في أعماركم ولن تُنقِصوا في أعمارِنا. سنموتُ بالصّاروخ وستموتون بالشّيخوخة. سنموتُ بالرّاجِمات وستموتون بالسّرطان، كلُّنا في نهاية المطاف موتىٰ، ما الفرق؟! الفرقُ هناك. حينَ تكونُ حياة. هٰذه ليستْ حياة، بائسٌ مَنْ يعتقد أنّها حياة، هي اضطرابُ حركةٍ لكائنٍ

كُنّاه ثُمّ عُدْنا إلىٰ حقيقتنا في الدّار الآخرة، في أيّام اضطراب حركتنا تلك كُنّا نحبّ الورد وكنتم تحُبّون الشّوك، كُنّا نحاول أنْ نُوقِدَ شمعةً، وكنتم تجهدون في مدّ سُجُف الظّلام، ربّما هٰذا هو الفارق الكبير بيننا.

الجسدُ الواحد صارَ ألفَ قِطعة. كثيرون يبحثون عن أحبابهم ولا أحباب، لقد تمزّقوا، لقد توزّعوا على الأزقّة والأتربة والحرائق والدّم. لم نعدْ ندركُ ما يجري. لا يُمكن للعقلِ البشريّ أنْ يستوعبَ هٰذا الحجم من الهول دُفعةً واحدة. يدٌ هنا مبتورة، ومع بترها كنتَ ترىٰ بعضَها محروقًا أو مُفتّتًا، لعبةُ طفلةٍ تذرذرتْ قِطَعُ قِماشِها وانطلقَ ما في بطنها من ريشٍ أبيض، طار مثلَ حماماتٍ صغيرةٍ في الهواء وسرعان ما لوّنها الغبار باللّون الرّمادي، فلمّا سقطَتْ على الأرض اصطبغتْ بلون الدّم القاني. حذاءُ هٰذا الفتى الصّغير ما زالَ رَبّاطُه يُنقِّطُ الدّم. كان من الممكن أنْ ترىٰ أطفالاً بنصفٍ أعلىٰ، نصفهُم السّفليّ اختفىٰ ولا يدري أحدٌ أينَ اختفىٰ، آخرون بُقِرتْ بُطونهم، أمعاؤهم تدلّتْ بياضًا ناصِعًا لَزِجًا في حُمرةٍ دامية. مَنْ كان محظوظًا سقطَ جزءٌ من باطون السّور فوقَه فأماته وأبقىٰ علىٰ جُثّته كاملة، الّذين أصابتهم الصّواريخ إصابة مُباشرة لم يعدْ لهم جُثّة لِتُدفَن، ولا أجزاء منها. وأولئك الّذين أُصيبوا بالشّظايا المُتناثرة، دخلت تلك الشّظايا إلىٰ رؤوسهم فأسالتْ أدمغتهم خارج جماجمهم، أو دخلتْ من بطونهم وخرجتْ من ظهورهم. أو أصابتِ العنق ففصلَتْه عن الجسد.

عندَ الفجر أو قُبيل الفجر بقليل، كُنّا قد حمّلْنا حوالي ستّمئة جُثّة إلىٰ المقابر في شاحِنات كبيرة. أكثرُ من نصفِهم لم يتبعْهم أحدٌ، لقد كانوا بلا أهل، أو كانوا من النّوع الّذي لم يتعرّف عليهم أحد، كم من شهيدٍ سيُدفَن غريبًا، سيتحوّل بالفعل إلىٰ رقم، سيقولون الجُثّة رقم (١٧٦) مجهول،

كيفَ تحوّل هٰذا الإنسان الّذي تضجّ حياته بالتّفاصيل وبالحكايا والأحداث إلىٰ رقمٍ مجهول، ثُمّ ها هو المسكين يُلقَىٰ في قلبِ شاحنةٍ كبيرةٍ من أجل أنْ تذهب به هو والمئات المجهولة الأخرىٰ إلىٰ أرضٍ بعيدةٍ غريبةٍ مُوحِشة، وقد يقصفهم صاروخٌ وهم في طريقهم إلى المقبرة الغريبة فيموتون مرّةً بعدَ مرّة، نحن لا نموتُ مرّةً واحدة، إنّ شهادتنا يليقُ بها ما لا يليقُ بكلّ شهادات الآخرين، إنّنا نموت ألفَ مرّة، ونُستشهَد في السّاعة ألفَ مرّة، ولا نجدُ مَنْ يبكي علينا من إخواننا، ولا مَنْ يشعر أنّنا ننتمي إليه في عروبتنا وديننا.

ما أصعبَ أنْ تُدفَن مجهولاً! أنْ تُحفَر لك الحُفرة الأخيرة، وتُلقىٰ فيها، ولا تجد حولكَ أبًا يرثيك، أو أمّا تبكيك، أو أختًا تنوحُ عليك. ما أقسىٰ أنْ تُرمَىٰ في تلك الحفرة الباردة المُظلِمة، ولا تحظىٰ ضلوعكَ المُمزّقة بلمسةٍ أخيرةٍ من يدٍ حانية!!

عندما أشرقتِ شمسُ اليوم التّالي للمجزرة، كانتْ واهنةً ضعيفةً خجلىٰ، لم تُصَدّق أنّها ستأتي من العالَم الآخر، من أسداف الظّلام البعيدة لتُلقِي أشعّتها علىٰ هٰذا المكان الّذي لم تبقَ فيه ذرّة من رمل، ولا فترٌ من أرض إلاّ وعُجِنَ بلحم الضّحايا ودمائهم وأشلائهم.

لماذا نحنُ نقول هٰذا كلّه؟ لمن نروي هٰذه الحكاية؟! أيّ كبيرِ فائدةٍ في أنْ نسردَ حكايانا المُلطّخة بالوجع، المعجونة بعار أشقّائنا العرب، هل يُمكن أنْ يشعروا بالنّدم حينَ يأتي جيلٌ غيرُ فاسدٍ من الأجيال القادمة فيعلموا كم كان آباؤهم مُتواطِئين مع الجلاّد شُركاءَ له في جريمته؟! أيمكن أنْ يحدث هٰذا؟ إنّنا يئسنا من هٰذا الصّفّ من القادة التّماسيح؟! لٰكنّني أخشىٰ أنْ يستمرّ يأسُنا، وأنْ يخدعنا الوهم بأنّ الصّفّ الثّاني منهم أو الثّالث

أو حتّى العاشر يُمكن أنْ يتغيّر.

من شروق شمس اليوم الثّاني إلى الظّهر، عادَ عددٌ كبيرٌ من النّاس إلى المستشفىٰ، كان لا يزال يعجّ بالجرحىٰ والشّهداء رغم أنّنا رَحّلْنا إلى المقابر المئات منهم. عادَ ذوو الشّهداء يبحثون عن بقاياهم، عن أيّ شيءٍ منهم، كنتَ ترىٰ في السّاحة الداخليّة، والمُنبَسَطات الخارجيّة حيثُ كانوا يلجؤون عشراتٍ من الشُّبّان والفتيات يبحثون عمّا خلفّه الدّمار من أعضاء أحبابهم أو من مُتعلّقاتهم.

رأيتُ شبابًا يُفتّشون بأصابعهم التّراب. وجدَ أحدهم إصبعًا، صاحَ بآخر: «لقد وجدتُ إصبعه، عرفتُه من الخاتم». إنّ الأصابع شهادةُ الوجود. آخر راح ينقّب بين العشب كمن يُنقّب عن إبرةٍ، ويُخرِجُ شيئًا، ويصيح بأمّه: «لقد وجدتُ ميداليّته». وأمّه تُهرَعُ إلىٰ حيثُ كان، وترفعُ الميداليّة عاليًا لتراها بشكلٍ أوضح على الضّوء، ثُمّ تُقبّلها وتبدأ بالبُكاء.

من بعيدٍ رأيتُ فتاةً قدّرتُ أنّها في الخامسة عشرة من عمرها، تحملُ وسادةً نجتْ من الموت، كانتْ تحتضنها بحميميّة كبيرة، وهي تبكي وتصيح: «أبويا يَمّة.. أبويا حبيبي» فيما أُمّها تحاول أنْ تُهدِّئها، وهي تُبعِدُ يدَ أمّها عنها، وتستمرّ في العويل: «أبويا حبيبي... أبويا يَمّه».

لم أعدْ إلىٰ مستشفى الشّفاء، قدّرتُ أنّني يجب أنْ أبقىٰ في المستشفىٰ المعمدانيّ بضعة أيّام أُساعِدُ ما يُمكن، مع أنّ مستشفيات غزّة كلّها منكوبة. وأعداد الوافدين إليها أكبر من عشرة أضعافِ قُدرةِ احتمالها، وهٰذا في الوضع الطّبيعيّ، فكيفَ إذا كانت المُستشفيات المُحرَّمة في كلّ المواثيق على القصف - تُقصَف، وتُهدّمُ أجزاء منها، ويشحّ فيها الدّواء،

وتُقطع عنها المياه والكهرباء، أيّ وحشٍ نواجه نحن في هٰذه الحرب؟!
لقد كانتِ المستشفيات في الحروب ملاذ الهاربين من الموت، وأمّا في عهد الصّهاينة فقد صارتْ موتًا مُرعِبًا وحتفًا مُحتَّمًا.

استوقفَتْني في اليوم الثّاني من المجزرة، وأثناء انهماكي في عملي صحفيّةٌ اسمُها (سَلام) تُريدُ أنْ تُجري معي مقابلةً. اجتمع حولَها المُصوِّرون، وطلبتْ منّي شهادتي. تنحنحتُ، لم أقفْ أمام الكاميرا من قبل، أيّام العُزلة صنعتْ في داخلي كُبّةَ صوفٍ من الخجل، تنحنحتُ مرّة أخرىٰ، وعقدتُ يدَيّ خلفَ ظهري، وقلتُ: «أنا فرج أبو العوف مُمرّض متقاعد. كنتَ قبل تقاعدي مدير قسم التّمريض في مستشفى الشّفاء، جئتُ منه أمس بعدَ المجزرة. ما شاهدتُه لم أُشاهدْه في حياتي من قبل، إنّها ليستْ مجزرة فحسب، إنّها مجازر مركّبة، تخيّلوا أنّ الجيش الإسرائيلي أسقطَ علىٰ غزّة ما يُعادل ضعف القنبلة النّوويّة الّتي ألقتْها أُمّه الرّاعية أمريكا علىٰ هيروشيما وناجازاكي.. إنّ وحشيّة...» قاطَعَتْني الصّحفيّة (سلام): «فرج... نحنُ نريدُ شهادتك فيما رأيتَ...» تحوّلْتُ من النّظر في عدسة الكاميرا إلى النّظر إليها، و... ولا أدري هل سألتْ سؤالاً أو أنّها فقطْ حرّكتْ شِفاهَها، ذٰلك لأنّني حينَ ركّزْتُ في عينَيها في تلك النّظرة رأيتُها فيهما، إنّهما لها ولها، هل يُمكن أنْ تتشابَها إلىٰ هٰذا الحَدّ...؟! غرقتُ في خيالاتي عميقًا قبلَ أنْ يوقظني سؤالها مرّة أخرىٰ: «فرج... لماذا صَمّت؟ كُنتُ أسألك عَمّا رأيتَه، عن تجربتك، أنا لا أريدُ أنْ تحلّل الموقف السّياسيّ أو التّاريخيّ، أريدُك أنّ تتحدّث عما رأيت». تنحنحتُ، وحوّلتُ نظري إلىٰ عدسة الكاميرا من جديد، وهتفتُ: «منذُ يومَين لم أنم إلاّ ساعتَين،

في السّاعتَين رأيتُ كوابيسَ أيقظَتْني كلّ دقيقتَين، نحنُ لا وقتَ لدينا لكي ننام، ولا أنْ نأكل، ولا نشربَ. منذُ أمسِ تعاملْتُ وحدي مع أكثر من مئة جُثّة، صففتُ العشرات منها في السّاحة، ورفعتُ العشرات إلىٰ قلب الشّاحنة. نحنُ نموتُ في كلّ دقيقة، كان هٰذا قبل هٰذه المجزرة، نحنُ نموتُ في كلّ...». وسقطتُ مغشيًّا عَلَيّ.

صحوتُ علىٰ سريرٍ مُلطَّخ بالدّم بجانبِ آخرَ عليه الدَّمُ نفسُه، حينَ فتحتُ عَيْنيّ شاهدتُ أوّلاً (بسّام مكّي)، ابتسم أوّل ما فتحتُ عيني، وهتف: «ستعيشُ طويلاً. ليسَ من أجلِك، ولٰكنْ من أجل المُحتاجين إليك». بادَلْتُه الابتِسامة، وحَوّلتُ نظري إلى الفتاة الواقفة إلىٰ جانبه، والتقتْ عينانا ثانِية، وهمستُ وأنا أهزّ رأسي لكي أتأكّد مِمّا رأيت: «إنّهما هما... عيناها... ذٰلك الصّفاء الّذي يجدُ فيه الإنسانُ هدوءه وسط الضّجيج، ونفسَه الّتي لم يعدْ يعثرُ علىٰ بعضٍ منها في منعرجات الحياة العجيبة». ابتسمتْ بدورها حينَ التقتْ عينانا، وهتفتْ بصوتٍ أعادني أربعَ سنواتٍ إلى الوراء: «أنا سَلام... الصّحفيّة الّتي كُنتُ أُجري معك المقابلة حينَ سقطتَ مغشيًّا عليك». حاولتُ النّهوض، وأنا أنظر إلىٰ صدري، وأمدّ كَفَّي أمام ناظِرَيّ، ثُمّ أمسحُ بهما رأسي وأنظر إليهما ثانية وأقلّبهما في الهواء: «أنا لستُ مُصابًا. ووقفتُ علىٰ قدَمَيّ، احتضنني (بسّام) وهتف: «كانَ إرهاقَ العمل. قلتُ لكَ ستعيشُ طويلاً». قالتْ (سلام) ممازِحة: «هل تريدُ أنْ نُكمِلَ المقابلة؟!». نهضتُ، مشيتُ، تركْتُهما خلفي، كانَ كلّ شيءٍ فِيّ سليمًا علىٰ ما يبدو، ها هما ساقاي كاملتان لم ينقصْ منهما شيءٌ، وذراعاي تتحرّكان دون أنْ يكون عظمُهما قد تفتّت، وها هو رأسي في مكانه، لم أفقدْه في ساحة الحرب،

فَلِمَ إذًا تضعونني على السّرير، هل هٰذه مزحة، لَحِقَا بي، أمسكَ بي (بسّام) من ذراعي، وحينَ صار قُبالتي هتف: «إلىٰ أينَ؟». «لأُكمِلَ مهمّتي». «مهمّتُكَ لن تنتهي. عليكَ أنْ ترتاح قليلاً». «هل أنتَ جادّ؟ هل هناك في الحرب راحة». مشيتُ أكثر مُبتعِدًا عنهما، وظلّ بسّام واقِفًا مكانه: «إلىٰ أين يا رجل». فيما تبعتْني (سَلام)، وهي تقول: «أنا سأكونُ معه». همسْتُ لنفسي: «يااااه... من سنواتٍ بعيدةٍ لم يقلْ لي صوتٌ أُنثويّ هٰذه العبارة... أنا بالفعل محتاجٌ إلىٰ مَنْ يكونُ معي حتّىٰ لا أُجَنّ».



(١٦) الألم ليسَ واحِدًا

«ستأكلُ من يدي». «لماذا أنا؟». «لأنّك جائع». «كلّ مَنْ في غزّة جائع». «أنتَ تحتاجُ إلىٰ بعضِ الطّاقة من أجل أنْ تُكمِلَ مِشوارك». «ولماذا تهتمّين بمشواري؟». «لا أدري، ولٰكنّني أفعلُ علىٰ أيّة حال». «هل أنتِ خبّازة أم صحفيّة؟». «نساء غزّة يُتقِنّ كلّ شيءٍ، إنّهنّ ماهرات في ما لا تتخيّل، أنتَ تعرفُ ذٰلك. الحربُ جعلتْ منهنّ بَطَلات». «لِيكُنْ ذٰلك، فأنا جائعٌ حَقًّا، ولٰكنْ من أينَ تحصلينَ على الطّحين؟». «ما زال لَدَيّ بعضُ المال لأشتريه. دَعْني أعجِنْ لكَ خُبزَك. مَحظوظٌ مَنْ يجد مَنْ تخبز له». «أنتِ مُحِقّة، ولٰكنْ أينَ ستخبزين؟». «في ساحةِ المُستشفىٰ».

لم تَعُدِ المُستشفياتُ مُستشفَياتٍ، صارتْ لها أدوارٌ كثيرة. المخابز في غَزّة استُهدِفَتْ من أوّل يوم، كانتْ تُقصَف بشكلٍ محموم أكثرَ مِمّا يُقصَف البشر، نصفُ مخابز غزّة أُغلِقت، أعني دُمِّرتْ. تَبِعْتُها كالمأخوذ وأنا لا أزال في ذهولي بسبب دخول هٰذه المرأة حياتي فجأة، هتفتُ لنفسي بعدَ أنْ طلبتْ منّي أنْ أتبعها حيثُ فُرنُ الطّين: «لماذا تهتمّ بي؟!». ردّ صوتٌ من تحتِ الأرض لا أدري كيفَ صارتْ عيناه اليوم ولم يسمعْه أحدٌ سِواي: «أنا بعثْتُها لك».

كان الفُرنُ قد صنعتْه نساءٌ لا يعرفهنّ أحدٌ، وليسَ مطلوبًا من أحدٍ أنْ يعرفهنّ، إنّ بِناء فُرنٍ في الحرب ليسَ سهلاً، إنّه أمرٌ بطوليّ، وإنّ العمل فيه يُمكن أنْ يكونَ أشرفَ مهمّة تُقَدّم في مثل هٰذه الكوارث.

إنّ الرّغيف ليُعيد الحياة للمُصابين أكثرَ من الدّواء في بعضِ الأحيان. الحرب جُوعٌ قبل أنْ تكون موتًا، ليسَ الموتُ إلاّ صورةً من صُور الجوع.

كان الفُرن من طين الأرض، مَنْ يدري إذا كان مَعجونًا بلحم الشّهداء، أو أنّ خشبَ سقفِه قد رُصَّ إلىٰ جانبِ عِظامهم، كلّ شبرٍ في غزّة فيه من الشّهيد شيءٌ، يُمكِن ألا يكونَ من لحمه، ولٰكنّه من دمه بلا شكّ، تُضيءُ لنا دماء الشُّهداء العتمة في الظُّلُمات، فيما يُمكن أنْ تكونَ النّار الّتي تُنضِجُ خبزَنا الّذي نأكله!

عَجَنَتْ بماءٍ غير الماء. ما أندرَ الماء في غزّة! على البحر غير أنّها عطشَىٰ. ومن الحَقّ أنْ تقول إنَّ دِماءَنا تُروّي عطش الأمّة العربيّة كلّها، ولٰكنّ دماءَنا لم تُصَنْ، وإنّها اليوم أَهونُ علىٰ أشقّائنا من الجَدْي الميّتِ المَسكُوك الأُذنَين الّذي لو مَرّ به أحدٌ لأَنِفَه.

عجنتِ الصّحفيّة إذًا، وخمّرتْ، ورَقّتْ فرَقَّتْ. وأوقدتِ النّار. وإنّ النّار سِرُّ الحكاية، وسِرّ الحُبّ، وسرّ الهمسات الدّافئة. وخَبَزتْ؛ وإنّ الخُبْزَ سِرُّ العيش، وسِرّ الرّضىٰ، وسرّ الحياة البسيطة. ومدّتْ إليّ أشهىٰ خُبزٍ يُمكن أنْ يُؤكَل. وقالتْ وهي تُردِفُ رغيفها الثّاني: «إنّ الجوعَ قاتل». وهتفتُ مُؤمّنًا: «إنّ الجوع كافر». وأكلْتُ، وسرىٰ في العروق دَمُ الحياة، وفي القلبِ دمُ الحُبّ، وإنّها لجديرةٌ به.

وسألتْني: «كم لكَ في مهنة التّمريض؟». فأجبْتُ: «عشرةُ أيّام أو أكثرُ قليلاً». فاستغربَتْ: «وتَدخُل في مواضع الانفِجارات بهٰذه الجُرأة». وأوضحتُ: «عشرةُ أيّام بعدَ رُبعِ قرن». وتساءلتْ: «لم أفهم». «لقد كنتُ رئيسَ قسم التّمريض في مستشفى الشّفاء قبل أنْ أُحِيلَ نفسي

على التّقاعد». «وعُدتَ مُتطوِّعًا؟!». «ماذا أفعل إذا كنتُ مِمّن يؤمنون بخدعة نِداء الواجب...؟! ثُمّ إنّها زوجتي». «ما بالُ زوجتك؟». «هي الّتي أخرجَتْني من عزلتي، قالتْ إنّني يُمكن أنْ أُساهِم في رَدّ الطّيور المُهاجرة إلىٰ أعشاشِها». «معها حَقّ، وماذا تعملُ زوجتُك». «تقاعَدتْ هي الأخرىٰ، ولٰكنْ من الحياة». وزممتُ شفَتَيّ ونظرتُ بعيدًا وأنا لا أزال أمضغُ خُبزَها. «ماتتْ؟!». «استُشهدتْ في قصف عام ٢٠١٩م علىٰ حيّنا في الرّمال.. تركتُها..». وأردتُ أنْ أُكْمِلَ، لٰكنّها هتفتْ: «رحمةُ الله عليها... البقيّة في حياتك». فرددتُ بنبرةٍ حادّة بعض الشّيء: «لم يبقَ في الحياةِ بقيّة». وهتفتْ بلهجة المُعتذر المُعاتِب: «لا تقلْ ذٰلك». وأصررتُ: «ها أنتِ ترينَ كيفَ نُقتَل، إنّني لا أضمن أنْ أُتِمّ هٰذه اللّقمة الّتي في فمي قبل أنْ يشطرني ويشطركَ صاروخٌ إلىٰ ألفِ قِطعة». وابتسمتْ كأنّها تريدُ أنْ تُذكّرني: «لا أحدَ يضمن يا فرج، أنتَ تعرفُ أنّه لا أحدَ يضمنُ حياتَه، ولو كان علىٰ كرسيّ عرشِه تدينُ له ملوكُ الأرض... هل نسيت؟!».
وشعرتُ أنّها ذكّرَتْني معلومًا من الحياة بالضّرورة، وأنّها أحيَتْ ما كنتُ قد غفلتُ عنه، فأجبْتُ مُحاوِلاً التّملُّص: «ولٰكنّ الألم ليسَ واحِدًا. أن تموتَ بِالقَدَر ليسَ مثلَ أنْ تموتُ بفقدِ أحبابِك. أنْ تموتَ دُفعةً واحِدةً ليسَ مثلَ أنْ تموتَ علىٰ دُفُعات. إنّ كلّ يوم يمرّ ينقصُنا شيئًا منّا».
وابتسمتْ من جديدٍ، فشعرتُ أنّني طفلٌ أمام هدوئها التّامّ، وهتفتْ: «يا فرج، لن أذكّركَ مرّة أخرىٰ، ما ينقصُنا بمرور الأيّام ينقصُ كلّ بشريّ علىٰ وجه الأرض. مَنْ ماتَ مات، أنْ تعيشَ علىٰ ذكراهم كأنّ الحياةَ مقصورةٌ عليهم فهٰذا خُذلانٌ لهم، وهٰذا جُبْن...». وارتفعَ صوتُها قليلاً قبل أنْ تُكمِل: «إنّ أفضلَ شيءٍ نُقدّمه للرّاحلين أنْ نستمرّ في مسيرتهم،

وأنْ نأخذ بثأرهم إذا استطعْنا، أمّا أنْ نبكي عليهم فإنّ هٰذا لن يمسحَ عنهم ألم ما عانَوه، ولن يمسحه عنّا، على العكس، سنقتل أنفسَنا بالبُكاءِ على الرّاحلين، وتذكّرْ للمرّة الثالثة لستَ الوحيد الّذي فقدَ عائلته أو حبيبًا له، إنّ كلّ أمّ في غَزّة... كلّ أمّ يا فرج على الحقيقة فقدتْ أبًا أو أخًا أو ابنًا أو بنتًا أو أمّا أو عَمًّا أو خالاً أو فقدتْ كلّ هٰؤلاء مُجتمعين». وبقيتُ صامِتًا فيما كانتِ النّار الّتي في الفُرن ما زالتْ تُنضِجُ الخبز، وتصلُ إلينا رائحته شهيّة طيّبة، وسألتُها: «لِمَنْ تخبزين؟!». «لكلّ جائع». ونادَتْ مَنْ كان قريبًا من الصّغار فجاؤوا عابِسين فلمّا رأوا الخُبز انفرجتْ أساريرهم فلمّا أكلوا راحوا يضحكون ويتقافزون حولَنا، ونظرتُ إليهم وإليّ وإلى (سَلام)، فإذا نحنُ في عالَمٍ من الحياة غير عابِئ بالموتِ الّذي يجلسُ غيرَ بعيدٍ عنّا يُراقِبنا بحذر، ولٰكنّه لن يسرق الفرحة مِنّا مهما بلغَتْ سطوتُه!

ثُمّ سمعتُ زعيقَ سيّارات الإسعاف، فتحرّك الدّمُ بالواجب، فنهضتُ وأنا لا أزال آكُل كأنّني لم آكُلْ من دهر: «سأذهب، لا بُدّ أنْ تفجيرًا قد حصل في أحدِ الأحياء أو المُربّعات السّكنيّة. لقد جلسْتُ مع الحياة بما يكفي، الآن جاء دور الموت». «ألا تنتظر قليلاً حتّى أُعِدّ لكَ القهوة». «القهوة؟!». «أنا أحسنُ مَنْ يُعِدُّها». «كلّ واحدةٍ تقول ذٰلك». «جرّبْ واحكمْ». «سنشربُها معًا المرّة القادمة». وضحكت، وهي ترفع كفّها مُودِّعة: «سأراك..». «في الكوارث؟ ألا يجمعُنا غير المصائب». «فأينَ إذًا؟!». «في أيّ مكانٍ لا يُمكن أنْ نسمع فيه هدير الطّائرات ولا أزيز الرّاجمات ولا زعيق السّيّارات». «هٰذا قدرُنا، ولكنّنا سنلتقي».

وعبرْتُ المسافة بين ساحة الموت - الّتي كُنّا نأكل فيها الخُبْز قبل قليل - وباب المُستشفى وأنا في ذُهولٍ تامّ، لم أصحُ من خدر اللّحظات

الفائِتات، ولا من خدر النّظرات، ولا من خدر الكلمات، ولا من خدر الخُبز الشّهيّ، ولا من دعوةِ القهوة... غيرَ أنّ الذّكرىٰ طعنةٌ في القلب، إنّ غِياب الأنثى الطّيّبة من حياة الرّجل كارثة، الأنثى الوَدُود، أأكون في حلم؟! لماذا بالفعل تهتمّ بي؟ هل كانتْ تعرفُ (رجاء)؟! هل كانتْ تعرفُ عنّي شيئًا جعلها تنظر إليّ هٰذه النّظرات الودودة؟! ولماذا أسقطُ في امتحان الوفاء من أوّل لِقاء؟ أيكون هٰذا الّذي أفعله خيانةً لذكرى الحبيبة الرّاحلة؟! وأيقظني صوتُ أحدِ المُسعفين وهو يصيح بي: «فرج... يا فرج... أنتَ في السّيّارة السّادسة... القصف في مُخيّم جباليا... بسرعة يا فرج».

ومضتْ بنا السّيّارات وسطَ الرُّكام والخرائب، لم يعدْ وجهُ غَزّة لها، كلّما قطعْنا شارِعًا أنكرَنَا وأنكرْناه، في الطّريق كان بعضُ الأهل يُلوِّحون لنا من أجل أنْ نُنقِذَ مُصابًا لهم، يصرخون، يزعقون، يصيح سائق السّيّارة الّتي أنا فيها وهو يفتح نصفَ زُجاجِ النّافذة: «هناك تفجير قويّ في المخيّم، أنتم يُمكن أنْ تركبوا عربات الحمير... هيّا... ابتعدوا عن الطّريق». كانوا مثل الأشباح الّتي تراها في أفلام الرُّعب، لا يكفّون عن التّلويح والصّياح، وأحيانًا يهجمون علىٰ سيّاراتنا. لم أكنْ أتخيّل أنّنا سنصل إلىٰ هٰذه المرحلة؛ بحيثُ نتركُ إنقاذ أناسٍ لأنّ إنقاذَ آخرين أهمّ.

وصلْنا إلىٰ حيثُ الدّمار بعدَ وقتٍ وخوفٍ وألم، مُربّعٌ سكنيّ من حوالي أربعين بنايةً سُوِّي بالأرض، ولم يبقَ فوق الأرضِ إلاّ كُتَلٌ مُنشطِرة من الباطون والحديد. أوّلُ مَنْ رأيتُ طفلٌ في العاشرة، كانَ بلا رِجله اليمين، كان لحمُ رجله المفقودة يتشرشرُ منه الدّم بغزارة،

وكانَ نِصْفُ وجهه الأيمن مُشوَّهًا قد فقدَ إحدىٰ عينَيه، ظننتُ أنّه ميّتٌ لولا أنْ رأيتُ صدره يعلو ببطء، وهتفتُ لنفسي: «كيفَ يُمكن أنْ يعيشَ هٰذا حياةً طبيعيّة، لو أنّه استُشهِدَ لارتاح». وصرختُ: «يا بَسّام...» وتذكّرتُ أنّ (بسّام) ليسَ معنا، وصرختُ من جديد: «النّقّالة... النّقّالة... بسرعة...».

أخرجْنا طفلةً من تحتِ الأنقاض، كانتْ نحيلة، وشعرُها منكوشًا وقد امتلأ بالغُبار والرّماد، وكانتْ إحدىٰ عينَيها مُطفأة، فيما كانتْ تنظر برُعبٍ إلينا بعينها المفتوحة الأخرىٰ، سَجَّيْناها على النّقّالة، وصعَدْنا بها من الفجوة الّتي تحتَ الأرض، ولَـمّا رأتْنا نسير بها صاعِدين، هتفتْ: «احنا رايحين عَ المقبرة؟». وكدتُ أنهار لولا أنّه محظورٌ عَلَيّ أنْ أفعل، لقد ظَنّت المسكينة أنّنا سنذهب إلى المقبرة لدفنِها لأنّها بالفعل رأتِ الموتَ عِيانًا. استجمعْتُ شجاعتي، وكتمتُ صرخةً مفجوعةً كادتْ تتفجّر من أعماقي، وشددتُ علىٰ أسناني، وانحنيتُ فمسحْتُ علىٰ رأسِها، وغسلتُ وجهها بالماء، وهتفتُ: «لا يا عَمّو أنتِ حَيّة، وجميلة، وستعيشين». وابتسَمْتُ لها بصعوبة، فافترّتْ شفتاها عن رُبعِ ابتسامة، ثُمّ لَـمّا اطمأنّتْ إلى الحقيقة وأنّـها حَيّة، راحتْ تهتف: «الله يخلّيك يا عمّو... شكرًا يا عمّو...».

كُنّا في المساحات الّتي يُمكنُ أنْ نقفَ عليها بين طابقٍ وطابقٍ من بنايةٍ مُهدّمة نُخرِجُ الجثث، وكُنّا لقلّة النّقّالات، نجعل الجثث تنزلق هاويةً على الباطون، أو نقوم بِرَمْيها علىٰ عددٍ من المُسعفين الّذين يكونون ينتظرون تلقُّفَها في الأسفل. كان هٰذا سيكون مُحرَّمًا ومُجَرَّما لو كان الوضع طبيعيًّا، ولٰكنّ الحرب لها أحكام، وأحكامُها تُفسِدُ الأخلاق والذّوق، وإنّنا لَـمُضطرُّون.

هناكَ في زاويةٍ ليستْ بعيدةً من هنا، رأيتُ رجلاً في الأربعينيّات من عمره، يحمل بيده مطرقةً يحاول بها أنْ يرفع الأنقاضَ عن أحبابه المُستشهدين، كان العَرَقُ يسيل علىٰ ثيابه فيُبلّلها، وكان يبكي، ويتوقّف من لحظةٍ لأخرىٰ، فيضع المطرقة جانِبًا، ويلطم خَدَّيه بكلتا كَفَّيه، ويمسح عَرَقه علىٰ وجهه ويصيح بحرقة: «يا بَه ليش متت...؟! شو اعملت أنا حتّىٰ تموت؟! ليش... ليش...». ويمزّق ثِيابه، ثُمّ يحاول بالمطرقة البسيطة الّتي معه أنْ يُزيلَ رُكامًا آخر، ويشعر باليأس والعجز، فمن يستطيع أنْ يُزيل أطنانًا من الحديد والحجارة بمثل هٰذه المطرقة، فيصيح من جديد: «يا بَه ... يا سلمىٰ.. سلمىٰ... وين إنتِ يا سلمىٰ..». واقتربَ منه أحدُ المُسعِفين، وضَمّه إلىٰ صَدْره في محاولةٍ لتهدِئته، وراح يقول له: «سبقوكَ إلى الجنّة... سبقوكَ إلى الجنّة يا حجّ». ولٰكنّه يُفلِت من ضَمّة المُسعِف، ويحني رأسه بأسًى، ويركزه علىٰ عصا المطرقة، ويصرخ: «مُثنّىٰ يا بَه... مُثنّىٰ... سلمىٰ... وين إنتو يا بَه؟!».



(١٧) كيفَ يكون صُلْحٌ على دم؟!

ليسَ في غزّة هُدنة مع الموت، يُمكنكَ أنْ ترجُوه أنْ يتوقّف، أو تستحلفه بالله أنْ يرحل عنّا ولو يومًا واحِدًا، أو أنْ تنامَ عينُه من أنْ ترانا نصفَ يومٍ، فيأبىٰ، ويتذرّع بألفِ حُجّة. يقول: إنَّه يُحِبُّنا، يُحبّ أجسادَنا، يهيمُ بأرواحنا، يعرفُ أنّها أجملُ الأجساد وأنقى الأرواح، وأجدر الأحياء الّذين يستحقّون أنْ ينتقلوا إلى الضّفّة الأخرىٰ في البشر كلّهم، فلا يتأخّر في موعده حتّىٰ نكونَ في قاطرتِه فيرحل بنا وهو يبتسمُ ابتِسامةَ المُنتصِر.

ما زلنا منذُ ساعاتٍ طويلة في هٰذا المُربّع السّكنيّ الّذي أُبيدت عماراته الأربعون إبادةً كاملة. نبحثُ عن ناجين، عن مُحبّين للحياة، عن صنفٍ لم ينتبه لهم الموت، أو وعدهم أنْ يركبوا قاطرته المرّة القادمة ليسَ هٰذه المرّة.

عثرتُ بطفلٍ كان الدّمار قد أخرجه من تحت الرّدم بأعجوبة. لا أدري كيفَ كانَ هُنا وحده، كانتْ ساقاه ترتجفان من الخوف، وكان وجهه مُغَطًّى بالكامل بالسُّخام، انحنيتُ فحملتُه بينَ ذراعَيّ وأسرعتُ به إلىٰ إحدى النّقالات، سألني: «أنتَ مَلاك من الجنّة؟». قلتُ له وأنا أُداري دموعي: «أنا فرج». «طيّب عمّو أنا بدّي أستشهد». صدَمَني. سألتُه: «لماذا؟». ردّ: «أنا جوعان.. بدّي أكُل.. بدّي آكُل خبز... حكوا لي فيه بالجنّة خبز... صَحْ يا عَمّو». وارتختْ ذراعاي وكدتُ أُسقِطه من بينهما لولا أنّني تمالكتُ نفسي في اللحظة الأخيرة، وسجَّيْتُه علىٰ نَقّالة،

وهربْتُ، كأنّني أهربُ من نفسي، وجلسْتُ علىٰ تلّةٍ من الرّكام والنّاس تغدو وتروح حولي، أحاول أنْ آخُذَ نَفَسًا أو أرتاح مِمّا أرىٰ وأسمع، ولٰكنّ أصواتَ الاستغاثات ونداءات المُحاصَرين تحت الرّكام مَنعتْني من أنْ أفعل ذٰلك ولو لدقيقةٍ واحدة.

تلقّاني فتًى في الثّالثة عشرة يستغيث، ولا أدري لماذا كان يقصّ عليّ الحكاية وسطَ هٰذا الهول، لم يكنْ لديّ الوقتُ لأسمعه، كان الوقت لا يكفي إلاّ لانتشال الجُثث ومحاولة إنقاذ مَنْ لم يمت، وليته يكفي، ورغم ذٰلك راحَ يحكي بصوتٍ أقرب إلى الهَذَيان لشدّة رُعبه: كُنّا نايمين.. فجأة راحت... يا الله راحت.. راح كلّ شيء... خمس وعشرين نفر راحوا... طَلّعت اثنين أحياء والبقيّة استُشهِدوا.. أربع عائلات راحوا بشُربة مَي... العواجيز الّي فيه ما قدروا يِطلعوا ماتوا تحت الباطون... الشّباب طاحتْ عليهم الحيطة... طَاااغْ.. كلّ شيء صار أسود... الله يرحمهم..». وراحَ يبكي. تركتُه ومضيت. لو كان الوقتُ غيرَ الوقت، لكان لآلاف القصص المُوجِعة الّتي تُصدِّع قلب الصّخر وتُفتّت أقسى الحجارة.

أخرجْنا طفلةً عُمرُها سنتَان، كان وجهُها محروقًا، وساقاها محروقتَين، وهي تنظر بذهول، لم تبْكِ. غريب. استسلمتْ لنا ونحنُ نحملها خارج الرّدم. يبدو أنّ الحروق جاءتْها من اشتعال بعض الحرائق حولها، أو من سقوط كُتلٍ من الرّدم محترقة. أودَعْناها نقّالة في إحدىٰ سيّارات الإسعاف، لم تعدِ السّيّارات تحمل مُصابًا أو اثنين، صارتْ تحمل خمسةً وأحيانًا عشرة، نُكدِّسُ بعضهم فوقَ بعض إذا كانوا أطفالاً، أو إلىٰ جانب بعضهم إذا كانوا كبارًا، ومَنْ كان قادِرًا مع جراحه علىٰ أنْ يجلس كُنّا نُجلِسهم مكان المُسعفين. ستكون كارثة لو نحنُ نقلْنا بسيّارة الإسعاف

مُصابًا واحِدًا أو اثنين فقط، سيفقد نصفُ المجروحين أرواحَهم بسبب تأخّرنا في إنقاذهم.

طفلةٌ أخرىٰ في الثّالثة علىٰ ما يبدو من عمرها، ألجأتْها الصّدمة إلىٰ أنْ يرتعشَ جسدُها بالكامل من الخوف، شفتاها كانتا ترتعشان كجناحي ذُبابة، لم تتوقّفا عن الارتِعاش، وكلّما هَمّتْ أنْ تقول كلمةً أو أنْ تصرخ منعها الارتِعاشُ من ذٰلك، مسحْنا عنها الدّماء، وسَجّيْناها إلىٰ جانبِ خمسةِ أطفالٍ آخرين في سيّارة واحدة.

لم نكنْ لنتعرّف إلىٰ أسماء الشُّهداء إلاّ إذا عثرْنا علىٰ ناجٍ واحدٍ علىٰ الأقلّ من عائلته ليقول لنا: «إنّ هٰذه عمّتي نائلة، وذٰلك ابن عمّي طارق، وتلك أختي الصّغرىٰ ميس، أمّا ذٰلك المقطوع السّاقَين فهو عمّي أبو محمّد، وتلك الطّفلة المُلقاة هناك والّتي نصفها السّفلي تحتَ الرّدم فهي على الأرجح ابنة خالي سعيد...»، وهٰكذا... كُنّا محظوظين لو أنّنا وجدْنا مَنْ يُعرِّف بأسماء الضّحايا، لٰكنْ في أحيانٍ كثيرةٍ كُنّا لا نجد حَيًّا ليقول لنا مَن هٰذا ومَنْ هٰذه ومَنْ تلك، وفي هٰذه الحالة كُنّا نُسجّل الشّهداء باسم المجهول رقم (١) وبعده اسم المجزرة، وسيكون يومًا عاديًّا لو نحن وصلنا في هٰذه الأرقام المجهولة أحيانًا إلى الرّقم (٢٠٠). يااااه.. ما أقسى الحياة! كيفَ يتحوّل الشّهداء إلىٰ أرقام؟! ليسَ لأنّنا لا نريدُ أنْ نقول عنهم كلّ ما يخصّهم ونكتبَ أسماءَهم في سجلّ الرّاحلين الخالدين، ولٰكنْ لأنّهم ماتوا وحوّلهم القصف الوحشيّ إلىٰ أرقام إمّا لأنّه لم يُبقِ علىٰ مَنْ يُعرّف بهم، أو لأنّه شوّه وجوههم وأجسادهم فلم يعدْ بإمكان حتّىٰ أقربائهم أنْ يتعرّفوا عليهم!

فيما بعد سيخشى الشّهداء المُحتَملون أنْ يموتوا دون الاعتِراف بهم

أو التّعرّف عليهم، فصاروا يكتبون أسماءَهم إمّا على أذرعهم وإمّا على أسفل سيقانهم، لم يكونوا يريدون بعملهم هٰذا سوى أنْ يحظَوا بموتٍ مُشرِّف، وقبرٍ معروف، وأقاربَ يبكونَ عليهم أوْ يقرؤون لأرواحهم الرّاحلة سورة الفاتحة أو أيّ دُعاء... لقد كان هٰذا أيضًا غيرَ مُمكن، حتّى هٰذه الأمنية البسيطة لم تكنْ لتحقّق لأصحابها، صار الشُّهداء يُدفنون في مقابر جماعيّة، في أيّ مكان، ودون أيّ كلمةِ وداعٍ من حبيب... يا لَبُؤسنا ويا لَبؤس الحياة!!

خُطُواتٌ أخرى بين هٰذا الدّمار المُتراكِب المُمتدّ المُتوحِّش، سترى مشهدًا آخر من تلك المشاهد الهازِئة بالموت، المُذكّرة بأنّ كلّ شيءٍ بقدر... كانتْ هُناكَ حمامةٌ مُطوّقة، لو رآها شعراء العشق لاتّخذوها رمزًا لمحبوباتهم لشدّة وداعتها، أو استخدموها في بعثِ رسائلهم إليهنّ، أو ألّفَ ابنُ حزمٍ كتابًا جديدًا في العشق لأجلِ عينَيها. كانتْ تتبختر على جدارٍ قد انهار أكثرُ من نصفه، وراحتْ هي تمشي بهدوءٍ وثِقةٍ ودلالٍ فوقَ ما تبقّى من الجدار قائِمًا، ومِنْ ورائِها كانتِ الأدخنة المُتصاعدة والرّماد يحجبان الفضاء، وإنّ كانتْ حركة الهواء تُزيح شيئًا من هٰذا الدُّخان والرّماد في مدى الرّؤية فترى من خلفها أناسًا يركضون في اتّجاه العدم كأنّهم أشباح، فيما هي تواصل بَخْتَرَتَها على الجدار المُنهار غير عابِئة بأحدٍ، ولربّما انحنتْ رقبتُها فالتقطتْ بمنقارِها حَبّةَ قمحٍ أفلتتْ من الحريق لتكون لها طوقَ نجاةٍ في هٰذه الحياة الغرائبيّة.

قريبًا من الحمامة كانَ رجلٌ سبعينيٌّ يئنّ، لم نكنْ قد وصلْنا إليه بعد. كانتْ ذراعه مع نصف كتفه الأيمن تقريبًا مهروسًا تحتَ كُتلةٍ من الباطون الثّقيلة ويبدو أنّها تهتّكتْ، وأنّ مسألةَ فقدِه لها محسومة. حينَ رآني، هتف:

«ساعِدْني يا ابني...». كان يلبسُ دشداشةً بيضاء صارت من الرّماد رماديّة، ويعتمر قبّعةً خفيفة، ولحيته الّتي غَزا الشّيبُ كلّ موضعٍ فيها كانتْ تُنقّطُ دمًا، هتفَ ثانية: «ساعِدْني يا ابني...» انفجرتُ بالبُكاء، تذكّرْتُ أبي حينَ مات بالقصف. بمطرقةٍ بسيطةٍ كانتْ تتدلّىٰ علىٰ جانبي حاولتُ أنْ أُزيح الكُتلة فلم أقدر، صرختُ: «شباب.. شباب... دفاع مدني... ساعدونا..». وجاءَ اثنان وبأدواتٍ بسيطة وبصعوبة أزحْنا عنه كُتلة الباطون، وحملتُه بطريقةٍ طبّيّة حتّىٰ لا تكون طريقةُ الحملِ سببًا في انكسارِ عموده الفقري أو أيّة مواضع أخرىٰ من عِظامه، فيما كانَ مُسعِفٌ آخَر يُساعدني في حملِ يده الّتي كانتْ متهتّكةً بالكامل، ومتّصلة بجسمه بشريطِ لحمٍ رفيع!

بين حُفرٍ كبيرةٍ عملاقة كأنّها الوديان السّحيقة كُنّا ننتقل، كان عمقُ بعضُ هٰذه الحفر الّتي أحدَثَتْها الصّواريخ أكثر من عشرين مترًا، لدرجة أنّنا كُنّا نصيح علىٰ مَنْ في سفحها السّفليّ حتّىٰ يسمعنا أو يصيحُ هو علينا، عددٌ كبيرٌ من الجُثث المُتطايرة عقب الانفجار كان يستقرّ في هٰذه الحُفَر العملاقة، وكُنّا ننتشلُها كأنّنا ننتشل قِطعةَ أثاثٍ مُهترِئة، لقد فعل الموتُ كلّ شيءٍ بها، كانتْ بعضُ الجُثث بلا ملامح ولا وجوه، وكُنّا أحيانًا لا نعرفُ إنْ كانتِ الجُثّة لرجلٍ أو امرأة، أو طفلٍ أو طفلة... من المشاهد ما لا يُمكن أنْ تنقُلَه، ما تخونُكَ فيه اللّغة، ما هو أكبر من كلّ لغاتِ العالَم، وأوسعُ من كاميراته وخيال عباقرته... إنّ الموتَ أصعبُ كائنٍ مُتَخيَّل، بحيثُ يُعيِيك أنْ تَنعتَه أو تُعطيه وصفًا مهما كانتْ براعتُك.

صنع الانفجار مع الحُفر والخنادق دروبًا من هِضابٍ من الرّماد، لم تكنْ من قبلُ موجودة، كُنّا نمشي فوقَها ولا ندري كم شهيدٍ قد طُمِرَ تحتها، كان بعضُنا ينظر من بين الشّقوق في هٰذه الهضاب المصنوعة ليعرف إنْ

كان هناك جُثّة أو حيّ يلفظُ أنفاسَه أو مُصاب بحاجةٍ للمساعدة، وكان يُنادي أحيانًا بأسماءٍ: «محمّد... صالح... هيه...» من عنده لعلّه يجدُ إجابةً من حيٍّ فيكون سببًا في إنقاذه.

مشيتُ على الجثث، بعضُ الأمكنة لا يُمكن إلاّ أنْ تمشي عليها، لم أكنْ لأتخيّل أنّني سأصل إلىٰ هٰذه الحال، جُثّةٌ هُنا أُبعِدها قليلاً لأجدَ موطِئَ قدمٍ لي، ثُمّ نتعاون مع آخرين لحملها على النّقالات، بعضُها حملْناها علىٰ أكتافنا، ومَشيْنا بها مِئات الأمتار في طريقٍ محشُوّةٍ بالأردام حتّىٰ نُوصِلها إلىٰ سيّارات الإسعاف الّتي لم تتمكّن من عبورها إلىٰ هنا. لا أدري حتامَ سيستمرّ هٰذا؟! إلىٰ متىٰ سنبقىٰ نُقتَل والعالَم كلّه يتفرّج. إنّ طاقتَنا لو كانتْ طاقة ألفِ رجل لانهدّتْ، نحنُ بشرٌ أيضًا ولسنا ملائكة!

لن تمرّ هٰذه الدّماء بسهولة، ستكون لعنةً، لأنّ مَنْ شاهدها وكان قادِرًا علىٰ أنْ يتحرّك ولم يفعل فهو شريكٌ في إراقتها. كيفَ يكون صُلْحٌ علىٰ دم؟! كيفَ لا يكونُ ثأرٌ إذا كان دم؟! إنّ دم غزّة اليوم خَطُّ أكبر وثيقةِ إدانةٍ للأنظمة العربيّة كلّها قبل الأنظمة الغربيّة. أوجع الطّعنات طعنة الخُذلان. طعنة الصّديق والشّقيق. طعنةُ الجالسين يرقبون إمّا أنْ ننتهي أو أنْ تنتهي الحرب، ولن ننتهي؛ أقسم لكم لو استمرّت هٰذه الحربُ إلىٰ يوم القيامة فلنْ ننتهي، أتعرفون لِماذا؟ لأنّ موتَنا بداية، وشهادتَنا تحرير، ونحنُ نخرجُ من تحتِ الرّماد ومن بين ألسنة النّيران لنُكمِلَ الطّريق، وأمّا أنتم فستنتهون حتّىٰ ولو كنتم تجلسون علىٰ كراسيِ الفراعنة وتملكون ما مَلَكَ قارون!



(١٨) إمّا أنْ نعيشَ معًا أو أن نموتَ معًا!

لِمَنْ نشكو؟! لا أحدَ يسمعنا. نحنُ تُرِكنا للموت كأنّنا لسنا بشرًا ولسنا شيئًا... كأنّنا لسنا عربًا ولا مُسلمين. كأنّنا سَقطُ متاعٍ ليسَ له أيّة قيمة. تُرِكْنا وحدنا يذبحُ فينا الجيشُ الهمجيّ بأبشع ما يُمكن. إنّ أجسادَنا الغَضَّة تتلقّى آلاف الصّواريخ بآلافِ الأطنان تُصَبّ فوقَنا صَبّا. مَنْ يسمعنا؟ لا أحد سِواك يا الله. يا الله ليسَ لنا سِواك!

سَجّلْتُ على دفترٍ أحتفظُ به في مُستَشفى الشّفاء آخر الكلمات الّتي قالَها ذوو الشّهداء، أو قالَها أصحابُها قبل أنْ يتحوّلوا إلى نِتَفٍ مُمَزَّقة لا يُعثَر لهم على وجود، وإذا عُثِر كان علينا نحن المُسعِفين أنْ نلمّ أشلاءَهم ونُعيدَ ترتيبَها أو تركيبَها بما تيسّر لكي نقول: «إنّ هذا كان إنسانًا. كان يحلم ولكنّ الحربَ لا تعترفُ بالأحلام ولا تُريدُ لأصحابِها أنْ يحلموا».

«في الجنّة تُوجدُ غزة جديدة بلا حصار تتشكّل الآن». «قاعدين بِنْرن عَ بعض بنودّع بعض». «شُو بدي أحكي لإمّي يا الله!». «لن نرحل. وسنخرج من غزة إلى السّماء وإلى السّماء فقط». «مين ضلّ عايش؟». «يا عالَم جِيبُولي بِنتي». «غدًا ستُشرق شمسٌ جديدة». «بَدّي شَعرة مِنُّه». «إذا انقطعنا عنكم فسنلتقي في القُدس أو في الجنّة». «سنموت فِدى القُدس أنا وابني الّذي في بطني». «أمانة تِرجعي يَمّا، والله لأودّيكي وين ما بدك». «حينَ تسمعون هذا التّسجيل لنْ أكون على هذه الأرض، سيختار الله لي عالَمًا جديدًا، وأنا رضيت». «وإذا لم يكنْ مِنَ الموتِ

بُدٌّ... فمن العارِ أنْ تموتَ جَبانًا». «رايِحْ أدفن أبوي بسيّارتي». «كنتُ أتمنّىٰ أن أعيش أكثر، ولٰكنّ الاحتِلال حَرَمَنا من كلّ شيء». «أمانة يابا تِصْحَىٰ، أمانة تِحْكيلي إنّك بْتِضْحك عَلَي». «أولادي ثلاثة ياعالَم... دَوْرُوا بلكي لقيتو واحد عايش... واحد على الأقلّ». «أنَا صاحب أفضل مطعم بيتزا في غَزّة. لجأتُ إلى المطعم أنا وعائلتي هربًا من القصف... حاصَرَنا جنود الجيش الإسرائيليّ... قلتُ لزوجتي وأولادي إمّا أنْ نعيشَ معًا أو أن نموتَ معًا... كنتُ أعرفُ أنّنا سنموت. ضمّينا بعضنا لبعض، مرحبًا بالموتِ إذا كان في سبيل الله». «جِبتْلك ثلاث قناني حليب بَفَكْرَك بَدَّكْ تْعِيش وتِشْربهم يابا». «هٰذه أمّي أعرفها من شعرها ما أقدر أعيش من دونها... ورجونيّ إيّاها». «كنتُ أتمنىٰ أن يكون لي بيتٌ صغير في مكان هادئ كلُّه طبيعة وأشجار!». «إنها ليستْ نهايةَ رحلةٍ صعبة، إنها بدايةٌ جميلة». «وداعًا يا أمّي. وداعًا يا أبي. سنلتقي عند الله». «ألف سلامة للعالَم الخارجي إحنا بخير، إن شاء الله تكونوا بخير؟». «رُحْتِي مْقَطَّعَة يما يا حبيبتي».

كيفَ يرتاحُ ذو هَمّ؟ كيفَ يهدأ قلبٌ خائف؟! إنّ الّذين ينامون تحت أسقف بيوتهم الّتي هي مصدر أمان، صارتِ الأسقف تُشكّل لهم مصدر رُعبٍ في كلّ لحظة. مَنْ يدري متىٰ تهوي فوقَهم في أقلّ من ثانيةٍ غَفَوا فيها، أو تجاهلوا صوتَ الزّنّانات الّتي لا تهدأ؟!

بدأتُ أكتبُ أسماء الشّهداء علىٰ أجسادهم إذا كان الشّهيدُ له مَنْ يعرفه. كتبْنا على الأذرع، فإنْ لم تكنْ موجودة كتَبْنا على السّيقان، فإنّ كانتْ مبتورة كتبْنا الأسماء على البطون. نكتبُ بقطعة خشبٍ مُتفحِّمة،

ليسَ لدينا حتّىٰ أقلام. ولماذا نكتبُ وقد رحلوا؟! من أجل أنْ يتعرّف عليهم أهلهم إذا لَحِقوا بنا إلىٰ مستشفى الشّفاء، ولٰكنّ الأهل لا يأتونَ دائِمًا. كثيرٌ منهم لم يأتِ. مَنْ يدري ما حلّ بهم، ربّما دُفِنوا تحتَ الأنقاض، أو أجبرهم الاحتِلال على التّوجّه جنوبًا. من كلّ عشرةِ شُهداء لم يكنْ يأتي إلاّ واحدٌ أو اثنان من ذويهم ليتعرّف على الجُثّة، فيأخذها فيدفنها ويقرأ عليها آيةً أخيرة. والّذين لم يأتِ أهلُهم كُنّا نضعهم في ثلاّجات الموتىٰ، ولٰكنّ ثلاجات الموتىٰ لم تعدْ تتّسع، فاضْطُرِرْنا أنْ نُلبِسَهم الأكفان، وندفنهم في مقابر جماعيّة، بعدَ أنْ يُصلّي عليهم أيّ عابرِ سبيل. غريبٌ يُصلّي علىٰ غُرباء، وحمزة لا بواكي له. ما أصعبَ ما نعيش!!

في رَكْضِنا المحموم وسطَ هٰذه المجزرة كانتْ هُناكَ جُثّة شهيد مُمدّدة على الرّماد، تحيطُ به موجودات البيت من خشبٍ وبقايا أثاث، كانتْ تحترق، وكان شابٌ قريبٌ من عمره يضغطُ بكلتا يدَيه علىٰ صدر أخيه الشّهيد دون أنْ يستجيب، وبين الرّجاء والأمل، واليأس والخوف، واليقين والشّكّ كان يصيح بكلّ ما فيه من فجيعة: «يا الله... يا الله...» وجُثّة أخيه تهتزّ علىٰ إيقاع تحريكه، ويرتجّ الجسد تحتَ كفَّيه دون أنْ يصحو، حتّىٰ جاءَ أحدُ المُسعِفين فأمسكَ الأخَ الحيّ من ذراعه وحاول أنْ يسحبه بعيدًا عن الشّهيد وهو مُتشبِّثٌ به لا يُريدُ أنْ يُفارِقه.

وعلىٰ مقربةٍ منه كان أبٌ يجلسُ على الرّماد ودُخان الحرائق يتصاعد من حوله وهو يحتضن ابنته الجريحة وهي تصيح، وهو يُحاول أنْ يُهدِّئ من رُعبِها، فيما كان يبكي ويشدّ علىٰ أسنانه من الألم والفَقْد، هو مُحتاجٌ كذٰلك إلىٰ مَنْ يُهدِّئُ من رَوعه. ترَكْناهما، بدَوَا محظوظَين فهما علىٰ قيد الحياة، هناك عشراتٌ من حولنا تُحاول الرّوح فيهم أنْ تنفلتَ من

أجسادهم، إنّهم أحقّ من هؤلاء بالإنقاذ. صارتْ حركةُ كلّ جسدٍ مُلقًى في هذا الدّمار ترسمُ رجفةَ أملٍ في القلب؛ إنّه حَيٌّ على الأقلّ، ماذا عن أولئك الّذين يُصارِعون الموت مصحوبًا بأشدّ أنواعِ الألم الّذي لا يُحتَمَل.

وكدتُ أنهارُ من التّعب، فمنذُ ثلاثةِ أيّام لم آكُلْ إلاّ رغيفَ خُبْزٍ واحدٍ، وتماسَكْتُ، فليسَ مسموحًا لنا نحن المُسعِفين أنْ نبدو في حالة ضَعْفٍ، إنّنا أمل كلّ هؤلاء المُقبِلين على الموت، نحنُ دفقةُ الدّم في العروق الّتي تصلهم بالحياة، وما أندرَ الحياة في فوضى مثل هذه الفوضى!

ومضيتُ فرأيتُ فتاةً ومعها مُصوِّران تتحدّثُ مع ناجٍ من المذبحة، كان يلبسُ (فانِيلا)، وقد تَشَبَّثَتْ به قِطّة صغيرةٌ مذعورة، والتصقتْ به التِصاق الطّفل بأُمّه وهو يمسح على ظهرها ويُحاول تهدِئتها، كانتْ قد مَدّتْ قدمَيها إلى الأمام ورِجلَيها إلى الخلف وهي متشبّثة على امتداد جسمِها (بفانيلا) الفتى، ومن حينٍ إلى آخر تُحرّك رأسَها تنظر إلى النّاس وتموءُ مواءً حزينًا. اقتربْتُ فعرفتُ أنّ الصّحفيّة (سلام) هي الّتي تُحدِّثه، واقتربْتُ أكثر منهما دون أنْ تلحظ، ورُحتُ أستمع إلى الحوار: «هل هذه قِطّتُك؟». «لا، هي قِطّة عمّتي». «كيفَ عثرتَ عليها؟». «دخلتُ إلى داخل الرّدم، ومن بين الباطون المُتراكم سمعتُ صوتَها، أعرفُ صوتَها، وأخرجتُها من هناك، وها أنتِ ترين كم هي خائفة». «وعمّتُك؟». «استُشهِدتْ». «وأنقذْتَ قِطّتها؟». «ماذا أفعل. الموتُ بيد الله. على الأقلّ هذا ما تبقّى من رائحة عمّتي. ومن أجلِها سأحاول أنْ أعتني بها». واقتربْتُ أكثر فلاحظتْ (سلام) وُجُودي، والتفتَتْ إليّ: «ماذا تفعل هنا يا فرج؟». «أنا ماذا أفعل أم أنتِ؟». «نحنُ الصّحفيّين مثلكم،

نُهرَع إلىٰ أماكن القصف، أمّا أنتم فمن أجل أنْ تُنقِذوا النّاس، وأمّا نحنُ فمن أجل أنْ ننقل الصّورة إلى العالَم». ولم أعلّقْ. كيفَ وصلتْ إلىٰ هنا. وهل وصولُها إلىٰ هٰذا المكان مصادفة، أمْ أنّها تعمّدَتْ أنْ تلحقَ بنا إلىٰ هٰذا الجحيم. وتابعتْ هي أسئلتها للفتىٰ: «ماذا تقول لِمنْ يسمعنا؟». «هٰذا الاحتلال لا يرحم الحيوانات فهل تريدون منه أنْ يرحمنا، أتمنّىٰ أنْ يتحرّك العالَم الّذي يدّعي الإنسانيّة من أجل حقوق الحيوان لا من أجل حقوق الإنسان. انظري إلىٰ هٰذه القِطّة المسكينة...». وتذكّرْتُ (جودي) في لحظةٍ خاطفة، وضربْتُ جبهتي بباطن كفّي، وهتفتُ في سِرّي: «ماذا يُمكن أنْ يكونَ حلّ بها؟! لقد تركتُها في البيت منذُ أسبوعَين. لا بُدّ أنّها جائعة الآن». وهُرِعتُ إلىٰ سيّارة الإسعاف الّتي أتيتُ بها، وكان قد صُفَّ في جوفها عشرةُ شهداء، وتحرّكتْ بنا إلىٰ مستشفى الشّفاء.

ووسطَ مناظر الموت والدّمار الّتي كانتْ تُحيطُ بنا من كلّ جانب لم يكنْ يُسيطر علىٰ ذهني سِوىٰ صورة قِطّتي. ماذا يُمكن أنْ يكون قد حلّ بها؟ هل ماتت من الجوع؟ هل تدبّرتْ أمرها؟ هل استطاعت الخروج من البيت لتأكل من خَشاش الأرض. ولٰكنّ البيت مُغلَق. وهَبْ أنّها استطاعت الخروج فهل بقي في الأرضِ خَشاشٌ لتأكله. ماذا لو كانتْ تُنادي عَلَيّ وأنا بعيدٌ ولا مُجيب؟! وأحسستُ بتعذيب الضّمير لوهلة لأنّني تركتُها وحدها، ولٰكنْ ماذا أفعل إذا كانت الحربُ تدعُ الحليم حيرانَ؟! وصلْنا إلى المستشفىٰ بعدَ عذابٍ. قفزْتُ من السّيّارة، وتوالىٰ المُمرِّضون من الدّاخل لينقلوا جُثث الشّهداء، وهُرِعْتُ إلىٰ مكان دَرّاجتي من أجْل أنْ أركبها وأمضي بها إلىٰ بيتي، ولٰكنّني لم أجدْها، وحرتُ ما أفعل. ولٰكنْ لم يكنْ لَدَيّ خَيار، فانطلقْتُ أركضُ علىٰ قَدَمَيّ كالمجنون

إلىٰ بيتي، ووصلْتُ إليه بعدَ ساعةٍ من الجري واللُّهاث وسط شوارع لم أعدْ أعرفها، فلمّا صرتُ علىٰ مقربةٍ من البيت وجدْتُه رُكامًا، فصرخْتُ صرخةً شَقّتْ سُكونَ الفضاء، وركضتُ من جديدٍ باتّجاهه. كان البيت قد صار أثرًا بعدَ عين، ومكثْتُ حوالي ساعةً حتّىٰ أزلْتُ الرُّكام، ومن بين الباطون المتشابِك، والفجوات الّتي بين باطونٍ وآخر، زحفتُ حتّىٰ دخلتُ إلى البيت، ولم أرَها في أوّل الأمر، ورحتُ أصيح: «جُودي... جُودي..». ولم أسمعْ أيّ شيءٍ، ورحتُ أرفعُ الرُّكام المُتساقِط جرّاء القصف من الغرفة، ومن السّرير، ووجدْتُها أخيرًا على السّرير ميْتةً بلا حَراك، وصرخْتُ صرخةَ الّذين فقدوا آخرَ أحبابهم: «يا جوووودي...» وانهرتُ على الأرض، وأسندتُ ظهري إلى الرّكام هناك ورفعتُ إحدىٰ رِجلَيّ إلىٰ صدري وحنيتُ رأسي علىٰ رُكبتي ورحتُ أبكي... فلمّا مرّ وقتُ البكاء، أخذتُها فمسَحْتُ عنها كلّ ما عَلِقَ بها، واحتضَنْتُها، وهتفْتُ بها هتاف النّادم: «سامحيني يا جودي، سامحيني إذا تركْتُهم يقتلونك... كأنّني لم أكنْ أتوقّع ذٰلك، وقد قتلوا قبلك الحبيبة، وسرقوا منّي عائلتي، لقد كنتِ آخرَ ما تبقّىٰ لي من عائلتي، وها أنتِ ترحلين، ولا أدري ما أفعل». ثُمّ إنّني غَسَّلْتُها، واستصلحتُ لها قِطعة قِماشٍ بيضاء فلَفَفْتُها بها، واخترتُ بقعةً خاليةً من الرّدم، فحفرتُ لها حفرةً هناك، ودفَنْتُها.

وجلسْتُ بعدَ دَفْنها أُفكِّر فيما أفعل، ولم أدرِ شيئًا، وتذكّرْتُ سنوات العزلة الّتي كانتْ فيها أنيستي، ورجوتُها أنْ تغفر لي، فإنّني لم أشعرْ بمرور الوقت وأنا في المستشفىٰ، وإنّني لم أفرغْ من الموت حتّىٰ آتيها، فقد كانتْ كلُّ مذبحةٍ تُسلِمنا إلىٰ مذبحةٍ أخرىٰ، فمتىٰ يكون لدى المرء وقتٌ ليُفكِّر فيمن يُحبّ.

وقلتُ لنفسي: «أنام هٰذه اللّيلة هنا في البيت، رَغمَ كلّ هٰذا الدّمار الّذي لم يتركْ فيه بقعةً صالحةً للنّوم، وغدًا أعودُ إلى المستشفى». وخِفْتُ أنْ يكون نومي في هٰذا المكان الخطير استِسلامًا منّي للموت، فما أسهل أنْ يسقطَ عليكَ صاروخٌ كنتَ تظنّ أنّكَ في مأمنٍ منه ما دام المكان قد قُصِفَ قبل أيّام، فيُخلِفُ الموت ظَنّك، فيأتيك الصّاروخ من مأمنك. فقرّرتُ الخروج من البيت، فخرجْتُ وسطَ الظّلام هائِمًا لا أعرفُ إلى أين أمضي!!



(١٩) رائحة الخُبز والقهوة

وصلْتُ قُبَيل الفجر إلىٰ مستشفى الشّفاء. تعجّبْتُ كيفَ قطعتُ الطّريق مشيًا ولم أزلْ حَيًّا. كانت الطّائرات في الشّمال تُلقِي بحممها طَوال اللّيل. لم أعدْ أكترث بالموت ولا بالرّحيل. لقد كانَ إصراري علىٰ الخروج في مثل هٰذا الوقت من اللّيل مع هٰذه الانفِجارات استِهزاءً منّي بحياتي، واستخفافًا بالرّحيل. على الأقلّ سأجتمع بِمَنْ أحبّ في الموت، لقد تعبْتُ من الحياة!

لم أدخلْ من بوّابة المُستَشفى الرّئيسة. جلسْتُ علىٰ مقربةٍ من ساحة مدخل الطّوارئ، ومدَّدْتُ ساقَيّ، وأرحتُ جذعي، ووضعتُ ساعدي تحتَ رأسِي وأردْتُ النّوم، ولم يُواتِني بالطّبع لأنّ أصواتَ القصف لا تتوقّف، ولأنّ الأحزمة النّاريّة تلفّ منطقة الشّمال كلّه. وهممتُ أنْ أهتف: «يا كفرة أريدُ أنْ أنام ربع ساعة فقط... توقّفوا عن القصف رُبع ساعة، وبعدَها اقصفوا كما تشاؤون، امنحوني هُدنةً مُؤقّتة لربع ساعة، أريدُ أن أنام... ألا يُوجَد في قلوبكم رحمة». ورُحتُ بدلاً من أنْ أبكي أضحكُ بطريقةٍ هستيريّة، ثُمّ توقّفتُ عن الضّحك، ومسحتُ دموعي الباردة، ونهضتُ علىٰ ساقَيّ، وتوجّهْتُ إلىٰ سور المُستشفى المُطلّ علىٰ جهة الشّمال، وقفزتُ، وجلسْتُ عليه، وأرخيتُ رِجلَيّ علىٰ جداره من الخارج، ورُحْتُ أتأمّل السّماء!

كانت الصّواريخ تنزل فوقَ بيت حانون وبيت لاهيا والعطاطرة،

بعضُها كان ينزل بشكلٍ رأسيّ كأنّه عمودٌ من النّار، وبعضُها بشكلٍ لولبيّ كأنّه يريدُ أنْ يحفر الهواء قبل أنْ يحفر الأرض، وبعضُها كأنّه مقذوفاتٌ حُرّة، تسقطُ علىٰ شكلِ قوسٍ، وفي كل الحالات كان منظرها يبدو جميلاً جدًّا، لأنّها كانتْ ترسمُ بما تخلّفه وارءها من لهبٍ أو دخانٍ أشكالاً خلاّبة، خُذْ مثلاً هٰذا الصّاروخ لقد رسمَ نُفاثُه كفًّا عملاقة بحجم أربع بنايات لها أصابع ذات أظافر طويلة، ماذا يُمكن أنْ يُشاهِدَ المرء أجملَ من هٰذا؟! لو أنّه قصدَ إلىٰ ساحة ألعابٍ ناريّة ليلة رأسِ السّنة فلن يظفرَ بأجمل من هٰذه المشاهد!

وبعضُها كان يرسمُ الفضاء ذئابًا تجرّ خلفَها عربةَ تزلُّجٍ في صقيع سيبيريا، كنتُ أراه كذٰلك، غيرَ أنّ الذّئاب الجّارّة كانتْ سرعان ما تتعب فتسقط هي وعرباتُها في الفراغ! وبعضُها كان نُفاثُها الّذي تُخلّفه يرسمُ وجوهًا بشريّة، حينَ دَقّقْتُ النّظر فيها أكثر رأيتُ فيها وجوه أحبابي، رأيتُ فيها وجه أبي وأمّي، ووجه (رجاء)، وتمنَّيْتُ لو أنّ لي جناحَين أطيرُ إلىٰ ذٰلك الفضاء البعيد لأُعانِقَ هٰذه الوجوه الحبيبة... لم أكنْ في لحظةِ انجذابي إلىٰ هٰذه المشاهد الفاتنة أسمع صوتَ الصّواريخ وما تخلّفه من انفجارات عندَ ارتطامها بالأرض، كنتُ في حالة سكينةٍ تامّة، كانتِ الأضواء اللامعة البعيدة تمنحني حالةً من الهدوء، ولهٰذا تمنّيْتُ لو كانتْ رجاء معي لتُشاهِدَ ما أشاهد، إنّ للموتِ أيضًا وجهًا جميلاً، لا يُمكن أنْ يكون وجهه بهٰذه البشاعة الّتي تقولها أجسادُ الشّهداء لا بُدّ أنّه تركَ لهم الطّين، وتركوا لهم السّماء، ولو كانتْ أرواحُ الشّهداء تُرىٰ لكانتْ حماماتٍ بيضاء تصعدُ إلى الله، وهي ذاتُها الحمامات الّتي كانتْ تهبطُ علىٰ أكتاف الأنبياء أوانَ الوحي.

تشكّلَ النُّفاث الأبيض في السّماء الكُحليّة علىٰ ضوء لهب الصّواريخ إلىٰ أشكالٍ كثيرة، لو أعملتَ فيها خيالَك لرأيتَ وراءَها عجبًا... هٰذه الخيوط الّتي تتلوّىٰ لتشكلّ حصانًا أبيض رائعًا، ها هما قدماه، ثُمّ هاهما ساقاه، ثُمّ ها هي عنقه فرأسه، ثُمّ تلك النّفاثات الّتي تتدلّىٰ علىٰ عنقه تُشكّل أعرافَ هٰذه الخيل، ما أجمل الأعرافَ البيضاء... أمعنِ النّظر قليلاً إلىٰ رشقةٍ صاروخيّة أخرىٰ، سترىٰ كيفَ يكونُ للفنّ هٰذا التّأثر، تأمّل جيّدًا لا تستمع إلى الصّوت، الصوتُ يقتل الفنّ، يقتل المشهد، يقتل النّظر، دع أصوات التّفجير لليائسين، وكُنْ ذا قلبٍ طروبٍ وانظر إلى الألوان والفرشاة واللّوحة.

غامتْ بِي المشاهد، شعرتُ أنّني أغوصُ فيها من شِدّة التّعب، لم أعدْ أشعرُ برجلَيّ، إنّهما خَدِرتان، عينايَ أيضًا تَنُوسان، جفناي ينطبِقان، وجذعي يتمايل، والسّماء صارتْ تتأرجحُ أمامي مثل بندول... وأنا أهوي علىٰ ما يبدو... لا.. لن أهوي، صفعْتُ خدّي فاستعادتِ السّماء توازنها، توقّفَ البندول ولم يتوقّف النّفاث، صرخْتُ بأعلىٰ صوتي: «يا بسّام... يا بَسّام». كان أحدُ المُسعفين يمرّ منها، انتبه إلى الصوت، اقترب، وهتف بي وهو غيرُ مُصدّق: «هل أنتَ مجنون؟!». أجبْتُ بلا مُبالاة: «أنا فرج». أعرفُ مَنْ تكون، أنا أقصد أنّكَ بجلوسِكَ على السّور ستُعرّض نفسَك للخطَر... هَيّا انزل». «لو شاهدْتَ ما شاهدتُ لصعدْتَ إلىٰ هنا وجلسْتَ إلىٰ جانبي». «وماذا تُشاهدُ غير الدّمار». «افتحْ قلبكَ يا رجل، ولا تنظر إلى الأشياء، انظر إلىٰ ما وراءَها». «طيّب انزل من دون فلسفة... هيا». وقفزْتُ من السّور، وتلقّاني كما يتلقّى الأب طِفلاً شارِدًا، ووبّخني بكلمتين، وساقني إلى الدّاخل، إلىٰ بسّام، فلمّا رآني،

أقبلَ علَيّ واحتضنني كمشتاقٍ إلىٰ غائب، وهتف: «أينَ كُنت؟». «كنتُ أشاهدُ الألعاب النّارية، تمنّيْتُ أنْ تكون معي!». وعرفَ أنّني أهذي، فقادني بحنانٍ وهُدوء إلىٰ غرفة الممرّضين، ثُمّ سَجّاني علىٰ نَقّالة سُجِّيَ فوقها عشرات الشُّهداء، وسحَبَ عَلَي حِرامًا خفيفًا، ورَبَّتَ علىٰ جانبي، وهتفَ بصوتٍ خفيض: «نَمْ يا صديقي، أنتَ لم تنم منذُ أسبوع». ولم يكدْ يُتمّ عبارته الأخيرة حتّىٰ كنتُ في عالَمٍ آخَر.

انقطعتِ المياه عن المُستشفىٰ وعن أغلب أحياء الشّمال ومدنه ومخيّماته. صرْنا نُعبِّئ الماء في جالونات، ونركنُها في غرفةٍ خاصّة ونُغلِقُ عليها كأنّها كنزٌ لكي نستخدمها في العلاج. وأمّا الوضوءُ للصّلاة فقد بدأْنا بالتَّيَمُّم. لم أغيّرْ ثيابي منذُ أسبوعَين، مع كلّ ما تلطّخَ بها من دماء ومحاليل وصديد وما لا يخطر لكَ ببال، ومع ذٰلك سأستمرّ في لبسها أسبوعًا آخَر أو أكثر، فلا ماءَ لدينا للغسيل، مخزوننا الاستراتيجيّ من الماء الّذي نسحبه من مكانٍ بعيدٍ يجب أنْ يُقنّنَ استِخدامُه بالكأس من أجل المرضىٰ والمُصابين. أمّا دورات المياه، فكان يُسمَح لكلّ واحدٍ من المرضىٰ أو الأطبّاء أو نُزلاء المستشفىٰ بلتر واحدٍ طَوال اليوم من ماءٍ صالحٍ لاستِخدامه لأغراض الحمّام، ولٰكنّه ليسَ صالِحًا للشّرب. سيكون هٰذا اللّيتر رفاهيّة الأسابيع الأولىٰ للحرب، فيما بعد لن يكون هنا لا ليتر ولا نصف ليتر ولا حتّىٰ ربع ليتر، وأحيانًا ولا قطرة، عليكَ أنْ تستخدم الحجارة وبعضَ أوارق المنشورات الّتي يُلقيها الجيش الإسرائيليّ على الأحياء والمُستشفين يأمرهم بالنّزوح إلى الجنوب.

الفُرْن الّذي خبزتْ فيه (سلام) أوّل رغيفٍ آكلُه من أوّل الحرب عادَ للعمل بكثافة، تولّتْه إحدىٰ صديقاتها، ووزّعت الدّور للنّساء الرّاغبات

في استخدامه، في البداية كان على المرأة الّتي ستخبز انتظار ساعة أو ساعتَين، ثُمّ صارَ عليها أنْ تحجز دورها قبل ثلاثة أيّام حتّىٰ يصلَ إليها!

خبَزَتْ لنا سلام أنا ومجموعة من المُمرّضين طَوال مُدّة إقامتي في مستشفى الشّفاء. دارتْ بيننا أحاديثُ كثيرة. نما فيه شجر المودّة، وسال ماءُ الرّضىٰ. تقول: «لماذا تُديم الجلوس وحدك؟». «كيفَ عرفْتِ ذٰلك؟». «صدفَ أنْ رأيتُكَ غير مرّة». «لأنّني مقطوعٌ من شجرة». «لا تقل ذٰلك». «لقد رحل أحبابي كلّهم». «إذا كان هٰذا النّوع من الرّحيل هو سبب وصفكَ هٰذا، فمعنىٰ ذٰلك أنّ أهل غزّة كلّهم مقطوعون من شجرة». «أنا أحسّ أنّ وجعي مُختّر». ليسَ هناك طبقيّة في الوجع يا فرج؛ أنا أيضًا فقدْتُ زوجي في حرب ٢٠٠٨م، كنتُ في العشرين من عمري، وترمّلْتُ مبُكّرًا، ولم أنجِب منه مَنْ يقول لي يا ماما». «نحنُ أيتامُ حرب». «على الأغلب أبناؤها. إنّ الحربَ لها أبناء أكثر من أبناء الحياة». وآكُل من خُبزِها، ويستمر ذٰلك حتّىٰ تتفتّح عروق القلب، وتجري فيها دِماءٌ جديدة.

وصِرْنا نلتقي من أجل أنْ نأخذ استراحةً من الدّم والصّورة. كان الدّم يُلّون الصّورة، وكانت الصّورة تتكلّم بلسان الدّم. وكُنّا نقول إذا لم تمنحْنا إسرائيل هُدنةً، فلنصطنع نحنُ هُدْنَتَنا الخاصّة. وصار للخُبزِ معنًى آخر، إنّه صِلةُ الحياة، وحينَ تتوثّق جذور شجرة الحياة هٰذه الّتي غرسْناها معًا في تربتِنا، سيكونُ الخُبز نادِرًا، وسيكون ثمينًا، وقد يأتي عليه زمانٌ فيصيرُ مفقودًا، غيرَ أنّه أوجدَ تلك الشّجرة فما عليه إنْ فُقِدَ بعدها. وكانتْ تقول كلمتها الّتي تردِّدُها كثيرًا علىٰ مسامعي: «أنا أفضلُ مَنْ يُعِدّ القهوة!». وأبتسم ابتِسامةً مجروحةً، وأهتف: «لا حُكْمَ إلاّ عن تجربة». وتضحكُ

وهي تمدّ الدّلة لتضعها فوقَ ما تبقّىٰ من الجمر: «مَنْ يدري إذا استمرّت الحرب هل سيكون هناك قهوة!!». «على الأرجح لن يكون». وتبتسم، وهي تسكبُ فنجاني: «فَلْنَشْرَبْ إذًا». وتنتشر الرّائحة الشّذيّة، وللرّائحة ذاكرة، ذاكرةٌ تُفتّت القلبَ من الحنين، وبيننا أجملُ رائحتَين مُمكِنَتَين: رائحة الخبز ورائحة القهوة!

وصِرْتُ إذا خرجْتُ في سيّارات الإسعاف أخرجُ كأنّني ذاهِبٌ إلىٰ نُزهة! أستغفر الله، ليسَ ذٰلك اعتِيادًا، فإنّ وجع الموتِ الأوّل مثل وجع الموت الآخِر ولو تكرّر ألف مرّة، ولٰكنّ شيئًا ما في القلبِ صارَ يُعطي لوجودي معنىٰ، فصرتُ أخرجُ مملوءًا بهٰذا المعنىٰ، ومن امتلأ بالمعنىٰ استصغر ما كان كبيرًا، واحتقر ما كان عظيمًا.

لقد كانت الحربُ حجرًا مُلقًى في الفراغ، كذٰلك هي الصّواريخ، ماذا يعنينا من الحجارة المُتساقطة الّتي لا تتوقّف عن الهُوِيّ، إنّها تسقط بالفعل، فلتستمرّ بسقوطها، لم يكنْ سُقوطُها شرًّا بالنّسبة لنا، ولم يكنْ خيرًا كذٰلك، نحنُ نعدُّها كائنات بلهاء ألقاها وحوشٌ أسطوريّون يريدون منّا أنْ نركع، وقد أخطؤوا التّقدير، إذا كان الخَيار بين الرّكوع والموت، فنحنُ نختار الموت بصدرٍ رحب.



(٢٠) كيفَ تمرّ الأيّام؟!

عددُ الّذين يسألون عن أحبابهم المفقودين يزداد كلّ يوم. في المستشفىٰ يأتي العشرات منهم، يدورون بين الأقسام، يتفحّصون الوجوه بهلع، يتكلّمون مع الجرحىٰ، ومع النّاس في الممرّات، ويذهبون إلى الأطبّاء: «هل رأيتُمْ فلانًا أو فُلانة؟ ابني اسمُه كذا هل هو في قوائم الواردين إلىٰ هٰذه المستشفىٰ...؟!» أسئلةٌ معلّقة دون إجابات، يطوفون بها بنظراتٍ زائغة وأفواه مرتجفة وخطوات حائرة، ويخرجون بلا شيء.

الحربُ مزّقتْنا، فرّقتْ ما كان بين الأخِ وأخيه، والأب وابنه، وحالتْ بين المرء وقلبِه. تشتّتَتِ الأُسَر، وحيلَ بينها وبين أطفالِها. الأمّ الّتي تفقد ابنها يُصبح من العسير أنْ تجده ولو بحثتْ عنه شهرًا كامِلاً. لن تعرفَ في أيّ مكان، ولا إذا ما يزال تحتَ الرّدم، ولا في أيّ مدرسةٍ للإيواء، ولا إنْ كان جُرِحَ ونُقِلَ إلى المستشفىٰ، وإذا كان هٰذا قد حدث بالفِعل فإلىٰ أيّ مُستَشفىٰ نُقِل، ستطوف عشر مستشفيات علىٰ قَدَمَيها في أماكن مُتباعدة ولن تصل إلىٰ نتيجة، وإذا كان قد استُشهِد، فهل حَظِيَ بمن يُكفّنه ويُصلّي عليه ويدفنه، وإذا دَفَنه فهل كان يعرفُ اسمَه حتّىٰ يكتبَ اسمَه علىٰ شاهدة القبر، ولٰكنّ شواهد القبر صارتْ ترفًا، مَنْ يستطيع أنْ يحصلَ علىٰ شاهِدة؟!

هنا في مستشفى الشّفاء لا تتوقّف الجنازات عن الخروج منه، بعضُ الجنازات يصل عددُ شهدائها إلىٰ عشرينَ شهيدًا، أكثرهم بلا أسماء،

يُصَفُّون جنبًا إلىٰ جنب في مكانٍ خالٍ أو أقلّ ازدحامًا في مدخل المستشفىٰ أو السّاحة المُجاورة، ويتقدّم أيَّ رجلٍ كان ليُصلّي عليهم، قد يكون طبيبًا أو مُمرّضًا أو أحد أقرباء أحد الشّهداء، أو يُمكن أنْ يكون عابرَ سبيل، رأيتُ عددًا من هٰؤلاء، ربّما فقدوا كلّ أهلهم وبقوا في المستشفىٰ يُصلّون على الشّهداء كلّما فوَّجوا عددًا منهم، دون أنْ يكون لهم بهم صِلة، فقط من أجل اكتِساب الأجر. المُصلّون الغرباء الثّكالىٰ كانوا موجودين في كلّ المستشفيات، (نبهان) رجلٌ خمسينيّ واحدٌ منهم، رأيتُه بعدَ أسبوعَين أو ثلاثة هنا، يتحيّن فرصة اصطفاف الشّهداء في مشهدهم الّذي صار مألوفًا، يشدّ عُصبته علىٰ رأسِه ويُقدّم نفسَه، فيصلّي على الشّهداء وخلفَه ذووهم وأهلوهم، ويدعو لهم، صرْنا نعرفه، وصار أهل الشّهداء ومَنْ في المستشفىٰ يعرفونه، كان صوتُه نَدِيًّا في الدُّعاء، يدعو من قلبٍ مجروح، وكبدٍ مقروحة، ولهٰذا كُنّا لا نُقدّم جنازةً حتّىٰ نتأكّد أنّه موجود ليحظى الرّاحلون بنَدِيّ دُعائه، وكان حاضِرًا دائِمًا!

الزّعيق لا يتوقّف. سيّاراتنا لا تهدأ، نحنُ لا نهدأ. كلّ شيءٍ من شجرٍ وبشرٍ وحجر في حالة قلقٍ دائمة، الأشجار صارتْ تبدو مُنكّسةَ الرّؤوس لِهَوْلِ ما ترىٰ. الأحجار تعتذر: ليسَ لنا من الأمر شيءٌ. الطّيران هو الّذي يرغمنا علىٰ أنْ ننهدّ فوقَ الرّؤس، لو كان لنا رأيٌ لكُنّا جدارَكم الّذي يحميكم من الأذىٰ لا الجدار الّذي يُؤذيكم.

منذُ قرابة شهرٍ وأنا لا أعرفُ كيفَ تمرّ الأيّام، كيفَ يصعد النّاس إلىٰ السّماء. كيفَ يتعارفون هناك. ماذا يقولون عن أهل الأرض. أعجبُ كيفَ لا نزال نحن أحياء إلىٰ هٰذه اللّحظة خرجْتُ مع طاقمٍ من خمسِ سيّارات،

عددٌ من سيّارات المستشفىٰ قُصِفَت لم تعدْ تعمل، دخلت الحمير مع العربات الّتي تجرّها إلى الخدمة بقوّة، صارتْ مشهدًا مألوفًا في الأزقّة والحواري والشّوارع الّتي فقدتْ معالِمَها.

قبلَ خروجنا كان عددٌ من الجرحىٰ قد وفد، محمولين علىٰ نقّالات يُهرَعُ بها إلى الدّاخل، أو محمولين بين الأذرع أو على الظّهور. يتراكض النّاس تراكض الهاربين الخائفين، أتساءل أحيانًا ما غاية هٰذا الرّكض، ما نهايته؟! أكثرُ الّذين يدخلون إلىٰ هنا لا يخرجون إلاّ إلى الصّلاة عليهم. حينَ لم نكنْ نجد مَنْ يُصلّي عليهم كان (نَبْهان) يُلبّينا دائِمًا.

ركضتُ لا شعوريًا معهم إلى الدّاخل. أنْ تنقِذَ روحًا أجلّ مهمّة يُمكن أنْ تقوم بها في هٰذا السّعي المحموم للموت. كان الأبُ فوقَ جسدِ ابنه المُسجّىٰ: «حبيبي يا بابا»، ينحني عليه يُقبّله، يمسح علىٰ جبنيه بيمينه: «الله يرضىٰ عليك يا بابا». وأمّه إلىٰ جانبه تحتضنه: «ابنك يَمّا عند الله أحسن منّا». وفيما كان اثنان يحملان شهيدًا آخر ويحاولان إبعاد النّساء اللّواتي كُنّ شقيقتَين فيما يبدو إلىٰ جانب الأمّ، استطاعت الأمّ أنْ تخترقَ الصّفوف، وتُمسّد بيدها علىٰ جبين ابنها الشّهيد، وهي تهتف: «آه يَمّا.. آه يَمّا...» ولَمّا ساروا أمامها وصارت خلفهم، راحتْ ترفعُ كلتا ذراعَيها وتُلوّح بكفَّيها مودّعة: «الله يسهّلْ لك يَمّا». أمّا تلك الأمّ الّتي بدتْ في أواخر العشرينيّات من عمرها فقد كانتْ أكثرَ حظًّا من غيرها من النساء، لقد استطاعت أنْ تجثو أمام النّعش، وتميل جذعها وتحتضن ابنها الشّهيد بذراعيَها، وتُلصِقَ خَدّها بخدّه، وتبكي، كانتْ دموعها تسيلُ علىٰ وجنتَيه فتشعر أنّهما اخضرّتا، ويتحرّك جفنه الّذي

بلّله الدّمع كأنّه حَيّ، وهي تقول: «إنتا مش ميّت يَمّا... إنتا عند الله حَيّ». ولَـمّا حاولْنا أنْ نأخذ النّعش ليُصَلّىٰ عليه، نظرتْ إلينا بعينَين احمرّتا منالدّمع، ورَجَتْنا: «خَلّيني أحضنُه كمان شوي... مشان الله». دخلتْ أمٌّ تحتضنُ رضيعًا عمرُه يومٌ واحدٌ، تخيّلوا أنّ الرّاجِمات أصابتْ مَن خَرَجَ مِن رَحِمِ أمّه إلى الحياة قبل يوم، لم يكدْ يرى النّور، يأتي إلىٰ هٰذه الدُّنيا البائسة فيتلقّاه الصّاروخ ليُرحّب به، أيُّ حياةٍ هٰذه الّتي يحياها أطفال غزّة، وأيّ بؤسٍ هٰذا الّذي ينتظرهم؟! لحُسْنِ الحظّ أو لسوء الحظّ - فلا أحد يدري - أنّه لم يمتْ؛ كانتْ جراحُهُ طفيفة، ولٰكنْ كيفَ تكون الجراح طفيفةً علىٰ رأسٍ عمره يوم، إنّ أيّ شظيّة صغيرةٍ يُمكن أنْ تنهي حياته، لقد انحنتْ أمّه عليه، واحتضنتْه وأحاطتْه بجذعها فلم يُصبْ بسوءٍ، أمّا هي فكانتْ تتأرجح من شدّة الإصابات بين الموت والحياة. طفلٌ آخَرُ أشقر، رسمَت الشّظايا خريطةً باللّون الأحمر علىٰ خَدّيه الطّريَّين وجبهته الرّقيقة، وأصابتْ طرفَ عينِه اليُمنىٰ فبدتْ كأنّها نصفُ عين، كان خافِضًا رأسه من الألم أو الهول أو الصّدمة، وكانتْ يده مُجبّرة، مسحتُ علىٰ رأسه، فرفع رأسه لَحَظات ونظر في عينَيّ، ثُمّ خفضَ رأسه مرّة ثانية، سألتُه: «تُوجِعُك يدك؟» لم يردّ، ظلّ حانِيًا رأسَه، مُطرِقًا في ذهوله وألمه. سألتُه مرّة ثانية: «توجعك يدك يا عمّو؟». لم يردّ، لٰكنّه رفع رأسَه فوجدتُ الإجابة في عينَيه، إنّه ألمٌ فظيعٌ يا عمّي، إنّني لا أعرفُ ما أقول، ولٰكنّك ترىٰ فلماذا تسألني. «هل قصفوكم؟». ردّ: «آآه..». خرجتِ الآه آهات، واحسرتاه عليك أيّها الصّغير، ماذا رأيتَ من الدُّنيا؟!

دخل خمسةُ رِجال يحملُون خمسةَ أطفال، كانوا يُهرَعون إلىٰ الداخل، كلّ واحدٍ يحملُ طفلاً رأسُه مُفجّر، كان الدّم الأحمر يختلطُ

بسواد الشّعر فيُصبحُ قاتِمًا لَزِجًا، كان الواحد يتلوّىٰ بين يدَي أبيه وهو يتراكضُ به أملاً أنْ يكونَ فيه خيطُ حياةٍ لم ينقطع ولو كان رفيعًا. كان أملاً كاذِبًا. الحقيقة أبلغُ من الرّجاء. الحقيقة عدوّة وهم الأمل الّذي يتضخّم في عقول الثّكالىٰ، لقد كانوا موتىٰ جميعًا، لماذا تدخلون بهم إلىٰ غُرَف العمليّات؟! الأمر واضح. لماذا لا تريدون تصديق الواقع؟! الأفضل أنْ تُكّفنوهم، ولن تحظوا بأحسن من دعاء الشّيخ (نبهان) بعدَ أنْ يُصلّي عليهم. لا يوجد في كلّ مستشفىٰ (نبهان)، نحن محظوظون به!

قال لي (بسّام): «مجزرة جديدة في مدرسة الفاخورة في مخيّم جباليا، عليكَ أنْ تذهبَ مع سيّاراتنا إلىٰ هناك». وددتُ أنْ أهرب، أنْ أخرجَ من المستشفىٰ هائِمًا علىٰ وجهي، أتوجّه إلى الشّاطئ، وترصدني طائرات العدوّ المُسيّرة، وفي لحظة مصيريّة تُوجّه قنابلها نحوي بدقّة وتقصفني، فأرتاح من هٰذه الحياة في أقلّ من ثانية. يا بسّام ألا يُمكن أنْ نرتاح من الموت، ألا يُمكنُ أنْ تكون هٰذه اللّيلة آخر ليلة في هٰذا الرّعب، أمكتوبٌ علينا نحن دون شعوب الأرضِ كلّها أنْ نعاني هٰذه المعاناة، وأنْ يصير دمنا ماءً؟! أكثيرٌ علينا أنْ نطلبَ من الله أنْ يخلّصنا من هٰذه الوحوش؟! أكثيرٌ عليه أنْ يستجيبَ دُعاءَنا...؟! واحتضنني بسّام، وأرحتُ رأسي علىٰ صدره، كانتْ رائحة الدّماء الّتي تفوح من ثيابه شذيّة، أطيبُ رائحةٍ يُمكن أنْ تُشَمّ. مسحَ بكفّه اليمني علىٰ شعر رأسي وذراعه اليُمنىٰ لا تزال تلتفّ علىٰ جذعي، وهتف: «سينتهي كلّ هٰذا. مؤكّد. لا تقلق. وحينَ ينتهي، سنسهر أنا وأنتَ وبقيّة الممرّضين الأبطال علىٰ شاطِئ غزّة ونشوي السّمك ونغنّي حتّى الفجر». ثُمّ أخلىٰ ذراعه، ونظرَ في عينَيّ، وقال بحزم: «والآن عليكَ أنْ تذهب».

وركبْتُ سيّارة من هذه السّيّارات الّتي كانتْ تزعق، وتوجّهْنا إلى مدرسة الفاخورة، وفي الطّريق كانت عربات الحمير قد انتشرتْ واحتلّتْ جزءًا كبيرًا من الشّارع، وصارتْ تُسابِقُ سيّاراتنا، وبدأتْ تُصبِح أهمّ وسيلة نقلٍ في غزّة، ولكنّها كانتْ للأغنياء أو قُلْ لمن يملكُ مالاً يدفعه مقابل استئجارها.

يا إلهي، كيفَ تغيّرنا الحروب، تُغيّر خوارجنا ودواخلنا، تُغيّر كلّ شيءٍ فينا. هذا الوجه ليسَ لغزّة، أعرفُ غزّة شبرًا شبرًا أيّام طفولتي وشبابي ودراستي الجامعيّة، لم يعدْ لها من وجهها الّذي أعرفُه شيء، هذه الشّابّة الفتيّة صارتْ عجوزًا خَرِفة، تساقطتْ أسنانُها، وانحلّتْ رُكَبُها، وتَقوّس ظهرُها، وهي تنظر إلى الحفرة الّتي أُعِدَّتْ لها بصبرٍ وهلع!

كان هناكَ مُشرّدون يجوبون الشّوراع، نازِحون يحملون أمتعتهم ويتوجّهون إلا لا مكان، لا أحدَ يعرفُ البيت أو المأوى الّذي سيستقبله، إذا دُمِّر منزلك ودُمّر معه أربعون منزلاً، وأبيدَ الحيّ الّذي تسكن فيه كامِلاً فأين تذهب؟ أيّ وطنٍ يُؤويك، أيّ كلمةٍ أو أيّ حضن يُمكن أنْ يُبرّد لاعجَ قلبك؟! إنّ جراح غزّة عصيّة على أنْ تبرأ. إنّ هؤلاء الّذين يذرعون الطّرقات بحثًا عن جدارٍ يُسنِدون عليه أكتافهم المُتعَبة، ويريحون عنده رؤوسهم المُثقلة هم الّذين يخافون الجدار نفسه؛ لأنّه يُمكن أنْ يتحوّل إلى عدوٍ في لحظةٍ لم تكنْ تحسبُ لها حِسابًا. إنّ كلّ جدار هو وجهٌ للموت لا يُسفِر إلاّ إذا أتتْه هذه الإشارة من طائرة أو مُسيّرة.

أينَ الشّمس؟ لم تُشْرِق مُذْ كشّر وحشُ الحربِ عن أنيابه. أين القمر؟ استتر وراء الغيب، مُذ عرفَ أنّ في البشر صنفًا لا يُمكن أنْ يُصنّف. أينَ النّجوم؟ غارتْ من الوجع. انشقّتْ. انفطرتْ من صرخات الأمّهات المفجوعات.

(٢١) إلى متى سَتَطُول هذه الحرب؟!

صار النّاس يَأوون إلى المدارس. قال لهم الجيش الإسرائيليّ: «أخلُوا المُستشفيات». كانوا يُعطونهم عشر دقائق، وبعدَها يقصفون المستشفى ويهدمونه على رأسِ مَنْ فيه. لم يكنْ تحذيرُهم من أجل أنْ ننجو، هم لا يريدون أنْ يبقى حيٌّ واحدٌ منّا، هم يتمنَّون أنْ ينقلبَ باطنُ غزّة ظاهرَها، فنُدفَنَ جميعًا تحتها! ولكنْ كيفَ يكون الحُبُّ إذا لم تحتضنّا غزّة في ثراها الطّاهر؟!

وصلْنا إلى مدرسة الفاخورة. غزّة كلّها هنا. هذه المدرسة تؤوي أكثر من أربعة آلاف نازحٍ جاؤوا من بيت حانون وبيت لاهيا. لا يمكن أنْ يُؤوي هذا المكان هذا العدد المَهول من النّاس، ولكنّها الحرب لها قوانينُها القاسِية، وأحكامُها المُجحِفة. كانتِ المدرسة قد تلقّتْ عددًا من أطنان القنابل الّتي كانتْ كفيلةً بأنْ تمحوها من الوجود، سقطتْ أكبر قذيفةٍ في وسطها، فأحدثتْ حُفرةً مَهولة عميقة جِدًّا. لأوّل وهلةٍ حين تدخل المدرسة ستعتقد أنّه لا يُمكن أنْ يخرجَ من هذا المكانِ حَيٌّ واحد، ولكنّ أصواتَ الأطفال الّتي تتعالَى في الدّاخل كانتْ تقول: «إنّنا نقاوم الموت، وإنّ كلّ آتٍ آتٍ فلم هذا القَلَقُ كُلُّه؟!».

خارج حفرة الصّاروخ هذه الّتي حدثتْ في السّاحة، وعلى أطرافها ترتفع مباني المدرسة من الجهات الأربع ثلاثَ طوابق، كلّ طابقٍ تنتشر فيه الصّفوف الّتي كان يتلقّى فيها الطّلبة تعليمهم، منذُ بداية الحرب

والدّراسة متوقّفة. المدراس استُهدِفتْ، مباني جامعة الأزهر قُصِفت. كانوا يقصفون مبنىً مبنًى. حينَ تصطدم القذيفة بالمبني تنفجر كُتلةٌ مرعبةٌ كبيرة الحجم من النّيران، ثُمّ ما تلبثُ أنْ تنطفِئ ليتهاوى المبنىٰ مُشكّلاً سحابات كثيفة من الغبار يتصاعدُ عاليًا كأنّها سحابةُ انفِجار نوويّ. جامعة الأزهر بكلّ مُقدّراتها من المختبرات والأجهزة والأبحاث والمكتبة سُوّيتْ بالتّراب؛ المُحتلّ عدوّ العلم، لم يُتِحْ لأحدٍ أنْ يُمسِكَ قلمًا أو يقرأ في كتاب أو يكتبَ في دفتر. الدّفاتر تمزّقتْ وامتلأتْ بالأتربة واحترقتْ، كانتْ سطورها ناقِصةً لم تعدْ ممكنة القراءة. على الجُمَل ألا تُتِمّ المعنىٰ في زمن الحرب.

وصلْنا إلى المدرسة ونحنُ نسمعُ الأحزمة النّاريّة ومئات القذائف الصّاروخيّة تتساقطُ في المكان وفيما حولَه، لا أدري كيفَ يُمكن أنْ يكونَ الاستِهزاء بالموت علىٰ وجهٍ أعظمَ مِمّا نفعل؟! نحنُ نسير إلىٰ حضن الموت ولا نأبه به، ونسمعُ صوتَه المُرعِب ولا نخاف؛ بل نحنُ نخاف، ولكنّنا لا يُمكن إلاّ أنْ نقتحم الموت من أجل أنْ نُخلِّص من بين أنيابِه ما يُمكن تخليصه.

كانتِ (الدّرابزينات) القائمة في كلّ طابقٍ من الطّوابق الثّلاثة في الجهات الأربع تتدلّىٰ عليها ثِيابُ النّازحين، كان غسيلاً لأجسادهم، رحلوا وتركوها ليدلّ الأثر على العَيْن، كانت الحرائق لا تزال مُشتعلةً في بعض الصّفوف، وكانت المقاعد المدرسيّة بسبب قوّة الانفجارات قد خرجتْ من النّوافذ أو من الأبواب واستقرّتْ مقلوبة إمّا في الممرّات أو في السّاحة. كان وجه الموت يبرز في كلّ شبرٍ في المدرسة.

المشهد مُروِّع، كانت الأمّهات يصرخْن من أجل أطفالهنّ، رأيتُ

أُمَّا تَلُمّ أشلاء ابنها، جَمّعتْ يدَيه ورأسه، وإحدىٰ رجلَيه ولم تعثر علىٰ الرّجل الأخرىٰ، لفَّتْه في خِرقة، وحملتْه علىٰ ظهرها، وخرجتْ تجري به وإحدىٰ قدمَيها مُصابة، كانتْ تُوَلْوِلُ، ولا تعرف إلىٰ مَنْ تلجأ.

بعضُ الصّفوف علىٰ ما يبدو كان يلجأ إليها أكثرُ من أربعين شخصًا، عرفْنا ذٰلك من عدد الفرشات المرصوصة والمطويّة في الزّاوية، توافقوا فيما بينهم علىٰ أنْ يحتملوا هٰذه المساحة الضّيّقة من أجل فُسحةٍ مُمكنةٍ للحياة، وإنْ كانتْ حياةَ ذُلٍّ وهوان، ولٰكنّ القذائف لم تتركْهم حتّىٰ لهٰذا النّوع من الحياة القاسِية فقُتِلوا جميعًا. كان الدّمار قد لحق بواجهات الصّفوف في الطّوابق، فمن هنا يُمكنك أنْ ترىٰ أنّ هٰذه القذيفة قد مرّتْ من هنا أو خرجتْ فأحدثتْ فتحةً من مترين أو ثلاثة، حديدُ النّوافذ كانَ ملقًى خارِجها بفعل الانفجارات. في الممرّات كذٰلك يُمكنك أنْ تشاهد عبوات الزّيت المُغطّاة بالرّماد قد خلّفها الرّاحلون، ومن هنا يُمكن أنْ ترفعَ رغيفًا من الخبز اسودّ نِصفه من الاحتراق، واصطبغ نِصفُه الثّاني وقد روي من دمِ طفلٍ جائعٍ كان يهمّ بقضْمِ لُقمةٍ منه قبلَ أنْ تُعاجِله القذيفة.

كانتْ مواقد الغاز مُطفأة، والطّناجر قد انقلبتْ، وأحذية الأطفال مبعثرة في كلّ مكانٍ وشريطُ دمٍ لا يزال يسيل عليها نُقطةً بعدَ نُقطة، و(طُشُوت) البلاستيك قد ذابتْ بفعل الحرارة، وبعضُ الثّياب قد تسخّمتْ، وعددٌ من الكراسيّ قد تهشّمَتْ، ولا صوتَ هنا غيرُ صوتِ الموت.

شاهدْتُ وسطَ هٰذا الدّمار (سلام)، كانتْ تنقل المشهد بكاميرتها، تتلقّف النّاس، النّاس الّتي نجتْ بإصابةٍ كانتْ لا تزال تُعاني من صدمة القصف، تقول لها أمّ لم تعثرْ علىٰ أبنائها الخمسة لا في الأحياء ولا في الأموات: «كان معي صينيّة خُبز بدّي أطعْمي أولادي الصّغار،

ما صحينا إلاّ والصّاروخ ينزل علىٰ رؤوسنا». في كلّ مكانٍ هنا يُمكنك أنْ ترىٰ شظايا الصّواريخ، قِطعًا معدنيّة ذات حوافّ حادّة كأنّها السّكاكين، دخلتْ إلىٰ لحوم الأطفال الطّريّة دون رحمة.

امرأةٌ أخرىٰ تصيح في وجه الكاميرا: «ما ليش حدا... أنا لحالي هو... طلعيني من هٰذا المكان يا خالتي». وسمعتُ صوتَ بُكاء (سلام). ماذا يملك المرء أمام هٰذا الموت، وإلىٰ أين يُمكن أنْ تخرجي يا خالة؟! إنّ الموتَ في كلّ مكان. صارَ الأحياء يحسدون الشّهداء علىٰ رحيلهم المُبكّر قبل أنْ يروا هٰذه الفظائع الّتي لا تُحتمَل. طفلةٌ في العاشرة تصرخ أمامنا: «بحكولي أبوكِ سليم بس إيده إلّي راحت.. أنا بدّي أبوي». من أينَ نأتي لكِ بأبيك يا طفلتي؟! إنّ الّذين أخذهم الموت لا يعودون. وتستمرّ في البُكاء، ولا شيءَ يمسحُ الدّمع من العيون، إنّ الغُبار والرّمادَ قد ملأها حتّىٰ عَمِيَتْ.

أبٌ مكلوم يجلسُ علىٰ دَكّةٍ صمدَتْ أمام قُوّة الانفجار، وهو يحمل فردة حذاء طفلِه الشّهيد، ويبكي: «الرّوح واحدة يا الله، أنا وابني توأم. والله كُنت حاسِسْ فيه، إحنا روح وحدة يا عمّي، كيف بدّي أعيش بعده؟!».

بقينا نُجلي الجرحىٰ والشّهداء أكثر من ستّ ساعاتٍ حتّىٰ حلّ الليل، فلمّا حلّ خَيّم الهدوء والسّكون على المكان، ولم يعدْ في المدرسة غيرُ الأشباح وطيوف الرّاحلين، حتّى الأصوات خفتتْ لهٰذا السّكون المُريب، لكنّه سُكونٌ أخّاذ، كانَ كإعلانِ استراحةٍ قصيرةٍ من الموت. جلسْتُ علىٰ كومةٍ من الحجارة، وجاءَتْني (سلام)، فجلسَتْ إلىٰ جانبي: «ليست المجزرة الوحيدة». «تُبشّرينني؟!». تجاهلتْ سُخريتي، وأردفتْ: «مدرسة أسامة بن زيد وقعتْ فيها كذٰلك مجزرة». «إنّهم يستهدفون

المدارس». «لماذا المدارس بالذّات ألم يقولوا إنّها أماكن آمنة للنّزوح؟». نظرتُ إليها بعينَين مُثقلَتَين بكلّ ما في الكون من هَمّ: «هل تهزئين بي؟». «أنا أحاول أنْ أقتل الفراغ بالكلام». «أيّ فراغ؟!». «ألا يُمكن أنْ نتحدّث حولَ شيءٍ غير الموت؟!». «وماذا في غَزّة غيرُ الموت؟! إنّنا لو تحدَّثْنا عن أيِّ شيءٍ فيها فسيسوقنا الحديثُ إليه في النّهاية». «هل تكتبُ ما تشاهده؟». «نعم، إذا وجدتُ وقتًا، أفعل ذٰلك في الهزيع الأخير من اللّيل، أخلو بنفسي في مكانٍ في المستشفىٰ أو خارجه، أو علىٰ سُوره، وأتأمّل حالَنا الّتي أُلْنا إليها». «ولماذا تكتب؟». «لكي لا نموت. إنّ الكتابة هي الفعل الوحيدُ المُقاوِمُ للموت. نحنُ نكتب حتّىٰ تظلّ قصص هٰؤلاء الشّهداء حَيّة. إنّنا نخونهم إذا لم نفعل. نخونُ بُطولاتهم». «أنا أكتبُ أيضًا». «اكتبي يا سلام. سننسُجُ من هٰذه السّطور حكاية. الأمم تحيا بحكايات أبطالها. لو لم نروِ فإنّنا قد حكمْنا علىٰ وجودنا بالعدم». «ما رأيُك بفنجان قهوة؟». «في هٰذا المكان الضّاجّ بالموت؟». «وأيّ مكانٍ في غزّة لا يضجّ بالموت؟! إنّ المساء جميل، والهواء عليل، وفي الحربِ مُتّسَع لشيءٍ من الرّاحة». «وهل لديكِ قهوة؟!». «أحتفظُ ببعضِها في حقيبتي». «والدّلة؟». «لن نعدم دلّةً تركَها أحدُ الشّهداء خلفَه في هٰذا المكان». «والنّار؟». «إنّها لم تنطفِئْ حتّىٰ نُشعِلها». وأوقدتْ (سلام) على النّار، والنّار إذا كانتْ في مثلِ هٰذا أُنس، ورائحة القهوة أُنسٌ مُضاعَف، والحديثُ ذو شجون، والحياة هي الحياة. وكُنّا نردمُ الفجوات الّتي بيننا بكلماتنا البلهاء الّتي سنقولها بين رشفةٍ وأخرىٰ.

وسكَبَتِ لي في فُنجانٍ لم نُطِل البحثَ عنه فيما بقي من متاع الشّهداء،

وتصاعدَ قُتارُها، وانتشرتْ رائِحتُها، فكأنّها حينَ امتلأتْ بها الرِّئةُ نَقَّتْها مِمّا تلوّثتْ به من غُبار الحرب ونُثار الرّماد وبقايا الدُّخان، وسألَتْني: «لماذا يقتلُ الإنسانُ الإنسان، أما كان على هذه الأرض ما يتّسع لنا جميعًا؟!». وأطلقتُ تنهيدةً طويلةً قبل أنْ أقول: «لأنّه شَرٌّ كُلُّه. الشّرّ في الإنسان أصل والخيرُ فيه عارض». واعترضتْ: «أليس العكسُ هو الصّحيح؟ الخير فيه أصلٌ والشّرّ عارض؟». «كلاّ. ليسَ أبلغَ في الدّليل مِمّا ترَين؟ إلامَ يريدُ أنْ يصلَ الصّهاينة؟ إلى أنْ يقتلوا كلّ حَيّ في غزّة. لقد جرّبَ قادتُهم مثل هذا وفكّروا فيه من قبلُ». «والنّتيجة؟». «نحنُ شعبٌ لا يموت. نحنُ كالعنقاء تصعدُ من رمادها». «إلى متى ستطول هذه الحرب؟». «تعبْتِ؟». «وهل هناكَ مَنْ لم يتعبْ؟!». «لن تنتهي هذه الحربُ قريبًا، ولن تنتهي أبدًا». نظرتْ إلَيّ مستغرِبةً مُنكِرة: «فأل الله ولا فألك يا فرج». «هي لم تبدأ يا سلام حتّى تنتهي، إنّ هذا الصّراع طويل، طويلٌ جِدًّا. المشكلة في الصّراع طبيعةُ العقيدتَين، مَنْ قال لكِ إنّها ليستْ حربًا دينيّة مُقدَّسة فهو واهم. كان يُمكن أنْ يحدث صُلحٌ حقيقيّ أو سلام بيننا وبين أيّ دينٍ آخر، بيننا وبين أيّ شعبٍ أو دولة، أو بيننا وبين اللاّدينيّين، كلّ شيءٍ مُمكن أنْ يُسوّى في النّهاية، ولكنْ بيننا وبين اليهود فلا يُمكن أنْ يُسَوّى ولا يُمكن أنْ ينتهي، وسيظلّ مُستمرًّا حتّى ينفخ إسرافيل في البُوق، صيحةُ البوق وحدها القادرة على إنهاء هذا الصّراع؛ إنّهم يُقاتلوننا بتوراتهم ونحنُ نُقاتِلهم بقرآننا، مَنْ قال إنّ القِتال هو خارجَ هذَين النَّصَّين فهو إمّا واهمٌ أو جاهل. دعْكِ من هذه الحرب الّتي في الإعلام، القتال في النّهاية يتمخّضُ عن هذين النَّصَّين، وعليه فإنّ موعد نهايته الحشر، أمّا دعوات السّلام، وجولات التّفاوض

فهي ضحكٌ على الذّقون، وأكثر الطّرفَين بلاهةً هم نحن العرب، اليهود يُدركون ذٰلك». وقاطَعتْني في استرسالي في الحديث: «نحنُ ماذا نريدُ من هٰذه الحرب؟». «هٰذا هو السّؤال الحقيقيّ. إذا كُنّا نريدُ تحرير بلادِنا كامل بلادِنا، فإنّ الحربَ لم تبدأ إذًا، هٰذه شرارة، واحدة من الشّرارات الّتي يجب أنْ تشتعل من أجلِ أنْ تُضاء الطّريق المُؤدّية إلى التّحرير، وهي طويلة... أطول مِمّا نعتقد». «لا تكنْ مُتشائِمًا». «اتركيني أستمتع بتشاؤمي، هل تظنّين أنْ تفاؤلك سوفَ يُعيدُ لنا غزّة، أو القدس بعدَ شهرٍ أو اثنَين، أو سنة أو سنتَين، هل يُمكن لتفاؤلك أنْ يُعيرني صاروخًا واحِدًا من أجل أنْ أُزيل عن الوجود مستوطنةً ابتعلتْ أرضي ونهشتْ جسدي؟!». «يعني لن تنتهي هٰذه الحربُ قبل عام؟». «العِلم عند الله، ولٰكنّني أقول إنّ عامًا يبدو قليلاً عليها». زَمّتْ شفَتَيها، وأدراتْ رأسَها إلى الجهة الأخرىٰ، وسألتُها: «هل يُمكن أنْ تسكبي لي فنجانًا آخر؟».



(٢٢) أينَ يسقطُ الشّهداء؟!

عُدْنا إلىٰ مستشفى الشّفاء معًا. نعودُ من الموتِ إلى الموت. صارتْ مُستشفيات غزّة تستقبل أطفالاً لا يُعرَف آباؤهم ولا ذووهم. تتراكمُ أعدادُهم في البهو والغُرف والممرّات. عيونٌ نازفة، نظرات حائرة، وخطوات إلىٰ لا مقرّ، وأسئلة ذابحة: «أينَ أبي؟! لقد كان معنا في البيت. أينَ أمّي؟! كانتْ تُجهّز لنا الطّعام قبل أنْ يعمّ الظّلام». وأينَ يكونُ آباءُ هؤلاء وأمّهاتهم في زمن الحرب؟! إنّهم ليسوا هنا ولا هناك، ولا هنالك. ولا في أيّ مكان. يحدثُ أنْ يذوب الآباء، أنْ تبحثَ عنهم أو عن أيّ شيءٍ يتعلّق بهم فلا تجدُ إلاّ العدم. تحتَ أردمة الباطون؟ ربّما. صاروا أشلاءً لا تجدُ أصغرَ شيءٍ منهم، عيونَهم مثلاً؟! ربّما. صعدوا إلى السّماء تاركين كلّ شيءٍ خلفهم؟ ربّما. لٰكنْ لماذا لم يُفكّروا بأبنائهم قبل أنْ يصعدوا إلىٰ هناك؟! ألا تُحزِنهم دموع أبنائهم الّتي تنزف أو آهاتهم الّتي تسيل؟! كيفَ طاوعتْهم أنفسهم أنْ يحظَوا بنقاء السّماء ويتركوا أبناءَهم لدُخان الأرض؟!

يُمكن أنْ تتكرّر مشاهدُ الموت والرّعب أمامي ألفَ مرّة، لٰكنّني أبكي في كلّ مرّة، وأشعر أنّها المرّة الأولىٰ، ألم يعدْ بإمكان هٰذا القلب المملوء بكلّ هٰذه الجراحات أنْ يعتادَ هٰذا النّزيف المستمرّ؟! مُحال. إنّ الموتَ واحد، ولٰكنّ الصُّور الّتي يأتي بها مُتعدّدة، إنّه يأتي بألفِ صورةٍ وصورة. قد تبدو صرخات الفقد واحدة، ولٰكنّها ليست كذٰلك أبدًا، إنّ

كلّ صرخةٍ لها نشيجُها الّذي لا يُشبه نشيج أيّة صرخةٍ أخرىٰ. نحنُ نسمع صدى الموت مُختلِفًا في كلّ مرّة. ما أفدحَ أنْ يتعدّد الموتُ بهٰذه الصّور الّتي تتحرك كلّ صورةٍ منها بوجهٍ مختلفٍ عن سابِقه أو لاحِقه!

أمام باب المُستشفىٰ رأيتُ حمارًا شهيدًا، تخيّلوا أنّ الموتَ لاحَقَه إلىٰ هٰذا المكان الّذي يُفتَرضُ أنْ يكونَ آمِنًا. هربَ من الموت بمن سكن الموتُ أجسادَهم إلىٰ موتٍ استقبَله على الباب. قذيفةٌ أو شظيّةٌ أصابتْ عنقه فتخبّطَ في دمه، فارتختْ قدمَاه، فسقط، فسقطتْ من ورائه العربة الّتي يجرُّها، فتناثرت جُثث الشّهداء على الأرض تحتَ أقدام المذعورين. أين يُمكن أنْ نهرب؟ إلىٰ أيّ مأوًى يُمكن أنْ نلجَأ؟ الرّحمة أيّتها الوحوش؟! لا...لا... مَنْ يطلبُ رحمةً من قاتلٍ تسري في دمه غريزة القتل. لا نريدُ من أحدٍ أنْ يرحمنا. يدفعُنا الموت المُستشرِي في كلّ شبرٍ إلىٰ ألاّ نخاف منه، أنْ نقول له: هَيّا... اقتلونا أيّتها الوحوش... انهشوا في أجسادِنا... اقصفوا كلّ شيْءٍ، لم نعدْ نكترث... إنّ الموتَ الّذي لا يشبعُ منّا اليوم سوفَ يكونُ أكثرَ جوعًا إلىٰ أرواحكم غدًا!

وجه الثّكالىٰ لا يُمكن أنْ ترصده الكاميرات، ولا أنْ تصفه الكلمات. ولا عيونهم، ولا الدّموع الّتي تتجمّع في زواياها مختلطةً بالدّم، ولا رجفة الرّموش، ولا رعشة الشّفاه، هنالك أشياء لا يُمكن أنْ تُقال... يا الله كيفَ أقولُها؟ كيفَ أُعبّر عنها؟! كيفَ يُمكن لكم أنْ تُحسّوا بها، لا أدري؟! في وجوه أهل غزّة ما يفوق الشّعور، ما تتوقّف أشدّ المشاعر ألمًا أمامه حائرةً جامدة!

كَثّف أهلُنا وأحبابُنا مِمّن تلتصقُ مؤخّراتهم بالكراسيّ المعونات لنا. لعنةُ الله عليهم. إنّهم يبعثون لنا بالأكفان فقط، يكتبون عليها عبارات عُهْر:

هٰذه أكفان للرجالِ، وهٰذه للنّساء، وتلك للأطفال. ما أوسخكم! إذا كان المحتلّ هو مَنْ ذَبَحَنا، فإنّكم أنتم من أعطيتموه السّكّين وشحذتموها له، وشجّعتموه علىٰ ألاّ يبقي لنا باقية. أكفان أيّها الخنازير، إنّ أكفاننا تنظر إلىٰ الله، وأكفانكم الّتي لن يطول الزّمان حتّىٰ تُلَفُّوا فيها تنظر إلى الشّيطان، لقد استعجلْتم بعثَ أكفاننا أيّها الملاعين، نحنُ نموت وأنتم ستموتون، ولكنّنا سنبقىٰ وستَفنَون، إذا كانتِ النّهاية واحدة فلماذا تتسابقون إلىٰ أنْ تخيطوا لنا أكفاننا، والقدر يخيطُ لكم في الوقت نفسِه أكفانكم؟!

أيّها الحمار الّذي ذُبِح، أيّها الحمار الشّهيد، أنا أُعلِن أنّكَ أشرفُ من كثيرٍ من الّذين يتزّعموننا، لقد عزموا علىٰ أنْ يقتلونا، وعَزَمْت علىٰ أنْ تُقِذنا. أُعلِنُ أنّني لو كنتُ لحقتُ بِكَ قبل أنْ تموت لأسعفْتُك ولحافظْتُ علىٰ حياتك، لأنّ فيها الحِفاظ علىٰ حياتنا، ولو كانَ مكانَكَ زعيمٌ عربيٌّ فأُقسِم أنّني سأدسُّ له في زُجاجة المحلول سُمّا مُركّزًا لكي يموتَ من ساعته فداءً لكَ أيّها البطل!

قريبًا من السّور الخلفيّ للمستشفىٰ، تكدَّسْت أكثرُ من سبعينَ جُثّة ملفوفةً بأكفانها. كانوا يُرصُّون صَفًّا يمتدّ إلىٰ عشرِ جثث، ومن تحته صَفٌّ آخر، ولم يكنْ مُمكنًا أنْ تضع صَفًّا ثالِثًا، إنّكَ ستدوسُ عليهم إذا فعلْت. ولهٰذا وضعْنا صَفَّين آخرَين بزاويةٍ عموديّة، ثُمّ صَفَّين ثالِثَين، ولم يبقَ مكان... والجُثث لا تنتهي. كانتْ هُناك طَبْليّة من خَشبٍ أُعِدّتْ فيما يبدو لتوضَع فوقَها كراتين الدّواء الّتي تأتي إلى المُستشفىٰ، ليسَ هٰذا وقت انتظار الدّواء، فقد شَحّ من زمنٍ، لم يكنْ أمامنا غيرُ أنّ نرصّ ثلاث جُثثٍ فوقَها عانقتْ كلّ جُثّة أختَها من أجل ألاّ تسقط تلك الّتي عن يمين الطّبليّة ولا تلك الّتي عن يسارها، وبدا أنّ هاتين الجُثّتَين اللّتَين علىٰ

الطّرفَين تحسدان الجُثّة الّتي في الوسط، ذلك أنّها تحظىٰ بمكانٍ لا يُمكن أنْ تسقط منه. أينَ يسقطُ الشّهداء؟ في يد الله بالطّبع، ما يضيركِ أيّتها الجُثّة الّتي على الطّرف أنْ تسقطي، إنّ هٰذا أشرفُ سُقوطٍ مُمكن. كان المشهد مهيبًا، وللموتِ جَلال، وكان مُرعِبًا والموتُ رُعب، غيرَ أنّ الرّعب الأشدّ أنّني بقيتُ أدور بينها كلّها وحدي، ولم يكنْ أحدٌ من النّاس هناك، كانوا جميعًا شُهداء مجهولين، لم يتعرّفْ إليهم أحد، ولم يأتِ سائلٌ ليسأل عنهم. إنّ الموتَ وحده غُربة، وإنّه غُربةٌ مُضاعفة إذا مات المرء دون أنْ يكون له مَنْ يقول: إنّ هٰذا ابني، أو أخي، أو إنّ هٰذه ابنتي أو أمّي. كانوا بلا أحدٍ سوى الله!

ورحتُ أدور بين الشُّهداء لا أدري ما أفعل أبلَه، حائر، أبكي وأستعيدُ ذكرى الرّاحلين، أمسحُ دموعي، وأدور... أدور بلا غاية، ثُمّ توقّفْتُ، وفجأةً صرخْتُ صرخةَ فَزَعٍ ويأس: «يا نَبْهان... أينَ أنتَ يا نبهان...؟!». وخررتُ علىٰ قَدَمَيّ أبكي، ويعلو صوتُ نشيجي، ولا أدري لماذا أفعل؟ ماذا يُمكن أنْ ينفعَ البُكاء؟! وصرخْتُ وأنا جاثٍ وسطَ الجُثث وقد تناثرت أمامي وعن يميني وشِمالي: «يا نبْهاااان». وجاء تقطرُ لحيتُه ماءً. وسألتُه: «أينَ وجدتَ الماء؟!». فلمْ يلتفتْ لسُؤالي. وسألتُه: «ما هٰذا النُّور الّذي في وجهك». فلم يُعِرْ سؤالي أدنى اهتِمام، ولٰكنّه شَدَّ العُصابة الشّهباء علىٰ رأسِه، ومَسّدَ علىٰ لحيته آخر قطرات الماء، ومسحَ بها عارِضَيه، وتهيّأ للصّلاة علىٰ هٰذا العدد المَهُول من الشُّهداء، وقبلَ أنْ يرفع كَفَّيه أصابَتْه الحيرة، وتلفّتَ حوله ينظر في الزّوايا. وسألتُه: «ما بِكَ يا شيخ؟!». فردّ بصوتٍ حنون: «يجب أنْ يُسَجّوا جهة القبلة.. إنّ وجوههم بلا اتّجاه وإلىٰ أكثر من اتّجاه». وسألتُه: «ما العمل؟». فقال:

«هَيّا نحاول». وبدأنا أنا وهو بالجُثّة الأولىٰ والثّانية، والثّالثة، وعندَ السّابعة تعبْنا، فخررتُ على الأرض من جديد، ورفعتُ يدَيّ استِسْلامًا، فهتف: «ألا يوجدُ أحدٌ من المُسعفين يُمكن أنْ يُساعِدَنا؟». «لا يا شيخ، إنّهم مشغولون بموتٍ آخر». «ولا مِن أهلِهم؟». «لا أهلَ لهم يا شيخ». وتردّد لَحظَات قبل أنْ يُقرّر الصّلاة عليهم علىٰ حالهم هٰذا، ونظر من جديدٍ، فاختار أنْ يقف في وسطِهم، وقبلَ أنْ يرفَع يدَيه، ناداني: «تعالَ، صلِّ عليهم معي، إنّ دُعاء اثنَين أحسنُ من دُعاء واحدٍ وأرجىٰ للقَبول، ولا ندري مِمّن يقبلُ الله أمنّي أم منك؟». وأردْتُ أنْ أبكي، أو أضحك، ولٰكنّني وقفتُ مُتثاقِلاً أشدّ بيُمناي علىٰ رُكبتي وأنهض. وبدأنا الصّلاة، وكانتْ كتفه لا تكفّ عن الارتِجاف، وحيّرني الشّيخ، هٰذا الّذي يبدو صلبًا أمام النّكبات انهار في لحظة، وكِدْنا نقطع الصّلاة من البُكاء، ونَشَقَ نشقةً طويلة، وأتّمها ولمْ يكدْ. ثُمّ جاؤوا بشاحنةٍ كبيرةٍ، ورُفعتِ الجُثث إليها، وكُدّسَتْ مرصوصةً رَصًا في قلبِها، ونخرت الشّاحنة، وأخرجَ مُحرِّكُها صوتًا أقرب إلىٰ جُراش مطحنةٍ قديمة، ومضتْ ولا يدري غيرُ السّائق إلىٰ أين. وذهبتْ بالمجهولين لتدفنهم في مكانٍ مجهول، وما ضرّهم إنْ نَكِرَهُمُ النّاس وجَهِلوهم أنْ يعرفهم الله!

ودخلْتُ إلى المُستشفىٰ وقد كبرتُ عشرة أعوام. غيرَ أنّ الزّمن الّذي عبرتْ سِكّينُه فؤادي لم يُمهِلْني كثيرًا، فقد رآني (بَسّام) في البهو وأنا أمشي عجوزًا أجرّ أقدامي، فهزّني من كَتِفَيّ، وبدأ عتابه: «أينَ كنت؟ ألا ترىٰ أنّنا محتاجون لكلّ مَنْ يُساعِدنا هنا؟». ولم أقلْ شيئًا، وأشحْتُ وجهي عنه بعيدًا، وكاد يصفعني حتّىٰ أفيق من بلاهتي، وهتف: «لا تكنْ خَوّارًا». ولم تُعجبْني كلمتُه، وهممتُ أنْ أقول له: «إنّني كنتُ رئيسكَ في العمل، فالزمْ حُدودَك». وشعرَ بِما دار في خلدي، فخفّف لهجته، وهتف: «ألمْ ترَ الأطفال في الغرف؟».

وسألتُه كأنّني لا أعرف: «وماذا يصنع الأطفال؟». فلم يُجبْ، وأخذني من يدي، فدخلتُ غُرَف العمليّات، فوجدْتُها عاجّة بأكثرَ من عشرةِ أطفال مقطوعي الرّؤوس. وكدتُ أسقطُ مَغشيًّا علَيّ، وتمالكْتُ نفسي، وهتفتُ: «وماذا تفعلون بها؟ ادفنوها. ابعثوا بها إلىٰ أحدٍ يُكفّنهم؟ هل أنتم مجانين؟ أتظنّون أيّها الأطبّاء العباقرة أنّكم يُمكن أنْ تُعيدوا رؤوس هٰؤلاء إلىٰ أجسادهم؟ تقدرون أنْ تُخيطوا العنق الّذي تشرشرَ لحمُها بالدّم إلى الجسد المُتهتِّك؟! أيّها المجانين ماذا تفعلون؟ إنّ هٰذا لا يُمكن أنْ يُحتَمل. هل أحدٌ من أهلهم هنا؟ أتمنّىٰ أنْ يكونوا مجهولي الهُويّات، لأنّ ذويهم لو رأوهم لَما احتملوا. آآآه... على الوجع الّذي تصنعه بنا أيّها الموت، تُعتّقه وتُركّزه، ثُمّ تسقينا إيّاه دُفعةً واحدة». ونظرتُ في وجه بسّام، فإذا لحيتُه الشّقراء قد اسودّتْ، وإذا لون وجهه قد انخطف، وإذا هو محتاجٌ إلىٰ مَنْ يُواسيه أكثر منّي، وسألني سؤال الطّفل ضَلّ طريق العودة إلى البيت بصوتٍ خاضع: «ماذا نصنع؟». «ماذا تصنع؟ هل هناك أكثرُ من إجابةٍ علىٰ سؤال كهٰذا؟! ضع رؤوسهم أو ما تبقّىٰ منها، كلّ رأسٍ علىٰ صدر صاحبه، أعرفُ أنّكم لن تستطيعوا أنّ تعرفوا إنْ كان هٰذا الرّأسُ لهٰذا الجسد أو ذاك، ولٰكنِ اجتهدوا، محظوظٌ صاحب الجسد الّذي يُعرَفُ رأسُه، وإنْ لم تعرفوا فَقَدِّروا الأمر، ضعوا الرّؤوس هٰكذا اعتِباطًا علىٰ صدور أصحابها، أو إلىٰ جانبها، أو بين أرجلهم إذا كانتْ أرجلهم تحتمل ذٰلك، ثُمّ كفّنوهم بتلك الأكفان الّتي بعثَها لنا الزّعماء العرب، ثُمّ نادوا علىٰ نبْهان ليُصلّي عليهم». وناديتُ بصوتٍ لم يكدْ يخرجُ من أعماقي في البداية، فشددْتُ علىٰ حَجَرِه الغاصّ في حنجرتي، وصرختُ في النّهاية: «نَبْهان... نَبْهاااان... أينَ أنتَ يا نَبْهان؟!».

(٢٣) ظِلُّكَ الّذي يلازِمك

لم تكنْ أجسادُنا لنا، كانتْ للتّراب، فلماذا الأسىٰ علىٰ هٰذا الجسد أنْ يهوي، أنْ يغوصَ في الثّرىٰ؟! أنْ يتخلّىٰ عنّا أو نتخلّىٰ نحنُ عنه؟! لا فرق. كانتْ لنا أرواحنا، أرواحُنا المُحلِّقة الّتي لا يُمكن أنْ تُقَيَّد، أو تُقتَل، ولا أنْ تفنىٰ، وهي تسبحُ في ملكوتِ السّماء، حُرّةً دون حدود أو سدود، أمّا أجسادُنا فكانتْ تُعيقُنا، تقفُ حائِلاً بيننا وبيننا بسبب الألم، طينُها يُثقِلنا، نحنُ نحمل أجسادَنا وما أثقلَه من حِمْل؟! أمّا أرواحُنا فتحملنا، وما أجلّها من غاية! وعلىٰ ذٰلك كانتْ أجسادُنا عِبئًا، تُحاول أرواحنا أنْ تتخلّص منه أو تُخلِّصَنا منه.

خرجْتُ من المستشفىٰ إلى السّوق. عفوًا. أخطأت. لم تعدْ هناك سوق. بعضُ المحلاّت والدّكاكين تفتحُ علىٰ خوفٍ أنْ تُقصَف. لا منجىٰ ولا ملجأ لأحدٍ. المخابز قُصِفت من الأسبوع الأوّل للحرب. صار النّاسُ يخبزون إذا جاعوا علىٰ طناجر في بيوتهم، يأخذون طنجرةً فيُطرّقونها تطريقًا حتىٰ تتشّكل علىٰ هيئة صاجٍ مُحدَّب، ويشترون الطّحين من بعضِ المحلاّت المُغامرة بأثمانٍ باهِظة، ويعجنون في البيت، ويُوقِدون علىٰ الغاز، من بداية الحرب ستُفقَد جِرار الغاز، ستُصبح أندر من اللُّؤلؤ، ثُمّ لا يُمكن أنْ تشتريها ولو بوزنها ذهبًا، لأنّها ببساطةٍ غيرُ موجودة، ثُمّ يُنضِجونه كيفما اتّفق ويأكلونه بشهيّة وإنْ كان بينه وبين الخبز الحقيقيّ بونٌ شاسع، إلاّ أنّه يأتي علىٰ جوع، وأطيبُ الأكل ما كان علىٰ جوع، والجوع لولا

الخبز كافرٌ وملعونٌ وذابحٌ وقاتلٌ أثيم!

ينضجُ الخُبْز بطعمٍ مُختلفٍ، الطّنجرة أعطتْه طعمًا حامِضًا أو مُرّا، مخلوطًا بشيءٍ من بُرادة الحديد. إنّنا نسير إلىٰ مجزرةٍ جديدةٍ، سيكونُ الجوعُ سيّدَها لا القذائف ولا الرّاجمات، ولا الأحزمة النّاريّة ولا الصّواريخ. سيكبرُ الجوع سريعًا كما تكبر سحابة الدُّخان بعدَ انفجارٍ كبير.

عبرْتُ مشيًا على الأقدام من مستشفى الشّفاء أبحثُ عن دُكّانٍ مفتوح. كانت الطُّرُقات شبه خالية. الشّوارع في زمن الحرب تموتُ مع النّاس. لا حَياةَ لمكانٍ إلاّ بقاطنِيه، فإنْ غابُوا غابَ معهم. كانت الشّوارع مليئة بكلّ ما يُمكن أنْ يخطر على البال. الرّدم، الحجارة، الأتربة، الحرائق، الجُثث. أو بقاياها، سيكون منظر بقايا الجُثث صعبًا جِدًّا، وستبدأ تفعل فِعلها الأنكىٰ، حينَ تتفسّخ هٰذه البقايا، وتتعفّن، وستبدأ رائحة تحلُّلِها تزكم الأنوف. وسيكون الهربُ منها شبه مُستحيل، وسيكونُ علينا أنْ نتدبّر طُرقًا جديدة، ونبتكر وسائل يفرضُها الحال علينا كي لا نموتَ بالطّاعون، فينضاف هٰذا الأخير إلىٰ مجموعة القَتَلِة الّذين يتربّصون بنا في هٰذه البلدة المنكوبة.

كان لا يزال معي بقيّةٌ من النّقود لأشتري، كُنّا لا نزال قادرين علىٰ أنْ نملكَ بعضَها. ستتحوّل النّقود في الشّهر الثّاني للحرب إلىٰ شبحٍ تُطارِده في كلّ مكان، ولا تستطيع الإمساك به. فكّرْتُ كيفَ يُمكن أنْ يُصبِح وجه غزّة بعدَ شهرٍ آخر، هل يُمكن أنْ تتحمّل هٰذا الموتَ كُلّه؟! بصقتُ على الأرض وأنا أُفكّر بالعالَم الّذي يرانا ويُصدّق علىٰ قتلنا، ويُوقّع علىٰ فاتورة دمائنا، العالَم الّذي يُسمّي نفسه العالَم الأوّل،

عالَم الحرّيّة والدّيمقراطيّة، العالَم الّذي اتّضح لنا لا من قراءة الكُتُب، ولا من السّماع من الآخرين، بل من تجربتنا الخاصّة أنّه أحطّ عالَمٍ، وأقذر مُجتمعٍ مُمكِنٍ، عالَمٌ متعطِّشٌ للدّماء، جَزّار، بَطّاش، وحشٌ، وأكذبُ ما يُمكن أنْ تسمع.

في الشّوراع تُشاهدُ عربات الحمير الأكثر انتشارًا. صار منظرُها جزءًا متكرّرًا من المشهد. أحيانًا تتسابق العرَبات، غدت اليوم الوسيلة الأسرع كونها يُمكن أنْ تسير في شارعٍ مُهدَّمٍ جُزئيًّا، في حين أنّ السّيّارات لا تستطيع ذٰلك. إضافةً إلىٰ أنّ وقودَ السّيّاراتِ صار شحيحًا في غزّة، وعربات الحمير تسير بهمّة سائقها من دون وقود. التّوصيلة القريبة بـ(شيكل) واحدٍ، وربّما يدفع الاثنان (شيكلاً) فقط، والتّوصيلة البعيدة بـ (شيكلين) أو ثلاثة. يقول سائق العربة: «إنّنا رجعْنا إلى الوراء خمسين عامًا». يردّ عليه آخر: «ولـكنّنا أدركْنا قيمة الحمير، إنّها أنفع بكثيرٍ من البشر. تعرفُ مَنْ أعني». «أعرفُ... أعرف... تمنّيْتُ لو كنتُ شاعِرًا حتّىٰ أتغزّل بالحمير... آه يا زمنَ الحمير أينَ كُنتَ غائِبًا عَنّا؟!».

وصلْتُ بعدَ مَشقّةٍ إلى الدُّكّان، اشتريتُ من عنده عُلبَتَي تونة وعلبتَي فول، وأربع حبّات من البندورة، ورغيفَين من الخُبز، ودفعتُ ثمنًا لها يُساوي ثلاثة أضعافِ ثمنها قبل الحرب. ستكون هٰذه الغنيمة طعامي أسبوعًا كامِلاً. وعُدْتُ، قال لي (بَسّام): «ما هٰذا؟». أجبْتُ وأنا أخفضُ طرفي وأنظرُ إلىٰ ما في يَدَيّ: «نحنُ لا نكادُ نجدُ شيئًا في المستشفىٰ». تنهّد، وهتف: «المُساعدات قادمِة». «إن استمرّ مثل هٰذا الهُراء، وهٰذه الدّعاية الكاذبة، فسنموت من الجوع، ألا تشعرُ بوجوده؟! من المُرَجَّحِ أنّه نائِمٌ هنا أو هناك في هٰذه الزّاوية أو تلك من غزّة، وسيصحو قريبًا،

وسيكبر ويتضخّم حتّىٰ يصير عملاقًا». ردّ مُنكِرًا، وهو يهزّ رأسَه ليُبعِد عنه فكرةً مُرعِبةً كهٰذه: «لا أحدَ يموتُ من الجوع». مدَدْتُ نحوه حبّة بندورة، وعلبة (تونة)، ونصفَ رغيف: «خُذْ. من أمسِ لم تأكلْ». وأردفْتُ: «إذا كنتم إخوةً فاقتسموا».

لمْ أكدْ أبلع لُقمتَين مِمّا منّيْتُ به نفسي، حتّىٰ أتتْنا صافرات السّيّارات الّتي تثقبُ الأفئدة. أنهيتُ طعامي علىٰ عَجَلٍ ومضيت. تلقّتْني (سلام) وأنا خارجٌ قالتْ: «سأخرجُ معك، من اليوم سأرافقك قدْر الإمكان، هل تسمحُ لي بذٰلك؟». «نحنُ نصعدُ بسيّارات الإسعاف». «وماذا يعني؟ أصعدُ أمعكم». «هل يُسمَح للصّحفيّين أنْ يصعدوا إليها؟». «لِمَ لا؟ الصّحفيّون يُسمَح لهم ما لا يُسمَح لغيرهم». «ليسَ لدينا كلّ هٰذا الدّلال». «لستم وحدكم المُستهدَفين، نحنُ مثلكم تمامًا، إذا اسُتهدِفْنا معًا نكون قد وفّرْنا سيّارة». وضَحِكَتْ. مضتْ معي كأنّما قرّرَتْ عنّي. صعدتُ بجانب السّائق، أمّا هي فجلستْ على الدّكّة الّتي في قلب السّيّارة، وانطلقْنا. كُنّا مجموعة من السّيّارات، لا أدري خمسة أو أكثر، لٰكنّها لم تكنْ تتحرّك بالبشر وحدهم، كانتْ تتحرّك بالموت الّذي في أحشائِها. لا يُمكن إذا كنتَ مِمّنْ رآه أنْ تُخطِئَ رائِحتَه، أعني الموت. من هنا يُمكنكَ أنْ ترىٰ تراشُقَ الدّم يغطّي كلّ شيءٍ، الدّكّة، المقابض، النّعش، النّقّالة، مِقود السّيّارة، الفَرْش الّذي تجلسُ عليه، ولُعبة الكلب الّذي يهزّ رأسه علىٰ (التّابلو)، كان رأسهُ بالمُناسبة لا يتوقّف عن الاهتِزاز. وكثيرًا ما يُغطّي الدّمُ جزءًا من البياض للهيكل الخارجيّ للسّيّارة، فترىٰ بُقَعًا منه تحتَ كلمة (إسعاف) أو فوقَها، أو يُغطّي نصفَها الأوّلىٰ، فتبدو الكلمة (عاف)، أو نصفَها الثّاني فتبدو (إس).

الموتُ معك. رفيقُك. ظِلُّكَ الّذي يلازِمك؛ إذا جريتَ جرىٰ معك، وإذا توقّفْتَ لَبِسَك، وإذا نمتَ جثا إلىٰ جوارك. يسيل في دمك. يملأ رِئتَيك برائحته، يُقرفِصُ إلىٰ جانبك، يشبِكُ ذراعَه بذراعِكَ ويتلو علىٰ مسامعك: «كلّ نفسٍ ذائقة الموت». ويبتسم وهو يُرجِعُ رأسه إلى الوراء مُحدِّقًا في عينيك، قبل أنْ يتحوّل إلىٰ وحشٍ يفغر فاه، ويبتلعك بلقمةٍ واحدة، أو يتسلّىٰ بك فينهشُ شيئًا منك في كلّ مرّةٍ يُهاجِمُك فيها.

فجأةً وسطَ تأمّلاتي ارتجّتِ السّيّارة، وتمايلتْ يمينًا ويسارًا وكادتْ تنقلبُ لولا أنّ السّائق سيطر عليها في اللّحظة الأخيرة قبلَ أنْ تصطدم بأحدِ الأعمدة الرّاكعة في الطّريق. كان الصّوتُ عالِيًا مُرعِبًا كأنّما حدثَ في قلبِ مركبتنا، بعدَ أنْ استوعبْتُ قليلاً ما يجري، سألتُ السّائق: «ما الّذي حدث؟». إنّه صاروخ، نظرْتُ من خلال المرآة الجانبيّة كانتْ سُحُبُ الدّخان تتصاعدُ بكثافةٍ علىٰ بعد مئتَي مترٍ من هنا، هتفَ السّائق الّذي يعرفُ المنطقة تمامًا: «لقد قصفوا مخبز الشّرق. كان يُغذّي هٰذه المنطقة. لا خُبزَ بعدَ اليوم». جاءَنا صوتُ (سلام) من الخلف: «لا تقلق، نحن سنخبز بدلاً منه». لم يكنْ هٰذا وقتَ السّخرية، ابتعلتُ ريقي بصعوبة، قبل أنْ أرجو السّائق أنْ يستمرّ في طريقه، قال وهو يُعيد اتّجاه السّيّارة باتّجاه الشّارع المُدمّر: «ماذا حصل للسّيّارات الأخرىٰ؟!». لم يكدْ يُتِمّ سُؤاله، حتّىٰ رأينا طوّافاتها الحمراء تبدو وتغيم من خلال الدّخان والرّماد، وصوتُها جاءَنا كأنّه قادِمٌ من بعيدٍ، وعلىٰ شِدّة ما يُزعجني من هٰذا الصّوت عادةً، إلاّ أنّه عبرتْني موجةٌ سريعةٌ من السّرور حينَ سمعْتُه، فهٰذا يدلّ علىٰ أنّهم أحياء، وتابَعْنا طريقَنا.

وصلْنا، وليتنا لم نصل. البيوت الّتي انهارتْ غَطّت كلّ شيء، فلم

تعدْ تعرفُ إذا كان هنا شارعٌ أم لا. تداخل كلّ شيءٍ، واختفتِ الوجوه كلّها ولم يبقَ إلاّ وجه الرُّكام. بدأنا بانتشال الأشلاء، انتشلتُ أكثر من عشرِ جُثث كلّها لأطفال، ولا أدري كيفَ احتملتُ وأنا أجمعُ الأذرعة إلى الأذرعة، والسّيقان إلى السّيقان، والرّؤوس المُشوّهة. لن أبرأ مِمّا رأيتُ ولو بعدَ مئة عام. ستظلّ صُورهم تطلع لي في النّوم، ستكون أسوأ كوابيسي. انحصرتْ مهمّتي في لَمّ البقايا. لا شهداء كاملين، إنّ شهيدًا حافظَ القدر علىٰ جسده لهو محظوظ.

كانت النّيران تتصاعد من بين الفجوات في الهَدْم المُتراكم، النّار لم تنطفِئ. أخرجْنا جُثثًا محترقة. تشوّهتْ معالم وجهها. مَنْ سيتعرّف إلىٰ هٰؤلاء. كان عددٌ كبيرٌ من أهالي المنطقة قد هُرِعوا إليها. نسألهم: مَنْ هٰؤلاء؟ ينظرون في وجوههم ولا يتكلّمون. بعضُهم ينكفِئ، يتراجع إلىٰ الوراء ويبكي. بعضُهم كان شُجاعًا. سألتُه: «تعرفُ هٰذه اليد لمن؟». «لا تسألني عن هٰذه، فما يُدريني... صاحَ وهو يتفحّص الرّؤوس: «آه، هٰذا رأسُ أختي». وكادَ يُغمَىٰ عليه، عرفَها من الحلق الذي في أُذنها.

ليسَ لهم أسماء. أحسنُ ما استطعْنا أنْ نفعله، هو أنْ يدلّنا أحدُهم علىٰ اسم العائلة الّتي انهدّتِ العِمارة علىٰ رؤوسهم، كانوا يقولون: هٰؤلاء بيت النّعامنة مثلاً. صرنا نكتبُ على الجثث الّتي نُخرِجها من هناك: «الشّهيد نعامنة ١، الشّهيدة نعامنة ٢...». وهٰكذا وما أحدٌ يدري إنْ كُنّا قدْ فَعَلْنا الصّواب أم لا.

لا يُمكن أنْ تُخرجَ الجثث كلّها، ولا أنْ تنقذ الأرواح كلّها. إنّ موتًا كهٰذا لا يُمكن أنْ تستخلص من بين أظافره الأرواح الّتي هيّأها للازدِراد. أصعبُ شيءٍ هو أنْ تسمعَ صوتًا خافِتًا أو أنينًا قادِمًا من تحتِ الأرض

ولا تقدر أنْ تصنع له شيئًا. نحن لا نملك جرّافات ولا مُعدّات، كلّ ما نملك بعض المطارق والأزاميل والأدوات البسيطة. تَخيَّلْ أنَّكَ شاهِدٌ علىٰ جريح بينه وبين الموتِ خُطوة لو كان الظّرف مُواتِيًا لحميتَه من الموت، ولٰكنّك لا تقدر فيموت أمامك، وتسمع صوته يخفتُ تدريجيًّا حتّىٰ يتوقفّ تمامًا! لقد تركْنا تحت الرّكام نصف الجثث دون أنْ نقدر على انتشالها؛ ليسامِحْنا الله علىٰ هٰذه الجريمة!

(سلام) صَوّرتْ كلّ شيءٍ، لم تكتفِ بذٰلك، فالتّصوير لا يأخذُ وقتًا طويلاً، كانتْ تُساعِدُنا في رفع الجُثث إلى السّيّارات، وكانتْ تحمل معنا النّقّالات، ورأيتُها قوّية في إخفاء مشاعرها، لم يكنْ يظهر علىٰ وجهها ما يدلّ علىٰ ما في قلبها أو أحاسيسها، لا أدري، هل هي قُوّة حقيقيّة، أم أنّها تتظاهر بذٰلك، أم أنّها تعُدّ ذٰلك ضعفًا، ولا تريدُني أنْ أراها فيه؟! ظلّتْ تركضُ بالجثث مع المُسعفين، وتُصبّر الثّاكلين، حتّىٰ رأت امراةً تحتضنُ ابنَها وهي تلفّ عليه ذراعَيها وتدفن رأسَه في صدرها وتبكي بكاءً مريرًا، فجثتْ هي علىٰ رُكبَتَيها، واحتضنتْ جُثّة إلىٰ جوارها، وانخرطتْ في بكاءٍ شديد!



(٢٤) مَهَمّة انتحاريّة!

لا أنام إلاّ ساعةً أو اثنتَين. بيتي قُصِفَ مرّتَين. آوي إلى البلاطِ الّذي تحتَ الدّرج الموجود في ناحية البهو، أضع تحتي حِرامًا، وفوقي آخر، وأحاول النّوم. أعتمد على أنّ شِدّة التّعب الّتي تُرافقني طَوال اليوم واللّيل هي الّتي ستجعلني أنام سريعًا. غيرَ أنّ هٰذا التّعب - الّذي لو حمَلَه جبلٌ لانهدّ - أضعفُ بكثيرٍ من قوّة الذّكرى الّتي تظلّ شوكًا في جنبَيّ، ومسامير في عقلي تمنعني من النّوم. صُور الرّاحلين، صُور الأشلاء، العيون المملوءة رُعبًا، المناظر الّتي تقطر وجعًا. الضّحايا الّذين أسعفْتُهم أو أولئك الّذين لم أتمكّن من إسعافهم.

فكّرْتُ - بما أنّني لا أقدر على النّوم مع حاجتي الشّديدة له - أنْ أقومَ فأخرجَ إلى السّور، أتسلّقه، وعلى ضوء الصّواريخ الّتي تبدو شُهُبًا في السّماء، أكتبُ صفحاتٍ جديدةً في قِصّتي هٰذه أو في يوميّاتي. حاولتُ النّهوضَ بالفِعل، لٰكنّ قدَمَيَّ لم تحمِلاني، فبقيتُ مُضطجعًا. عاودَني طيفُ (سلام)، فكّرْتُ في هٰذه المرأة الّتي دخلتْ حياتي. إنّها عذبةٌ بالفِعل، وفيها أُنسٌ عادَ بعدَ غيابٍ قسريٍّ طويل. وإنّ فيها مَلاحة القول، وسلامة القلب، وهتفتُ بصوتٍ خجلتُ أنْ تسمعه (رجاء): «هل يُمكن أنْ تسير معي ما تبقّى من دروب؟! إنّها...». ولمْ أشأ أنْ أُكمِل، فجاءني صوتُها، أعني صوتَ (رجاء): «إنّها قادرة على ذٰلك». ونفضتُ رأسي. وسمعتُ صوتًا آخر، لا أدري إنْ كانَ صوتَ (بَسّام)،

أو صوتَ (زكريّا)، زكريّا ذلك الطّفل الّذي لم يعدْ له أهل، فجعل من المستشفى أهلاً له، صارَ يُرافقنا نحن المُسعِفين والأطبّاء ويتعلّم منّا، وصار قادِرًا على أنْ يعطي المرضى الإبر اللاّزمة، وصارَ يُميّز بين أنواعها، ويعرفُ كذلك أسماء المحاليل، ولأيّة حالاتٍ تُعطَى ومتى؟ ومع شُحّ أفراد الطّواقم الطّبّيّة، واستشهادِ عددٍ مِنّا، وكثرةِ أعداد المُصابين الّتي تحتاج في مقابلها عددًا جديدًا من المُسعفين، صار واحِدًا مِنّا، بل إنّنا تمنَّيْنا أنْ يكون هناك زكريّاؤون آخرون مثله، المهمّ لا أدري إنْ كنتُ قد سمعتُ صوتَه في هذياني هذا، صوتُه لا يُمكن أنْ تُخطِئه، إنّه صوتٌ فيه بحّةٌ تميلُ إلى الخشونة لكنّها رخيمة، وهي ذات طبقة تشعرُ بأنّها تُريحك، أو كأنّها يدٌ دافِئة تمسح على قلبك، نعم، على الأرجح صوتُه، هتفَ: «إذا أردْتَها رفيقةً لدربك، فأنا أريدُ أنْ أكونَ ابنَك». وضحِكتُ في سِرّي.

منذُ أنْ تزوّجْتُ (رجاء) عام ١٩٩٨م وأنا أحلمُ بأنْ تكون لي عائلة. هل يُمكن أنْ تكونَ الأحلام قابلةً للتّحقيق في زمن الحرب؟ مَنْ يدري. غيرَ أنّها إذا لم تتحقّق أوان السّلم والزّمانُ أبيض، فكيفَ تتحقّق اليوم والحربُ زمانُها أغبرُ دائِمًا؟ لا بُدّ أنّني أهذي.

وتقلّبْتُ على جانِبَيّ غير مرّة، والصُّور تُلّح على خيالي، وأنا أُحاول أنْ أطردها، وظلّ الأمر بيني وبينَها كَرًّا وفرًّا، حتّى انتصر التّعبُ عليها، فاستسلَمْتُ للنّوم. ثُمّ كيفَ يُمكن أنْ تنام والحربُ قائِمة؟! وليتَها حربُ الصّواريخ الملعونة فقط، إنّها حربٌ على الأصعدة كلّها، حربٌ مع الذّكريات، حربٌ مع الأيّام الجميلة، حربٌ مع الجوع، حربٌ مع الرّاحة، حربٌ مع الماء، حربٌ مع العجز الّذي تقع فيه وأنتَ تحاول إنقاذ هؤلاء

جميعًا ولكنّك لا تستطيع؛ ليتَ الحربَ في غزّة كانتْ حربًا واحِدة ولو كانتْ بالقنابل النّوويّة، لكانتْ أهونَ من هذه الحرب الّتي لها ألفُ وجهٍ قبيحٍ ووجه!

لا أدري كمْ مرّ علَيّ من الوقتِ بعدَ أنْ نمت، لكنّها بالتّأكيد ليستْ أكثرَ من ساعةٍ أو ساعتَين، حينَ أيقظني (بسّام): «فرج... هَيّا... يا فرج علينا أنْ نخرج». وكنُتُ أظنّ أنّني أحلم، وكدتُ أشتمُ طيفَ (بسّام) صديقي اللّدود هذا لولا أنّني سمعتُ صوتَ الزّعّاقات، وهتفتُ: «لعنةُ الله على الحرب... لعنةُ الله على...» ولم أُتِمّ لعنتي الثّانية، لأنّني تذكّرتُ أنّني لعنتُها قبلَ هذه المرّة كثيرًا، ولم تُغيّرْ لعناتي من الواقع شيئًا. وجاءَني صوتُه مرّة أخرى وهو يُعطيني ظهره راكِضًا في البهو باتّجاه الظّلام: «هَيّا يا فرج... علينا أنْ ننطلقَ بسرعة». وهممْتُ بأنْ أظلّ نائِمًا، وألا أتحرّك من مكاني، فليذْهبْ إلى منطقة الانفِجار غيري، لِماذا عَلَيّ دائِمًا أنْ أذهب أنا. ليذهبْ ابني زكريّا بدلاً منّي، وضحِكتُ... ما أسرعَ ما يُصدِّقُ المرء الأوهام في زمن الحرب! صارَ زكريّا ابني في لحظةِ هذيان عابرة.

واضطجعْتُ على جانبي الأيمن مُعطِيًا للبهو ظهري، ووجهي للحائط الّذي تحتَ الدّرج، وعزمتُ على ألاّ أستجيب، وتناهَتْ إلى مسامعي أصواتُ الانفِجارات، ثُمّ كَبُرَتْ وكَبُرتْ حتّى شعرتُ أنّها تحدثُ داخل مستشفى الشّفاء، وحينَها لم يكنْ لدَيّ خيار، وهمستُ لنفسي وأنا أفزّ من تحتِ الدّرج: «هل قصفوا المستشسفى؟!». وهُرِعتُ إلى نداء الواجب، وسمعتُ النّاس المُتراكِضين يقولون: «لقد قصفوا منازل أبو حصيرة». ووضعتُ يدي على فمي حتّى لا تندّ منّي صرخةٌ عالية، أعرفُ بعضَ دار أبو حصيرة من زمان، وأعرفُ أنّهم يسكنون في محيط المستشفى،

وكان هٰذا كافِيًا لتصوير الرّعب الّذي أصابَنا من أصوات الانفجارات الّتي كانتْ تبدو كأنّها فوقَ رؤوسنا، ولهيبُ نيرانها يُضيءُ جنَبات المُستشفىٰ المُعتِمة.

خرجْتُ بالسّيّارة، حينَ اقتربْنا من المُجمَّع السّكنيّ الّذي لا يبعدُ كثيرًا شعرتُ بلفحةِ نارٍ كأنّها تهبّ على السّيّارة فتحرقها وتحرقُ مَنْ فيها، وضوءٌ أحمرُ يملأ المكان. وصاحَ السّائق بصوتٍ عالٍ: «إنّهم ما زالوا يقصفون المكان». وتوقّفت السّيّارة الّتي أمامه، واشتعلتْ فيها النّيران، ونزلْنا فأنقذْنا مَنْ كان فيها، ووضعْناهم في سيّارتنا، وعُدْنا بهم إلىٰ المُستشفىٰ. وتلقّاني (بسّام): «هل هٰؤلاء جرحىٰ أمْ شُهداء؟». «إنّهم من طواقمنا». وسأل مُستغرِبًا: «مِنْ طواقمنا؟ فأينَ جرحىٰ منطقة أبو حصيرة والمُصابون؟». «لم نستطعِ الوصول إلىٰ مُربّعهم السّكنيّ، كانوا لا يزالون يُلقون عليها وابِلاً من القذائف». ونظرَ (بَسّام) حوله ورفَعَ رأسَه وأرهفَ أُذنَيه، وهتف: «لقد توقّفَ القصف. اسمع. لا يُوجَد صوتُ طائِرات، ولا بُدّ أنّهم الآن بحاجةٍ شديدةٍ لنا، عُدْ إلىٰ هناك ومعك كلّ السّيّارات الموجودة في المستشفىٰ». ونظرتُ في عينَيه، ورفعتُ إصبعي مشيرًا إلىٰ أعلىٰ، وقلت: «ألا تسمع؟». ورَدّ: «هٰذا صوتُ الزّنّانات، إنّه ليسَ مُخيفًا». وصرختُ: «ليسَ مُخِيفًا؟!». «وحاول تهدئتي: «أعني ليسَ مُخيفًا كثيرًا». «إنّها طائرات مُوجّهة، تقتل أكثر من الدّبّابات والرّاجمات». «أعرف يا صديقي، والله أعرف، ماذا نفعل؟ نتركهم للموت؟ أنتَ تُدرك أنّ مهمّتنا هي مهمّة انتحاريّة، نحنُ استشهاديّون من أوّل يوم في الحرب. هَيّا عُدْ إلىٰ هناك، وكُنْ بطلاً». وتوقّف قليلاً قبل أنْ يُردِف بشيءٍ من اللُّطف والوُدّ: «بالمناسبة سألتْني عنكَ (سَلام)، قلتُ لها إنّكَ خرجْتَ، وبِما أنّكَ

عُدْت، فيُمكن أنْ تخرج معك، إنّ وجودَها إلىٰ جانبك يمنحك شجاعةً مُضاعفة، أليسَ كذٰلك؟». ولم ينتظر إجابتي علىٰ سؤاله، أو أنْ أقول شيئًا، ونادَىٰ علىٰ (سلام): «يا سلام لقد عادَ فرج، لقد أصرّ ألاّ يذهبَ من دونك».

كان المُربّع السّكنيّ قد أُبيدَ بالكامل، وما صَمَد من الجُدران، وهي قليلةٌ طبَعتْ عليها القاذفات قُبَلاتٍ شديدةً أدّتْ إلىٰ أنْ تثقبها وتخرج من الجهة الأخرىٰ.

كانتِ السّيّارات قد عُجِنَتْ تحتَ أثقال الباطون والحديد الّذي انهارَ فوقَها، وتلوّنتْ بلون الغُبار الرّماديّ الّذي تكاثفَ فوقَها طبقات. كان الصّمْتُ المُخيّم على المكان مُريبًا. وباستثناء أصواتِنا الّتي تضيعُ وسطَ هٰذا الدّمار فتبدو أنّكَ تقولها في بِئر واسعةٍ عميقة، وأصواتِ طقطقةِ بعض الخشب جراء الاحتِراق من نيران صغيرة، باستثناء هٰذين فإنّ المكان كان هادِئًا هدوءًا غريبًا، ولا أريدُ أنْ أقول خلابًا!

أبٌ جالِسٌ على الرُّكام كان يحملُ ابنته الشّهيدة بينَ يدَيه ويُهدهِدُها، كيفَ تتفاوت درجات المأساة، كانتْ زوجته إلىٰ جانبه قد أسكنَ الموتُ حركتَها، كان يقول وهو يحمل الطّفلة: «انتظرناها عشرين عامًا.... هٰذه ابنتي فرح...». ويرفعها وسطَ الدُّخان المتحرّك فيُضبّب صورتَه فيبدو كأنّه قادِمٌ من السّماء، ويتابع: «انتظرناها يا عالَم عشرين سنة أنا وأمّها من أجل أنْ تملأ حياتنا فرحًا... لماذا قتلتموها وتركتموني... لماذا لم تقتلوني معها؟!».

على النّقّالة نجحْنا بإخراجِ طفلَين شقيقَين أحياء، وضعْناهما في

إحدىٰ سّيارات الإسعاف، في المسافة الّتي عبرناها إلى السّيّارة كان الشّقيقُ الكبير الّذي يبدو في السّادسة يُطمئِن أخاه المُرتجف ذا الأربع سنوات، وقد لَفَفْنا علىٰ رأسه شاشًا من أجل أنْ يتوقّف النّزيف، كان الصّغير يرفع ذراعَيه النّحيلتَين المُجرّحتَين ويُديرهما أمام ناظِرَي أخيه الّذي لا يكادُ يرىٰ بسبب تورّم عينَيه ودخول الرّماد فيهما، كأنّه يريدُ أنْ يقول له: «انظرْ يا أخي ما حلّ بي؟ انظرْ إلىٰ ذارعَيّ. انظر إلىٰ باطن كفّي المُدَمّىٰ، انظر إلىٰ هٰذا اللّون الأحمر الّذي يسيل علىٰ وجهي». ومسَحَ أخوه الدّمَ عن وجهه، وحاول أنْ يحتضنه، لٰكنّ إصابته منعتْه، فهمسَ بصوتٍ يفيض حنانًا: «معلش.. متقلقش... هسا الأطبّاء بعالجوك». ثُمّ جاهدَ أنْ يحتضنه ونجح، وبدا رأساهما المُتعانِقان كأنّهما حمامتان رماديّتان قد تناثرَ بعضُ ريشِهما.

انتشلنا من المُربّع المنكوب واحدةً وعشرين جُثّة، كان أكثرُهم أطفالاً ونساءً، وأسعفْنا عَشَرات الجرحىٰ، وبقيتْ تحتَ الرّدم جثامين لا ندري كم عددها، ولا كيفَ يُمكن إخراجُها. ولو أنّ الرّدم كانَ ترابًا أو رمادًا ودُفِنوا تحته بشكلٍ كامل فرحمة الله تغشاهم، ولٰكنّ المصيبة ستحلّ إذا كانوا في فراغات أو في غرفٍ تحتَ الأرض لم يطلْها الرّدم، فإنّ جُثَثَهم ستبدأ بالتّحلّل، وستكون كارثةً على المستوى الصّحّي. ليسَتْ هٰذه أوّل جثث تبقىٰ، والرّوائح بدأت تغزو شمَال القِطاع بأكمله، ولو أنّه الموتُ فالكفن فالقبر، فهو أمرٌ هيّن، والتّراب ضامِن، ولٰكنّ الطّاعون علىٰ هٰذا لن يكونَ بعيدًا، والأمراض في زمن الحرب يُصبحُ لها جسدٌ ورأسٌ وأقدام وأرجُل، وتقوىٰ أقدامها حتّىٰ تجري في كلّ مكان، وتخبطُ فوقَ رؤوسنا جميعًا.

كان الضُّحىٰ قد ارتفعَ عندما عُدنا إلى المستشفىٰ. أنْ تواصل اللّيالي بالنّهارات مع الموت فإنّ الأمر فوق الاحتِمال. نحنُ لا نرىٰ إلاّ غرابًا يطير يلحقُه غراب، وسَماء تسودّ خلفَ سَماء؛ أيُّ قدرٍ هٰذا؟!

سألتُ سلام: «كل خليّة في دمي نافرةٌ إلىٰ عِرق يتبعثر في كلّ جارحةٍ منّي، لقد فقدتُ تركيزي». «وما الّذي يُعيد لها تركيزها؟!». «أشياء كثيرة، أنتِ أدرىٰ». «النّظرة الودودةُ الصّادقة». «أريدُ قهوةً يا سلام... أريدُ قهوة».



(٢٥) ابنُ عَمّ الحُزن

هُنا. عليكَ أنْ تجُسّ هنا. ارفع كُمّ القميص، واكشِفْ عن السّاعد، إذا كان الكُمّ ضيّقًا، يُمكنكَ أنْ تقصّه. أحْكِمْ شَدّ هٰذا الرّباط على العضد جيّدًا حتّىٰ ينفر العِرق الّذي في السّاعد، ثُمّ جُسّه مرّة أخرىٰ، تأكّدْ أنّه العِرق الصّحيح، ثُمّ اسحب بالإبرة في المِحقن، ثُمّ انقرِ المِحقنَ مرّةً أو اثنتَين، الإبرة صارتْ جاهِزة، الآن يُمكنكَ أنْ تُعطِيَها للمريض.

لم يكنْ (زكريّا) الطّفل الّذي صار طبيبًا ماهِرًا وهو ابن اثنتي عشرة سنةً يحتاج إلىٰ أنْ يسمع إرشاداتِنا أكثر من مرّة، إنّه يحفظُ الخطوات من المرّة الأولىٰ، ويقوم بتطبيقها كما لو كان طبيبًا مُحترفًا مرّت عليه عقودٌ في هٰذه المِهنة. «أنتَ ابني منذُ اليوم» همستُ له وأنا أُحيط كتفَيه بذراعي، ردّ بابتِسامة ولم يقلْ شيئًا.

بعينَين واسِعتَين وإنّ كان الحُزنُ فيهما مُعتّقًا، وبوجه طفوليّ كبّرَتْه الحربُ سريعًا، وبِشَعرٍ أسودَ كثيفٍ كأنّه قُبّعة فوقَ رأسِه، تتدلّىٰ خصلةٌ منه وسطَ الجبهة، وبإصابةٍ في عينِه اليُمنىٰ لا تزال ظاهرةَ الخدوش والزُّرقة لٰكنّها لم تُؤثّر على اتّساعها، وبجرحٍ عند عارِضه الأيسر قريبًا من جبهته بآثارِ خُيوطٍ جراحيّة بادِيةً، وببسمةٍ صافِية كلّما اتّسعتْ ضاقتْ عيناه، بهٰذا كُلّه كان يدور من سريرٍ إلىٰ سريرٍ ومن طبيبٍ إلىٰ آخر، يملأ أكياسَ الجلوكوز، ويُسيل في الأنابيب محلولَها، ويُقدّم الأدوية، وينشر التّفاؤل، كان (زكريّا) لا يهدأ.

يُمازحونه: «إيش يا زيكو؟!»، فيردّ بابتِسامة، ويُسمِع كلّ جريحٍ أمنيات الشّفاء، وانتِهاء الحرب، والعودة إلى البيوت، وأكلِ رغيفٍ ساخن، وشُربِ ماءٍ نظيف. ومع أنّ أمنياتِه لمرضاه تبدو مُستحيلةَ التّحقيق إلاّ أنّها تبعث الدّفْء في قلوبهم. والحديثُ عن الورد يستجلبُ الشّذىٰ، والكلمة الطّيّبة حين يكون الدّواء شحيحًا أو نادِرًا هي الأقدر علىٰ تخفيف الوجع، أو تأجيله، أو حتّىٰ تَناسيه.

كان يدفع السّرير الّذي يتحرّك علىٰ عجلاته الأربع، وفوقه الجريح، وهو خارجٌ به إلى البهو عبر الممرّ الّذي يقودُ إلى الباب، حتّىٰ يصل إلىٰ سيّارة الإسعاف، يفتحُ بابَها الخلفيّ، ويضغطُ بيدَيه الصّغيرتين القوّيتَين علىٰ طرف السّرير إلى الأسفل، ليرتفع من الجهة الثّانية حيثُ باب الإسعاف، ثُمّ يدفعه معتمدًا علىٰ ساعِدَيه وعلىٰ كُتلته الجسمانيّة ليستقر السّرير في قلبِ السّيّارة، ثُمَّ يعودُ إلىٰ إغلاق الباب، ويهتف بالسّائق: «هَيّا... إلى المستشفى الإندونيسيّ».

صار يعرفُ دون أنْ يرجع إلينا، ما إذا كانتْ هٰذه الإصابة تحتاجُ إلىٰ غرفة الأشّعة، أو إلىٰ غرفة الطّوارِئ، أو إلىٰ غرفة العمليّات، وكانَ يتصرّف كما لو كان طبيبًا خبيرًا، وسألتُه: «ما عدد الإبر الّتي أعطيتَها اليوم للجرحىٰ؟!». فيحكّ ذقنه بطرفِ أصابعه، ويصمت برهةً قبل أنْ يُجيب: «تقريبًا خمسين إبرة». «أووه... هٰذا عددٌ كبير». «ربّما أكثر من ذٰلك. ماذا يا فرج، ألا ترىٰ بعينَيك أعداد المُصابين الّذين يدخلون بالمِئات في كلّ ساعة». وأبتسمُ قبل أنْ أهتف، وأنا أَغمِزه: «إنّكَ تعمل بطاقة ثلاثة أطبّاء يا زكريّا». فيردّ عَلَيّ مُستعرِضًا جِسمه: «لا يغرّك قِصر قامتي ولا صِغَر سِنّي، فإنّ ساعِدَيّ قويّان». «وما نوع الإبر الّتي أعطيتَها؟».

«أعطيتُ إبر المورفين، وإبر الإنسولين وإبر المحاليل المُغذّية». «حَقًّا. لم يبقَ إلاّ أنْ تُعطِي إبرة الهيبارين!!». «في غُرَف العمليّات عرفتُ لماذا يُعطونها. ولكنّها لم تعدْ موجودة. ربّما سنستخدم بديلاً لها». «لكن... كيفَ تعرفُ كلّ ذلك؟». «سَهْلة، رافقتُ الأطبّاء في الغرف كلّها، وحفظتُ أسماء الأدوية والحالات وأنواع العلاجات». «منذُ متى وأنتَ هنا؟». «لا أدري». «لا تدري». «أستطيع أنْ أقول منذُ فقدتُ أهلي». «فقدْتَهم؟». «جميعًا». «لم يتبقّ منهم أحدٌ؟». «هنا؟ لا... لي عمّة في الجنوب، لكنْ لا أدري أينَ تعيش؟!». «وأبوك؟». «مات في الأيّام الأولى للحرب». «أنا أبوك». وابتسمَ من جديدٍ، وتركني ليُكمِلَ مهمّاته.

نحنُ سطورٌ في حكاية، الحكاية الأوجع منذُ الحرب العالميّة الأوّلى. منذُ أنْ قرّر الإنسان أنْ يوقِظَ الغُول النّائِمَ في أعماقه. إنّ الظُّلم الّذي مُورِسَ ضِدّنا لا يُمحى، وإنّ ذاكرة الدّم والنّزيف لن يتعافَى منها صِغارُنا ولا كبارُنا حتّى لو مرّ على ذلك مئة سنة. ولكنّنا الحَقّ الّذي لا يُنسَى، والوجود الّذي لا يزول، حتّى لو زالتِ الشّمس، نحنُ تاريخٌ من الكبرياء والوجع.

نحنُ قصصٌ لو كان مِدادُها ماءَ البحر، ودفاترها أوراقَ الشّجر لما انتهتْ. كلّ سطرٍ إذا قُلناه خَبَّأ خلفَه - لا أقولُ آلافَ السُّطور - بل ملحمةً من البطولة والألم. نحنُ (سماح) الّتي اشترتْ فُستان عُرسِها فكُفِّنتْ فيه، كأنّ روحَها تقول: العُرسُ الحقيقيّ لا يكونُ إلاّ في السّماء أمّا العرس الّذي على الأرض فهو مأتم. نحنُ الأمّ الّتي دُفِنَ أبناؤها الثّلاثة أمام عينَيها تحتَ الرّكام، ولم يُؤثّرْ فيها موتُهم بقدْر ما أثّر فيها رحيلُهم وهم جوعى. نحنُ لسنا دموعًا كاذبة في عيون الزّعماء الّذين يتباكون علينا وما دموعهم

إلاّ دموع التّماسيح. نحنُ اللّحمُ المعجون من خمسمئة شهيدٍ في مجازر مخيّم الشّاطئ، اتّحدتْ أجسادُهم لتختلطَ بتراب الأرض، واتّحدتْ أرواحهم لتُضيءَ قناديل العرش. نحنُ (أحمد) و(رهف) و(كمان) و(قيس) الّذين صَلّىٰ عليه أبوهم صلاتَه الأخيرة، وتمنّىٰ لو أنّ صاروخًا يضمّه إليهم بعدَ أنْ يُنهي صلاته. نحن (عاطف) و(كمال) و(سُجُود) الّذين أوهمهم الاحتِلال بالمسير إلى المنطقة الآمنة، فلمّا ساروا إليها نُسِفوا قبل أنْ يُتِمّوا الطّريق، فأمّا أجسادهم فسقطتْ باتّجاه الأرض الّتي لا أمان فيها، وأمّا أرواحهم فحلّقتْ نحو السّماء حيثُ الأمان الحقيقيّ.

نحن الدّم الّذي صارَ ماءً، بعدَ أنْ قصفتْ إسرائيل خزّانات الماء الّتي تُغذّي أحياءً بأكملها. نحن نشربُ دماءَنا ولا نعطش، ونمضغُ لحومَ أجسادِنا ولا نجوع. نحنُ بُكاءُ الطّفل علىٰ أمّه الّتي لفظتْ أنفاسَها بين يديه، وظلّ مُتشبّثًا بحضنها لأنّه لا يريدُ أنْ يُصدّق أنّها غادرتْ هٰذه الحياة الغادرة. نحنُ حلمُ الفتىٰ إذا مرّ بخياله الغد، رآه شمسًا تغربُ في بحر غزّة، وتسقطُ خلفَ المياه البعيدة ولا تُشرِق من جديد. نحنُ صمتُ البحر وهديره معًا، وسُكون الرّيح وعاصفتها في آن، وغموضُ الغمام ووضوحه، ونوحُ الحَمام وغناؤه، وبردُ النّدىٰ ودموعه، نحنُ قافيةٌ في قصيدة النّصر، وأوّل آيةٍ في سورة الفَتح.

عُدتُ لألتقي (سلام). صرتُ أشتاقُ بالفعل أنْ أراها. كانتْ (سَلام) صورة المرأة الّتي فقدتْ كلّ شيءٍ مثلي وما زالتْ تحلم، وما زالتْ تتشبّث بالأمل. لٰكنّ الأمل نفسَه مُحرَّمٌ عليه أنْ يدخل غزّة، ولا أنْ يعيشَ فيها ولو يومًا واحِدًا. كانتْ (سلام) هادِئة النّبرات، وجهها أقربُ إلى الاستدارة، بخَدّينْ مُمتلِئين كأنّهما تُفّاحتان صغيرتان،

وعينَين تميلان إلى السّعة ليستا سوادوَين تمامًا ولا عسليّتَين، غيرَ أنّ الشمس إذا طبعتْ نورَها عليهما كانتا عسليّتَين، وإذا غربتْ كانتا سوداوَين. وكانت لا طويلة ولا قصيرة كسُعاد كعب، وكانتْ تلبسُ حجابًا تضعه علىٰ رأسِها فيعكسُ لونُه لونَ وجهها، وأكثر لونٍ كانتْ تلبسه الأبيضُ والأزرق، فإنْ كان الأبيض بدا وجهها أقربَ إلىٰ وجه ملاك ورأيتَ فيه صورةَ الغيم الّذي لا تكادُ تستقرّ عينُكَ عليه حتّىٰ يرحل، وإنْ كان الأزرق رأيتَ فيه زُرقة بحر غَزّة؛ تُحبّه ولٰكنّك تخشىٰ أنْ تغرقَ فيه! وكان صوتُها ذا شَجَن، لا أدري كيفَ أصفُه، هل سمعتَ وشوشة الجدول إذا مرّ على الحصىٰ، هو ذاك. وفيه أمانٌ ودفء. وحنانٌ شفيف. ولا أدري كيفَ يكون للصّوت هٰذه القُدرة، ولا أدري كذٰلك إنْ كان جُوعي إلىٰ أنيسٍ زَيَّن لي صوتَها علىٰ هٰذا النّحو! وكانتْ تلبسُ معطفًا لونه (بيج) فيه نعومة رمل البحر، ورِقّة لون الصّحراء. وكان أنفُها مستقيمًا، وأرنبتُه مستديرة. وكانتْ إذا مشت مشتِ الهُوينىٰ لأنّ الحياة كانتْ كما تقول لا تستحقّ العَجَلة، وأنّ كلّ أمرٍ فيها يُمكن إداركُه بالتّريُّث على الوجه الأفضل.. أمّا لِماذا أشتاقُ إليها؟! فلا أستطيعُ أنْ أفسّر ذٰلك، لٰكنّني أرىٰ أنّ الرّجل مهما بلغتْ درجة اعتِدادِه بنفسِه، واعتِقاده بالاكتِفاء بذاته، فإنّه يبقىٰ محتاجًا إلى الأنثىٰ، وإذا ملأتْ هٰذه الأنثىٰ آبار الوجد الّتي عانَىٰ منها عبرَ حُزنه المُتجدّد، وعزلته الاختياريّة الطّويلة، فإنّها تُصبِحُ أملَه في أنْ يجد ما كان مفقودًا منه!

وماذا في الغيب يا (سلام)، لِمَ يجيءُ الحُبّ في الحرب، لِمَ يتعتّق حينَ يشتدّ أُوراها؟! ألأنّه نجاةُ كلِّ واحدٍ بصاحبه، أو فراره إليه، أم لأنّ الفرق بينهما حرفٌ لا ينطقه الألثغ، فلو سقطَ لكانا شيئًا واحِدًا؟!

وها أنا أكتبُ لكِ هٰذا وأنا أُسوّد صفحاتي هٰذه الأيّام في هٰذا الدّفتر الّذي أحتضنُه عند النّوم، وأتأمّل وجهكِ النّبويّ الّذي يُمكن أنْ يُعوّضني عن كثيرٍ مِمّا فقدْتُه وأفقدُه في هٰذا الزّمن المريض، المُخيف، الّذي تعصفُ بنا رِيحه السّموم فتُلقينا في كلّ مهمهٍ وهاوية. وماذا عنكِ؟ هل يُمكن أنْ تجدي لدَيّ أمانَكِ أنتِ أيضًا؟ كيفَ يكونُ الأمان في زمن الحرب؟ كيفَ نبحثُ عنه في ذواتنا أو ذوات الآخرين الضّعيفة؟! وأمام آلة الموت الجَبّارة ماذا يُمكن أنْ يصنع جسدُ الإنسان الّذي خُلِقَ ضعيفًا؟!

يا (سلام) انقطعت الكهرباء عن بيوت شمال غَزّة. نحنُ في المستشفىٰ نُشغّل المُولِّدات، ولٰكنّ المُولّدات بعدَ بضعة أيّام لن نجدَ لها وقودًا، صار الوقود كالماء شحيحًا. قُلْنا نلجأ إلىٰ هبة الله الّتي أرسلَها للبشر جميعًا منذُ أوّل بشريٍّ دَبّ علىٰ وجه الأرض، الشّمس الّتي قالوا عنها: إنّ ما أشرقتْ عليه الشّمس يتّسع لجميع ما خلقَ الله، ولٰكنّهم قصفوا ألواح الطّاقة الشّمسيّة، وغرقْنا في الظّلام من جديد.

السّيّارات صارتْ تعرُج. ليسَ هناك لا بنزين ولا سولار ولا كاز. صار الغزّاويّون يضعون في خزّاناتها (السّيرج)، صارتْ تمشي وتسعل، ثُمّ لم تعدْ تحتمل أكثر. بعضُ الأطبّاء، أعني رؤساء الأقسام فيما مضىٰ، ومدراء المستشفيات صاروا يستخدمون الدّرّاجات، أعرفُ أحدهم يسكنُ في مخيّم البريج، ويأتي إلىٰ مستشفى الشّفاء علىٰ درّاجته الهوائيّة، وحالة درّاجته أسوأ بكثيرٍ من حالة درّاجتي الّتي لا أدري إذا ما كانتْ تعمل في الخدمة حتّى الآن في مكانٍ ما من هٰذه المدينة المنكوبة!

إنّ في عينَيك حُزن الغروب، الغروب الّذي تنطبعُ أشّعته الرخيّة علىٰ مرآة البحر أوانَ النّسائم العليلة، لكنّني أحبّ هٰذا الحُزنَ الّذي في عينَيك، أشعرُ أنّه ابنُ عَمّ الحُزن الّذي في عينَيّ. متىٰ سنلتقي؟!



(٢٦) سَقَطَ على رأسي!

لماذا لا يعود الشّهداء من الجنّة يومًا واحِدًا إلى الدّنيا، لا بل ساعةً، لا نريدُ أكثرَ من ذٰلك؛ ليُخبرونا بما رأوا بعدَ أنْ عبروا هٰذه البوّابة، لعلّنا نصبر علىٰ ما لا طاقة لنا به، ولعلّنا نجدُ لموتنا معنىً بعد أنْ يئسنا من أنْ يكون هناك معنىً لأيّ شيءٍ في وطنٍ تنزفُ شرايينه دون توقُّف!

ارتفعتِ الأسعار في غزّة بشكلٍ جنونيّ. تضاعفتْ في البداية ضعفًا واحدًا، ثُمّ اثنين، ثُمّ ثلاثة، ثُمّ ركضتْ حتّىٰ وصلتْ إلىٰ عشرةِ أضعاف. كأنّ ألفَ مصيبةٍ تحلّ بنا لم يكنْ ينقصُها إلاّ ارتِفاعُ الأسعار. نحنُ لا نشتري إلاّ ما يجعل هٰذا الجسد قادِرًا علىٰ أنْ يتنفّس، وليتنا نقدر. نحنُ لا نشتري لا الحلويّات ولا اللّحم ولا حتّى الأرزّ، لأنّها تكاد تُفقَد، وإذا وُجِدَتْ فلا يقدر علىٰ ثمنها إلاّ الأمراء. وهبْ أنّ هناك أمراء في غَزّة، فإنّ أضخم جيبةٍ يتكدّس المال في خَزْنتها، لن تحتمل أكثر من شهرٍ حتّىٰ تؤولَ إلى الإفلاس!

حبّة البيض صارتْ بعشرة شيكلات بعدَ أنْ كُنتَ تشتري طبق البيض كامِلاً بهٰذا الرّقم أو قريبًا منه. سنستغني عن اللّحم بالطّبع، وعن الأرزّ وعن كثيرٍ مِمّا نأكل، ولٰكنْ ماذا عن الطّحين؟! إنّنا لا نجدُه. الطّحين من أجل أنْ نخبز، ولا نريدُ أنْ نأكل مع الخبز شيئًا آخر. لم تعدْ حتّىٰ مقولة المسيح في أبرز مظاهر الزُّهد موجودةً في غَزّة حين قال: «خُبزُنا كفافُنا». لم نجد كفافَنا لا في الخبز ولا في أقلّ منه في علف الحَيَوانات؛

في الشّعير وفي التّبن! (سلام) الّتي كانتْ قادرةً علىٰ شرائه لم تعدْ كذٰلك، وإنِ امتلكنْا المال أو استطعْنا تدبيره فإنّ الطّحين نفسه صارَ شبحًا سريعَ الخُطا كثير الغياب نُطارده ولا نكاد نُمسِكُ به.

في ساحات مستشفى الشّفاء، المُستشفىٰ مكوّنة من عدّة مستشفيات كما قلتُ من قبل، ولها ساحاتٌ متعدّدة، أضطرّ أحيانًا إلى التجوّل فيها من أجل جلبِ الجرحىٰ، أو من أجل حالات طارئة. هٰذه السّاحات مليئة بالنّازحين، في محيط هٰذا المُستشفىٰ أكثر من ألف نازح خرجوا من دورهم المُهَدّمة وأقاموا هُنا خِيَمهم، مَنْ كان غنيًّا منهم استطاع أنْ يشتريَ خيمة، ومَنْ لم يكنْ فإنّه حَوّل الأكفان البيضاء الّتي جاءتْ لنا من الدّول العربيّة علىٰ هيئة مساعدات إلىٰ خِيَم، ربَطَ بعضَها إلىٰ بعض، وخاطَها، ومَتّنها، وجلبَ خشبًا من تحتِ الرّدم أو من الأشجار الّتي تعمّد الاحتِلال اقتِلاعَها، وصنع منها أعمدةً وأقامَ عليها الخيمة.

منذُ صباح هٰذا اليوم وأنا أرى الأطفالَ النّازحين هنا يبكونَ جوعًا، يتضاغَون، يهتفُ الواحدُ بأمّه: «جائع». لا خُبزَ. لا ماء نظيفًا. ماء البحر هو الّذي يُشرَب هٰذه الأيّام، يزيدُ العطش، ويجلبُ الأمراض. وليسَ هٰذا فحسب، بل إنّه علىٰ ملوحته قد تلوّث إمّا مِمّا يُغسَل فيه من الثّياب، أو من الجثث الّتي قتلها الاحتلال فيه، أو من ما انتشر من رَدْم ودم وأشلاء حوله!

الوجوه هنا في ساحات المستشفىٰ خلفَ أسوارِه مَخطوفةُ الخَطَب، والعيون غائرة، والبطون ضامرة، والشّفاه يابِسة، ولا طَعام ولو كان كسرة خُبزٍ واحدة. أعدىٰ أعدائنا الجوع. ليسَ القذيفة الصّاروخيّة ولا الحزام النّاري. الجوع يقتلُ ببطء وتتعدّد فيه الموتات، والصّاروخ يقتل بسرعة وهو موتةٌ واحدة.

أُصيبَ الآلاف بأمراض وبائية كثيرة، عددٌ منهم هنا أراهم ولا يستطيع أحدٌ أنْ يُقدّمَ لهم شيئًا، الماء المُلوّث والطّعام الّذي تأنفُ الحيوانات أنْ تأكله جعل كثيرًا من الأمراض المِعَديّة تنتشر في النّازحين القريبن منّا هُنا في المستشفىٰ، الإسهال والكوليرا والسالمونيلا والتهابات الكبد الوبائي، كلّها صارتْ أمراضًا شائِعة. يمرّ عليّ العشرات منهم، (زكريّا) يتكفّل بإعطائهم جُرعات من أدويتهم دون إشرافٍ منّا. لا نملك القُدرة علىٰ متابعة كلّ حالة.

غيرَ أنّ هناكَ نوعًا من الأمراض غير النّاتج من الطّعام الفاسد الغثّ والماء المالح المُلوّث، هي تلك الأمراض الّتي يُسبّبها التّزاحم وقلّة النّظافة وتراكم القاذورات، ولا أحدَ يجهل سبب قلّة النّظافة وانتِشار الأكياس الفارغة، فإنّ الماء الّذي يُستخَدم حتّىٰ للاستِحمام ليسَ شحيحًا فحسب، بل لم يعدْ موجودًا. وإنّ عُمّال النّظافة في البلديّة لم يعودوا يعملون بسبب قصف أبنيتهم وآليّاتهم واستشهاد عددٍ منهم كذٰلك. ثُمّ أينَ تذهبُ بكلّ هٰذه المُخلّفات، إنّه لأمرٌ جَلل. التّزاحم وانعِدام سُبُل الوقاية أدّىٰ إلى انتشار أمراض الجهاز التنفسي والإنفلونزا، إضافة إلىٰ الحصبة والتهاب السّحايا، التِهابُ السّحايا قاتِلٌ، ليسَ لدينا كادرٌ للعنايةِ بمن أُصيبَ به.

ثُمّ أدّىٰ تراكُمُ النّفايات وتضرّر شبكات الصّرف الصّحّيّ إلى انتشار الحشرات، الحشرات الّتي لا ترحم، وتُمارس هوايتها المُحبّبة في انتشار الملاريا والحمى النّزفيّة. باختِصار نحنُ نعومُ علىٰ بحرٍ من الأمراض المُعدِية الّتي سُتسهّل عمليّة القَضاء علينا سريعًا، مرحبًا بالموت!!

الوجوه بادية الإعياء والتّعب، الأطفال إذا أرادوا أنْ يمشوا خُطواتٍ أصابتْهم دوخةٌ فتمايلوا فسقطوا من الجوع أو من الحُمّىٰ، يتقيّؤون فلا يخرج من بطونهم شيءٌ إلاّ قيحٌ أو صديد. الكبار أرجلهم لا تكاد تحملهم، آلامٌ فظيعةٌ في الأيدي والسّيقان، يدخلون في غيبوبةٍ بين فترةٍ وأخرىٰ، يهذون، تسمعُ شابًّا في العشرين مُمدَّدًا على التّراب، تضع أمّه رأسَه في حجرها ينتفضُ جسدُه انتِفاضَة المصعوق، يُغمعم بكلماتٍ غير مفهومة، تمسحُ أمّه علىٰ رأسه فيهتف: «هَيُّو..» ويُشير بإصبعٍ مُرتجِفةٍ إلىٰ أعلىٰ. تسأله أمّه وهي تنظر إلىٰ حيثُ يشير: «شو صابك يا ابني؟». يردّ: «هَيّوا...» يُعيد الحركة والكلمة أربع مرّات، لا أحدَ يدري ماذا يُريد، ثُمّ يرتعش جسدُه ارتِعاشةَ الطّائر الصّغير المُبّلِل بالماء البارد في الصّقيع: «هَيّوا سقط... سقطَ علىٰ رأسي»، ويصرخ صرخةً مرعبة، ثُمّ يسكنُ جسده، يذهبُ في غيبوبةٍ طويلة، ولا أحدَ يدري إنْ كان سيُفيق منها أم لا؟

هناك مخبزٌ أو اثنان فقط في شمال غَزّة ما زالا يعملان، لم يَنْجُوَا من القصف، ولٰكنّ أصحابَهما نقلا ما استطاعا من الأفران إلىٰ منطقةٍ أقلّ تضرّرًا، وعادَا إلى العمل، ولٰكنْ حتامَ سيستمرّان؟ قد يكونُ في مخزنيهما عشراتُ أكياس الطّحين، أو حتّى المِئات، إنّها لن تكفي ليومَين أو ثلاثة لهٰذه الجموع الكثيرة. وطابور الخُبز أشهرُ طابورٍ ممكن أنْ تراه في غزّة اليوم.

نحنُ في أسبوع المنشورات. الجيش الإسرائيلي يُلقي في سماء غزّة منشوراته ويملأ بها السّماء، من الأرض تبدو عصافير رماديّة مَشوبة بالبَياض، تتجمّع في أسرابٍ كثيفةٍ مهاجرةً إلىٰ بقعةٍ ما، تبدو كذٰلك كما

لو كانتْ جيوشًا من النّمل أو النّحل تتعادَىٰ في أديم السّماء مُتخلّية عن علوّها الشّاهق لصالح هبوطها المُتأرجِح إلى الأرض. المنشورات كانتْ مفيدة للغزّاويين من جهتَين، استخدَمها بعضُهم من أجلِ لفّ شطائر الفول أو لفّ حبّات الفلافل أو التّرمس، واستخدمها آخرون لإشعال النّار، مع تجميع الحطب لجلبِ شيءٍ من الدّفء في البرد الّذي بدأ يزحفُ نحونا.

كان أحدُ المنشورات يقول: «إلىٰ سُكّان مدينة غزّة ومحافظتها، حانَ الوقت، دولة إسرائيل تطلب منكم أنْ تُحافِظوا علىٰ حياتكم، وتُخلوا بيوتكم فورًا من منطقة القِتال، يجب عليكم الإخلاء بين السّاعة العاشرة صباحًا والسّاعة الثّانية ظهرًا عبر طريق صلاح الدّين والتّوجّه إلى المنطقة الإنسانيّة في الجنوب... وجودكم في المدينة خطيرٌ جدًّا عليكم. المعركة شديدة بكلّ أنحاء المدينة، لا يُوجد مكان آمن. حماس والمُنظّمات الإرهابية يستغلّونكم كدروع بشريّة. استغلّوا الفرصة وأخلوا عبر طريق صلاح الدّين».

المنشورات الّتي تُلقيها إسرائيل هي أكثر شيءٍ يُمكن أنْ تُسببّ لك أكبر عدد ممكن من المشاعر المُتبايِنة، فأنتَ مُضطرّ إلى الضّحك في أكثر من موضع، في موضع أنّ إسرائيل تريدُ الحِفاظ علىٰ حياتنا، وفي موضع ما يُسمّىٰ بالمنطقة الآمنة. وهي تُثير الغضب، فكيفَ يكون الأمن والموتُ لا يتوقّف في كلّ مكان. وهي تثير مشاعر السُّخرية، ومشاعر القرف، ومشاعر الغيظ، وقد تُؤدّي بالنّاس إلىٰ أنْ يمسحوا بهٰذه المنشورات مُؤخّراتهم جرّاء شعورَين هما التّشفّي والغضب. وهي تُثير التّعجّب أو الإعجاب في موضعٍ واحد، وهو أنّها قاتلةٌ لك لا محالة،

وستقصف بيتَكَ لا مَناص، لكنّها حتّىٰ يكونَ الألم مُضاعفًا تُخبركَ بذٰلك قبل أنْ تفعهلما. والحقيقة أنّ إسرائيل تكون أشدّ ما تكذب حينَ تريدُ أنْ تُقنعنا بأنّها صادقة!

ومِمّا يُثير الضّحك من منشوراتها، تلك الّتي تبرز فيها وقاحةٌ لا مُتناهِية في ذٰلك المنشور الّذي كان نصُّه: «إن كنتم تريدون مستقبلاً أفضل لكم ولأولادكم، افعلوا الخير وأرسلوا لنا معلومات ثابتة ومفيدة تخصّ المخطوفين في منطقتكم. سوف يعدكم الجيش الإسرائيلي بأنه يعمل الجهد الكامل كي يحافظ علىٰ أمنكم وسلامة بيوتكم، وكذٰلك مكافأة مالية مع ضمان السّرّيّة التّامّة لمن يُدلون بالمعلومات»!!

خرجتُ أستنشقُ بعضَ الهواء. لا يُوجد في الفضاء أيّة نسمة، الهواءُ مُحرَّمٌ علىٰ أهل غزّة، أهلُها يجب أنْ يُخنَقُوا. ليلُ غزّة نَهار بسبب الأحزمة النّاريّة والصّواريخ. من هنا، من هٰذه الزّاوية، كنتُ أرىٰ (نبهان) بلحيته الطّويلة الّتي وَخَطَ الشّيبُ أسفلَها، وسرىٰ كالنّار في بقيّتها يرفعُ يدَيه في التّكبيرة الأولىٰ، وأمامه أكثرُ من عشرينَ شهيدًا مُمدَّدين في أكفانهم، وسيذهبون ليُدفَنوا في لا مكان بعدَ قليل. كان هٰذا عن يميني، فلمّا نظرتُ عن يساري وأنا في الدّاخل، عبرَ بهوٍ في آخره الممرّ الّذي يُؤدّي إلىٰ غرفة العمليّات رأيتُ (زكريا) يلبسُ لباس الأطبّاء ويدور كأنّه نحلةٌ لا تتوقّف ولا تتعب. وأمامي في السّماء السوداء الّتي كانتْ تلمع علىٰ ضوء نيران القصف، وعلىٰ مَدّ بصر الخوف، كنتُ أحلم بأنْ ألتقي (سلام) من أجل أنْ أهربَ إليها مِمّا أنا فيه.

(٢٧) خبزنا مغموسٌ بالدّم

الدّكاكين فارغة. لم يعدْ علىٰ أَرْفُفها شيء. خُبزُنا مغموسٌ بالدّم. نهارُنا بُؤسٌ ووجع. ليلُنا مُحترقٌ بقنابل الإضاءة. أعمارُنا منهوبة. أحلامُنا موؤودة، ونحنُ من هباءٍ إلىٰ هباء. الأطفال يُستَشهدون كلّ خمسِ دقائق، النّاس تموتُ كلّ دقيقة. الشّهداء لا يدخلون إلىٰ المستشفيات فُرادَىٰ، بل جماعاتٍ جماعات. المُحتضِنون أبناءَهم في اللّحظة الأخيرة أكثر من أنْ يضمّهم إطارُ صورةٍ عتيقة. الصُّور كثيرة، صارتْ مشهدًا مألوفًا في كلّ لحظة. يسقطُ الشّهداء على الأرض، يتأرجحون كأنّهم يرقصون، رقصةَ الذّبيح الأخيرة، نحنُ نتساقطُ من شجرةِ الحياة تحتَ أقدام الموت، إنّه ليسَ يومَ تسير الجِبال، ولا يومَ تمرّ مَرّ السّحاب، إنّه نهار غزّة العاديّ وليلُها.

يصرخُ الشّباب أمام جُثث إخوتهم بالثّأر. كيفَ يكون الثّأر؟ متىٰ يأتي؟ مَنْ يقدر عليه؟ يكتبون في قراطيسِ دمنا ثأرًا لا ينتهي. (نبهان) لم يعدْ قادِرًا علىٰ أنْ يُصلّي على الشّهداء كلّهم. الأطبّاء يُصلّون علىٰ زملائهم مِمّن ارتقوا في هٰذه الملحمة الفريدة. القُبلة الأخيرة علىٰ وجنة الشّهيد قبل أنْ يُدَسّ إلىٰ جانب العشرات في قلبِ الشّاحنات الذّاهبات إلى المقابر الّتي لم يعدْ أحدٌ قادِرًا علىٰ أنْ يعرفَ أين يُدفنون. في رمل البحر أو قريبًا منه، تُحفَر الحفر الكبيرة العميقة، تصطفّ الشّاحنة علىٰ أوّلها، ولا تكادُ ترىٰ آخرَها، ينزلُ اثنان، اثنان فقط: السّائق وآخرُ كان يجلسُ إلىٰ جانبه

تبرّع كي يقوم بهٰذه المهمّة المُوجِعة، يبدؤون بإنزال الأكفان، كفنًا كفنًا، يَصُفّونهم بحيثُ لا يتركون مسافةَ فترٍ بين شهيدٍ وآخَر، ترىٰ صَفًّا طويلاً، بياضٌ لن تُشرِقَ عليه الشّمسُ مرّة أخرىٰ. لم نعدْ نُسمِّي الشّهداء، هٰذا أمرٌ مستحيل، ولا حتّىٰ نرقّمهم، صاروا فقط في عِلم الله. طُول الحفرة أكثر من خمسين مترًا، وأعمقُ من مترين، يُرَصّ فيها حوالي مئة شهيد، لا أحدَ يدري كيفَ اتّسعتْ لهم جميعًا، هل تفَسّحوا في المجالس، هل زَحزَح كلّ واحدٍ منهم فِتْرَه لصالح أخيه الشّهيد، ثُمّ ها هو المشهد الأكثر أسًى؛ الجرّافة الّتي تنتظر علىٰ جانب هٰذا القبر الجماعيّ، تبدأ بإهالة التّراب، كيفَ طاوع صاحبَ الجرّافة قلبُه أنْ يُهيل عليهم التّراب بهٰذه الطّريقة اللاإنسانيّة، أينَ أهلهم؟ ربّما استُشهِدوا في مكانٍ آخَر ويُفعَل بهم ما يفعل بأبنائِهم هنا، ربّما يكونون معهم في هٰذه المأساة، الأكفان تبدأ بالاختِفاء، ما زال بعضُ البياض ظاهِرًا للشّمس، سوفَ يغرقُ في الظُّلمةِ الأبديّة عن قريب. وها هو القبر بعدَ ساعاتٍ من العمل الشّاق يُسوّىٰ بالأرض، لا شواهدَ فوقَ رأسِ كلّ قبر، الشّواهدُ ترف. هل يُمكن أنْ يأتي زمانٌ ما تُنبَشُ فيه مثلُ هٰذه القبور الجماعيّة، ويحظىٰ كلّ شهيدٍ بقبره الخاصّ؟ كلاّ. إنّهم مئةُ شهيدٍ في قبرٍ واحدٍ، حتّىٰ شاهدة واحدة لا يحلمون بها، تُوضَع عند رأسِ أوّل واحدٍ فيهم، وتُنقَشُ فوقَها أسماؤُهم! كانوا سيحظَون بشيءٍ من الدُّعاء لو أنّ (نبهان) وقفَ علىٰ رؤوسهم في هٰذا المثوى الأخير!

المصاحف لم تنجُ من الدّمار، تشتعل، تحترقُ أطرافُها، سوادٌ يُحيطُ بالصّفحة من كلّ الجهات، ويُبقي علىٰ قلبِها، حيثُ الآية: «والله غالِبٌ علىٰ أمره ولٰكنّ أكثر النّاس لا يعلمون».

«أين الشّمس الحُلوة؟» يهذي طفلٌ بأغنيةٍ تعلّمها في الرّوضة. «أمّي ماتت يابَهْ» يُسنِد فتًى رأسه علىٰ صدر أبيه وهو ينشج، أمّا أبوه فيُشيحُ بنظره بعيدًا ولا يدري ماذا يفعل. يُغطّي الدّم الهلالَ الأحمر كامِلاً، كان ينقصُه دمُ الشّهيد من أجل أنْ يزداد حُمرةً. تبكي أمٌّ من بُكاء أطفالها: «لم نأكلْ منذُ أسبوع». تُخبّئ الأمّ لابنِها الجائع العطشان نصفَ كأسِ ماءٍ في اللّيل لتسقيه له في الصّباح، يرفعه إلىٰ شفاهه المُشَقَّقة، كان اللّيل السّابق قدَ بَرّده، يجري زُلالاً في حلقه، يشعر وهو يشربُ هٰذا الماءَ المُلَوَّث أنّه في الجَنّة. أكبرُ نعيمٍ أنْ تحظىٰ بنصفِ كأسٍ من الماء البارد اليوم!

مستشفى الشّفاء تتعرّض للقصف. بعضُ طوابِقها دُمّر. مختبراتها، غُرفها، أسرّتها، نقّالاتُها، إنّها تتناقصُ مع ازدِياد القادمين. أيّها العالَم الظّالِم ماذا تريدون منّا؟ إذا كانتْ لديكم القدرة لِمَسْحِنا من الوجود، وإرسالنا إلى العالَم الآخَر فلماذا لم تفعلوا؟! صار الموتُ أمنيةً عزيزة!

يخرجُ الآباء من مخيّمات النّزوح، ومن مراكز الإيواء، ومن مدارس الأونوروا للحصول على الماء والخبز. إنّها مهمّة انتحاريّة. النّجاح فيها غير مضمون. تسير عبر طريقٍ طويلة محفوفةٍ بالمخاطر من كلّ جهة. بقنّاصي الجيش الإسرائيليّ الّذي يعتلي البنايات، ويتمركز خلفَ النّوافذ في البيوت الّتي احتلّها، وبالدّبّابات المُنتشِرة علىٰ جانِبَي الطّريق والّتي تُوجّه فُوهات مدافعها إلىٰ كلّ مَنْ يتحرّك، وبمخلّفات القصف الّتي تجعل من الطّريق دربًا لا يُمكن السّير فيه لكثرة الحُفر والرّدم.

يُصلّي الأب الّذي تقع المهمّة الانتِحاريّة عليه الفجرَ دون أنْ يوقِظَ أبناءَه الجائعين، ثُمّ يخرج في الظّلام الدّامس والبردِ القارِس باتّجاه محطّة المياه أو الموضع الّذي يُمكن فيه الحصول على الماء، ومعه (جالون)

يتّسع لعشرين لترًا، هِيَ حصّته من الماء لأسبوع، عليه أنْ يشربَ منها، ويتوضأ، ويطبخ، ويغسل ثِيابَه وأطباقَه.

في الطّريق إلى المحطّة تنبحه الكلاب الضّالّة، يراها تنهشُ من جسدِ الشّهداء الّذين لم يتمكّن أحدٌ من دَفْنهم حتّىٰ ولو في الشّارع نفسه، يُغطّي علىٰ عينَيه وهو يرجفُ من الخوف، هٰذه الكلاب الّتي تنهشُ الجُثث قد تحوّلتْ إلىٰ كلابٍ مسعورة لا تتورّع عن نهشِ أيّ لحمٍ يُصادِفُها، ولحوم الأحياء عندها ألذّ وأطيبُ من لحوم الموتىٰ. يُتابِع سيره علىٰ قدَمَين من حذرٍ ورُعب، يسير أكثرَ من كيلو مترٍ وسطَ الأهوال الّتي لا تُطاق، يصل في النّهاية إلى المحطّة، يرىٰ من بعيدٍ طابورًا طويلاً من النّاس قد سَبَقه إلىٰ هناك، يتعجّب، إنّه لم ينم بعدَ صلاة الفجر، ولم ينتظر شروق الشّمس، وقَدِمَ مُبكِّرًا؛ فمن أينَ جاءَ هٰذا العدد الكبير من النّاس؟ يقفُ في الطّابور في النّهاية، يسمعُ أحدهم يهمس: «لقد توجّهتُ إلىٰ هٰذا المكان من منتصف ليلةِ أمس».

قطع الاحتِلال من أوّل يومٍ في الحرب خطوط الماء الرّئيسة الّتي تُغذّي القِطاع. أوّل هزيمةٍ يُمكن أنْ تُمنىٰ بها هي أنْ تعطش. في الحروب كلّها عبر التّاريخ كان قَطْعُ الماء عن الآخَر هو أكبرَ ضربةٍ قاصِمة يُمكن أنْ تنهار به قُواه فيرفع راية الاستِسلام. ترتفعُ شمسُ الضّحىٰ والأب لا يزال في طابور الماء. ترىٰ ألوان الجالونات الّتي أحضرَها أصحابُها، تصبغ المشهدَ بشيءٍ من البهجة وسطَ هٰذا الحُزن الواسع. الجالونات الزّرقاء والصّفراء والخضراء والبيضاء، ألوانٌ تتداخل في بهجةٍ مُؤجّلة لحزنٍ لا يزال يتراكم على الأفئدة طبقةً بعدَ طبقة منذُ عقود.

يأتي دوره بعد أربع ساعاتٍ، تنفرج أساريره للماء الّذي يتدفّق عبر

أنبوبٍ صغيرٍ لينسكبَ في (جالونه)، يتوقّف الأنبوب عن ضَخّ الماء في الجالون عندَ منتصفه، يقول له القائم علىٰ توزيع الماء: «هٰذه حصّتك». يعترض. يردّ القيّم: «انظرْ خلفَك»، فيلمح طابورًا لا تُرىٰ له نهاية، يعودُ حزينًا وفَرِحًا بِما حصّله من الماء؛ نصف الّذين جاؤوا بعده لن يحصلوا علىٰ قطرةِ ماءٍ واحدة، سيعودون إلىٰ مراكز إيوائهم، ويعزمون علىٰ الذّهاب إلىٰ محطّة الماء من منتصف اللّيل، ويضعون جالوناتهم في طابورٍ سيبدأ من تلك السّاعة يتضخّم، حتّىٰ يفقد المُنتظر في آخره الأمل في الحصول على الماء ولو بمقدار غَرفة اليد.

يعودُ الأب إلىٰ أطفاله، يحذّرهم: «هٰذا الماء لأسبوع، حِصّة كلّ واحدٍ منكم نصفُ كأسٍ في اليوم واللّيلة». يُوقِدُ النّار من حطبٍ جمعه أحدُ أبنائِه في السّاعات الّتي قضاها أثناء طابور الماء، ويطبخ الشّوربة، إنّه طعام اليوم كلّه، يهتفُ بهم من جديد: «أكلْنا اليوم شوربة، مَنْ يدري إذا كُنّا سنجدُها غدًا أم لا؟».

الطّوابير الّتي تمتدّ لمئات الأمتار وأحيانًا لآلاف الأمتار لا تكون على الماء فحسب، بل يقفُ النّازِحون اليوم فيها من أجل الحصول علىٰ السُّكّر أو الطّحين أو الخميرة، أشياء كان يُمكن ألاّ تدخل في حِسابه، ولم تكنْ لِتُصبحَ حُلُمًا بعيدَ المنال لولا الحرب. والمشكلة تكمن في ما إذا كان أبناؤه صغارًا لا يستطيعون الوقوف في هٰذه الطّوابير المُذلّة، فحينئذٍ عليه أنْ يُقسّم أيّامه، فيذهب في يومٍ إلىٰ طابور الماء، وبعدَ يوم إلىٰ طابور السّكر، ثُمّ إلىٰ طابور الطّحين، وهٰكذا... أيّامه كلّها طوابير في انتظار أطعمةٍ أساسيّة.

الحرب لم تعدْ تكترثْ بالأطفال؛ يُمكن أنْ تُشاهِدَ طفلاً في السّادسة يقفُ في طابور الماء، وحينَ يمتلِئ جالونه بالماء عليه أنْ يُجاهِدَ بذراعَيه الصّغيرتَين كي يرفعه فوقَ كتفَيه النّحيلتَين، ويسير به آلاف الأمتار ليوفّره لعائلته العطشىٰ!

أمّا طابور الخُبز فإنّه طابور الحَظّ. تقفُ فيه اليوم فلا يصلُ إليكَ الدّور فتعودُ من دونِ رغيفٍ واحدٍ، وقد يتكرّر ذٰلك حتّىٰ لا تكاد تحصل علىٰ رغيفٍ أو اثنَين طَوال الأسبوع، وماذا يأكل النّاسُ إذًا؟ يبحثون في الأرضِ الرّطبة عن الحشائش الّتي تأنفها الحيوانات فيمضغونها، أو يحفرون عميقًا علىٰ جذور بعضِ النّباتات، فيمصّون الرّطوبة الّتي عليها بعدَ أنْ يُزيلوا عنها التّراب! إنّه جوعٌ أشدّ من جوع شِعب أبي طالب، يربطُ النّاسُ فيه لا حجرًا واحِدًا، بل صخرةً علىٰ بطونهم الخاوية الّتي لم تنزلْ فيها لُقمةٌ واحدةٌ في الأسبوع والأسبوعَين.

وقائمة الطّوابير لا تنتهي. فهناك طابورٌ يقفُ الواحد فيه من أجل أنْ يشحن هاتفه النّقّال في نُقطة كهرباء في بيتٍ أو في موضعٍ ما تزال الكهرباء فيه تسري. وإذا انتظرْتَ سِتّ ساعاتٍ وعُدْتَ بهاتفٍ فيه (٥٠٪) شحنٌ فأنتَ أميرُ زمانِك!

لا مواقد. لا أفران غاز. لا أفران كهرباء. لا حياة. لا موت. لا شيء. الحطب هو الوحيد الّذي لا تزال منه بقيّة في دروب غزّة المُهدّمة. الحطب المُتناثر من أَسِرَّة الكرام بعدَ قصف، ومن خزائن النّاس في البيوت المُهدّمة، هو الّذي يُجمَع، ويُعَدّ عصبَ الحياة الّذي لم ينقطعْ بعدُ، يُوقَد للدّفءِ في ليلِ القَرّ، ولإنضاج الشّوربة، ولصُنعِ كأسٍ من الشّاي نادر، أو فُنجانٍ من القهوة عزيز. ولٰكنّ الحطب هٰذا لن يستمرّ طويلاً!

ما الّذي أصابَ غَزّة؟ لماذا تُصَبّ عليها هٰذه اللّعناتُ كُلُّها؟ كأنّ غولاً حجمُه عشرةُ أضعافِ حجمها قد خَبطَ بقدَميه فوقَها ألفَ خبطةٍ من حقدٍ وغلّ، فمسَحها، وطَحَنَ بيوتَها، وأذابَ حديدَها، وسَوَّىٰ كلّ شيءٍ ترابًا ورمادًا!!



(٢٨) كيفَ ترينَ الغد؟!

لماذا كلّ هٰذا القصفِ على المستشفى الّذي نعمل فيه؟! النّاس في مستشفى الشّفاء تموتُ مرّتَين، يَصِلُون إليه شُهداء، ثُمّ لا يكتفي الاحتِلال بذٰلك، فيقصفهم فيموتون مرّة أخرىٰ. كأنّ موتًا واحِدًا لا يُشبع توحُّش الاحتِلال وتعطُّشَه للدّم!

لدينا ضحايا أكبرُ من أعدادِنا، وشهداء أكبرُ من أعمارِنا، وموتىٰ أكبر من أسمائِنا... وحدها الحياة ليستْ علىٰ مقاسِنا، إنّها أصغرُ بكثيرٍ منّا ومن أحلامِنا ومن آمالِنا وهواجسنا. وحدها الحياة لا تعترفُ بنا!

أدخلُ دُكّانًا بسيطًا في زاوية شارعٍ فرعيّ فأسأله: «هل عندكَ سُكّر أمْ أنّه مقطوع؟». فينظر إليَّ البائع مُستغرِبًا: «مقطوع؟ كيفَ مقطوع؟ أين تعيش؟». فأُجيبُه: «في غَزّة». فيزداد تعجّب البائع: «طيّب؟ وأنا في غزّة، وهٰذه الدُّكان الّتي تريدُ شراء السُّكّر منها في غَزّة، هل أنتَ مجنون؟». «لا يا سيّدي ولٰكنّني حالم». فيردّ البائع مُتذمّرًا وقد نَفِدَ صبره: «تريدُ أنْ تشتري سُكّرًا أم لا؟». «بالطّبع... بالطّبع...». «كم تريدُ». «جُوالاً كامِلاً». «جُوالاً؟! خمسين كيلو سُكّر؟». «نعم». «هل أنتَ مجنون؟». «لا يا سيّدي، ولٰكنّني خائف».

أدخلُ خيمةً فلا أجدُ فيها أحدًا. مستحيل، هٰذا المُخيّم يُفترض أنّه نَزَح إليه أكثر من عشرة آلاف نازح، وكلّ عشرينَ شخصًا ينحشرون في خيمة. ما بال هٰذه الخيمة فارغة وليسَ فيها إلاّ الحديد؟! أخرجُ من بابِها فيتلقّاني

مُهندِسٌ يعتمر خوذةَ الوقاية علىٰ رأسِه، يستغرب من وجودي داخل الخيمة، أسألُه وأنا لا أكادُ أنطقُ: «ألا يُوجَد أحدٌ في هٰذا المُخيّم؟!». ينظر إِلَيّ مُستطلِعًا: «أيّ مخيّم؟». «أليسَ هٰذا مُخَيّمًا للنّزوح؟». «مُخيّم للنّزوح، هل فقدْتَ عقلك؟! لماذا يكون في غزّة مخيّم للنّزوح؟!». «يعني نحن في غزّة كما قلت؟». «نعم في غَزّة وما الغريب في ذٰلك؟». «لِمَنْ هٰذه الخيمة؟». «هٰذه الخيمة لمشروع التّطوير الحضريّ للمنطقة، نحنُ نعمل علىٰ بناء مُجمّعات سكنيّة حديثة». أضعُ يدي علىٰ فمي من الدّهشة، وأهتف: «مُجمّعات سكنيّة حديثة ونحن في الحرب؟!». يشير المُهندس إلىٰ رأسه وهو يُدير أصابعه فوقَه علامةً علىٰ أنّني مَهبول، ويهتفُ بضيق: «حرب؟! أيّة حرب؟! نحنُ الآن ننافس المُدُن الكُبرىٰ في التّطوير الحضريّ». أخرجُ من عنده وأنا أهذي. هٰذه ليستِ الحقيقة. غزّة من يوم أنْ خلقَها الله منكوبة. لا يُمكن أنْ يكونَ هٰذا المُهندسُ صادِقًا ولا ذٰلك البَقّال أيضًا، لا بُدّ أنَّ خطأ ما في الأمر. عَلَيّ أنْ أصحو من هٰذه الأحلام المُبالَغ بها!!

أسيرُ في شارعٍ فرعيّ موازٍ لشارع صلاح الدّين، أرىٰ أعمدة الإنارة الفضّيّة تُشعّ مالِئةً المكان بالبهجة. الشّارع نظيف. السّيّارات تسير فيه بأمان. الأطفال يلعبون تحتَ الأشجار المُنتشِرة علىٰ جانِبَيه. لا توجَد ورقة واحدة على الأرض ولا في أيّ شبرٍ منه، المكان يُشِعّ نظافة... أتلفّتُ حولي، أتساءل: أينَ الجُثث؟ أينَ أشلاء الشّهداء، أدور في المكان أبحثُ عن يدٍ هنا أو ساقٍ هناك، أبحثُ عن عينٍ مفقوءة، عن رجلٍ مقطوعة، عن فمٍ مَفغور... لا شيءَ من هٰذا أبدًا... عن الباطون المُهدّم، عن أسياخ الحديد الّتي تخرج من المباني وتدخل في لحوم الأطفال...

لا... لا... لا شيءَ من ذٰلك، الأولاد يلبسون ثيابًا نظيفة، وهم بألفِ نعمة وخير، ويتراكضون ويتصايحون ويضحكون في الحدائق الصّغيرة الّتي علىٰ جانِبَي الطّريق... مُستحيل... أفركُ عينَيّ، أفتحهما على اتّساعهما، وأُديرهما في كلّ زاويةٍ في المكان... مستحيل مرّة ثانية، هل هٰذه غَزّة؟! ألمح ظِلّ عجوزٍ يجلسُ علىٰ كرسيّ تحتَ شجرةٍ، وإلىٰ جانبه عجوزٌ أخرىٰ تُلقِي برأسِها علىٰ كتفه، وهما يتهامسان كعاشِقَين بعدَ أنْ مَرّ عليهما قِطارُ العُمر... أقتربُ منهما، ينتبه إلَيّ الرّجل العجوز، أسأله: «هل نحنُ في غزّة؟!». يستطلعني من أعلىٰ رأسي إلىٰ أخمصِ قدَمَيّ قبلَ أنْ يُجيب: «هل أنتَ غريبٌ عن هنا يا بُنَيّ؟». «لا يا عَمّ... ولٰكنّني لا أُصدّق أنّ هٰذه غَزّة». «لماذا يا بُنَيّ؟!». «لأنّ غزّة مُهدّمة، مُدمّرة، محفورةٌ شوارِعها من أوّلها إلىٰ آخرها، مرميّة أشلاء شهدائها من أقصاها إلىٰ أقصاها، تأكلُها النّيران وتبتلعها الحرائق من شمالِها إلىٰ جنوبها...».
يُقاطعني العُجوز وهو يضع ذقنه علىٰ عُكّازه فيما كانتْ زوجتُه تنظر إلَيّ باندِهاشٍ كأنّني كائنٌ فضائيّ: «غَزّة؟! غزّة مُدمّرة، إنّها أجملُ مدينةٍ وأحلىٰ مدينة في الوطن العربيّ يا بُنَيّ. ابني يعمل في الصّحافة، وقال لي إنّها فازتْ بأنظف مدينة قبلَ ثلاثة أشهر». أسألُه بحرقة: «ماذا حدثَ لغزّة حتّىٰ صارتْ هٰكذا؟!». يستغربُ من استغرابي: «ماذا حدثَ لغزّة أم ماذا حدثَ لكَ يا بُنَيّ؟ هل أنتَ تسأل من عقلك؟». تُردف زوجته وهي تستعيذُ بالله من الشّيطان الرّجيم: «ويلي عليهم شباب اليوم، لا يدري الواحد ماذا يشربون... هٰذا السُّمّ...». يُقاطِعها زوجها مُشيرًا بعينَيه وبهزّة من رأسه كي تتوقّف عن الحديث، ويهمس: «انظري إليه، يبدو أنّه ابن عالَم وناس، لا بُدّ أنّه غابَ عن غزّة عشرين عامًا أو أكثر واليوم جاءَ إليها

فاختلفتْ عليه». يُتِمّ همسه في أذن زوجته العجوز، ويلتفت إِلَيّ مُنهيًا الحوار: «الله يسهّل عليك يا ابني».

أدخل سوقًا واسِعة. السّوق ذاتها الّتي كنتُ أدخلها أيّام عملي الأولىٰ. كان لديّ راتبٌ جيّد أستطيع أنْ أشتري به لحبيبتي الّتي ضَمّنا عُشٌّ واحدٌ قبل أقلّ من شهرٍ ما أشتهي. توقّعتُ أنْ أراه مُدمّرًا، وأنّه تحوّل إلىٰ مكرهةٍ صِحّيّة، وأنّ روائح تفسّخ الجثث تجعلك لا تحتمل السّير فيه دقيقةً واحدةً. ولٰكنّني رأيتُ عَجَبًا. كانت السّوق نظيفةً تمامًا. تفوح منها رائحة الشّذىٰ. وكانتْ مُزدِحمة، لم يكنْ فيها موطِئ قَدَم، ومع ذٰلك لم يكنْ للنّاس إلاّ المسكُ عابِقًا من ثِيابهم. كانتْ أبواب المحلاّت واسِعة، والنّاس مُشرقة الوجوه، والبائعون مُبتسِمين دائِمًا. وكانتْ هناك بعضُ العَرَبات الّتي لا تخلو منها سوق، ولٰكنّها كانتْ تصطفّ بشكلٍ قانونيّ ومُنظّم. عربات للخُضار، وأخرىٰ للفواكه، وثالثة للذّرة الّتي تُباع مشويّة، وتلك الّتي تُباع بعلبٍ بعدَ أنْ تُطبَخ مع الزّبدة والتّوابل، وكانتْ هناك عَرَبات للقِماش، وعربات للأدوات المنزليّة البسيطة الّتي يستخدمها النّاس في بيوتهم. وكان صاحب بسطة الخُضار يُنادي: «كيلو البندورة بشيكل. كيلو الخيار بنصف شيكل. كيلو الفليفلة بشيكل ونصف...». لا بُدّ أنّ غزّة لم تعدْ غَزّة. اقتربْتُ من بائِع الخُضار، أخذتُ كيسًا، وملأتُه بالبندورة حتّىٰ طفح، وبعدَ وَزْنِه، قال لي البائع: «شيكلين ونصف». أخرجْتُ عشر شيكلات وأنا غير مُصدّق. مُستحيل أنْ تشتري هٰذه العشر شيكلات هٰذا الكيس الكبير من البندورة، ويُعيد لي البائع سبعة شيكلات ونصفًا. لم أُصدّق. نظرتُ في عينَي البائع وهو يعيد لي بقيّة النّقود، فلاحظَ ذٰلك،

فهَزّ رأسَه كمن يسألني: «ما بكَ؟ هل أخطأتُ معكَ في الحساب؟».
وضعتُ الشيكلات السّبع والنّصف في جيبي، وحضنْتُ كيس البندورة وهربْتُ. لا أريدُ أنْ أسمعَ أكثرَ من ذٰلك مِمّا لا يُصَدّق.

عُدتُ إلى المستشفىٰ. ناديتُ علىٰ سلام بصوتٍ عالٍ: «معي ثلاثة كيلو بندورة... معي ثلاثة كيلو بندوة...» ورحتُ أركضُ كالمجنون في أروقة المُستشفىٰ، استيقظَ النّاسُ علىٰ صُراخي، أمسكني (بَسّام) من ذراعي، وأوقفني بقوّة، وقال لي: «ما بالك يا مجنون؟ هل تريدُ أنْ تُفزِّعَ النّاس؟».
«معي ثلاث كيلو بندورة يا بَسّام، انظر ألا ترىٰ». وأخرجْتُ حبّة من الكيس ورفعْتُها فلمعَ أحمرُها علىٰ ضوء إنارةٍ خافتةٍ قادمةٍ من النّافذة القريبة من الشّارع. أخذها منّي (بسّام) وأعادَها إلى الكيس، وهتف: «ماذا يعني أنّ معك بندورة؟ ما هٰذا الهُراء يا رجل؟ هل جُننت؟». «يا بَسّام، منذُ أسبوع وأنا أركضُ وراءَ حبّة بندورة ولم أستطعْ أنْ أُمسِكَ بها وكنتُ مستعدًّا أن أدفع في الحبّة الواحدة خمسة شيكلات. انظر كم حبّة بندورة معي الآن. واحزر بكم اشتريتُ كلّ هٰذا العدد الكبير من البندورة؟». نَهَرني هٰذه المرّة بحزم، وهتفَ وهو يصكّ علىٰ أسنانه من الغيظ: «لا أريدُ أنْ أعرف كم حبّة معك، ولا أريدُ أنْ أحزر بكم اشتريتَها. إذا بقيتَ تصيحُ كالأهبل فستفضحنا». «أفضحكم؟! أنا معي بندورة. أقول لك معي بندورة يا رجل... أليسَ هٰذا من العجائب في غَزّة؟!». «من العجائب؟! والله أنتَ العجيب، يا رجل البندورة في غَزّة أكثر من عدد حبّات الرّمل، وبين كلّ عربةٍ بندورة وعربةٍ بندورة هناك عربةُ بندورة» وتركني ومضىٰ بعدَ أنْ يئسَ منّي. وتعجّبْتُ من صديقي القديم، وأحسستُ أنّه تغيّر عَلَيّ، ومن دون أنْ ألومَه كثيرًا أو ألومَ نفسي، خرجْتُ إلى السّاحة الأماميّة

لمستشفى الشّفاء أمام الواجهة الزّجاجية العالية جِدًّا والأنيقة، وتابعتُ صراخي: «يا سلام... يا سلام... معي الكثير من البندورة.. أينَ أنتِ؟ أريدُكِ أنْ تطبخيها لنا كُلّها اليوم، سنأكل أنا وأنتِ وابننا زكريّا، ولا أدري إنْ كانَ بَسّام سيقبلُ دعوتَنا هو الآخَر... يا سلام أينَ أنتِ يا سلام؟!». ولحقتْ بي سلام إلى الخارج، فلمّا رأيتُها اشتدّ صُراخي وهتافي بنشيد البندورة، ورأيتُها تُقبِلُ نحوي بسرعةٍ لم أرها تفعل ذلك من قبلُ، فلمّا صارتْ في مواجهتي تمامًا، رفعتْ ذراعَها إلىٰ أعلىٰ قدْرٍ مُمكن ثُمّ هوتْ بكفّها علىٰ وجهي فصفعتْني صفعةَ عشرةِ رِجال، حتّىٰ أدارتْ صفعتُها وجهي إلى الجهة الأخرىٰ، ووقعَ منّي كيسُ البندورة، وتناثرتْ حَبّاته على السّاحة، ورأيتُ الحمير المُصطفّة تمدّ أعناقها وتأكل البندورة، ثُمّ تضحك واللّون الأحمر يسيل علىٰ أسنانِها الأماميّة المُفلّجة، وهممتُ أنْ أنحني رغم الألم الّذي شعرتُ معه بأنّ نصفَ أسناني قد سقطتْ من فمي، وأَلُمّ حَبّات البندورة المتدحرجة، فلمّا أردتُ ذلك، كانتْ (سلام) فوقَ رأسي، تمسحُ بيدها المُبلّلة العرقَ عن وجهي، وأنا قابِعٌ تحتَ الدّرج الّذي في البهو الّذي اعتدتُ أن أنامَ فيه، ولمّا أردْتُ النّهوض من نومي على البلاط، هدّأتْني، وهتفت: «لا تقلق. يبدو أنّها كوابيس فظيعة جعلتْك لا تكفّ عن الصّراخ». «هل كنتُ أحلم؟!». «ليتَها أحلام، ماذا شاهدْتَ حتّىٰ تصرخ هكذا؟». «شاهدْتُ غزّة غير الّتي أعرفُها. غير الّتي تعرفينها...». «لا يهمّ، غَزّة هي غَزّة. هَيّا قُمْ، لقد حَضّرتُ لكَ كأسًا ساخِنًا من الشّاي».

قلتُ لها وأنا أستعيدُ أنفاسي: «هل ما نراه في أحلامنا يُمكن أنْ يتحقّق علىٰ أرضِ الواقع؟». «ما الفائدة من أنْ يتحقّق؟». «أنْ نعيشَ حياةً مختلفة».

«الحياة لا تختلف. رفاهُها لا يزيدُ الإنسان، وبُؤسُها لا ينقصه. المهمّ أنتَ كيفَ تريدُ أنْ تحياها؟». واعتدلْتُ في جلستي، وشربْتُ رشفةً من الماء الّذي قَدّمَتْه لي، وقلت: «الماضي يشدّني إليه يا سَلام». «الهروب من الواقع إلى الماضي، من الحقيقيّ إلى المُتخيّل لن يُجدي نفعًا». «وما الّذي يُجدي نفعًا إذًا؟». «أن نعيشَ حياتنا بأقلّ الخسائر. القُوّة النّفسيّة الّتي بداخلنا والّتي تجعل الحياة مُمكِنةً هيَ المُعوّل عليه، علينا أنْ ننظر إلىٰ غدنا. ليسَ لنا من الماضي شيءٌ لقد ولّىٰ بكلّ ما فيه، والرّجوع إليه موتٌ مُضاعف. وأمّا اليوم فنُناور الموتَ الّذي هو الوجه الآخر للحياة، لا لنؤجّل قَدَر الله ولٰكنْ لنرضىٰ به. وأمّا الغد فلماذا نقلقُ عليه ما دام يجري بأمرٍ من السّماء لا أنا ولا أنتَ ولا أيّة قُوّة في الأرض تستطيع أنْ تُغيّر مساره قيدَ أنمُلة». «وكيفَ ترين الغد؟». «أراه جميلاً لو قسمْناه على اثنَين».



(٢٩) لو انتظروا يومًا آخَرَ!

عادت الصّواريخ تُدمّر البيوت وتحرثُ الأرض. الموتُ لن يتركنا لحظةً واحدةً نُفكّر بأحلامِنا. فلْنَكْتُبْها إذًا، وحينَ تنتهي هٰذه الحرب يُمكن أنْ نقرأها، ويمكن بعدَ أنْ نقرأها أنْ نُحقِّقَها. أخذتُ دفترًا غير الّذي أكتبُ فيه، وفردْتُ أوراقه، ثُمّ شققتُ كلّ ورقةٍ إلىٰ نصفَين، فتشكّل لَدَيّ أكثرُ من مِئتَي ورقة، ثُمّ طُفْتُ علىٰ أقسام المستشفىٰ كلّه، أُعطي كلّ مريضٍ نصفَ ورقة، وأهتف: اكتُبوا أحلامَكم حتّىٰ ولو كانت مُستحيلة، لأنّها سوفَ تتحقّق يومًا ما. طُفْتُ علىٰ أقسام الجراحات الخفيفة، ثُمّ علىٰ مرضى السُّكّري والضّغط، ثُمّ على النّساء الحوامل في مستشفىٰ الولادة، ثُمّ علىٰ غُرَف العناية المركّزة، ثُمّ علىٰ قسم غسيل الكلىٰ، ثُمّ علىٰ قسم العمليّات الجراحيّة... على الرّجال والأطفال، على الصّغار والكِبار، اكتبوا أيّها الأحباب، اكتبوا ما يحدثُ معكم، ثُمّ أعيدوها إلَيّ، أَعِدُكم أنّني سأقرأ علىٰ مسامع الكون ما كتبْتُم، وستندهشون من عَطاء الله، إنّ آلامَكم لن تذهَبَ هدرًا، ولن تموت في هٰذه الغُرَف المُغلقة والمُعتِمة، سوفَ أجعل العالَم كلّه يسمع بها، وسأجعله يقفُ أمامكم مُعترِفًا، وتنحني قامتُه أمام قاماتكم خجلاً وندمًا. المهمّ أنْ تكتبوا!

في اليوم الثّاني وجدتُ أنّ نصفهم قد كتب، أخذتُ ما كتبوا، انتظرتُ البقيّة يومًا آخرَ أو يومَين حتّىٰ يكتبوا، إذا لم تكنْ لديكم أقلام فلا تتحجّجوا، اكتُبوا بدمائكم، إذا كان حِبرُ الكتابة دمًا فسيكون أصدقَ وأخلد. لٰكنْ علىٰ أيّة حال لا تبخلوا على التّاريخ بالكتابة!

«بَقِيَتِ ابْنتي خمسةً وعشرين يومًا تحت الأنقاض، ولم أستطعْ أنْ أُخرجها من هُناك، ابنتي هٰذه لا يتجاوز عمرها سبعةَ شهور، وأنا هُنا بعيدٌ عنها، ولا أدري إذا كانتْ لا تزال حَيّة، أو أنّ ملاكًا من السّماء أَشفقَ عليها وأخرجها من هناك. أشعر بالنّدم علىٰ أنّني تركتُها، لٰكنْ ماذا أفعل؟! لقد بقيتُ أسبوعًا أحفر عليها الرُّكام بأظافري، ولٰكنّني دخلتُ في غيبوبةٍ بعدَ اليوم السّابع، فلمّا أفقْتُ وجدْتُ نفسي هنا!».

« لا أعرفُ ماذا أقول. أنا لم أكتبْ سطرًا واحِدًا في حياتي. لٰكنْ يُمكن أنْ أقول إنّ الخوف أكلَ جماجِمَنا من الدّاخل. هل تعرف كيفَ يأكل الخوف الجمجمة؟! لا أستطيع أنْ أقولَ شيئًا آخر».

«وجدتُ نفسي وسط النار والمعركة. حريقٌ التهمَ بيتي بالكامل وفي داخله ثلاثةٌ من أطفالي، احترقوا أحياء. لا زلتُ أسمعُ صوتَ صَرَخاتهم في أُذني، أنا لا أريدُ أنْ أبقىٰ في هٰذا المستشفىٰ ولا أريدُ أنْ أعيشَ يومًا آخَر. لماذا لم أحترق معهم؟!».

« أنا جِئتُ من خيمةٍ للنّزوح إلىٰ هنا، نناشد الشُّرفاء علىٰ هٰذا الكوكب إذا ظلّ عليه شُرفاء أنْ يُوقِفوا هٰذه الإبادة. الجيش اللّعين يقصفنا في كلّ مكانٍ. يقصفوننا في البيت، في الشّارع، في السّوق، في البحر، في الخيام... الأماكن الّتي قالوا إنّها آمنة كانتْ فَخًّا من أجل أنْ نهربَ إليها فيُبيدونا عن بَكرة أبينا. لم يبقَ مكان يُمكن أنْ نحتمي به. هل من الصّعب أنْ يتوقّف هٰذا كلّه؟!».

«أنا أريدُ أنْ أكتبَ وصيّتي. أشعرُ أنّ الموت قريبٌ جدًّا. أعتذر. القولُ إنّه قريب يعني أنّ هناكَ مسافةً بيننا وبينه وإنْ كانتْ قليلة، وفي الحقيقة لا مسافة ألبتّة. الموتُ يتسلّل إلىٰ مهاجعنا، إلىٰ أَسِرّتنا، يدخل كالنّمل

تحتَ جلودنا، إنّه معنا. لا يُمكن الإفلات منه. ولٰكنّني أتمنّىٰ أنْ يأتي سريعًا، فقد تعبْتُ من توقّعه في كلّ لحظةٍ ثُمّ هو لا يأتي. أليسَ عنده رحمة، فَلْيصدُقْ مرّة واحدة ويقضِ علينا؟!».

«منذُ أسبوعٍ لم أنمْ ساعةً واحدةً. انتفختْ عُيوني من قلة النّوم حتّىٰ صارتْ كالجَمَل، كلّ ما أتمنّاه أن أضع رأسي على البلاط وأنام، أحرامٌ عَلَيّ أنْ أهنأ بنومٍ لساعةٍ دون أنْ يوقظني الخوف والقصف؟! الشّوارع الّتي خارج بيتي المُهدّم خالية، أنا وحدي في البيت لم أستطعْ أنْ أخرجَ منه، ظلامٌ في ظلام، لا أسمعُ إلاّ صوتَ الزّنانات، إنّها غير قادرةٍ علىٰ اكتشاف مكاني وهٰذا أسوأ ما في الأمر. في اليوم العاشر رأيتُ من خلال الشّقوق رجال الدّفاع المدنيّ، خلّصوني من بين أشداق الموت وجاؤوا بي إلىٰ هنا. لو انتظروا يومًا آخَر لما كانوا مُضطرّين إلىٰ فِعل ذٰلك، ولٰكُنْتُ ارتحتُ من هٰذا العذاب».

«جميع أهلي استُشهدوا، كانوا يقولون في البدايات مُحِيَتْ بعضُ العائلات من السّجلاّت، بالطّبع يقصدون عشرةَ أفراد. أنا مات مئة وعشرون من أهلي. أولادي جميعًا وبناتي، وزوجتي في القصف الأوّل. نزحتُ إلىٰ بيتِ عمّي فقتلوه وقتلوا كلّ أولاده، نجوتُ بأعجوبة، ومضيتُ مع عددٍ من أخوالي عبر الطّريق الّتي تُسمّىٰ آمنة، قصفونا في الطّريق فماتَ كلّ مَنْ لُذتُ بهم من أقاربي. وصلْتُ وقد نزفتُ دمي كلّه إلىٰ خيام النّازحين بعدَ أنْ سِرتُ ما يقربُ من عشرينَ كيلومترًا، التقيتُ بأناسٍ لا أعرفهم. لم تمرّ ثلاثة أيّام حتّىٰ قصفونا، استُشهد العشرات في الخِيَم الّتي كُنّا ننزلُ فيها، لا أدري لماذا نجوتُ من جديدٍ، وجِيْءَ بي إلىٰ هنا. لستُ خائِفًا من الموت، ولا حزينًا على الرّاحلين،

لٰكنّني نادمٌ وحزينٌ لأجلِ شيءٍ واحد، أنّ أبنائي استُشهِدوا ولم أتمكّن من أن أنظر في وجوههم نظرةً أخيرة، ولم أدفنْهم، لقد كان الرُّكام قبرَهم!».

«أتمنّىٰ شيئًا واحِدًا يا ربّ. أنْ أنام رُبع ساعة دون تعب أو جوع أو قصف، هل هٰذا كثير؟! أنتَ أيّها المُسعف الأحمق: لماذا تُرِيدُنا أنْ نكتب؟! ما فائدة أنْ نقول لمن ذبحونا: لقد كنتم رائعين في ذبحنا، إنّكم لم تُبقوا مِنّا أحدًا ليروي ما حدث؟!».

«أنا من مخيّم النّصيرات. لقد عشتُ الحروب السّابقة كلّها، وشاهدتُ فظائع كثيرة، ولٰكنْ مثل هٰذه الحرب لم أشاهد أبدًا، ولا أظنّ أنّ حربًا ستكون بفظاعتها. رأيتُ النّاس الّتي هربتْ من بيوتها تنامُ في الشّارع، في البرد والطّين والظّلام، ولا شيءَ تقي به أنفُسَها، لا شيء، ترتجفُ من البرد وليسَ لديها حتّىٰ كفنٌ تُغطّي به ضُلُوعَها. رأيتُ طفلاتٍ بعمر الورود يَنَمْنَ في الشّارع ولا أهل لهنّ. رأيتُ رُضّعًا أعمارهم سنتان أو أقلّ مُلقَوْن في الشّوارع ولا أحدَ يهتمّ بهم، لأنّ كلّ واحدٍ مشغولٌ بمصيبته، وفيه ما يكفيه من الألم الفظيع، رأيتُ شبابًا ينامون في مياه الصّرف الصّحّي، رأيتُ كلابًا تتشمّم النّائمين تظنّهم جُثَثًا هامِدة تريدُ أنْ تنهشها، ورأيتُ أولئك النّائمين يفتحون عيونهم من الرُّعب ولٰكنّهم لا يقدرون علىٰ فِعل شيء، لم تكنْ لديهم قُوّة ليهربوا أو ليدفعوا عنهم الكلاب، وكانتِ الكلاب تعرفُ ذٰلك، فتبدأ بِعَضِّهم ومَضْغِ لحومهم، وربّما لعنتْ هٰذه الكلابُ حَظّها لأنّها لم تجدْ في أجسادِنا لحمًا من أجل أنْ تعضّه!».

«كنتُ أمرّ في شارعٍ قريبٍ من مدرسةٍ للإيواء. كانتْ هناك عائلة مُكوّنة من أبٍ وأمّ وأربعة أطفال. كانوا لا يلبسون إلاّ ثيابًا خفيفة. كانوا يتجمّعون مُتعانِقين من أجلِ أنْ يُخفِّفوا عن أنفسهم بعضَ البرد بِتَلاصُق أجسادهم. اليوم مررتُ عليهم، فوجدتُ الأب والأمّ وثلاثة أطفال. سألتُهم عن الرّابع؟ فقالوا إنّه ماتَ من البرد!!».

«أنا أب. وتلكَ لعنتي. هل تعرفُ معنىٰ أنْ تكونَ أبًا؟! ابنتي تنظر إلَيّ وهي تصرخ: أنا جائِعة. ماذا أفعل لها؟ فكّرْتُ أنْ أقطعَ جُزءًا من لحمي وأشويه لها ثُمّ أُطعمها إيّاه. لم يمنعني من ذٰلك إلاّ أنّني لا أملك حطبًا من أجلِ أنْ أوقدَ عليه وأشوي لها جُزءًا منّي. إنّها لا تتوقّف عن البُكاء. صوتُها يذوي. أعرفُ أنّها ستموتُ أمام عينَيّ ولن أقدر علىٰ فِعْلِ شيءٍ لها!».

«ابني مثل البَفْتة. أشقر. حلو. في عُمر الزّهور. هربْتُ به أنا وبقيّة عائلتي. كانتْ إصابتُه مباشرة. تركْنا رِجلَه خلفَنا وهربْنا علىٰ أمل ألاّ نفقده كلّه. كانَ يبكي طَوال الوقت، ودمه ينزف. حاولتُ الاتّصال بالإسعاف، لم يكنْ هناك إرسال. انتظرْتُ رحمة الله أنْ تسقطَ علينا ولـٰكنّنا بقينا وحدَنا. كانَ دمه ينزفُ دون توقّف. ظلّ ينزف حتّىٰ لم يبقَ فيه قطرة دم واحدة، تصفّىٰ دمه كلّه ومات! لم أنتظر أحدًا من أجل أنْ يدفنه، حفرتُ له قبرًا ببعضِ الحجارة المُتناثرة، وبأصابعي وأظافري ودفَنْتُه أمام أُمّه وأخَوَيه».

«لو كان معي شيكل واحدٌ لاشتريتُ لها ربع رغيف، أو قِطعة بسكويت، أو حبّة (مولتو). لـٰكنّني لا أملكُ هـٰذا المال الكثير. بقينا نمشي تحتَ أزيز الرّصاص حتّىٰ وصلْنا إلىٰ مُخيّم للنّازحين.فرحْتُ سنجدُ ولو شيئًا نأكله،

لكنّ ابنتي لم تحتمل الجوع والطّريق الطّويلة والألم فماتت على أبواب المُخيَّم!».

«المعابر مُغلَقة. الدّواء لا يدخل، لعنة الله عليهم. الطّعام لا يدخل، لعنةُ الله عليهم. أحلمُ أنّهم فتحوا المعابر ولو نصفَ نهار، وأنّ عُلَب الحلاوة قد دخلتْ، وأنّنا حصلْنا على عُلبة، تخيّل أنّنا يُمكن أنْ نحصلَ على علبةٍ كاملة أو حتّى نصف عُلبة، إنّه حُلمٌ كبير، منذُ متى ونحنُ نحلم أحلامًا بهذا الحجم؟ لكنّ المعابر لم تُفتَح، ولم تدخل منها ولو نسمةُ هواءٍ واحدة، نحن محشورون في قِطاع الموت المُسَمّى قِطاع غزّة كالحيوانات، مَنْ قال كالحيوانات، إنّ الحيوانات اليوم هي الّتي تتحكّم فينا، وتُغلِقُ علينا هذه البوّابات اللّعينة».

«بُكاءُ طفلي هو بُكاء كلّ طفل. لم أعدْ أعرفُ إنّ كان طفلي يبكي من الجوع أو من البرد أو من الألم أو من العَطش؟ إنّه يبكي وكفى. هل يحتاجُ بكاء الطّفل ذي الأربع سنواتٍ إلى تفسير؟!».

«أنا من سُكّان دير البلح. ظلّ عندنا أملٌ بالحياة لأنّنا بعيدون نسبيًّا عن الشّمال، إنّه أمل الغريق المُتعلّق بقشّة. غيرَ أنّه في فجر أحدِ الأيّام رأينا عشرات الدّبّابات تُحاصر المكان الّذي نحنُ فيه، وبدأنا نسمعُ أزيز الرّصاص والقذائف. كان الجيشُ يتحرّك نحونا ونحنُ نراه. لم يكنْ هناك من مهرب. لا أدري كيفَ أصفُ شعورَ واحدٍ يرى الموتَ يتقدّم نحوه ببطء، مرّتِ السّاعة الّتي تفصلُنا عنه أطول من يوم القيامة، صارتِ الدّبّابات على بعدِ عشرات الأمتار، صارتْ أمامنا مباشرة، دخلتْ تحتَ جِلْدنا، صارتْ فينا. ثُمّ ماذا؟ دعونا الله أنْ يرحمنا، أنْ يأخذنا جميعًا إذا كان ذلك قدرَنا، ولكنّه أخذَ عائلتي كُلَّها وتركني!».

«كان لي جارٌ طيّب. والنّاس كلّها تعرفه، فهو طبيبٌ مشهورٌ وعبقريّ. كانوا يطلبونه قبل الحرب بالاسم ليُجري لهم العمليّات الجراحيّة في المُستشفيات الكُبرىٰ. رأيتُه اليوم يدور بينَ الخِيَم، وهو يتكفّف النّاس، يدخل كلّ خيمةٍ ويسأل مَنْ فيها إذا كانوا يريدون معالجةَ أحدِ جرحاهم مقابلَ رغيفِ خبز. فإنّ لم يكنْ عندهم خُبز، كان يُعالجهم من أجل رُزمةٍ صغيرةٍ من الحطب، يُوقدِها ليُدفِئَ عليها يدَيه البارِدَتين بعضَ الوقت».

«لماذا تريدون أنْ تسمعوا قِصّتي؟ القصص في غزّة تتشابَه وتتكرّر. علىٰ أيّة حال أنا أريدُ أنْ أكتبها لعلّني أنسىٰ جُزءًا من المشهد الفاجع الّذي عِشتُه. كنتُ أنتظر ابني على الطّرف المُقابل للشّارع، أعرفُ أنّ هناكَ قنّاصين فوقَ أسطح المنازل المُهدّمة، كان عليه أنْ يُجرّب حَظّه فيعبرَ الشّارع علىٰ أمل أنْ ينجو. كنتُ أصرخُ عليه: انخفضْ واجرِ بسرعة. فعلَ ما قلتُه له، لٰكنّه ما كادَ يركضُ مترين أو ثلاثة حتّىٰ أصابتْه رصاصةٌ فجّرتْ رأسَه فخرّ صريعًا يتخبّط في دمه. ابني أمامي يُقتَل ولا أقدر أنْ أفعل له شيئًا. توقّف الوقت، وانتُهِبَ العقل، ماذا أفعل؟! همدتْ حركتُه في بركة دمائه بعدَ دقيقةٍ مرّتْ كأنّها دهر وأسلَمَ الرّوح. بقيتُ جامِدًا في مكاني من الصّدمة، لم أقدرْ حتّىٰ علىٰ سحبِ جُثّته. نظرتُ إليه وعيوني تنزف، وأرسلتُ له قُبلةً في الهواء، ونحبْتُ كطفل، ومشيتُ أجرّ رجلَيّ وقد كبرتُ في دقيقة عشرينَ عامًا، لا أدري كيفَ قطعْتُ الطّريق وتركتُه ورائي. أكثرُ ما يعذّبني ليسَ استشهادَه، فأنا مؤمن بقدر الله، ولٰكنْ مَنْ سيُصلّي عليه، وَمَنْ سيدفنه؟!».

«أنا أحلم. أنا إنسان. كلّ ما رأيتُه من فظائع ليسَ حقيقةً، أُحدّثُ نفسي بأنّ كلّ ما جرىٰ كان حُلُمًا سيئًا في ليلٍ طويل. إنّ كلّ الّذين ماتوا لم يموتوا، بل ذهبوا في إجازة، في عطلة، في رحلة، وسيعودون قريبًا من غيابهم، وسيملؤون المكان بالضّحكات. ما زال عقلي غير قادرٍ أنْ يُصدّق أنّ ما حدثَ قد حدث؟! هٰذا فوقَ الاحتِمال. سنذهب أنا وأصدقائي الموتىٰ بعدَ أنْ يعودوا إلىٰ شاطِئ غزّة، وسنلعبُ كثيرًا. أو نذهب إلىٰ مكانٍ ليسَ فيه رصاص، ولا أزيز، ولا حرائق، ولا تفجيرات، مكان هادِئ وجميل ومليء بالأشجار، وسنسهر حتّى الفجر ونضحك».

قِصَصُنا الّتي تبدو من الخيال، هي حقيقةٌ دامغة أمام هٰذا العالَم الّذي يعيشُ زيفَ حقوق الإنسان. فداءً لأحذية الشّهداء، فِداءً لأرواحهم المُحلّقة في سُبُحات السّماء، ولنظراتهم الودودة الأخيرة سنظلّ نكتب.



(٣٠) ما لا تتّسع له الذّاكرة تتّسع له الكِتابة

ليسَ بين الرّصاص مسافة. ليسَ بين الصّرخات هُدنة. ليس بين أحزاننا فرحة. كلّ شيءٍ يسيرُ وَفق خُطّة كونيّة. بقدرٍ إلهيّ. أحيانًا أشعرُ أنّ ما أراه ليسَ حقيقة، أو أنّه جزءٌ من مشهدٍ حقيقيّ ولٰكنّه في عالَمٍ مُوازٍ. قد يكون في كوكب آخر، أو يحدثُ لبشرٍ لٰكنّهم ليسوا مثلنا نحن، بشرٍ آخَرين في مكانٍ غير هٰذا، أوّ أنّ حجاب الجنّ قد هُتِك، فنحنُ نرىٰ ما يحدثُ في عالَم الجنّ والشّياطين. صعبٌ جِدًّا تصديق ما يجري. كيفَ يُمكن أنْ تشكّ بما ترىٰ وتسمع. نحنُ بالفِعل لا نُصدّق كلّ ما نسمع، ونشكّ بكلّ ما نرىٰ!

هُرِعْنا إلىٰ حيثُ حرثت الطّائرات مكانًا قريبًا من المستشفىٰ. من هنا يُمكنني أنْ أتخيّل صرخات الضّحايا، أشلاؤهم المتناثرة. وجوههم المُغطّاة بالدّم، وصدْمتهم الكبيرة: ماذا جرىٰ؟ وكيفَ جرىٰ؟!

حجز بيننا وبين المكان دُخانٌ كثيفٌ أعقبَ القصف، لم نكنْ نرىٰ إلاّ شجرةَ سروٍ عاليةً يمُرّ عبرها الدُّخان، ويُؤيّده اللّيل بإعتام المكان. حينَ وصلْنا كانَ النّاس يركضون في كلّ اتّجاه، يُوَلْوِلُون، يَخبطون أياديهم علىٰ صدورهم أو علىٰ رؤوسهم، كان أهل الحيّ قد وصلوا قبلَنا، ورأيتُهم يحملون بعضَ الجرحىٰ والشّهداء في حرامات، ويركضون بهم إلىٰ أملٍ في النّجاة ولا أمل، حينَ سمعوا زعيقَ سيّارات الإسعاف توجّهوا نحونا. وبدؤوا برصّ الجُثث في السّيّارات.

رأيتُ أُمًّا تقبضُ علىٰ شَكْلة ابنتها: «هاي رَبْطة شَعرها»، وهي تصرخ صراخًا فجائعيًا، ثُمّ يخفت الصّراخ بغتةً مثل محرّك نفدتْ بطّاريته فجأة حتّىٰ تسقط. حملَها زوجُها هي وابنتَه ومضىٰ بهما إلى السّيّارات.

في مشهدٍ لا يُمكن أنْ أنساه ولو بعدَ مئة عام، كانتْ هناك ذراعٌ تتحرك فوق الأرض، وكانت الذّراع ليستْ ممدودةً على اتّساعها، بل هي ملتصقة بالتّراب كأنّها مُسجّاة فوقَه، وكانتْ مَحنيّة، وكانتْ بقيّة الجسد كلّه تحتَ التّراب. وكانت الذّراع تتحرّك مِمّا يعني أنّ الطّفلة حَيّة، وأنّ بينها وبين الاختناق من الرّمل والباطون المدفونة تحته دقائق قليلة إذا لم نتمكّن من رفع هٰذا الرّكام كلّه الّذي يُغطّيها فسنفقدها لا محالة وستموتُ اختِناقًا. كُنّا نعرف من حركة الذّراع اتّجاه بقيّة الجسد المدفون، فتحلّقنا فوق الجهة المغايرة لاتجّاه الجسد حتّىٰ لا ندوسَه، ونضيفُ إلىٰ ثِقَل الباطون ثِقَل أجسادِنا ونُعجّل بموتها، وتجمّعْنا عند الجهة الّتي اعتقدْنا أنّها جهةُ رأسِها، ورُحنا بأيدينا وبحذر نُزيح الباطون والطّوب والحديد والتّراب والعَفر والرُّكام وصرتُ أقول لها: «بطَلَة يا عمّو بطلة.. لا تخافي رَح نطلعك». ولا أدري إنْ كانتْ تسمعنا فرأسُها كلّه كان مدفونًا في الرّدم، ولا شَكّ أنّنا كُنّا نُشجّع بهٰذه العبارات أنفسنا قبلَ أنْ نُشجّعها. وبخبرتنا الطّويلة في إزالة الرّكام تمكنّا من إزالة الأنقاض الّتي كانتْ تتكدَّسُ فوقَ وجهها خلال دقيقتَين بالفعل، وظهر أوّلاً خَدُّها الأيمن، كان الدّم قد تجلّطَ فوقَه، واختلطَ الأحمر بالرّمادي فشكّل مزيجًا غريبًا علىٰ ضوء الكشّافات المركوزة فوقَ خُوذِنا، ثُمّ ظهرَ أنفُها، على الأغلب كان مكسورًا، ثُمّ عيناها، تنفّسَتْ ببطءٍ كأنّ هٰذا آخَر ما كان موجودًا في رئتيها علىٰ حافَة الموت، ثُمّ أخذتْ نفَسًا آخَر أعمق، ولا شَكّ أنّها

بدأتْ تستعيدُ الحياة الّتي أرادتْ أنْ تهربَ فوقفتْ على باب الموت ثُمّ عادَتْ. استخدمنا المُعقّمات والأدوية الّتي بحوزتنا، ونَظّفْنا عينَيها، حينَ فتحَتْهما، لم ترَ شيئًا، كان الظّلام سيّد الموقف، ولكنّني رأيْتُهما، رأيتُ سوادَ الموتِ يغور فيهما ويذوب، ورأيتُ نور الحياة يلمعُ فيهما ويُشرِق، وشيئًا فشيئًا يصفو أكثر، واطمأننّا قليلاً؛ لقد استعدْناها، وهذا أهمّ شيء، ثُمّ بقينا أكثرَ من ساعةٍ نُزيح الرّدم عمّا تبقّى من جسدها!

كان أهلُ المكان قد ملؤوه، كانوا يجرّون الجثث، يحملون الجرحى. يُساعدوننا، لولا تعاضد النّاس، وجُهدهم في المساعدة لإنقاذ مَنْ يُمكن إنقاذه لَمَات ضِعف هذا العدد، ومع ذلك لا أدري مَنْ ظلّ حَيًّا منّا، مَنْ لم تقتلْه طائرات الجيش الإسرائيليّ مباشرة قتلَتْه بأنْ جعلتْه يعيشُ مع ذكرى الرّاحلين، ويتحسّر على فَقْدِهم أمام ناظِرَيه دون أنْ يتمكّن من مُساعدتهم، نحن مقتولون على أيّة حال!

يصرخُ ناجٍ ملأ الدّم وجهه في خطوطٍ مُتعرّجة سميكةٍ أمام الكاميرا الّتي ترصدُ بها (سلام) المشهد: «أنا ذهبْتُ لأبحثَ عن شيءٍ يأكلُه صغاري. وأنا ماشٍ بالشّارع سمعتُ صوتَ الزّنانات. عرفتُ أنّها النّهاية. ركضتُ باتّجاه البيت الّذي يلتجِئ فيه صغاري، لكنّني لن أكونَ أسرعَ من الصّاروخ. قصفهم فاستُشْهِدوا جميعًا. وأنا أخرجْتُ رجلي من سيخ الحديد الّذي هوى مع كتلةٍ من الباطون عليها. يا الله نحنُ لن نطلب عونًا من العرب، ولا أنْ يُوقِفوا الحرب لأنّنا جرّبْناهم. نحنُ نطلبُ منك يا ربّ أنْ توقف الحرب وترحمنا».

في زاويةٍ أخرىٰ كان عمودٌ إسمنتيّ بأكمله قد انهار، رأيتُ فتًى قَدّرْتُ أنّه في الرّابعة عشرة يجلسُ بيأسٍ عنده ويركنُ رأسَه إليه، ويخفضُ عيونه الّتي تنهمل بالدّمع الّذي يسيل ببطءٍ علىٰ خدَّيه وهو يهذي: «آه يمّا... آه يا حبيبتي...». أمّه ماتت من أمسِ هنا، ولم يتمكّن أحدٌ من إخراجها.

مشهدٌ آخَر لا يُنسَىٰ، ولا أدري إنْ كانتْ ذاكرتي ستظلّ صالحة لكي لا تنسىٰ هٰذا العدد المَهول من المشاهد. أشعرُ أنّ كلّ مشهدٍ مأساويّ يدفع أخاه الّذي قبلَه أو يُزحزحه قليلاً عن عرشِ الذّاكرة ويجلسُ مكانه، أخشىٰ أنّ تتابع الأهوال سيجعل ذاكرتي لا تحتفظُ إلاّ بالمشهد الأخير، فكلّ مُصيبةٍ أكبرُ من أختها تُنسِيها، وفي غزّة أنَت لا ترىٰ مصيبةً أقلّ من سابقتها، نحنُ في كلّ يومٍ ننتقلُ إلىٰ مستوًى أشدّ هولاً وأفظعَ وأبشع!

كانت الأمّ قد صَفّتْ أبناءَها الخمسة الشُّهداء بترتيب أعمارهم. بدأتْ بالصّغير وانتهتْ بالكبير. ثُمّ راحتْ تمسحُ وجوههم من آثار الدّم، بعضُ الوجوه كانت متفحّمة فلم تكنْ تمسحُ غير الفحم. ثُمّ أخذتْ تُرطّب شفاههم بالماء، ثُمّ راحتْ تُسرّح لهمّ شُعُورَهم، وانهمكتْ في تزيينهم، وهي تهتف: «ستذهبون جميعًا إلى الجنّة، عليكم أنْ تذهبوا إليها بكامل زينتكم يا أحبّائي. سلّموا علىٰ أمّي، علىٰ جدّتكم، ستجدونها في استقبالكم وهي تلبسُ أجملَ ثيابِها. لماذا ذهبْتم وتركتموني؟! لو أنّكم تركتم لي الصّغير، واحدًا فقط، لماذا أنتم بخيلون إلىٰ هٰذا الحدّ، كنتُ سأقبلُ لو ذهبَ أربعةٌ منكم إلى الجنّة، وبقي معي واحدٌ يواسيني في هٰذه الدُّنيا».

غير أنّ ما لا تتّسع له الذّاكرة تتّسع له الكِتابة، ولهٰذا نكتب. أمّا ما لا يُمكن أنْ يوصَف، فمشهدُ الأمّ الّتي دفَنَها الرُّكام كلّها تحته وأبقىٰ علىٰ

ذراعها فوقَ الأرض، كانتِ الذّراع تحضنُ طفلَها ذا الثّلاثِ سنوات، وكان الطّفل كلّه فوقَ الأرض باستثناء جزءٍ من ساقه اليُمنىٰ، ولم يكنْ حَيًا. بدا المشهد الحزين غير قابلٍ للفهم، كأنّه منحوتة صخريّة، أو جزءٌ من الجثث المُحنّطة، أو لوحة سورياليّة يستمتعُ النّاس بالنّظر إليهم وهم يُردّدون عبارات الأسف!

عُدْنا منتصفَ اللّيل. كان معنا أكثر من ثلاثين شهيدًا. وجدْنا أمامنا طوابير أخرىٰ من الشُّهداء. ألا ينتهون؟! لماذا يتسابق الشّهداء علىٰ أنْ يرحلوا، ألأنّهم عرفوا ما عند الله؟ أمْ أنّهم لم يعودوا يحتملون حياة الذّلّ الّتي نُسامُ بها؟! أمْ لأنّ أقرانَهم الّذين سبقوهم إلىٰ هُناكَ دَعَوهم فلبّوا نِداءَهم. بعضُ النّداءات لا يُمكن أنْ تصُمَّ أُذُنَيكَ عنها، بعضُ النّداءات لا مناص من الاستِجابة لها!

كانتْ هناك حوالي ستّ عشرة جُثّة مُمدّدة في السّاحة الّتي تفصل بين قسمَين من أقسام المُستشفىٰ. السّاحة الّتي يُنقَل إليها الشُّهداء إذا كان عددهم كبيرًا. يبدو أنّ هٰؤلاء المُمدّدِين هنا كانوا من عائلة واحدة، رأيتُ رجلاً سبعينيًّا بدا أنّه أبٌ لهؤلاء الرّاحلين وجَدُّهم، كان يطوفُ عليهم من أوّلهم إلىٰ آخرهم، وهو ينشجُ بصوتٍ حزين: «قابِلوا الرّسول وقولوا له: يا رسول الله أمتك خذلتْنا، أمتك تركتْ شعب غزّة وحده، أمتك مَنْ يُسمّون أنفسهم مسلمين وعربـًا تركونا لليهود يذبحوننا وهم يتفرّجون...». وظلّ يكرّر ذٰلك حتّىٰ جاء أحدُنا وضَمّه إلىٰ صدره ليهدأ قليلاً وأخذه بعيدًا، فيما كنتُ أفكّر بـ (نبهان) من أجل أنْ يُصلّي عليهم، فما كادَ يخطُرُ في بالي حتّىٰ ظهر لي وهو يذرع الخُطا، ولمّا صار عندي هتف: «لا تقلق، سأُصلّي عليهم وأدعو لهم. عظّم الله أجركم يا فرج». خفضْتُ رأسي،

وعَبَرَتْني موجةٌ من الحزن، وشعرتُ بالفِعل أنّ هٰؤلاء أهلي، مع أنّني لم أرَ حتّىٰ وجوههم، ولا أعرفُ منهم أحدًا، وليسَ لي أهلٌ منذُ حوالي أربع سنوات، غيرَ أنّ الإنسان محتاجٌ إلىٰ أنْ يكونَ له أهل، وأنْ يسمع كلمةً طيّبةً تُعزِّيه حتّىٰ ولو كانتْ في أهلٍ مُتخَيَّلين!

شابٌ ثلاثينيّ، كان يبكي علىٰ أخته الشّهيدة المُسَجّاة: «كانتْ تتمنّىٰ أنْ تُصبح طبيبةً. حصلت هٰذه السّنة علىٰ معدّل عالٍ وكانتْ من الأوائل، رُحْنا سَجّلْناها، كانتْ تحلم أنْ تلبس معطف الأطبّاء الأبيض. يا الله... ها هي لبست الكفن الأبيض». ثُمّ انهار.

فيما كانتْ أخرىٰ تهوي علىٰ قَدَمَي أبيها الشّهيد، وتقبلّهما وتصرخ: «لم نستشهد معك يا حبيبي يابَه، ولٰكنْ قسمًا سنأخذُ بثأرك». ثأر غزّة طويل، طويلٌ جِدًّا. وإنّه قادِمٌ مهما أوغلَ الزّمن، ونَسِيَه النّاس، لأنّه في نفوسِ الثّكالىٰ والأيامىٰ لا يُمكن أنْ يُنسَىٰ، إنّه ثأرٌ كلّما تقدّم الزّمن ازدادَ صفاءً ولمعانًا، وتعتّق حتّىٰ صارَ أوضح من الشّمس، يومُ الثّأر قادم.

خُذْ من دمائِنا حتّىٰ ترضىٰ. والحمد لله الّذي أكرمنا باستشهادك. إلىٰ أينَ تذهب؟ ستذهبُ إلىٰ مَنْ هو أرحمُ بِكَ مِنّا. نحنُ لا نملكُ لكَ ما ينفعك، أمّا الله الّذي آثرْتَه علينا، وذهبْتَ إليه مُبتسِمًا فسيُكافِئك علىٰ إقبالِكَ عليه وإدبارِكَ عنّا. وإذا كافأ الله أحدًا فهل يُمكن أنْ يتخيّل المرء نعيمًا كهٰذا؟!

سمعتُ أنّ قِمّة عربيّة عُقِدتِ اليوم من أجل النّظر في الحرب علىٰ غزّة، فأردتُ أنْ أشتم شتيمةً صعبة وكبيرة، ولٰكنّني توقّفْتُ، وبدلاً من ذٰلك استلقيتُ علىٰ ظهري ودخلتُ في نوبةٍ من الضّحك الهستيريّ،

والدّموع تتساقطُ من عينَيَّ! وتخيّلتُ أنّني أدور بينهم وأطرحُ عليهم بعضَ ما يدور في ذهني من تساؤلات: كيفَ هو لون الخمر الذي يُصَبّ في كؤوسكم، هل يُشبِه لون دمائنا؟! كيفَ هو طَعمُ اللّحم المشويّ الّذي يُقدّم لكم في جِفانٍ ضَخمةٍ مُكلّلة، هل هو يُشبه لحمنا المشويّ بنيران العدوّ وحِممه؟! كيفَ هي رائحة البخور والمسك الّتي تفوح من ثيابكم ومن مَجامرِكم، هل تُشبه رائحة الدّخان الّذي يتصاعد من النّار الّتي صُبّتْ فوقَ رؤوسنا؟!



(٣١) إرادةُ الحياة أقوى من صوتِ الموت

تقلَّصَ عددُ الأطبّاء والمُمرّضين الّذين يعملون في المستشفىٰ. استشهد كثيرٌ منهم. متّىٰ سيأتي دوري؟ أنا أنتظره في كلّ لحظة. في قِسم الطّوارِئ لم يبقَ إلاّ أنا وبسّام وزكريّا وخمسة أطبّاء نُعالِج في اليوم الواحد أكثر من ثلاثمئة مُصاب، كلّهم يقفون علىٰ حافَةِ الموت، جراحهم تُراوِدُ الفَناء، تستجديه أنْ يأتي بخبطةٍ واحدة فيبعث بهم إلى الآخِرة. صارتِ الدّيدان تخرجُ من أجسادِ المُصابين. الدّيدان تتّخذ من تلك الأجساد مرتعًا خصبًا تتغذّىٰ عليه. الأقدام تعفّنتْ. الجروح تورّمتْ، والدّيدان تسرحُ وتمرحُ فيها ونحنُ نبكي، لا شيءَ يُمكن فِعلُه. العجز صارَ سيّد المشهد. الماء شَحّ كثيرًا، بعضُ الجرحىٰ لا يجدون قطرةً واحدةً يشربونها، ولا حتّىٰ يُرطِّبون بها شفاههم، صِرْنا نُرطّبها بالمحاليل، صِرْنا نشربُ هٰذه المحاليل، وننتظر الماء، والماءُ لا يأتي، هل هٰذا أكبرُ مستشفىٰ في غَزّة؟! هل يُمكن أنْ تُصدِّقوا أنّ أكبادَ نُزلائه قد يبستْ وجَفّتْ ولا ماء، بعضُ النّزلاء صاروا يستجدوننا أنْ ندفنهم وهم أحياء، لقد وصلْنا إلىٰ هٰذه المرحلة من اليأس، يستنجدُ بي أحدهم: «فرج. أنا أموت. لم أعدْ قادِرًا علىٰ أنْ أحتمل المزيد، أنتَ ترىٰ أنّ الدّيدان تملأ جسدي، وأنّه لم يعدْ أحدٌ من أهلي حَيًّا، وأنّ بيني وبين الموت خطوةً واحدة، ألا ترحمني وتتّخذها، انزع هٰذا المحلول الأبيض، واصبرْ عَلَيّ عشر دقائق، واقرأ علىٰ روحي شيئًا من سورة (يس)، ثُمّ لمّا تنقطعُ أنفاسي، كَفّنّي، وارمِني

مثلَ البقيّة في قلبِ شاحنةٍ اعتادَتْ أنْ تأخذَ الجُثث المجهولة، واجعلْها تدفنني في أبعدِ مكانٍ، إذا كان مُمكِنًا قربَ البحر فستكون قد تفضَّلْتَ عَلَيّ، لعلّني أشمّ نسيم البحر النّديّ فتترطّب به رِئتاي اليابِستان. أرجوك ألا يُوجَد في ديننا ما يُسمّىٰ بالقتل الرّحيم، افعلْها دون تردّد، كلّ ما أتمنّاه حينَ تفعلها أنْ أكون ضِمْنَ الموتى الّذين سيُصلّي عليهم نبهان، نبهان رجلٌ طيّب، وهو صديقُك، وصديق الرّاحلين جميعًا، إنّه لن يبخل علَيّ بأربع تكبيرات، أليسَ كذٰلك؟!».

لم يكدْ يُتِمّ كلماته حتّىٰ قصفوا المستشفىٰ. ابتسمَ ابتسامة المُنتصر، سيموت الآن موتًا إلهيًّا رحيمًا. رأىٰ أُمّه على الضّفّة الأخرىٰ تمدّ له يدَها وتدعوه إليها بحنان. كان القصفُ شديدًا. هُرِعْتُ لأستطلع ما حدث. كان الأمر واضِحًا، لقد عبرتُ البوّابة خلال الرُّكام، إنّهم يقصفون المستشفيات يا الله، أيُّ جنونٍ هٰذا؟!

لم يكنْ قسمُنا الوحيد الّذي استُهدِف. لقد استهدفوا مبنى الولادة بشكلٍ مُباشِر. واستُشهِدتْ ثلاث ممرّضات على الفور، وأربعُ أمّهات، وعشرةُ أطفال بعضُهم كان في الخَداج. واضحٌ أنّهم يريدون قتل الأطفال والمواليد الجُدُد، إنّه الحِقدُ عليهم من أوّل يومٍ يأتون فيه إلى الحياة، لأنّهم يعتقدون أنّهم سيصبحون أعضاءً في المُقاومة حينَ يكبرون ويُقاتِلونهم. إنّها حربٌ دينيّة، يقتلون أطفالَنا بتوراتهم، مَنْ قال إنّهم ليسوا كذٰلك فهو جاهلٌ وأحمق، إنّ قتلَنا وقتل أطفالنا بالأخصّ هي مهمّة مُقدَّسة تحضُّهم عليها نصوصوهم المُحرّفة، إنّهم يقرؤون: «وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي المَدينةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْ طِفْلٍ وَشيخٍ حتَّى البَقَر والغَنَم والحَمِير بِحَدِّ السَّيف». «أَحْرِقُوا جَمِيعَ مُدُنِهم بِمَساكِنِهم وَجَمِيعِ حُصُونِهم بِالنَّار».

«اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفالِ وَكُلَّ امْرَأة». «أَحْرِقُوا حتّىٰ بَنِيهم وَبَنَاتِهم بِالنَّار». «فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّان تِلك المَدينةِ بِحَدِّ السَّيفِ وَتُحَرِّمها بكلِّ ما فيها مَعَ بَهائِمِها بِحَدِّ السَّيْفِ. تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِها إِلىٰ وَسَطِ ساحَتِها وَتَحْرِقُ بالنَّارِ المَدِينةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِها كامِلةً لِلرَّبِّ إِلَهِك». «وَأَمَّا مُدُنُ هٰؤلاءِ الشُّعُوبِ الّتي يُعطِيكَ الرَّبُّ إِلَهكَ نَصِيبًا فَلا تَسْتَبْقِ مِنْها نَسَمَةً مَا». «فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ وَحَرِّمُوا كُلَّ ما لَهُ ولا تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلاً وَحِمَارًا». هٰذه هي عقيدتهم؛ فكيفَ نسلم؟!

نحنُ مُحاصَرون في المستشفَىٰ. لا أدري كم يستمرّ هٰذا الحِصار. كلّ مَنْ يخرج يستقبله الموتُ على البوّابة وفي السّاحات. الكهرباء انقطعتْ. ليسَتْ هٰذه حالَ مستشفانا فحسب، بل إنّهم قصفوا المستشفىٰ الأندونيسيّ، ومستشفى الصّداقة التّركيّ الّذي يُعالَج فيه عشرة آلاف مريضٍ بالسّرطان، وتركوهم من دون دواء. القصفُ لا يزال مُستمرًّا. ونحنُ نحاول الاحتِيال على الموت، ولا ندري ماذا نفعل!!

غامَرَ الكثيرون، خرجوا من المستشفىٰ، نزحوا وهم يجرّون عَجَلات الأسرّة الّتي تحمل ذويهم، أينَ يذهبون وهم إذا ما أرادوا النّجاة يلجؤون إلى المستشفىٰ، صار المستشفىٰ وجهًا غاضِبًا قبيحًا من وجوه الموتِ المتعدّدة. غيرَ أنّ الحياة الهاربة تستحقّ المحاولة. يخرجون بالأسرّة كأنّهم في لُعبةِ حَظٍّ، يُقصَفون أو يُقنَصون، كان يُفلِتُ عددٌ منهم، ويسقطُ عددٌ أكبر يتخبّط في دمائه!

صارتْ غُرَف المستشفىٰ مليئة بالغُبار. الستائر احترقتْ. النّوافذ انخلعتْ. عُلَب المحاليل تناثرتْ على الأرض. الكراسيّ انقلبتْ علىٰ

وجهها. الأسقف تدلّتْ واندلقَ ما في داخلها، والنّاس لا زالوا يهربون، إلىٰ أينَ يهربون؟!

تأتيني (سلام) مرعوبة: «يجب أنْ نخرجَ من هنا». «إلىٰ أين؟!». «إلىٰ أيّ مكان». «لا يوجَد لي مكانٌ آخر. هل تريدين منّي أنْ أهرب؟». «هل تريدُ أن تموت؟!». «كلُّنا سنموت. أنا أختار موتي هنا». تشدُّني من ذراعي: «النّاس محتاجون إليك حَيًّا». «النّاس محتاجون لي هنا». «لا تكنْ عنيدًا. تستطيع أنْ تُعالِجَ النّاس في أيّ مكان». «قلتُ لكِ لن أغادرَ هٰذا المكان، إذا أردْتِ أنّ تهربي أنتِ فافْعلي». وخَفَتَ حماسُها، وناستْ نبرةُ صوتها، وقالتْ بشجن: «إلىٰ أينَ أهرب بالفعل؟ كنتُ أريدُ أنْ أهربَ أنا وأنتَ لعلّنا نجدُ فرصةً في مكانٍ آخَر، ولٰكنْ لا فائدة من الهروب كما قلتَ، فأنا مقطوعةٌ من شجرةٍ مثلك». وجلستْ على الأرض، ودفنتْ رأسَها في صدرها وعقدَتْ ذراعَيها فوقه وراحتْ تبكي.

تركتُ (سلام) تبكي، ورحتُ أركضُ كالمجنون بين الأقسام، مررتُ علىٰ قسم الجراحة، رأيتُ (زكريّا) مع مجموعةٍ من الأطبّاء يُجرُون عمليّة جراحيّة لأحدِ المرضىٰ دون كهرباء، وبالطّبع دون تخدير، همسْتُ لنفسي: «ماذا يفعل هٰؤلاء المجانين، ألا يسمعون صوتَ القصف؟!». ثُمّ أردفْتُ وأنا جامِدٌ مكاني علىٰ مقربةٍ منهم دون أنْ يلتفتَ لي أحد: «إنّ إرادة الحياة أقوىٰ من صوتِ الموت».

كان قسم الولادة هو الأصعب في المعادلة، الأقسىٰ في مواجهة المصير الكارثيّ، إنّهم نساءٌ حوامل وأطفال. لا حول ولا قُوّة لهم. يستطيع الشّباب أنْ يتدبّروا أمرهم، أمّا هٰؤلاء فمَنْ لهم؟!

خرجَ عددٌ من الرّجال وهم يرفعون الرّاية البيضاء، كانتْ علامةَ إظهار النّيّة بأنّهم لا يحملون سلاحًا ولا يريدون سِوى الهُروب من الجحيم، لم يكونوا يعرفون أنّ الجحيم بانتِظارهم؛ شَهّى منظرهم جُنودَ الجيش الإسرائيليّ، كانتْ راياتهم البيضاء هدفًا سهلاً ولذيذًا للقنّاصة، راحوا يتسَلّون بقنصهم واحِدًا واحِدًا، سقطَ صاحب الرّاية الّتي في الوسط، ذُعِرَ البقيّة، راحوا يجرون بأقصىٰ ما يستطيعون وهم يدفعون أسرّة ذويهم الجرحىٰ في كلّ اتّجاه وإلىٰ لا اتّجاه، فيما كان ينهال عليهم وابل الرّصاص من القنّاصة كأنّه مَطرٌ سَحّاح، سقطَ العشرات منهم علىٰ الأرض مُضرّجين بدمائهم، شممتُ رائحة الدّم من هنا. لم يجرؤ أحدٌ على الاقتِراب منهم وسحبهم، كانت السّاحة قد اصطبغتْ بلحومهم الّتي تهتّكتْ من ثقوب الرّصاص، وكانتْ فوارغه تملأ السّاحة في كلّ شبر. لو كان أحدُ فنّاني عصر النّهضة هنا لَما وجدَ مشهدًا أوجع من هٰذا لكي يحوّله إلىٰ لوحةٍ مأساويّة. وهٰذا هو حالُنا، نحنُ ألوانُ فرشاة في لوحات الفنّانين المُتعطّشين إلىٰ أنْ يروا دماءنا تتفجّر في مشهدٍ حقيقيّ أوضحَ من الحقيقةِ نفسِها.

أسقطتْ بعضُ الحوامل أجنّتهنّ من الخوف والرّعب. وولدتْ أمّهاتٌ أطفالهنّ بعمليّة قيصريّة دون تخدير، هل يُمكن تخيُّل آلام الولادة؟ ستتضاعف هٰذه الآلام بالولادة القيصريّة، ستضاعفُ مرّة ثالثة إذا كانت من دون تخدير! أُخرَيات لم يعرفْن ماذا يفعلْن لأطفالهنّ الّذين وُلِدوا لأيّام، ليسَ في مستشفى الولادة أيّة رعايةٍ، لا مطاعيم، لا حليب، لا فُوَط، ينزل الوليد ويشقّ بصرخته فضاء المكان، المكان المليء بالصُّراخ من قبل، ولا يدري ماذا ينتظره! خمسون ألف امرأةٍ حامل في قِطاع غزّة اليوم، وثمانون ولادةً كلّ يوم. وأكثر من ألفَي ولادة كلّ شهر.

ولا أسرّة كافية ولا أدوية موجودة. الولادةُ في زمن الحرب عذابٌ فوقَ العذاب، أينَ تهربُ من الصّرخات المُعذّبة الّتي تصطكُّ لها الآذان؟! غيرَ أنّ الأولاد ما زالوا يُولَدون، وما زالتْ أرحامُ الأمّهات تتدفّق بالمواليد الجُدُد، لِماذا يُولَد الأطفال في الحرب؟ إلىٰ أيّ عالَمٍ يأتون؟!

سقطتْ (سلام)، تخضّبَ رأسُها وحجابُها بالدّم، حجابُها الأبيض اصطبغَ بالكامل. حملْتُها، رغمَ الألم أشرقتْ شِفاهُها بابتِسامة طرحتْ سؤال الحُبّ دُفعةً واحدة. هُرِعتُ بها إلىٰ أقربِ سريرٍ، كان مليئا بكُتَل الحجارة والأغبرة، لم يكنْ لديّ وقتٌ لأزيله، سَجَّيْتُها فوقَه، ورُحتُ أحاول معالجتها بما توفّر، ركَضَ إلَيّ زكريّا، ناولني الشّاشَ الأبيض، مسْحتُ دِماءَها، كانتْ تتأرجحُ بين اليقظة والغيبوبة، هبطَ ضغطُها إلىٰ أدنىٰ مستوىٰ، كشفْتُ عن ذراعها، وأعطيتُها إبرةً في الوريد، وركّبْتُ لها محلول الجلوكوز بمساعدة زكريّا على الفور. أشارتْ إلىٰ رِجلْها. كانتْ مُصابة، هوتْ عليها كُتلة من الباطون فَهَشَّمَتْها. لا نملك الجبائر. أمسكْتُها أختبر مدى الإصابة فصرختْ صرخةً عالية من شِدّة الألم. أعطيْتُها مرّة أخرىٰ إبرة مُسكّن. وخلال عشر دقائق استسلمتْ للنّوم. بقيتُ عندَ رأسِها. لم أقدر علىٰ مفارقتها. بينما ذهبَ زكرّيا يُساعد الأطبّاء في مهمّاتهم الصّعبة. تراءَتْ لي حياتي، من أوّلِ يومٍ كنتُ أركضُ فيه في الحواري مع الأطفال، لم نكنْ نعرفُ الموت ولا الحرب ولا الوجع، كُنّا خالي الذّهن من كلِّ شيء، كُنّا أناسًا عاديّين، لماذا لا يتركوننا نحيا حَياةً عاديّة؟! راقبْتُ تنفُّسَها، بدأ ينتظم. خلال نَومِها بحثتُ عن جبيرةٍ، تمكّنْتُ من الحصول عليها بصعوبة، جَبّرْتُ قدَمها، ولمّا استيقظتْ لمْ تكنْ تعرفُ أنّها أصبحتْ عرجاء!

(٣٢) حَلقةٌ في سِلسلة

ازدادَ حِصارُنا في المُستشفىٰ، نحنُ نحاول أنْ ننقذَ الأطفال. الأطفال الّذين هم في حضانات الخَداج. إنّهم مُعرّضون للموتِ الجَماعيّ. نداءاتنا تضيع، نحنُ لُقمةٌ مُعدّة للموت، كلّنا في المُستشفىٰ أطبّاءَ ومرضىٰ في قبضة البطش والجبروت الصّهيونيّ، يريدون ألاّ يبقىٰ واحدٌ حَيًّا. الأسوار تهدّمَ جُزءٌ كبيرٌ منها. القذائف طالتْ كثيرًا من الأقسام، سقطتْ عموديًّا فاخترقتِ الطّوابق العُليا وهوتْ إلىٰ ما هو دونها، يحدثُ أن تسير في غرفة أو ممرّ في الطّابق الرّابع فتجد نفسكَ بسبب حفرةٍ كبيرةٍ فيه قد سقطْتَ إلى الطّابق الثّالث أو أكملتَ سُقوطَك إلى الطّابق الثّاني. هٰذه ليستْ لُعبة، ولا مشاهدَ سينمائيّة للتّصوير، هٰذه بعضُ الحقائق، الحقائق الّتي ربّما يعرفها العالَم الكافر ولٰكنّه لا يريدُ أنْ يعترفَ بها.

طال اللّيل. والقصفُ لا يهدَأ. لماذا يقصفون المستشفىٰ بهٰذه الكثافة؟! يقولون إنّ المقاومة تختبِئ في سراديب سرّيّة تحته؟ لا أدري من أينَ جاؤوا بهٰذا الكلام؟! لٰكنّني منذُ أوّل الحرب حتّىٰ هٰذه اللّحظة لم أصادفْ جريحًا واحِدًا من المُقاومة من أجل أنْ أُعالِجه. إنّهم لا يحتاجوننا ولا يحتاجون مُستشفياتنا، كلّ هٰذه المستشفيات خطيرةٌ بالنّسبة لهم، لديهم أطبّاؤهم الخاصّون وغُرَف عمليّاتهم الخاصّة، والأدوية الّتي يحتفظون بها ويحصلون عليها لا تمرّ عبر وزارة الصّحّة كُلّها، إنّها تمرّ عبر أنفاقهم الّتي يحتاج

الخُبراء إلىٰ مئة عام من أجل أنْ يعرفوا خريطتها أو أنْ تُجيبهم عن سؤال واحدٍ حولها: كيفَ استطاعَ المُقاوِمون أنْ يبنوها بهٰذه الطّريقة الدّقيقة الغامضة المُرعبة؟! فلماذا يقولون إنّنا نُخبِّئ المقاومة، ليتنا بالفعل حُزْنا هٰذا الشّرف! ليتني صادفتُ جريحًا واحدًا من المقاومة لقبّلتُ قدَمَيه، ولمسحتُ جراحه بخَدَّيَّ. أيّها العالَم المتوحّش، أنتم تريدون أنْ تقتلونا ولهٰذا تتذرّعون بوجود المقاومة في مستشفياتنا.

«ازداد الوضع خطورة. والموتُ صار أقربَ إلينا من شِراكِ نِعالنا». يقول هٰذا الدّكتور نضال رئيس مستشفى الجراحة، يَبُثّ ذٰلك للعالَم عبر طبيبةٍ بريطانيّة: «قد لا نعيش حتّى الصّباح. نحنُ مُلتَزِمون أخلاقيّا ومِهنيًّا تُجاه مرضانا، ولٰكنْ لماذا تقصفوننا؟! نحنُ مُحتاجون إلىٰ المساعدة لا إلىٰ أنْ تُطلَق علينا الرّاجِمات. الدّواء الّذي لدينا لا يكفي لخمسة في المئة من المرضىٰ. الباقون مُضطرّون إلىٰ مواجهة المصير المحتوم؛ الموت الّذي سيُقبِل عليهم عاجِلاً غيرَ آجِلٍ إنْ بقي الوضع هٰكذا... هٰذه مناشدةٌ أخيرة إلىٰ أحرار العالَم، إلى الأطبّاء الشّرفاء، إلىٰ منظّمة الصّحّة العالَميّة: نحنُ أطبّاء مثلكم، أرواحُنا لم تعدْ ملكنا، في أيّة لحظة قد نموت. لقد استُشهِدَ عددٌ منّا بالفعل. لا نُريدُ أنْ نُقتَل هنا. باسم الإنسانيّة - إذا كنتم تُؤمنون بالإنسانيّة - لا تتركونا وحدنا نموت».

لٰكنّ العالَم كلّه أصمّ. العالَم لا يعترفُ إلاّ بالقُوّة. نحنُ الآن مُستضعفون، الرّاعي لا ينتبه إلىٰ شِياهه إلاّ إذا سَمِعَ عُواء الذّئب. نحن حتّىٰ بعدَ عوائه ما زلْنا وحدنا، لا أحدَ يسمعنا، ولا أحدَ يُفكّر بأنْ يرفع عنّا هٰذا الجحيم.

مَرّ ليلٌ علينا كأطول ما يكونُ من ليالي غَزّة. ظلّ صوتُ المدافع والقذائف والصّواريخ يصكّ آذاننا حتّى الفجر، ثُمّ راحَ يهدأ شيئًا فشيئًا، ليسَ لأنّ القذائف قد نَفِدت، ولٰكنْ يبدو لأنّ مُلقِّميها قد تعبوا. ومع خفوتِ صوتِها كنتَ لا تزال تسمعُ بعضَها يجيءُ مُتقطِّعًا بين فترةٍ وأخرىٰ ليُعيد إليكَ حالة الرُّعب، فأنتَ مُحرَّمٌ عليكَ أنْ تحظَىٰ بشيءٍ من الهدوء. أثناء انقِطاعةِ أصوات القصف رأيتُ (بَسّام) يصعدُ سورَ المستشفى القريب من قسم الطّوارِئ، يتجاوز الأجزاء المحفورة بفعل القذائف، ويقفُ أعلىٰ ما يكون، وعلىٰ ضوء القمر الّذي كادَ يصير بدرًا حتّىٰ شَطرَ ظِلّه، فمدّ الظّلّ حتّىٰ وصلَ إلىٰ قلبي فملأه سكينةً، وشَهّبَ لحيته الشّقراء فبدتْ قمرًا آخر، لم يكنْ بسّام طويلاً لٰكنّني رأيتُه وأنا قابِعٌ في مكاني هٰذا من الجوع والبرد والخوف قد طالَ ضِعفَ طوله الأصليّ، وعانقَ رأسُه قُبّة السّماء، كان آنئذٍ قد رفعَ ذراعَيه ومَدّهما على اتّساعهما، وقرّبَ كَفَّيه من أُذُنَيه، وراحَ يُؤذّن أذان الفجر. ولا أدري إنْ كنتُ قد اكتشفْتُ لأوّل مرّة صوتَه النّبويّ أم أنّه هو كذٰلك؟! أم أنّ حُزني وظلال الموت الّتي تحومُ حولي جعلتْ صوتَه يبدو ملائكيًّا إلىٰ هٰذا الحدّ... الحدّ الّذي حلّق بي إلىٰ فضاءات عالية وبعيدة، وطافَ بي أرجاء الأرض، وأرجعني إلىٰ طفولتي أيّام كنُتُ أصلّي الفجر مع أبي الشّهيد في المسجد، وأخذني الصّوتُ أكثرَ من ذٰلك، أراني أُمّي وهي تبتسم، وأراني إخوتي وأخواتي، وأراني (رجاء)، كانوا جميعًا يلبسون ثيابًا بيضاء نظيفة واسعة، وكانتْ وجوههم مُشرِقة، وبسماتهم تشفّ عن سعادةٍ غامرة... وظلّ بسّام يمدّ صوتَه مُدُودًا نَغَميّة تذبحني وتُؤرجحني، حتّىٰ إذا وصلَ إلىٰ قولِه: «حَيّ علىٰ الصّلاة...» غفوتُ. سقطَ رأسي علىٰ صدري، ثُمّ مال جذعي، فأغراني

ذٰلك بأنْ أُمدّد جسدي، وفي سريري الأرضيّ تحتَ الدّرج ذهبْتُ في نومٍ عميق.

لا أدري كم مرّ عليّ وأنا نائم. أحسستُ أنّها أجملُ نومةٍ في حياتي، وأنّني لم أنمْ من قبلُ مثلَ هٰذه النّومة. وصحوتُ علىٰ صوتٍ مُفزِع، كانَ صوتَ (سلام)، كانتْ قد وقفتْ بكرسيّها المُتحرّك فوق رأسي، وبُعكّازها الّذي ركَزتْه في صدري راحتْ توقِظني. وفتحتُ إحدىٰ عينَيّ منزعِجًا من نومةٍ هنيئة ربّما لم تستمرّ أكثر من دقيقة. وأردتُ أنْ أصرخَ في وجه سلام: «لماذا توقظينني وأنا مستمتعٌ بنومي، لماذا تتعمّدين هٰذا؟». ولٰكنّني لم أفعل، لأنّني رأيتُ الدّنيا من ورائها مقلوبة، كانتْ هناك حركة مُريبةٌ، وعددٌ كبيرٌ من النّاس بمعاطف بيضاء يركضون، وسمعْتها تقول كلامًا لم أفهمه، ولٰكنّني وعيتُ منه كلمة (بَسّام)، وكانتْ هٰذه الكلمة كفيلة بأنْ تُوقظني كما لو أنّني صُفعت صفعةً قاسية، ولم أقدرْ علىٰ النّطق، وهززتُ رأسي، وأردْتُها أنْ تُعيد ما قالت، فهتفتْ: «بَسّام أصابتْه رَصاصةُ قَنّاص». ولم أقدرْ أنْ أقفَ علىٰ قدَمَيّ أوّل الأمر، فزحفْتُ علىٰ رِجْلَيّ ويدَيّ، ثُمّ تحاملْتُ علىٰ نفسي، وأنا غيرُ مُصدّق، وصرخْتُ في وجه (سلام): «أينَ هو؟». «أخذوه إلىٰ غرفة العمليّات». وتحرّرتْ قدماي المربوطتان من هول الصّدمة، وركضْتُ إلىٰ غرفة العمليّات، ولم تكنْ الغرفةُ مجهّزةً تمامًا، كان الطّين يُغطّي بلاطَها وأَسِرّتها، ودخلتُ فرأيتُه مُسَجًّى على السرير، والأطبّاء يُحاولون إيقاف النّزيف، لقد أصابتْه رصاصةٌ في عنقه، وهٰذا يعني أنّ بينه وبين الشّهادة دقائق إنْ لم يكنْ قد استُشهِدَ بالفعل، وأزحْتُ الأطباء الّذين يحاولون معالجته واقتربْتُ منه، كانتْ عيناه مُغلَقتَين، ومددتُ ذراعي فأمسكْتُ بكفّه المُخضّبة

الّتي كان يشدّ بها علىٰ عنقه، وكادتْ عيناي تتفجّران بالدّمع، وحتّىٰ لا يروني أبكي، أدرْتُ رأسي عنهم ووضعتُ خدّي علىٰ صدره وصار وجهي قُبالة وجهه، وتحرّكَ جفناه قليلاً، ثُمّ فتَحهما نصفَ انفِتاحة، وفرح الأطبّاء لأنّهم ظَنّوا أنّه قد نجا، وراحتْ شَفَتاه تُجاهِدان أنْ تتحرّكا، وقرّبْتُ أُذُنِي منهما، فإذا هو ينطقُ الشّهادَتين، ثُمّ سمعتُه يقول بعدهما: «ادعُ لي يا فرج. ولا تترك العمل لأجله حتّىٰ تموت في سبيله». ثُمّ أسلمَ الرّوح، وغادرَنا إلىٰ رَبّ رحيم.

موتُ الأحبّة موتٌ لنا. لم تعدْ حياتي بعدَ (بَسّام) حَياة. كان هو سبب عودتي بعد (رجاء) إلىٰ هٰذه المهنة، كان سبب خروجي من قوقعتي. كان ألطفَ مَنْ رأيت وإنْ كان حازِمًا. ظلّ يُقاتل في موقعه كما يُقاتل أعظم المُجاهدين والمُقاوِمين في مواقعهم، ما سلّم الرّاية حتّىٰ أتته رصاصةٌ لتحمله كَفّ الرّحمة الإلهيّة إلىٰ عالَم غيرِ عالَمنا. كان مثلَ جعفر، لا يعرفُ غيرَ الإقدام، ولو قُطّعَ إلىٰ أشلاء كان سيظلّ يحمل الرّاية حتّىٰ يأخذ الله وديعته، وقد أخذها في حقّ (بسّام)، فمتىٰ يأخذها فِي حقِّي؟!

تقول (سلام): «لا فرقَ بين الأيّام عند الموت». «ماذا تعنين؟». «إذا كان قدَرُنا أنْ نموتَ اليوم أو غدًا، فما الفرق؟». «يومٌ واحدٌ لا يصنع فرقًا لٰكنّه قد يُنقذ حياة. نحنُ لا نعيشُ لأنفسِنا، نحنُ نعيشُ من أجل الآخرين بالقدْر الّذي نعيشُ فيه لأجلِنا، ليسَ لأنّنا نُؤثر الآخَرين علىٰ أنفسِنا، بل لأنّ الآخرين جزءٌ في سلسلةِ المجتمع الّتي تُمسِكُ كلّ حلقةٍ منه بأختها، فالحلقة مرتبطةٌ بما قبلها كما هي مرتبطةٌ بما بعدها، ولو فكّرتْ كلّ حلقةٍ أنْ تستقلّ بذاتها، فلن تكون هناك سلسلة، أيْ لن يكون هناك مجتمع، وعليه فما قيمةُ وجودك خارجَ المجتمع، نحنُ جزءٌ منه، من كينونته، من حيويّته، سواءٌ أَكُنّا مُؤثّرين على الحلقة الّتي تلينا، أم مُتأثّرين بالحلقة الّتي

تسبقنا. لو كُنّا نعيشُ لأنفسِنا فحسب لكنتُ أنا واصلتُ عُزلتي، ورضيتُ بأنْ يهدمَ صاروخٌ بيتي كلّه على رأسي وأُدفَن تحته، ولرضيتِ أنتِ أنْ تعيشي بعيدًا عن المناطق الخَطِرة، لكنّ رسالةَ كلّ واحدٍ فينا تأبى الفردانيّة». هزّتْ (سلام) رأسَها، كانتْ تجلسُ على الكرسيّ المتحرّك، إنّها تستطيع أنْ تعتمدَ على عُكّازتَين فيما لو أرادتْ، ولكنّ ساقَها الّتي أُصيبتْ تتراجع مع الزّمن، ولربّما تضطرّ أنْ تعيشَ بقيّة حياتها على هذا الكرسيّ، أرادتْ أنْ تحرفَ اتّجاه الحديث، فسألتْ: «ماذا تبقّى لنا هنا؟». أجبْتُها: «إلى أينَ تريدين أنْ نرحل؟». «إلى أيّ مستشفًى آخر». «لقد طُفتُ مستشفيات الشّمال فوجدْتُها تتشابَه في الموت، العدوّ لا يفرّق بين مستشفًى وآخَر». «أنا لا أعني هذا، أعني أنّ مستشفى الشّفاء خرجَ عن الخدمة أو كاد، وأنّ بقاءَنا هنا أصبح بلا قيمةٍ تقريبًا، كلّ ما قصدْتُه أنّنا يُمكن أنْ نكون ذوي فائدة أكبر لو ذهبْنا إلى مستشفًى آخر، لربّما تكون مساعدتُنا ذاتَ جدوى». أطرقْتُ مليًّا، قبل أنْ أقول: «ربّما معك حقّ، صحيحٌ أنّه تربطني بالشّفاء ذكرياتٌ غاليةٌ طويلةٌ وقديمة، فقد خدمْتُ فيه ما يقربُ من عقدَين من الزّمان قبل تقاعدي، وأعادَتْني الحربُ إليه مرّة أخرى، إلاّ أنّ أكثر ما كان يربطني به هو وجودُ (بَسّام)، كان يعني لي الكثير، كان بصيص الأمل الّتي تتغذّى عليه جوارحي، أما وقد رحل، فقد بهتَ كلّ شيءٍ». «أعرفُ. وهذا سببٌ آخر». «وأيّ مستشفى تقترحين؟». «أيّ مستشفى قريب، ليكن المستشفى الإندونيسيّ». «آه... إنّه منكوبٌ مثل مستشفانا». كان هذا لا رفضًا ولا قبولاً، ولكنّه كان أقربَ إلى القبول. سألتْ (سلام)، وهي تُشير إلى ساقِها المُصابة: «هل تُؤثّر على شكلي؟ أعني هل يُزعجك أنّني سأعيشُ بساقٍ واحدة؟».

(٣٣) ولادةٌ في زَمنِ الحرب

سنعيشُ ما تبقّىٰ لنا من حياة. لنتركْ أمرَ الموت لربّ الموت. نحنُ في سجنٍ كبيرٍ منذُ أكثر من سبعةَ عشر عامًا. السّجن اليوم ضاق، لم يعدْ سجنًا مفتوحًا، صارَ قفصًا، نحنُ في قفص يا (سلام) وشياطين الموتُ تقفز حوله، أحدهم سيتمكّن في لحظةٍ غادرة من أنْ يتسلّل إلىٰ داخله ويحصد ما تبقّىٰ فيه من أرواح. لماذا يكون انتِظارُ الموت أصعبَ من الموتِ نفسِه؟!

كلّ مرضى العناية المُركّزة في مستشفى الشّفاء أسلموا أرواحهم. رأوا الحياة لا تستحقّ أنْ يعيشوا فيها أكثرَ مِمّا عاشوا فَدَعَوا مَلاكَ الموتِ إليهم بصوتٍ جماعيّ فلبّىٰ نداءَهم دون إبطاء. كانت الجُثث مُلقاة في كلّ مكانٍ في المستشفىٰ، شعورٌ بالعجز عن إنقاذهم قبل أنْ ينطفِئ فتيلُ الحياة في أرواحهم، ثُمّ شعورٌ بالعجز مُضاعف في كيفيّة نقلِهم أو دفنهم. تحوّل المستشفىٰ إلىٰ مقبرةٍ كبيرة. لا منظّمات، لا عربَ من أجل أنْ يقفوا إلىٰ جانبنا، وحدهم الأجانب رَثَوا لحالِنا، وبَكَوا علىٰ موتانا، وتمنّوا لنا السّلام والرّاحة.

رَكَضْنا علىٰ أرجلنا هارِبين من المستشفىٰ. كانتْ هناك دبّابات حوله تُطلِقُ قذائفها باتّجاهنا. رأيتُ في السّاحة عددًا لا يُحصَىٰ من الشّهداء. رأيتُ أرجلاً مَقصوصة، ورؤوسًا مُتدحرِجة، ولم يكنْ بإمكاننا أنْ نفعل لهم شيئًا. لو أنّنا توقّفْنا لثوانٍ كُنّا سنسقط. كنتُ أدفعُ (سلام) وهي علىٰ كرسيّها المُتحرِّك، وهي تضعُ كَفَّيْها علىٰ أُذُنَيْها تارةً من شدّة القصف،

وعلىٰ عينَيها تارةً أخرىٰ من بشاعة المنظر، مَنْ يستطيع أنْ يحتمل رؤية رأسٍ قد خرجَ مُخُّه من جمجمته واندلق على الأرض؛ الأرض الّتي كانتْ مزروعةً بالجثث ونحنُ نتفاداها من أجل ألاّ ندوسَ عليها، وهي تُسرِّع موتنا بتبطيء حركتنا!

أدفعُ كرسيّ (سلام) المُتحرّك وسطَ هياج النّاس ونيران القذائف، ورعبٍ يُرَعِّشُ تُرقُوَاتِنا ويُرجِّفُ رُكَبَنا. هوتْ قذيفةٌ أمامنا فغطّتْ بدخانها مجال الرّؤية، خفضتُ رأسي للحظاتٍ مرّت كأنّها أعوام حتّى انقشَع الغُبار، بقيتُ مُحتمِيًا بالكرسيّ، رفعْتُ رأسي من بعدُ، فبدا لي الطّريق الرّماديّ يعجّ بالقتلىٰ وبالدّم، دفعْتُ الكرسيّ إلى الأمام، تعثّرْتُ بحفرةٍ أو برِجلٍ أو بجُثّة لا أدري، فسقطْتُ على الأرض، وأفلتَ مِقبضا الكرسيّ من يدي. صرختْ (سلام): «اجرِ.. واترْكني... لا فائدة من إنقاذي». قلتُ لها وأنا أشعر بألمٍ في فخذي: «اسكُتي... ليسَ هٰذا وقتَه». «اهربْ يا فرج. لا تمتْ أنت. أنا لا أريدُ أنْ أعيشَ أكثر...» وددتُ لو أنّني صفعْتُها. إنّها تُحمّلني مسؤوليّةَ موتها. زحفْتُ باتّجاه كرسيّها الّذي ابتعدَ عنّي لبضعة أمتار، وأمسكْتُ بمقبضَيه، وعدَوْتُ به إلى الأمام كالمجنون. لم أكنْ في عَدْوي هٰذا أدري إلىٰ أينَ أسير، ولا إذا ما كنتُ سأنجو، أو كان الّذين يهربون معنا سينجون، ولا أدري إنْ كنتُ أهربُ باتّجاه الموت أو بعيدًا عنه. المهمّ أنّني هربْتُ. ويبدو أنّ الله أرادَ لي النّجاة، وكيفَ تكون حياتُنا الّتي نحياها نجاة؟!

لجأنا إلى المستشفى الإندونيسيّ. ليسَ لأنّ فيه حياةً أو بعضَ حياة، فهو في قبضة الموت، كلّ مُستشفيات غزّة في قبضة الموت، ولٰكنْ لأنّ الموتَ الّذي فيه ما زال يجوسُ خلالَ غُرَفِه وممرّاته، لم يفتكْ بساكنيه كلّهم، وأمّا مستشفى الشّفاء فلم تعدْ فيه لا ممرّات ولا

غُرَف من أجل أنْ يجوسَ الموتُ خلالَها. نحنُ نبحثُ عن دروبٍ لم يسكنْها الموت ولم يخبط فوقها بأقدامه الجلديّة العملاقة السّميكة بعدُ!

صارتْ غزّة كلّها مقبرة كبيرة. في الطّريق يُمكنكَ أنْ تُشاهِدَ عددًا من حفّاري القبور وهم يُعمِلون معاولهم في الأرض. إنّهم مُتطوّعون من أجل دَفْنِ الجُثث الّتي لم تجدْ أحدًا من ذويها ليدفنها. ومع أنّ أجسادَ الشّهداء المُلقاة هنا وهناك علىٰ قوارع الطّرق كانتْ تتمنّىٰ أنْ تحظىٰ بكفنٍ نظيف وبقبرٍ لائق وبأهلٍ يُصلّون عليهم فدَفْنهم بهٰذه الصّورة يدعو إلى الأسىٰ، إلا أنّ عَمَلاً كهٰذا يُعدّ اليوم في ظروف الحرب المجنونة عملاً نبيلاً. وأنّ مَنْ حَظِيَ بمُتطوّع مجهول يقوم بِدَفْن جُثّته هو أحسنُ حالاً بكثيرٍ من أولئك الّذين تُرِكوا في العَراء نَهْبًا للرّياح وللمطر وللبرد وللكلاب الضّالة الجائعة المسعورة!

كانَ الرّصيف الّذي يفصل بين اتّجاهَي الشّارع هو المقبرة الأكثر انتشارًا في غَزّة، صارَ مألوفًا أنْ ترىٰ تجمّعًا من التّراب علىٰ شكلِ قُبّةٍ صغيرةٍ في هٰذا الرّصيف مِمّا يعني أنّ شهيدًا قد دُفِنَ هنا، لقد رأيتُ عشراتِ القبور الّتي دُفِنَ أصحابُها في جزيرة الرّصيف هٰذا وسطَ الشّارع المنسيّ أو ذاك. حينَ يستيقظُون ذاتَ يومٍ من قبورهم سيَسألون: «هل ضاقتْ غَزّة كُلّها عن أنْ تجدوا لنا قبرًا لائِقًا أيّها القُساة غِلاظ الأفئدة؟». وسنقول لهم: «لم يكنْ باليد حيلة، كُنّا بين أنْ نترككم في العراء للكلاب والقطط وبين أنْ ندفنكم كيفما اتّفق هنا». وبعدَ حينٍ حينَ يسأل الابن: «أين ماتَ أبي؟». وحينَ تسأل البنتُ: «أينَ دُفِنَ أخي؟». لن تجدَ إلاّ في هٰذه الأرصفة المنسيّة جوابًا علىٰ سؤال مُحزِنٍ مُوجعٍ كهٰذا!

تغيّر وجه غزّة إلى الأبد. الأطفال من العطش يشربون مياه المجاري، لقد رأيتهم بأمّ عينَيّ. ويأكلون ما ظلّ طريّا من القطط الميّتة. لم تكنِ

الحروب السّابقة لتضطرّنا إلىٰ فِعلٍ بَشِعٍ كهٰذا، ولٰكنّ هٰذه الحرب أوقفتْنا علىٰ أهوالٍ لم يكنْ مُمكِنًا أنْ تخطر في أوسعِ خيالٍ مريضٍ أو مجنون. وأمّا عَلَفُ الحيوانات فإنّهم يعجنونه ويصنعون منه خُبزَهم، وعلىٰ شِدّة الجوع لو قدّمْتَ رغيفًا مصنوعًا من هٰذا العلف للحيوانات فإنّها لن تأكله، نحنُ اضطرِرْنا إلىٰ أنْ نفعل ما لا تفعله الحيوانات!

(جوليا) ذات الأعوام الأربعة الّتي التقيتُها في المستشفى الإندونيسيّ وهي بلا قدَمين، تقول لي: «سافرَ والدي إلىٰ ذٰلك المكان البعيد الّذي يُسَمّى الجنّة. يقولون إنّه سيعود. أنا أنتظره منذُ شهرٍ ولٰكنّه لم يعدْ. هل يكذبون عَلَيّ، أم أنّ أبي لم يعدْ يُحبّني؟!».

امرأةٌ حاملٌ تصيحُ من الوجع، كان صُراخها يُقطّع القلوب: «اقتلوني، لا أريدُ أنْ أعيش». ليسَ لدى الأطبّاء الوقت الكافي ليشعروا بمحنتها، أعني لم يعدْ هناكَ أطبّاء. تُساعِدها امرأةٌ غزّيّة أُخرىٰ من أجل أنْ تَلِدَ على البلاط. تحتاجُ إلى الماء، ولٰكنّ الماء مفقود، تقطع حبلها السُّرّي بمقصّ، ثُمّ تخمد حركة المرأة، ويُسمَع صُراخُ وليدها، مَنْ يدري إذا كانتْ قد وهبتْ حياتَها لأجل هٰذا القادم إلىٰ هٰذا العالَم القاتل، ظلّ سؤالٌ يحومُ حول جسد الوليد المسكين المُغطّس بالدّم: «لماذا جئتَ في زمنِ الحرب؟ لماذا على النّساء أنْ تَلِدَ في زمن الحرب؛ زمن الموت والرّعب والفقد والجنون والهذيان، لماذا، لماذا يا ربّ؟!».

كَفَّنّا عشرة أطفال. تسعةٌ منهم كانوا بدون أمّهات. أمّهاتهم إمّا سبقوهم إلى الضّفّة الأخرىٰ. وإمّا ما زالوا تحتَ أنقاضِ بيوتهم المُهدّمة. وإمّا تاهوا في موج الموت الّذي يقذف بالنّاس في شواطِئ بعيدة يُعانون الفقد والسّؤال الجارح: «ماذا حصل لطفلي، وهل حيّ أم ميّت؟!» سؤال لا يملك إلاّ الله الإجابة عنه.

الطّفل العاشر كان محظوظًا؛ فأمّه معه في المستشفىٰ، أخذتْه بين ذراعَيها، وحضنَتْه بحنو، وراحتْ تُقبّله، حاول مُمرِّض أنْ يأخذه منها: «علينا أنْ ندفن الموتىٰ». وهي لا تُعيره انتِباهًا. جاءتْ مُمرِّضة لتساعده، حاولتْ أنْ تأخذ الطّفل الشّهيد من بين يدَي أُمّه ولٰكنّها أبت، كانتْ تلتصق به حتّىٰ خُيِّل لمن يراهما أنّهما جَسَدٌ واحد، علا صوتُ المُمرِّضة: «إنّ شاحنة الموت لن تنتظر طويلاً». كيفَ يكونُ للإنسان قلبٌ من أجل أنْ يحتمل منظرًا كهٰذا، تحاول من جديد: «علينا أنْ ندفنه». تنظر إليها الأمّ عبر عينَين طافحِتَين بالحزن: «ادفنوني معه». ثُمّ قامت، وهي تعني ما تقول، وركبتْ معه الشّاحنة، ولا أدري إنْ كان صاحبُ الجرّافة الّذي ينتظرهم في المقبرة الجماعيّة استطاع أنْ يُقنعها بأنّ تتركه للتّراب!

صار حَفّارو القبور عُملةً نادرة. كان بعضُ أهالي الشّهداء ينعتون المُتطوّعين منهم في البداية بأنّهم بلا قلوب. اليوم هٰؤلاء الحَفّارون دُفِنوا إلىٰ جانب مَنْ دفنوهم، صارَ من النّادر أنْ تجدَ مُتطوِّعًا منهم يُواري جُثّة طفلك التّراب ولو على الرّصيف، فُقِدَ المُتطوِّعون منهم فأتاح ذٰلك بروز عددٍ منهم يطلبُ مالاً مقابل أنْ يدفنَ جُثّة، وإلاّ فما الّذي يدفعه في ظلّ البرد والجوع والقصف وقلّة المال إلىٰ أنْ يتطوّع لمهمّةٍ خطيرةٍ كهٰذه؟! وآنئذٍ صار يدفع ذوو الشّهداء لحفّاري القبور الانتهازيّين أموالاً من أجل أنْ يستروا عورات أبنائِهم. صِرْتَ ترىٰ عددًا منهم يحمل الطُّورية أو الفأس علىٰ ظهره، ويتحلّق حول الجُثث الّتي يجثو عندها أهلُها في حسرتهم، يعرضُ خدَماته الجليلة مقابل المال، واضطرّ الأهالي إلىٰ أنْ يدفعوا لهم، ولم يكنْ ذٰلك ليكون لولا أنّ حفّاري القبور أرادوا أنْ يعتاشوا من وراء هٰذه المهنة الّتي أطلعَتْها الحرب وهم يرون شبَحَ الجوع يُصادِق الموت من أجلِ أنْ يقضيَ عليهم كما قضَىٰ على البقيّة.

الطّوابير أمام المخابز النّادرة المُتبقّية تمتدّ لكيلومترات. يتصايح اثنان: «هٰذا دوري». يردّ عليه الّذي تقدّم خطوة في طابورٍ أطول من سور الصّين: «ابنتي ستموت من الجوع. أنا لا أطلبُ شيئًا كثيرًا يا عالَم، لا أريدُ أكثرَ من نصفِ رغيفٍ من أجلها». لا يبدو أنّه يكترث لوجعه، يردّ: «أنا ابنتي ماتتْ من الجوع أمسِ. أريدُ أنْ أُنقِذ ما تبقّىٰ من عائلتي». آنئذٍ في هٰذا الجدال اليائس يسقطُ صاروخ في وسط الظّهيرة، يفتك بالطّابور، يُبعثره، يهربُ النّاس في كلّ اتّجاه كما لو كانوا نملاً داسَتْه أقدامٌ عملاقة فأخرجتْ أحشاءَه من فمه. وتسقطُ أرغفة الخبز على الأرض تتعفّر بالدّم والتّراب.

ليسَ مَنْ رأىٰ كمن سمع. المستشفى الإندونيسيّ لا يستفيق من مجزرةٍ إلا علىٰ مجزرة. دخولنا إليه من أجل المساعدة أنا و(سلام) كان مثلَ دخولِ قريةٍ ثارَ فيها بركان فأحرقَ وجوه البشر، وشوىٰ أجسادَهم وألقاهم في كلّ مكان. هٰذا هو الوصف الّذي ربّما يصلح لحال المرضىٰ هنا. أطفالٌ ما زالوا يلبسون حفّاظاتهم كانوا مُلقَين علىٰ الأرض المليئة بالدّم والمُخاط والمحاليل، وقد رُكِّبتْ لهم أجهزة التّنفُّس. صارَ مَن يجدُ مِن المرضىٰ بلاطًا يتمدّد فوقَه ليُعالَج محظوظًا. كيفَ تبدو الحال الّتي كانتْ مُصِيبةً في زمنٍ ما نعمةً في زمنٍ آخَر؟!

هناك أنباء عن هدنة. يقولون: إنّهم سيُبادِلون بعضَ أسرانا في المعتقلات بأسراهم الّذين تحتفظُ بهم المقاومة. هل يُمكن أنْ تَعِدَنا هٰذه الهُدنة بالحياة؟ أشكّ في ذٰلك. كلّ ما في الأمر أنّهم يؤجّلون موتَنا!

(٣٤) الألم مقسومًا على اثنَين!

فرضتِ المُقاومة شُروطَها. المهمّ ألاّ يعودَ المُعتقَلون بعدَ الإفراج عنهم إلى السّجون. لكنّ هٰذا في عهود الصّهاينة غير واقع، إنّهم يُلفِّقون لهم ألفَ تُهمةٍ كاذبةٍ لكي تبدو مُبادلتهم بأسرىٰ صهاينة أمرًا عبثيًّا. غير أنّ الهُدنةَ كشفتْ أقبحَ وجوه الحرب، لقد أتاحتْ للنّاس أنْ يبحثوا عن المفقودين. تشتّت النّاس في كلّ مكانٍ، عادَ بعضُ المفؤودين إلىٰ منازلهم المُهدّمَة بحثًا عن ناجين، كان ذٰلك أمرًا مُرعِبًا. بعضُ الصّرخات تحتَ الأنقاض ذوتْ مع مرور الأيّام البطيء، لم يتمكّنْ أحدٌ من إخراجهم، آخرون عثروا علىٰ جثث ذويهم مُتفحّمة، أو جمعوا أشلاءَهم من كلّ زاويةٍ في البيوت المُهدّمة، كانتْ عمليّةُ جمع الأشلاء مَهمّةً عسيرةً جِدًّا، إذا كنتَ محظوظًا فإنّكَ إنْ عثرتَ على الجسد تحتَ كُتلةٍ إسمنتيّة ضخمة استقرّتْ فوقَ الشّهيد بزاويةٍ مائلة فلن تعثر علىٰ رأسِه في المكانِ ذاته، عليكَ أنْ تبحثَ عنه في المنازل المجاورة، أمّا الذّراع أو السّاق فيُمكن أنْ تجدها بعدَ ساعاتٍ من البحثِ والتّنقيب مستقرّة علىٰ عمودِ كهرباء علىٰ بعدِ خمسين مترًا من البيت أو تتدلّىٰ من تحتِ جذوع شجرةٍ مُنكّسةٍ قد احترقَ أكثرُ من نصفِها.

من المُمكن أنْ تجدَ كلبًا في رمقه الأخير يُقعي بهدوء إلىٰ جانبِ جُثّةِ أخيكَ أو أبيك، لقد نهشَ الكلبُ جسدًا ميّتًا، ولٰكنّ ذٰلك لم يحمِه من الجوع، يُمكنكَ أنْ تقرأ ذٰلك في عينَي الكلب، يبدو كما لو كانَ مُعتذِرًا: «حاولتُ أنْ أحميه في البداية، أنْ أقفَ إلىٰ جانبه، ولٰكنّ ثلاثةَ أسابيع

من الانتِظار اضطَرَّتْني إلىٰ أنْ أنهسَ شيئًا طريًّا منه، قلبَه أو كَبِدَه أو رِئَتَيه، كنتُ أعرفُ كيفَ أصلُ إلىٰ ذٰلك، ولٰكنّ ثلاثةَ أسابيع أخرىٰ مرّتْ وأنا وهو وحدنا هنا، لم يُجْدِ جسدُه المتفسِّخ نفعًا، وها أنذا أموتُ مثله، لم يُفرّق الموتُ بيننا إلاّ في التّوقيت، لا تقلْ لي لو أنّني بحثْتُ عن طعامٍ أو ماءٍ في البيوت المُجاوِرة، لقد كان هٰذا البيت أحسنَ حالاً من سواه، ولٰكنْ ها هي النّتيجة كما ترىٰ. نحنُ نموتُ جميعًا، سبقَنا البشر وسنلحقُ بهم لا محالة». ثُمّ أسبلَ الكلبُ عينَيه، واضطجع إلىٰ جانب مَنْ أكلَ منه اضطِجاعةَ الصّديق المُعتذر، اضطِجاعةً لا يُمكن أنْ يقوم من بعدِها!

يُمكن لكلّ واحدٍ في غزّة أنْ يُعدِّدَ النِّعَم الّتي يحظَىٰ بها: لقد فقد ساقًا واحدة في حين أنّ صديقَ طفولته فقدَ ساقَيه كلتيهما، وصديقَهما الّذي كان متفوِّقًا في المدرسة لم يعدْ حَيًّا من الأساس.

لقد شربَ ماءَ مُلَوّثًا؛ إنّها نعمةٌ كبيرة لأنّه رأىٰ مَنْ يشربُ ماء المجاري، ورأىٰ من يشربُ من دمائه، وذٰلك الّذي لم يجدْ أيّ سائلٍ ولو كان من قاع مُستنقعٍ لِيَبُلّ ريقه. لقد وجدَ خيمةً مُمزّقة ليأوي إليها من الرّيح، ما أعظمَها من نِعمة! لقد رأىٰ مَنْ يصنعون مِن الأكفان أو جوالات الخَيْش خيمتهم، ورأىٰ مَنْ ينامون في العراء، ورأىٰ مَنْ كانتِ الحجارة المُتكوّمة فوقهم خيمتَهم وهم بلا روحٍ تحتَها.

صِرْنا في المستشفى الإندونيسيّ، وبدلَ أنْ تأخذ الطّريق ثلث ساعة في الوضع الطّبيعيّ استغرقتْ منّا أكثر من ثلاث ساعاتٍ في سيّارة إسعاف تعرّضْنا خلالها للموت أكثر من عشر مرّات. بدأ هو الآخر يخرجُ عن الخدمة مثلَ مستشفى الشّفاء، أينَ تذهبُ بالجرحىٰ؟ إلى المُستشفيات. لم تعدْ قابلةً لاستِقبال أحد، لأنّه لا يُمكن أنْ نفعل لهم شيئًا سِوىٰ أنْ نقول لهم بعض الكلمات الطّيّبة، المُصابون مُكدَّسون في كلّ مكان.

ثُمّ إذا وصلوا إلىٰ هنا فإنّ احتماليّة أنْ تقصفهم إسرائيل من جديد كبيرة، إذا وصلَ وفي جسده بعضُ حياة، فإنّ قصف المستشفىٰ سيقضي علىٰ ما تبقّىٰ فيه من هٰذه الحياة.

صِرْتُ ألازِمُ (سلام) في المستشفىٰ، اكتشفْتُ في اقترابي منها هٰذه الرّوح الحلوة. إنّها تبحثُ مثلي عن كتفٍ يُسنِدُ كلّ واحدٍ منّا إليه رأسَه المُتعَب وأنفاسَه اللاّهِثة، وصوتَه المُتهدِّج. تكفّلتِ الأيّام بشفاء عَرْجتِها تدريجيًّا، في البداية استغنتْ عن الكرسيّ المُتحرّك، أعطَتْه لعجوز هرمة لو كان للزّمن قلبٌ لَمَا اضطَرَّها إلىٰ أنْ تجيءَ إلى المستشفىٰ عِوضًا عن ألاّ تَجِدَ مكانًا لتبيتَ فيه. صارتْ (سلام) تعتمدُ علىٰ عُكّازتَين، سيلتئم العظمُ في النّهاية. يحتاجُ إلىٰ بعضِ الوقت، ستُشفَىٰ رِجْلُها نسبيًّا، ولٰكنّ عرجتَها ستظلّ موجودةً وإنْ كانتْ خفيفة.

نحنُ من جحيمٍ إلىٰ جحيم. لم يعدْ في جيبي عَقْدٌ علىٰ نقد من أجل أنْ أشتريَ شيئًا من الطّعام أسدّ به رمقي أنا و(سلام)، ولولا أنّ المستشفىٰ كانتْ تصل إليها علىٰ فتراتٍ مُتقطّعة كمّيّاتٌ قليلةٌ من الطّعام لَكُنّا عانَيْنا الجُوع. غيرَ أنّنا نحن العاملين في السّلك الطّبّي ذوو حَظّ، ذٰلك أنّنا يُمكن أنْ نُبعِدَ شبحَ الجوع ولو ببعضِ المحاليل ذات الطُّعوم السُّكّرِيّة. إنّنا في صِراعٍ مع الموت، غيرَ أنّنا لا نملك إلاّ أجسادَنا الضّعيفة، في تلك الأيّام كان الموتُ وحشًا كاسِرًا يتمتّع بعافيةٍ مُتجدِّدة!

خرَجْتُ من المستشفى الإندونيسيّ مساءً أتسكّع مثلَ مَنْ لم تعدْ حياتُه تهمّه، وتسكُّعه بهٰذه الطّريقة تعبيرٌ عن هُزئِه بالموت المُتربِّص به في كلّ حين. كانَ صوتُ الاشتباكات فيما يبدو بين جيش الاحتِلال والمُقاومين يُسمَع من هنا بوضوح. لم تعدْ حياتي تهمُّني كثيرًا، كنتُ وحدي، أردْتُ أنْ أرىٰ كيفَ يُمكنُ للمرء إذا لم تَحِنْ ساعتُهُ أنْ يتجوّل بين أنياب الموت دون

اكتِراث... ومضيت نحو صوتِ الاشتِباكات في هٰذا التّحدّي، ولقد كنتُ حَقًّا في فم الموتِ تمامًا إلى الحَدّ الّذي كنتُ أرىٰ فيه وحشَه يقفزُ عن يميني مرّة وعن يساري أخرىٰ، ويمرّ من أمامي راكِضًا إلىٰ جهةٍ ما ويعودُ من الجهةِ ذاتِها، وكنتُ أسمعُ صوتَه يملأ أُذنَيّ كأنّه فحيحُ ألفِ أفعىٰ كَشّرتْ عن أنيابِها دُفعةً واحدة، وكنتُ أسمعُ أزيز الرّصاص يحفُّ شحمَتي أُذني، وفيما كان الموتُ يعلو صوتُه بأُغنيته المُرعبة رُحتُ أضعُ يدَيّ في جيبَيّ وأتبختر وأنا أركلُ الفراغ كأنّني أسيرُ في حدائقَ غَنّاء، وسمعتُني وأنا أغنّي بصوتٍ عالٍ كأنّني في حفلٍ موسيقيّ: أيّها الموتُ الّذي يركضُ كالوحشِ بأرجاءِ البلادِ النّازِفَةْ... مُمعِنًا في ذبحِ أطفال الخيامِ الكاشِفَةْ... أيّها الموتُ الّذي ينفذُ من قلبي إلىٰ رأسيَ في لحظةِ رُعْبٍ خاطِفةْ... أنا ما خِفْتُكَ يومًا إنّما عيناكَ مِنّي خائِفةْ... ترالا لا لا لَلالاً...

دلَفْتُ وأنا أغنّي إلىٰ زُقاقٍ فرعيّ، لم يبقَ من البنايات الّتي تنتشرُ علىٰ جانِبَيه إلاّ أطلالٌ مُهَدّمة، كان صوتُ الاشتِباكات لا يزال يصكُّ أُذُنَيّ، وفجأةً لم أعدْ أغنّي فقد صرتُ في عينِ العاصفة؛ رأيتُ الدّبّابات تتمركز في وسط الشّوارع وهي تُطلِقُ نيرانَها بكثافة في الاتّجاهات كلّها، ورأيتُ المُقاوِمين يحملون قذائف الياسين (١٠٥) يركزونها بثباتٍ علىٰ أكتافهم، يُصوّبون بهدوء، ويُطلِقون إلى الدّبّابات نيرانهم فتشتعل على الفور، رأيتُ ثلاثَ دَبّابات تحترقُ في لحظةٍ واحدة، ورأيتُ ثلاثةَ وجوهٍ في غَبَشِ الظّلام تبتسم وهي تُطلِقُ صيحات التّكبير، وبدون شعورٍ رُحتُ أكبّرُ معهم، ووَدِدْتُ لو جريتُ إلىٰ أحدهم واحتضَنْتُه طويلاً وقبّلْتُ رأسه، وأخذْتُ من عينَيه اللّتين تنبثقان من خلف اللّثام نورًا يضيءُ لي عتماتِ أيّامي القادمة، ولٰكنّني توجّسْتُ من أنْ يكونَ في ذٰلك كشفٌ لهم. أخرجْتُ

هاتفي النّقّال أريدُ أنْ أصوّر الدّبّابة الّتي ثمنُها ملايين الدّولارات تسقطُ أمام قذيفة بمئة دولار، وخفْتُ ثانِيةً أنْ ينكشفوا، فأعدْتُ الهاتف إلىٰ جيبي، وشعرْتُ بأنّ تاريخًا من الزّهو يرقصُ بين جوانحي، وأنّ قلبي قد عادتْ إليه الدّماء من جديد. وعُدْتُ إلى المستشفى الإندونيسيّ وقد نبتتْ في أعماقي أشجارٌ وخمائل وسالتْ فيه أنهارٌ وجداول.

تلقّتْني (سلام) علىٰ بوّابة المُستشفىٰ: «كُنتُ أبحثُ عنكَ كثيرًا». «ذهبْتُ في نُزهة». «نُزهة؟». «رأيتُ ما لا يُرىٰ؛ رأيتُ المُقاوِمين». «حَقًّا؟». «وودتُ لو قبّلْتُ أقدامهم العارية». «لقد حُزْتَ شرفَ أنْ تكونَ في قلبِ الحربِ مرّة على الأقلّ». «أنا الآن مُطمئنّ إلىٰ أنّ حقّنا وحَقّ أبنائنا وضحايانا لن يضيع».

انتقمَ الجيش الجَبان من هزيمته في الشّوارع القريبة من حيّ المستشفيات بقصفِها. دوّتِ الانفجارات في محيط المستشفىٰ الإندونيسيّ، شَعرْتُ أنّ قلبي قد تمزّق، وأنّ أُذُنَيّ قد انفجرتا، وحمَلَني الانفِجار بضعة أمتار في الهواء قبلَ أنْ يقذفَ بي إلىٰ جدارٍ ثُمّ أسقط تحته مُحطّمَ الأضلاع. عَرَجَتْ إلَيّ (سلام) بعدَ أنْ تَبَيّنت الطّريق إليّ عَقِبَ الانفَجار. حاولتْ أنْ تعرفَ حجمَ إصابتي، قلتُ لها وأنا أشدّ علىٰ جذعي، وأكزّ علىٰ أسناني: «سليمة والحمد لله. بعضُ الرّضوض. لا تقلقي».

لم تكفّ اتّصالات الجيش الإسرائيلي لمدير المستشفى الإندونيسيّ: «عليكم أنْ تُخلوا المستشفىٰ لأنّنا سنقوم بقصفه». وفي معظم الاتّصالات كان القصف يتمّ في مُحيط المستشفىٰ فور أنْ يُنهي المدير مكالَمَته دون انتِظار. غَطّى السّواد الملاءات البيضاء، سالَ على الجدران، وتساقطتْ حجارةٌ ملأت الأسرّة، واستقرّ في عيون المرضىٰ رمادٌ فجلبَ العمىٰ،

نحنُ في عمًى لا ينتهي!

للعيون حكايا، مَنْ نظَر فيها عميقًا وكان صادِقًا قرأ الحكاية، مُحتاجٌ أنا إلىٰ قلبٍ أجدُ فيه حرارة البَوْح، أخفّف فيه وطأة الجُرْح، وأمسحُ به دموع النَّوْح، وها أنا في عينَي (سلام) أجدُ ذٰلك كلّه، وتجده في عيوني كذٰلك، قالتْ لي: «هل ستقبلني بهٰذه الهيئة؟». لم أفهمْ سُؤالَها. أشارتْ إلىٰ ساقِها وإلىٰ وجهها: «أعني عَرْجتي، وهٰذه التّشوُّهات الّتي هنا». صمتّ، ونظرتُ بعيدًا: «ماذا يُريدُ الإنسانُ من الآخَر؟ كلمةً طيّبة، روحًا دافِئة، وطريقًا يحمل فيه كلٌّ واحدٍ منهما صاحبَه ونصفَ ما يُعاني، كلّ ألمٍ إذا قُسِمَ على اثنين دَبّتْ فيه روحُ الأمل». ابتسمتُ ابتِسامةً بيضاء، وهززتُ رأسِي: «أَقبَل. ولٰكنْ أنتِ؛ هل تقبلين بهٰذا الجسد الّذي تخرّمَتْه المصائب حتّىٰ عادَ شبهَ إنسان؟». «كلُّنا في غزّة ذٰلك الإنسان!». وضَحِكْنا.

لبسْتُ أنا أنظفَ ما وجدْتُ، وضعتْ هي علىٰ رأسِها طرحةَ أمّها الّتي كانتْ تحتفظُ بها دائِمًا في حقيبة الكاميرا، لم أجدْ خاتَمًا أضعه في إصبعها، ولا خاتَمًا تضعه في إصبعي. قلتُ لها: «للحرب أحكامُها تعرفين ذٰلك، لن يُؤذي مشاعرَنا هٰذا الّذي سنفعل». خلعْتُ خاتم زواجي القديم، وخلعتْ هي خاتم زواجها القديم كذٰلك، وتبادَلْنا الخواتم، سرتْ في أصابعنا المُرتعشة موجةٌ غامِضةٌ من الحُبور لا يُمكن تفسيرُها، يبدو المجهول جميلاً إذا كان الوُدّ صادِقًا.

كتبَ كتابَنا الشّيخ (نبهان)، كان قد لَحِقَ بنا إلىٰ هٰذا المستشفىٰ، شَدّ العِمامة علىٰ رأسِه، رفع ذقنه وحكّ لِحيته، وتناول ورقةً من أوراق كشفيّات المرضىٰ مُروّسة بالطّبع باسم المستشفى الإندونيسيّ، وتلا علينا آية الحُبّ، ورَضِيَ كلّ واحدٍ منّا بصاحبه.

غَنّىٰ لنا الزّملاء وبعضُ المرضىٰ علىٰ صوتِ الرّصاص، مع كلّ قذيفة كانتْ قلوبُنا تنخلع لدقيقة ثُمّ تعودُ في الدّقيقة الّتي تليها إلى الهدوء، تمسحُ الفرحة ما تناثرَ في الأعماق من حُزن، وتكنسُ الطّمأنينة ما تخثّرَ من هلع، ونُكمل مشوارنا الاستثنائيّ.

هزَجَت الممرّضات اللواتي شَبَكْنَ أيديهنّ وتمايلَنْ مع الإيقاع، أغنيات قديمة لكنّها حاضرة في كلّ فرحٍ مُنتزَع، أغنيات للأعراس وللمُقاومة:

سَبَّلْ عُيُونُو وَمَادَّ ايْدُوا يِحَنُّولُو غَـزالِ زْغَيَّـرْ بِالمِنْدِيـلِ يْلُفُّولُـو

ومدَدْتُ يدي، ولم يكنْ لدَيْنا أوضحُ من دماء الشُّهداء نتّخذه حِنّاءً في زمن الحرب، وماذا في الحِنّاء اليومَ غيرُ الوجع، لكنّنا منذُ أنْ خُلِقْنا نصنع من بين الوجع فَرَحَنا، ونخطفُ من بين الدّموع ابتِساماتنا، ونحن نأمل أنْ تنتصر الوردةُ على السّكين والبسمة على الوجه الحزين.

يَا امِّي يَا امِّي عَبِّيْلِي مَخَادَّاتِي وِطْلِعْتِ مْنِ الدَّارِوْمَاوَدَّعْتِ خَيَّاتِي
سَبَّلْ عُيُونُو وَمَادَّ ايْدُوا يِحَنُّولُو غَـزالِ زْغَيَّـرْ بِالمِنْدِيـلِ يْلُفُّولُـو
يَا امِّي يَا امِّي طَاوِيْلِي المَنَادِيْلِي وِطْلِعْتِ مْنِ الدَّارِوْمَاوَدَّعْتَ انَاجِيْلِي
وِاطْلِعْتِ مْنِ الدَّارِوْمَاوَدَّعْتَ انَاإمِّي أَنَـا الغَرِيْبِـةِ وْهِيْلُـوا يَـا دَمْعَاتِـي

دَبَك لنا (زكريّا) الّذي اتخذْناه ابنًا لنا في ساحةٍ تحلّق حولَها المُحتَفُون، لم تكنْ هناك دَعَوات، مَنْ حضَرَ الخِطبة كان قد صنَع لنا مشهد المدعوّين. نحاول أنْ نبتسم، أنْ نقول إنّنا أحياء، وإنّنا نعقدُ مع الموتِ صُلحًا مُؤقّتًا، ترانا ننجح؟ ربّما.

(٣٥) كان يبدو إنسانًا عاديًّا!!

خرجْنا أنا و(سلام) في الموت إلىٰ مُستشفى الصّداقة التّركي حيثُ مرضى السّرطان، كُنّا ندعو أنْ تحوطَنا عينُ الله وأنْ نصل إلىٰ هناك سالِمين. لم نجدْ سيّارةَ إسعافٍ تأخذنا أو أيّة سيّارة أخرىٰ، لم تعدِ السّيّارات تعمل؛ فلا وقود ولا حتّىٰ (سيرج) من أجل أنْ نملأ بطنها لكي يستجيب مُحرِّكُها. وحتّىٰ سيّارات المستشفى الّتي لا تخرج إلاّ للضّرورة القُصوىٰ بسبب شُحّ الوقود قالتْ لنا: «هٰذا شأنُكم. نحنُ عندنا مرضانا ولدينا التِزام أخلاقيّ تُجاههم ولا يُمكن أنْ نُغامِر».

كانت الطّريق تبدو بعيدةً جِدًّا، محفوفةً بالموتِ في كلّ شبرٍ، ومع أنّها لا تحتاج إلاّ أقلّ من نصف ساعةٍ لو كُنّا نملك سيّارة، إلاّ أنّنا ربّما نحتاج إلىٰ ساعاتٍ وساعاتٍ حتّىٰ نصلَ إلىٰ غايتنا. كان سيرُنا يبدو ضربًا من الجنون، حيثُ تمركزت الدّبّابات في نواصي الشّوارع وكانتْ مُستعدّة أنْ تُطلق قذائفها ولو على الفراغ ومن دون سبب، فكيفَ إذا رأتْ ظِلّين يتحرّكان علىٰ رهج أشعّة الشّمس الخجولة الّتي لا تدفعُ كثيرًا من البرد عن القلوب الرّاجفة. كانتِ الشّمسُ تبدو مسافرةً دون عودةٍ وقد بدأتْ تميل إلى الأفق الغربيّ بهدوء.

إنّه جنونٌ بالفِعل، غيرَ أنّنا كُنّا نقسمُ الجنون على اثنين كعادتنا أنا و(سلام) فيبدو مُمتعًا، أو قلْ إنّه يُخفِّف من ارتعاشٍ حقيقيّ في أقدامنا قبلَ قلوبنا ونحنُ نسير وسطَ هٰذه الفوضىٰ كلّها.

سَلَكْنا في البداية شارع (بيت لاهيا) العامّ، كُنّا نريدُ أنْ نمرّ بالبيوت، ولٰكنْ ماذا في البيوت غير الأشباح، والرّيح الّتي تصطفق في أنحائِها. ماذا في البيوت غيرُ طيوف الرّاحلين الّتي كان بعضُها ما زال يحملُ بعضَ الأنفاس وهي تخبو ببطء دون أنْ تجدَ مَنْ يُعيدها إلى الصّدور المُهشَّمة.

كانتِ الشّمس تضربُ ناعِمةً الجانب الأيمن من صفحة وجوهنا، كانتْ تزْوار عن كهفِ عيوننا البائِسة ذات اليمين وتَقرِضُنا في قلوبنا الخاوية ذات الشّمال. كُنّا نمشي بخطواتٍ حَذِرة كأنّنا نمشي في حقل ألغام، وكان هٰذا الحذر يملأ نصفَ قلوبنا بالخوف، الخوفِ من كلّ شيءٍ غيرِ مُتوقّع؛ أنْ تبرز في وجهك فجأة دبّابة غادرة، أنْ ترىٰ فوهتها دون سابق إنذار قد رَصَدَتْكَ فصوّبتْ نحو قلبِكَ الرّقيق كُتلةً ثقيلة من المُتفجّرات الّتي لا تُسأل حينَ تنطلق نحوك وتُحوّلُك إلىٰ أشلاء ونتف من اللّحم المُتذَرْذِرة لماذا فَعَلتْ ذٰلك!

كُنّا قد انعطفْنا بعدَ دقائق من جَوْسِ الأرضِ بأقدامنا الخائفة عند تقاطع شارع (بيت لاهيا) العامّ مع شارع صلاح الدّين مُتّجهين جنوبًا، والجنوب قاتلٌ كغيره، ورياحهُ سَمومٌ علىٰ عادته. غيرَ أنّ أنفاسَنا فيه دافِئة تبحثُ عن الأمان. وفي الجنوب أمانٌ وَمَنَعة. وفي الجنوب وحده يُخبِّئ الموتُ مواعيدَه المُؤجّلة!

سألَتْني (سلام): «لماذا نفعل ذٰلك؟». نظرْتُ إليها مُستفهِمًا: «نفعل ماذا؟». «نسير في الموت إلى الموت؟». «لأنّ الموتَ هو السّلطة الوحيدة المُسيطرة علىٰ غزّة كلّها فأينَ نهربُ منه؟». «لو بقينا في المستشفى الإندونيسيّ». «لقد أنهى الموتُ هناكَ مهمّته، نحنُ نبحثُ عن موتٍ جديد». «أنتَ مجنون، وهٰذا الشّارع مجنون، دَعْنا نعدْ يا فرج».

«جميعُنا في الحرب مجانين؛ القاتل والضّحيّة، العدوّ والصّديق، وهٰذه الكائنات الّتي تُسبّح بحمد الله وتلك الّتي لا تُؤمن بوجوده». «هل تُريدُ أنْ تموتَ في الجنوب؟!». «إنّنا ميّتون لا محالة، أريدُ أنْ أستقبلَ موتي ماشِيًا لا قاعِدًا». هَزّتْ رأسَها كأنّما تقول: «سأتبعك ولو كنتُ غيرَ مُقتنعةٍ، إنّ الموتَ معكَ أجمل». ومضينا.

بعدَ أنْ مشيْنا في شارع صلاح الدّين تكشّفَ لي أنّ (سلام) كانتْ علىٰ حَقّ، لو أنّنا لم نُغامر بهٰذا الحُبّ الوليد بوأدِهِ في هٰذا الشّارع الّذي تفوح رائحة الموتِ منه في كلّ شبر. رأينا سيّارة مُحترقةً في الطّريق، اقتربْتُ منها أنا و(سلام) بخطواتٍ مُتشكّكة، حينَ وصلْتُ إليها تمنّيْتُ لو أنّني لم أفعلْ، كانتْ تكتظّ بأربعةَ عشر شهيدًا، احترقوا بالكامل، نظرة الرُّعبِ الأخيرة في عيونهم كانتْ تُخبر عن قصصٍ طويلةٍ من العذاب الفظيع. دقّقْتُ النّظر في الجثث المحترقة لعلّني أجدُ مَنْ بقي منهم حَيًّا، لم يكن مُمكِنًا التّأكّد من أنّ واحِدًا قد نَجا، وحينَ صارتْ (سلام) خلفي تمامًا عرفْتُ أنّها لن تحتمل المنظر، فاستدرْتُ نحوها، وغَطّيْتُ وجهَها بكَفّيّ حتّىٰ لا ترى المشهد، وسحبْتُها بعيدًا، وتهاوتْ من بينِ يدَيّ وأنا أسحبُها وكادَ يُغمَىٰ عليها، أحطْتُ جذعها ورُحْتُ أبتعدُ بها عن السّيّارة، وخُيِّلَ إلَيّ ونحنُ نبتعدُ أنّني سمعتُ صوتَ أنينٍ قادِمًا من قلبِ السّيّارة، توقّفْتُ لبرهةٍ لأتأكّد من الصّوت دون أنْ ألتفِتَ إلى الوراء فسمِعْتُه من جديدٍ، «يا إلهي، أحدُهم يتعذّب هنا في نَزْعِه الأخير. ماذا أفعل؟». حدّثْتُ نفسي. هممتُ بأنْ أستعيدَ خطواتي المُتباعِدة وأحاول إنقاذَ هٰذا البائس، غير أنّ جسدَ (سلام) ثَقُلَ عَلَيّ في ارتخاءته من هول المشهد، دفَعْتُها مُبتعِدين عن السّيّارة، وهمسْتُ: «لا يُمكن أنْ نفعل له شيئًا،

إنّها لحظةُ صعود الرّوح». لِحُسْنِ الحظّ أنّها لم تسمع ذٰلك الأنين، خطواتٍ أخرىٰ بعيدًا عن السّيّارة كان الصّوتُ يخفُت، والأنّة اليتيمة تزفُرُ زفرتها الأخيرة.

سألتْني بعدَ أنِ استعادتْ وَعْيَها: «هل كان فيهم أحدٌ حَيًّا؟». أجبْتُها بصوتٍ يرشحُ فيه الشّعور بالذّنب: «لا. لقد استُشهِدوا جميعًا». نظرتْ إليّ نظرةً اخترقتْ قلبي كأنّها تقول: «إنّكَ تُخفِي علَيّ شيئًا، ألَمْ ينجُ واحدٌ على الأقلّ من هٰذه الجُثث المُتكدّسة؟!».

تابَعْنا سيرنا في الشّارع، عشرات الجُثَث المُتناثرة ذَكَّرَتْني بمشهد مذبحة (صبرا وشاتيلا)، إنّ مذابحنا تتكرّر، نحنُ لقمة الموتِ السّائغة، نحنُ لسْنا في عِداد الصّهاينة بشرًا، كنا سقطَ متاعٍ مُهمَلاً. رأيْتُ بطونًا منتفخة، وعيونًا مرعوبة، وأُمًّا قد سقطتْ وهي تحتضنُ ابنها، وطفلةً سقط أبوها قبلها فهي تنامُ علىٰ صَدْرِه مثلما كانتْ تفعل لو كان حَيًّا، كانتْ تحتضنُه كما لو كانتْ تنتظرُ عودتَه بعدَ غيابٍ بشوقٍ مُضاعَف، لم تدرِ أنّ احتِضانَتَه تلك ستكون الأخيرة، غيرَ أنّهما رُبّما يُعيدان هٰذا المشهد بدون وجعٍ ولا خوفٍ في مكانٍ آخَر غير هٰذا المكان، في مكانٍ أعدّه الله لمثلنا، نحنُ الّذين عانَيْنا ما لم يُعانِه بشر. كانتِ الأذرع معلّقة بخيطٍ رفيعٍ من اللّحمِ لو سَحَبْتَها لانفصلتْ عن جَسِدِ صاحِبها، مَنْ يرىٰ ما نرىٰ؟!

كانتْ أعمدة الكهرباء قد سقطتْ على الأرض، أمّا الأشجار الّتي صمدتْ فكانتْ أشلاء الشّهداء تتدلّىٰ من تحتها كالعناقيد، وكانتْ هناك بِرَكٌ صغيرةٌ تتجمّع فيها السوائل السّوداء، لا ندري إنْ كانتْ ماءً أو مطرًا أو دمًا، كلّ شيءٍ يتحوّل بفِعل الحرائق والرّماد والتّفحُّم إلىٰ السّواد، اضطررنا إلىٰ أنْ نخوضَ في بعضِها، ونحنُ نستغفر الله أنْ

نخوضَ في دماء الشّهداء. كانت ألواحُ (الزّينكو) قد تبعثرتْ في الشّارع من المعاصر والمصانع والكانتينات الّتي ربّما كان بعضُها لأكشاكٍ تبيعُ القهوة أو الأطعمة، أكوامٌ من الحجارة والأخشاب المُكسّرة والحديد اختلطتْ مع لحوم البشر، استوتِ الأنفُس الطّاهرة والأجساد البرئية مع كلّ الأشياء المُتراكِمة هنا كأنّها شيءٌ هي الأخرىٰ، لا أحدَ يعرفُ عدد الشّهداء المُمتزِجين بهٰذه الأكوام.

بعدَ ساعةٍ من المشي، مِلْنا إلىٰ محطّة باصٍ مهجورة، كانتْ مُهدّمة، ركَع كلّ شيءٍ فيها على الأرضِ وسَجَد، جلسْنا علىٰ ما تبقّىٰ من صفيحٍ مملوءٍ بالرّماد في محاولةٍ أنْ نستتر عن عيون الرّادارات وطيّارات الـ (كواد كابتر)، ونحنُ نوقن أنّه لا شيءَ يحمينا، ولٰكنْ حينَ تكون في قلب الموت تكونُ في منأىً عن عينَيه، وهٰذا يُتيحُ لك لحظاتٍ مسروقةً منه لأجلِ حياةٍ قصيرة، لَحَظات من الشّعور الكاذب بالطّمأنينة هي أملُ الخائف في مراوغة الموت الّذي لا أمانَ له.

قلتُ لِسلام: «كان يبدو إنسانًا عاديّا. لم يكنْ ذكيًّا فيما يبدو. نحيلاً يكادُ يختفي عن نفسه، مريضًا في عيون العالَم المريض. اشتعلَ رأسُه شيبًا. سجينًا من آلاف السُّجناء المحكومين بالمُؤبّدات، أولئك الّذين يقضون أيّامهم وهم يذرعون باحة مهجعهم كأنّهم يريدون للأيّام أنْ تمرّ». «مَنْ تقصد؟». «ذٰلك الّذي لا يحترقُ في جهنّم ولا يغرقُ في الطّوفان، ولو نُقِشَ علىٰ نُصُبٍ أسماء الّذين غيّروا مجرى الحياة في التّاريخ لَكانَ واحِدًا منهم، في عينَيه شيءٌ من الغموض والأسرار الّتي لا يُمكن لعلماء النّفسِ كُلِّهم أنْ يعرفوا ماذا تُخبِّئان. الرّجل الظّلّ.

المُستكنّ في زاوية المهجع يتعلّم العبريّة حتّىٰ يُتقنها، ويقرأ مذكّرات القادة الصّهاينة بلُغتهم، ويستشرفُ المستقبل، ويقرّر ما سيكون بلهجة اليقين، ويُؤمن بالمُعجِزات في زمن انقِضائها». «لم أفهم». «إنّه سببُ كلّ هٰذه التساؤلات الّتي يطرحها علماء النّفس في العالَم علىٰ أنفسهم، لقد أفسدَ نظريّاتهم، وأحرقَ مُسوّدات أبحاثهم». «أيُّ رجلٍ يكون؟!». «الرّجل الّذي أوقفَ زعماء العالَم علىٰ أقدامهم يرتعشونَ من خُطوتِه القادمة دون أنْ يعرفوا ما تكون ولو استعانوا بكلّ المنجّمين الّذين عرفهم التّاريخ مَنْ ماتَ منهم ومَنْ ظلّ حَيًّا». «تقصدُ قائد المقاومة؟». «ليسَ وحده، إنّه نموذجٌ عالٍ أو قُولي عُلويّ، إنّ نُسَخًا منه تنتشر اليوم في غزّة». تنهّدَتْ طويلاً قبل أنْ تقول: «صدقت، كُنّا مُحتاجين إلىٰ طريقةِ تفكيرٍ مُغايرة كتلك الّتي فكّر بها، لو كُنّا نملكُ مثلَ هٰذه العقول في غزّة فلن يهزمنا شيء». «إنّنا نملكُها يا سلام... بالطّبع نملكُها، ويومًا ما، سيفعلون بعقل هٰذا الرّجل العبقريّ كما فعلوا بعقل آينشتاين». «وماذا فعلوا به؟». «سيُخرِجونه من جُمجمته، وتنهال كلّ مراكز الأبحاث والمُختبرات في أرقىٰ جامعات العالَم لتتسابقَ إلىٰ تحليله». «تحليل دِماغه؟». نعم». «وماذا سيجدون؟!». «لن يجدوا شيئًا مختلِفًا. الأغبياء لا يعرفون أنّه كان عليهم أنْ يفعلوا ذٰلك مع قلبه لا مع عقله». «ولو فعلوا ذٰلك، فماذا سيجدون في قلبه؟». «سيجدون كلّ شيءٍ». «مثل ماذا؟». «سيجدون أنّ نوعًا من الإيمان والعقيدة لا يُشبهها إيمانٌ أو عقيدةٌ في أيّ قلبٍ آخر». وصدَح طيرٌ فوق عمودٍ لم يخرّ في المحطّة المهجورة، ونَبَح كلبٌ ضالّ يتشمّم الأرض، وناحتْ حمامة علىٰ إلفٍ رحلَ مُبكِّرًا، وخُيِّلَ إلينا أنّ عُواء ذئابٍ بعيدةٍ يأتي من الحدود الشّرقيّة لا يجرؤ أنْ يقتربَ مِنّا. وقلتُ لسلام: «هل يُمكن أنْ نواصلَ مسيرنا؟».

(٣٦) خُذنا مَعَك...

تابَعْنا سيرنا الّذي لا يُشبه أيّ سيرٍ؛ كانتِ الظّلال قد امتدّت فمنحتِ الأجواء شيئًا من البرودة اللّذيذة، وكانت مِئاتُ الأسئلة تتصارع في جمجمة (سلام): «لماذا أخرجْتَنا وحدَنا في هٰذا المساء المشهود؟ ألَمْ يكنْ أحسنَ لو كانَ معنا غيرُنا؟! ألَمْ يكنْ في الجماعة درعٌ يقي من الخوف والألم؟ لِمَ أردْتَ هٰذا النّزوح في غير موضعه؟ هل حياتنا رخيصةٌ عليكَ إلىٰ هٰذا الحَدّ؟». غيرَ أنّها في النّصف الآخَر من جُمجمتها كانتْ تُدركُ أنّني جَماعتُها، وأنّني دِرعُها، وأنّني معها ولَها.

كانتِ الفظائع لا تزال تُرىٰ طَوال الطّريق؛ كُنّا نرىٰ جُثثًا قد سُحِقتْ تحتَ جنازير الدّبّابات الّتي مرّتْ منها فسوّتْها بالأرض، مررْنا في الطّريق بحفرةٍ كبيرةٍ قَدْ جُمِّعتْ حولها حوالي مئة جُثّة غير واضحة المعالم، وقد استقرّ في قاع الحفرة (بلدوزر) يبدو أنّ سائِقه كانَ يُعِدّ لهم قبرًا جماعيّا، ولٰكنّ (البلدوزر) قُصِف ولم تمهلْه الطّائرات من أنْ يُتِمّ دفن الجُثث.

آخرون يبدو أنّهم كانوا يريدون لملمة الأشلاء الّتي لم يعدْ أحدٌ يُميّز فيها بين رأسٍ مقطوعٍ وآخر؛ أيُّ رأسٍ لأيّ جسدٍ. لم يتمّ تجميع الجُثث، ولا وصل الرّؤوس بأعناق أصحابها ولا السّيقان والأذرع بأجساد ذويها، كانتْ قد لُملِمَتْ بشكلٍ عشوائيّ من أجل مُستقرٍّ أخير، ولٰكنّهم لم يحظَوا حتّىٰ بذٰلك ولو رُمِيَتْ أشلاؤهم بطريقةٍ اعتِباطيّة في تلك الحفرة الكبيرة. كانت الرّوائح تزكم أنوفَنا، لم نحتملْ أن نمشي ونرىٰ،

فرُحْنا أنا و(سلام) نُغطّي أعيننا بِقَدْرِ ما نستطيع ونركضُ نحو المجهول.

رَكَضْنا حتّىٰ لَهَثْنا، ثُمّ توقَّفْنا وانحنَينا ونحنُ نضع أكفّنا علىٰ رُكَبِنا وننظر نحو الأفق عبر الشّارع المنكوبِ أمامَنا، فشاهَدْنا عن كثب مستشفىٰ حيفا وقد تهدّمَتْ أجزاءٌ كبيرةٌ منها، فكّرْنا أنّ جزأها غير المُهدّم قد ظلّ عامِلاً للآن، وأنّ فيه بعضَ الجرحى المُحتاجين إلىٰ مساعدتنا، فهَمَمْنا بأنْ نميلَ نحوه وندخله، ولو لانقِضاء هٰذه اللّيلة العصيبة، ونرىٰ ما يُمكن أنْ نفعل بعدَ ذٰلك. ولكنّنا بالتِفاتةٍ آمِلة نحو الجنوب القَصِيّ قرّرْنا أنْ نواصل المسير.

بعد بضع مئاتٍ من الأمتار، لاحَ عن يميننا مسجد (سِدْرة)، كانَ قد تَهدّمَ بالكامل، وبقيتْ مِئذنتُه شامخةً مع أنّ جُزءَها الأعلىٰ أصابه من المُتفجّرات ما أصابه فانقصف الجُزء الّذي كانتْ تستقرّ فوقَه السّمّاعات الّتي تتعالىٰ بالنّداء. تذكّرْتُ أنّني صَلَّيْتُ فيه كثيرًا في زياراتنا أيّام مراكز تحفيظ القرآن في القطاع، أنا أعرفُه شبرًا شبرًا، لقد كان مأوىٰ أرواحِنا التّائقة، وكُنّا نجدُ فيه أماننا ونحنُ أطفال، فهل ظَلّ كذٰلك إلى اليوم؟ قلتُ لسلام: «نمضي إلى المسجد فنرتاحُ فيه قليلاً، ونُفكّر في حالِنا، ولعلّنا نجدُ فيه بقايا تمراتٍ تسدُّ جوعنا». نظرتْ نظرةً فاحِصة إليه وقد انسحبَ من الأجواء نورُ الشّمس، وحلّ محلّها الأثر الباقي من سربال الظّلال، وقالت: «إنّه مُهدّم، ولا يختلفُ عن أيّ مبنًى آخر قد لَحِقَه الدّمار، فما الفائدة في أنْ نأتيه؟!». «إنّ فيه شيئًا من روحي، ومن ذكريات الطّفولة الهاربة». «ليسا سببًا في أنْ نذهب إلىٰ هنالك». «لعلّ فيه شيئًا من الطّعام، ألسْتِ جائعة؟». «بلىٰ، ولٰكنْ لو افترضْنا أنّه كان فيه شيءٌ مِمّا يُؤكل أتظنّ أنّ الكلاب والقطط والهوامّ قد

أبقتْ لنا نحنُ البشر من ذٰلك شيئًا». «صدقتِ، فماذا ترَيْن؟». «أن نواصل المسير حتّىٰ يقضي الله أمرًا كان مفعولاً». «ولٰكنْ ألا تشعرين بالتّعب؟». «بالطّبع، ولٰكنّ السّير الآمِل أحسنُ من الوقوف الخائف». «وعَرْجَتُكِ؟». «لم تعدْ عندي عرجة، أنتَ تُبالغ». ردّتْ مُعترضة. ومضينا.

كانت معالم الشّارع في بعضِ أجزائه قد اختفتْ. ليسَ فيه من الإسفلت شيء، تحوّل إلىٰ ترابٍ وأكوامٍ تستقرّ فيه وعلىٰ جانِبَيه، كُنّا نتحوّل عن الحُفر الكثيرة لكي لا نسقط فيها كلّ مترين أو ثلاثة مِمّا جعل سيرَنا صعبًا، هٰذا عَدا عن توقّع اللاّمتوقّع في كلّ مُنعطفٍ فيه وأوانَ كلّ حركة. غيرَ أنّنا كُنّا نواجه الخوف باصطِناع الشّجاعة ولا شَجاعة، والموت باصطناع اللاّمُبالاة ونحنُ نرتعشُ في أعماقنا ارتِعاشَ العصفور الصّغير تبلّلَ بماء المطر البارد. ظهرتْ أمامنا (حلويّات أبو الخِلّ) تذكّرْتُ أيّام كُنتُ أشتري منها أوّل زواجي، يومَ كُنتُ أريدُ للبهجة أنْ تفتحَ شُبّاك قلبي وتدخل إليه، اليوم لم يبقَ من (حلويّات أبو الخِلّ) شيء، كان المحلّ قد دُمِّر، وسقطتْ لافِتتُه من جانِبها الأيمن وبقيتْ مُتشبّثةً بشيءٍ من الباطون في جزئها الأيسر، واحترق نصفُها الأوّل فكنتَ تقرأ في الآرمة الساقطة عموديًا كلمة (أبو الخِلّ) ولا (حلويّات).

حينَ وصلْنا إلىٰ تقاطع شارع الشّوّا مع شارع صلاح الدّين كانتِ الشمس قد رحلتْ تمامًا، وبدأ السّواد ينتشر في مدى الرّؤية، وللسّواد خوفُه، فهو لونُ احتراق الجُثث الّذي لم نرَ سِواه خلال هٰذه الحرب الغادرة. وللسّواد رَهْبَتُه وهَيْبتُه وحُزنُه الخاصّ ونحنُ والله حَزانىٰ وموجُوعون، وشعرْنا أنّ السّواد يتسلّل إلىٰ قلوبنا تسلّل الماء المُنداح من تحتِ شقوق الباب، وتمنّينا أنْ نصل إلىٰ مستشفى الصّداقة التّركيّ قبل أنْ يستفحل سوادُ اللّيل،

وكانتْ أمنية سوداء في هٰذا السّواد الّذي لا ينتهي.

وبدا أنّ أحسنَ ما نفعل في القضاء علىٰ هٰذا الخوف الّذي راح ينسابُ في جوارحنا أنْ نهرب إلى الأمام، وكان الهروب إلى الأمام من اللّيل البادِئ إلى اللّيل المُمعِن. وتمنّيْنا أنْ يكونَ اللّيل قصيرًا كذيل الأرنب حتّىٰ يطلع علينا أمانُ الصّباح، ولٰكنّه كان كليل امرئ القيس شُدَّ إلى النّجوم في السّماء بصخرةٍ لا تتزحزحُ في الأرض! ومع ذٰلك هربْنا إلى الأمام.

لاحَ لنا بعدَ هروبنا الشُّجاع (مخبز اليازجيّ)، توقّفْتُ وطلبْتُ من (سلام) أنْ تتوقّف، وقلتُ لها مُشيرًا إليه: «المخابز عنوان الحياة». واستنكرتْ: «لم يعدْ في غزّة كلّها أيّة حياة». «الحياة مثل الرّضيع الّذي يجثمُ فوقَه جبل كبير، أتظنّين أنّ الجبل لا يتململ والرّضيع لا يثغو». «أنتَ تبحثُ عن قطرةٍ ذابتْ في المُحيط». «ولٰكنّها موجودة». وأردفْتُ: «انظري». وأشرْتُ إلىٰ نورٍ كأنّه سراجٌ في الجانب البعيد عن الشّارع داخل المخبز: «إنّ هناكَ أحدًا». ونظرتْ إلىٰ حيثُ أشرْتُ: «أيّ نور؟». «ألا ترين؟». «لا أرىٰ شيئًا». «دقّقي النّظر يا سلام». «لا أرىٰ شيئًا يا فرج، يبدو أنّه يتهيّأ لك». «لا، لا تقولي ذٰلك». واقتربْتُ منها، ولففتُ ذراعي حولَ جسدها فوجدْتُه يرتعش، وبدأت ارتعاشتُه تهدأ حتّىٰ خفتتْ، وهمسْتُ: «لا تخافي». وقالتْ: «ألسْتَ خائفًا؟!». ولم أجبْ عن سؤالها، وأشرْتُ من جديدٍ إلى الموضع البعيد الّذي ظهر منه النّور: «الآن ألا ترينَه؟». وصمتتْ برهةً قبل أنْ تقول: «لا، ولٰكنِ افرضْ أنّني أراه، ألا يُمكن أنْ يكون الجيش الإسرائيليّ قد احتلّ المخبز وتمركزَ فيه». وهززتُ رأسي، وزممتُ شفتَيّ: «ربّما». «فالدّخول هناك إذًا مغامرة غير محمودة العواقب». «ولٰكنْ ألا ترَين أنّ الحصول علىٰ رغيفٍ واحدٍ

ولو كان مُعفّرًا يستحقّ المُحاولة؟!». «لا تكنْ مجنونًا». «ونموت من الجوع؟». «الموتُ من الجوع خيرٌ من أنْ نُسلِّمَ أنفسَنا للجيش النّازيّ». وتركْتُ ذراعي تهبط من جذعها، وقالتْ: «ربّما يكون في الطّريق المخوفة موضعٌ للأمان، ولـٰكنّه بالتّأكيد ليس هنا». ومضينا.

لم يكنِ الظّلام قد أغرقَ كلّ شيءٍ حينَ وصلْنا إلىٰ مقربةٍ من (دوّار الكُويت)، كان لا يزال مُمكِنًا أنْ نرىٰ ولو في هـٰذا السّواد الّذي يزداد مع الوقتِ حُلكةً. ومن مسافةٍ كافيةٍ رأيْنا ما انخلعتْ له قلوبُنا، كانتْ هناك عشرات الدّبّابات المُتمركِزة على الدّوّار، وكانَ بعضُها يروح ويجيء في حركةٍ دائبة، فجمدْنا مكاننا، وأشرْتُ إلىٰ (سلام) ألاّ تأتي بأيّة حركةٍ أو صوت، وشعرتُ أنّه قد قُضِيَ علينا، فلا يُمكن أنْ نعبر الدّوّار أحياءً مع وجود هـٰذا الجيش من الدّبّابات المُجهّزة بالرّادارات وبالمناظير اللّيلة، ولوهلة تخيّلْتُ أنّنا طِرْنا في السّماء وتحوّل جَسَدَانا إلىٰ ألفِ قِطعةٍ صغيرةٍ وكلّ قطعةٍ حطّت وهي تصعد إلى الأعلىٰ علىٰ نجمةٍ من النّجوم فزادَتْها ضِياءً ووجدتْ هناكَ أمانها. ليتَ هـٰذا يحدث!!

كَمَنّا خلفَ كومةٍ كبيرةٍ من الرُّكام نراقب المشهد، وهمسْتُ لسلام: «لقد صِرنا قريبَين من مستشفى الصّداقة التّركيّ، ولـٰكنْ كيفَ نصل إلىٰ هناك مع هـٰذا الرّتل من الدّبّابات والجنود؟». ونظرتْ إليّ سلام نظرةَ لومٍ وعتاب، وفهمتُ ما أرادتْ أنْ تقول، وهمستْ وهي ترسلُ نظَرَها في الأجواء: «ألا توجد طرق فرعيّة يُمكن أنْ تؤدّي إلى المستشفىٰ؟». «بالطّبع موجودة، ولـكنّنا لا نضمنُ ما يُمكن أنْ يواجهنا فيها». «أنْ تجهل الطّريق فتعيشَ ببعضِ الأمل خيرٌ من أنْ تعرفها وأنتَ تدرك أنّكَ هالِكٌ لا محالة لو عبرْتَها». فماذا ترَين؟». وقبلَ أَنْ تُجيب دَوّىٰ صوتُ انفجارٍ

قريبًا منّا، وشعرْنا بالهلع، وهمسْتُ وأنا أبلعُ ريقي من الهلع: «لا بُدّ أنّنا انكشفْنا».

بُمْ... بُمم بُممم... وتوالتْ بعدها أصواتُ انفِجارات تنخلعُ لها القلوب، كان الصّوت يُمزّق الجدران الإسمنتيّة فكيفَ بجدران قلوبنا، وللحظةٍ وَقَرَ في رُوعي أنّنا أخطأنا، وأنّ عَزْمَنا على أنْ نصل إلى غايتنا سيُسبّب لنا الموتَ الوشيك، وفجأةً نظرتْ في عينَيّ، وهتفتْ: «إذا أصابتْني قذيفةٌ فادْفنّي تحتَ شجرة. أقربِ شجرةٍ تجدُها في هٰذه الطّريق، وبأسرع وقت. أريدُ أنْ أرتاحَ». ضحكْتُ وسطَ الرُّعب، وقلتُ: «أمّا إذا مِتُّ أنا فاحمليني إلى أعلى رَدْم موجود أو بنايةٍ مُهدّمة وضعيني هُناك. أريدُ للجيش الجَبان أنْ يرى جُثّتي». نظرتْ إلَيّ مُستنكِرة: «طيّب... ولٰكنْ هل تظنّ أنّني مع عَرْجتي هٰذه أستطيعُ أنْ أحملك؟». رددتُ: «أوّلاً عرجتُك صارتْ خفيفة جِدًّا فلا تتحجّجي بها، وثانِيًا وزني صار قريبًا من خمسين كغم، أنا شِبه خيال، لو استمرّت الحرب والجوع فلن تحملي شيئًا، سأكون قد اختفيتُ وأرحْتُكِ منّي». ضَحِكْنا ضحكةً مكتومةً صافية قبل أنْ تقطعَها أصواتُ الانفجارات من جديد. منذُ أوّل يوم في الحرب وهي تعزفُ سيمفونيّتها الصّاخبة بِدَأَبٍ عجيب. وبقينا في مكاننا جاثِمَين، وقد توقّفَ صوتُ الانفِجارات قليلاً ولم تتوقّف النّيران المُتصاعِدة الّتي تُخفّف من حدّة الظّلام وتمنح شعورًا مُؤقّتًا بالطّمأنينة، وقبلَ أنْ نعقد العزم على المُضِيّ في الطّرق الفرعيّة عن يميننا، سألتْني: «ولٰكنْ لماذا تريدُ أنْ أضعكَ على أعلى بنايةٍ مُهدّمة؟!». ليسَ هٰذا وقتَ سؤالٍ كهٰذا، سحَبْتُ كُمّ معطفي الطّبّي، ونفضْتُ ذراعَيّ وضيّقْتُ عينَيّ كمن يتهيّأ لإجابةٍ فلسفيّة، وقلت: «لسبَبين: الأوّل أنْ أكون قريبًا من هٰذا العالِم بالأسرار والّذي جعل استمرار الحرب سِرًّا لا ينتهي،

كنتُ سأسأله: أيّها القادر على كلّ شيءٍ: لماذا لم تُنهِ الحرب حتّى الآن». واستغفرتُ الله في سِرّي قبل أنْ أُتابع: والثّاني من أجل أنْ تنهشني الطّيور الجائعة، فأنا لا أريدُ أنّ تنهشني الكلاب، ألم تسمعي قول عبد الرحيم محمود:

وجِسْم تجدّلَ في الصَّحْصَحَانِ تَنَاهَشُهُ جارِحاتُ الفَلا
فَمِنهُ نَصِيبٌ لِأُسْدِ السَّماءِ وَمِنهُ نَصِيبٌ لِأُسْدِ الشَّرىٰ

فأمّا لأُسْدِ السّماء فنعم، وأمّا لأُسدِ الشّرىٰ فلا». ولم تدْرِ هل تضحكُ أمْ تبكي. ولٰكنّها زمّتْ شفَتَيها، ومضينا ونحنُ نَحنِي ظهورنا ونمشي مُسرعَين مُتّخذَين من الطّريق البعيدة عن الدّوّار مسيرَنا.

كان دمُ الأفق قد اختفىٰ تمامًا فقدّرْنا أنّه وقتُ العِشاء، وهدأتِ الأصواتُ قليلاً، ولم نعد نسمع القذائف إلاّ بين حينٍ وآخَر. وفي الطّريق يُمكنك أنْ تعرفَ كيفَ تروي الحربُ قِصّتها، إنّها تكتبُها بقلمٍ خاصٍ وحِبْرٍ مُعيّن وورقٍ مُحدَّد، فأمّا القلم فأشلاء الضّحايا وأمّا الحبر فدماؤهم وأمّا الورق فجدارن البنايات، وأرصفة الشّوارع، وجذوع الأشجار. ومن هنا وقبلَ أنّ تستمرّ اللّيالي في تتابُعها سترىٰ هٰذه الحكاية تُقال بلا لغة ولٰكنْ يفهمها كلّ مَنْ مرّ بها دون حاجةٍ إلىٰ ترجمة.

راحَ السّواد القاتم يُلقي بسربالِه علىٰ كلّ ناحية. وظهر خوفٌ جديد، إنّ الطّرق شبه خالية، والظّلام مُخيّم علىٰ كلّ شيء، وشبح الموتُ يكمُن وراء كلّ جدارٍ أو حجر أو زاوية، ولا يُمكن أنْ تتوقّع متىٰ يخرجُ من مَكمَنِه فينقضّ عليك، ومع أنّ الأصوات خفتتْ إلاّ أنّ ذٰلك الهدوء لم يبعثْ من الطّمأنينة بقدْر ما بعثَ من الخوف، وراحتْ (سلام) تلتصقُ بي وتشبكُ ذراعها بذراعي، وتُميل رأسَها جهةَ كتفي،

وشعرْتُ لوهلةٍ أنّ الخوفَ يتراجَع أمام موجةِ الدّفء الّتي سَبّبَها هٰذا الالتِصاق، غيرَ أنّنا كُنّا نمشي بنصفِ خوفٍ مع نصفِ رجاء، وكان هٰذان النّصفان كافِيَين من أجل مُتابعة المسير.

وسرْنا نصفَ ساعةٍ بلا عيونٍ في هٰذا الظّلام، فجأةً وسطَ هٰذا المَسير المُترقِّب، سمعْنا أصواتًا بعيدةً من خلفِنا، كأنّ وحشًا أسطوريًّا كان يَخمِشُ الأرضَ بأقدامه العِملاقةِ العارِية، وراحتِ الأصواتُ تقتربُ شيئًا فشيئًا، فالتصَقتْ بي (سلام) أكثر، وتحفّزْتُ أنا لِما سيأتي، وفكّرْتُ أنْ نهربَ إلىٰ بيتٍ مُهدَّم فنختَبِئ فيه ريثما نتبيّن طبيعة هٰذا الصّوت، وبالفعلِ تركْنا الشّارع الّذي كُنا نعبره، وانحدرْنا إلى اليمين حيثُ أقربُ بيتٍ، وخطَر ببالي: «ماذا لو كان القَنّاصةُ يختبِئون فيه كذٰلك، سنكونُ قد قدّمْنا أنفُسَنا لهم لُقمةً سائغة». وتوقّفْتُ عن المضيّ إلى البيت، واستغربتْ منّي (سلام)، فقلتُ: «لا نريدُ أنْ نموتَ هناك وفي الظّلام».
كان الصّوت الّذي يتبعُنا قد صار أقربَ وأكثر وضوحًا، وقدّرْتُ أنّ هٰذا صوتُ عجلاتٍ تنهبُ الأرض، واستدرْنا جهةَ الطّريق، وصرخْتُ: «يا سلام... يا سلام...» وانقطَع صوتي وأنا أركض. وردّتْ برعب وهي تلحقُ بي: «ماذا؟». «اهربي». وركَضْنا بجنونٍ ونحنُ نصيح، ولم نعدْ نسمع الصّوت مع هروبنا ولُهاثِ أنفاسِنا العالي، ثُمّ توقّفْتُ عن الرّكض، وأخذتُ (سلام) بينَ ذراعَيّ كأنّني أحميها من خطرٍ داهم، ودفَنَتْ هي رأسَها في صدري، وأرسلتُ من خلفِ كَتِفَيها نظراتٍ مُترقِّبة، وضَيَّقْتُ عينَيّ، ومددْتُ النّظر إلىٰ آخر الشّارع، وفكَّرْتُ أنّها يُمكن أنْ تكونَ سيّارة، ومرّتْ لحظاتٌ بطيئة بين الحَدْس والهَجْس حتّىٰ سَمِعْنا نهيقَ حمار، وبعثَ الصوتُ في أعماقنا الخائفة طُمأنينة، إنّها (كارّة) إذًا يقودُها

حمارٌ شُجاع وسائقٌ أشدّ شجاعة، وتَسمّرْنا مكاننا حتّىٰ صارتِ الكارّة قريبةً بحيثُ تُرىٰ، وركضْنا باتّجاهها ونحنُ نصيح: «خُذْنا معك... خُذْنا معك...». واقتربتِ الكارّة أكثر حتّىٰ صارتْ قُبالتنا، وبدا أنّ الّذي يقودُها طفلٌ لم يتجاوز العاشرة، وقلتُ لنفسي: «ربّما لِصِغَرِ سِنّه لم يُقدّر المخاطر الّتي اجترحها». وأوقف الصّبيّ الكارّة، وحَدَجنا بعينَيه وسطَ الظّلام مُستغرِبًا، ثُمّ سألني: «لماذا كنتما تصرخان؟ كنتُما ستفضحانِنا، ألا تعرفان أنّ الطريق مليئةٌ بالدّبّابات والقَنّاصة؟». وأجبْتُه وقد سُرِّيَ عنّي تمامًا: «يعني نهيقُ حماركَ لم يكنْ ليفضحنا؟!». ورفع الحِمار أُذُنَيه إلىٰ أعلىٰ وبسطَ شفتَيه حتّىٰ بانتْ أسنانُه العريضة البيضاء في الظّلام، وضَحِكَ الحِمار وضَحِكَ الصّبيُّ معه، وسأل: «إلىٰ أينَ تذهبان أيّها المجنونان؟». «إلىٰ مستشفى الصّداقة». «اصعَدا». «ولكنّنا لا نملك حتّىٰ شيكلاً واحِدًا». «اصعَدا أيّها المجنونان لا أريدُ منكما شيئًا، أنا ذاهبٌ لآخذَ مريضًا من ذٰلك المُستشفىٰ». وصعدْنا إلى الكارّة وقلوبُنا ترقصُ من الفرحة، وَدَوَّى انْفِجَارْ... وَصَاحَ الحِمارْ... وَسَارَ القِطَارْ... وفي السّير وَسْطَ الدّمار اعْتِبارْ... وَفِي اللّيلِ رَغْمَ المخافةِ فِيْهِ استِتارْ...



(٣٧) ما أقسى ليالي غَزّة!!

جلسْنا خلفَ الصبّي في الصندوق الحديديّ، لم يكنْ فيه مقعد فجلسْنا علىٰ بَسْطته ولسعَ البردُ موضعَ جلوسِنا، وأحاطتْ (سلام) بذراعِها جذعي، وركنتْ رأسَها علىٰ كتفي، وغذّ الحِمار السّير كأنّه أكثرُ فَرَحًا منّا، وراحتِ العربة تتقافزُ بنا.

سارتْ بنا العَرَبةُ مُسرِعةً وسطَ الظّلام الدّامس، وكادتْ تنقلبُ بنا غير مَرّة وهي تغوصُ في الحُفر، وترتطمُ بالرُّكام، وكُنّا نسمع صوتَ احتِكاكِ بعضِ غصون الأشجار بحديد العربة فنخفِضُ رؤوسنا لا إراديًّا في هٰذا السّير الغامض، وسَمِعْنا صوت الطّفل يسأل: «هل أنتما صديقان؟». «زوجان». «وأينَ أولادُكم؟». «تزوَّجْنا قبل أيّام». «إنّكما كبيران علىٰ ذٰلك، هل أنتما من غَزّة؟». «نعم، لٰكنْ لماذا تسأل؟». «لأنّنا في غزّة نتزوّج غالبًا قبل العشرين، تبدوان في الثّلاثين أو الأربعين». وضَحِكْتُ في سِرّي، إنّني أزحفُ نحو الخمسين، والخمسون تجاوزت المئة بسبب الحرب الّتي أهرمتْ كلّ شيءٍ، وأردفَ الصّبيّ بصوتٍ فيه ضِحكةٌ مُختبِئة: «أنا مثلاً في الثّانية عشرة من عمري، وقبل أنْ تبدأ الحرب فكّرَ والداي بأنْ يخطبا لي عروسًا أصغرَ منّي بعام». «تمزح». وضَحِك: «هما يخطبان في هٰذه السّن لنا، ونتزوّج في السّابعة عشرة، هل هٰذا غريبٌ؟ يبدو أنّكما بالفعِل لا تعيشان هنا!». «لقد كان كلّ واحدٍ منّا متزوّجًا من قبل». «آه، هٰذا يُفسّر الأمر». وجذبَ السّير المربوط بعنق الحمار، وصاح

به: «حاه، أسرِعْ أيّها الحِمار العنيد، هل تريدُنا أنْ نصل إلى المستشفى مع بزوغ الفجر؟!». وأضاءَتْ قُبّة كبيرةٌ من اللّهب المُتصاعِد الفضاء البعيد، ولم يأبه بها الحِمار، وظلّ ينهبُ الأرض بحوافره، وكانتْ آمالُنا كلّها معقودةً على هٰذا الحمار، وأمال الصّبيّ عنقه إلى الوراء، وهتف: «تخيّلوا أنّ نجاتنا إذا كتب الله لنا النّجاة ستكون بسبب هٰذا الحِمار، في حينَ أنّ الموتَ سيكونُ بسببنا نحن البشر». وأردْتُ أن أمازح الفتى، فقلتُ وأنا أمطّ شفَتَيّ: «لم أكنْ أعرفُ أنّكَ فيلسوف». «الحرب يا صديقي. الحربُ تعلّمك ما لم تعلّمه لك الكُتُب».

هدأتْ نَقَرات العربة في النّهاية، يبدو أنّ الجزء الّذي نسير فيه الآن من الشّارع لم يتعرّض لقذائف مثل تلك الّتي تعرّض لها الجزء السّابق من الشّارع، وانقطعتِ البنايات من حولنا، وبدا الأفق ممتدًّا أمامنا، وكانتِ النّجوم فيه تلمع، ولا يُغطّيها سِوى كتل اللّهب الّتي تصعدُ في وجهها من بعيدٍ بين حينٍ وآخَر.

وسألتْ (سلام) الصّبيّ بصوتٍ يرشح بالرّجاء: «هل الطّريق إلى المستشفى لا تزال بعيدة؟». وردّ: «قريبةٌ وبعيدةٌ معًا، نحنُ لا ندري ما يحدثُ لنا بعدَ لحظة». وكأنّه صدقَ فيما قال فقد سمعنا صوتَ (كواد كابتر) تُحلّق فوقَ رؤوسنا، ودبّ الرُّعب في صدرونا، وجذبَ الصّبيّ عِنان الحمار، فانفتل بالكارَّة نحو اليسار، وشَدّ بيدَيه كلتَيهما عنانه، فتحوّل الحمار عن الطّريق، ودخل بين الرَّدْم إلى قاع عمارةٍ والكارَّة تتهادَى يمنةً ويسرةً مع سرعة العَجلات حتّى استقرّ بها في أسفل تلك العِمارة، وقفتِ الكارّة في النّهاية ونزل منها الصّبيّ، وهمس: «اهدؤوا،

لا تخافوا. إنّها مجرّد زنّانة، نحنُ هنا في مأمن، سنتوقّف لربع ساعة ريثّما ترحل». ونزل من فوقِ ظهر الحمار، وتوجّه إلىٰ جزءٍ خشبيّ يفصل بين العربة الحديديّة وبين قفا الحمار، ورفع الخشبة، وأخرجَ من تحتها رشّاشًا، ولَقّمه، وهتف: «الاحتِياط واجب». وتبادَلْنا أنا و(سلام) نَظَرات الدّهشة والخوف، ورأى الصّبيّ ذٰلك في عينَينا، وهمس: «ماذا؟ هل تظنّان أنّني سارقٌ أو قاتل؟» وسرىٰ صمتٌ رهيبٌ بيننا، وضَحِكَ هٰذه المرّة بصوتٍ مسموع: «ماذا أيّها الأحمقان؟ نحنُ في الحربِ سواء، أنا أحاول حمايتكم، ألسْتُما مُسلَّحَين مثلي؟». وأجبْتُ بعد أنْ بلعْتُ ريقي: «لا». «لقد قلتُ لكما إنّكما مجنونان، أتريدان أنْ تكونا صيدًا سهلاً، ما أعجبَ ما رأيت، تسيران في اللّيل وحدكما ولا تحملان سِلاحًا! لقد جعلْتماني أشكّ من جديدٍ أنّكما غَزّاويّان! لا بُدّ أنّكما من بعثةٍ طبّيّة عربيّة ما». وأشار بفوهة رشّاشه إلىٰ معطفي. ونظرتُ إلَيّ، وشعرتُ بالإهانة قليلاً، وأردْتُ أنْ أدفع ذٰلك عنّي، فهتفْتُ: «سلاحُ الأطبّاء مداواة الجرحىٰ، ومحاولة إنقاذ الناس... سلاحُ الأطبّاء الرّحمة». وضَحِكَ: «الرّحمة... الرّحمـ...ـــة». وأخرجَ الكلمة الأخيرة ممطوطةً مع ضَحِكته الّتي راحتْ تنطفِئ، وأردف: «عن أيّ رحمةٍ تتحدّث يا دكتور في هٰذه الحرب؟!». وتركَنا في حيرتنا، ورفَع الخشبة الفاصلة بين العربة والحِمار، وأخرجَ منها بيضتَين وقطعة جُبنٍ ونصفَ رغيفٍ من الخبز، وحملَهما، وربَّتَ علىٰ عنق الحمار، وهمسَ في أُذنه: «أمّا أنتَ فستأكل حين نصل إلى المستشفىٰ»، وتقدَّم إلىٰ عُمقِ البنايةِ، وهتفَ وهو يُعطينا ظَهره: «اتْبَعاني». وتبعناه كالمأخوذَين، وبعدَ بضعة أمتار جلسَ، وهتفَ بنا: «اجلِسا. سنأكل». وتردّدَنْا هٰذه المرّة في الاستِجابة له. فنظرَ إلينا

وهو يضع الطّعام على الحجارة، ويمسحُ يدَيه بجانبِ بنطاله: «ماذا ألا تريدان أنْ تأكلا أيضًا؟ ألسْتُما جائِعَين؟». ولم نقلْ شيئًا، وأحدّ النّظر فينا، وابتسم، وهتفَ من جديد: «أراهن أنّكما لم تأكلا منذُ ثلاثةِ أيّام، هَيّا لا تَقِفا فوقَ رأسي كالأبلهَين». وراحَ يقسمُ الطّعام إلىٰ ثلاثةِ أثلاث ويمُدُّه نحونا، وأكلْنا، ولم نشعر بلذّة طعامٍ مثل هٰذا الطّعام من أوّل الحرب.

مرّتْ ربع السّاعة الّتي حَدّدَها لنا الصّبيّ، لٰكنّه غفا، مدّدَ جسده علىٰ الحجارة، ووضع الرَّشّاش إلىٰ جانبه، واختار لرأسه لَبِنةً اتّخذها مِخدّة، وراحَ يشخر في أقلّ من دقيقة، تبادَلْنا أنا و(سلام) النّظرات، وتمنَّيْنا لو كانتْ عندنا راحةُ البال الّتي عنده، فننام مثلَه. لٰكنّنا بقينا مُستيقِظَين، مرّتْ خمس دقائق، سألْتُها: «هل نُوقِظه؟». وقبلَ أنْ تُجيب، كنتُ أهزّ الفتىٰ من كَتِفه: «يا... استيقظْ». واستيقظَ بالفعل، وهتف: «دقائق كافية، وبالمناسبة أنا اسمي صقر». وهَبّ واقِفًا علىٰ قَدَمَيه حامِلاً الرَّشّاش، وتقدَّمَنا، وتبعناه كما يتبع الجُنُودُ قائِدهم، وأخفى الرشّاش تحتَ الخشبة، واعتلىٰ ظهر الحمار، وصعدْنا نحن ظهر العربة الحديديّة، وشَدّ (صقر) اللّجام، ولم يحتجْ أنْ يهتفَ بالحِمار: «حاه». فقط فَهِمَ عليه حِمارُه، وراحَ الحمار يجري نشيطًا.

وكان ليلاً غريبًا. وما أغربَ اللّيالي الّتي تمرّ علىٰ غزّة وما أقساها! ولم نكنْ نرىٰ في الطّريق الّتي سَلَكَها الصّبيّ غيرَ أشباح البيوت، وبدا أنّ الهدوء قد عادَ إلى السّماء وإلىٰ أرواحنا، وشَعرْنا بأنّ اللُّقَم الّتي أكلْناها قد أعادَتْ لنا الحياة. ومرّتْ لَحَظات صمتٍ وطُمأنينة، وفجأةً مرّتْ من أمام العربةِ سُربةٌ من الكلاب، فجفل الحمار، ونَهَق، وصاحَ به الصّبيّ بصوتٍ مكتوم: «اخرسْ أيّها الحمار سوف تفضحنا،

صحيحٌ أنّكَ حِمار». وبدا أنّ الحِمار لم تُعجِبْه تعبيراتُ صديقه فعلا صوتُه بالنّهيق كأنّما يُعانِده، حتّىٰ حمير غزّة تتحلّىٰ بهٰذه الصّفة، فمَدّ الصّبيّ رِجله اليُمنىٰ ورفسَه في أسفل بطنه، فحرّكَ الحِمار رأسَه يمنة ويسرةً وهو لا يزال يجري، ونَهَقَ من جديد، ولم تمرّ دقيقة علىٰ هٰذه المُماحَكة حتّى انهال عَلَينا الرّصاص، ولم نتبَيَّنْ من أيّة جهة، وصَكّت الرّصاصات الأولىٰ سلسلة الباب الخلفيّ لهيكل العربة الّتي تربطُه بها فاتّسعتْ وانفتَح جزءٌ منه، وذُعِرَ الحمار فراح يتأرجح في حركته، وتعرقلَ سيرُ العربة، ووجدَ في ذٰلك ثِقَلاً فتباطأَ رَكْضُه، واشتدّ انهمار الرّصاص حولنا وفوقَنا، ولم يكن الهربُ من الموت بغير الرّكضِ بأقصىٰ سرعةٍ مُمكنة، وراحَ الصّبيّ يخفِضُ رأسَه ويُلهِبُ ظهر الحِمار بالسّوط وسطَ زَخّاتٍ مُتتاليةٍ من الرّصاص، فيما صرخَ بي أثناء ذٰلك: «ادفشِ الباب برجلِك». «ماذا تقول؟». «ادفش الباب برجلك خلّيه يقع». ونظرتُ إلىٰ سلام وسطَ الرُّعبِ لأتأكّد من أنّني فهمتُ، ويبدو أنّ الوقتَ لم يتّسع لهٰذه النّظرات، فزحفتْ بنفسِها باتّجاه الباب وراحتْ تركلُه بقدمها السّليمة، ثُمّ بقدمِها المُصابة، وكان الرّصاصُ لا يزال يُمطر علينا وابِلاً من الجحيم، وتخردقتْ جنبات العَرَبة، وازداد هِياجُ الصّبيّ بالصّياح، واستجاب الحِمار للسّوط الّذي يُلهِبُ ظهرَه، وزحفْتُ بدوري فركلْتُ الباب بكلتا قدَمَيّ وأخيرًا سقط، وكان صوتُ ارتِطامه بالأرض بثقله الحديديّ سيبدو عالِيًا لولا أزيز الرّصاص الّذي لا يتوقّف، وصارتِ العربةُ أخفّ، وشَعَرَ الحِمارُ بهٰذه الخِفّة فانطلقَ بشكلٍ أسرع، وخَفّ انهمارُ الرّصاص، وصارَ صوتُه يأتي مُتقطِّعًا وراءَنا، وبدا أنّنا خرجْنا من فَمِ الوَحشِ للتّو، وتنَفَّسْنا الصُّعداء، ولا ندري كيفَ نجونا!

وطال اللّيل ولم نصل إلى المُستشفىٰ، وخُيِّلَ إلينا أنّ نهاية الليل ليست أقرب من نهاية الحرب، فمتىٰ يكونُ ذٰلك؟!

وسَكَنَ ما حولَنا سُكونَ اللّيل السّاجي، وسَمِعْنا الصّبيّ يُغنّي، وكان ظهرُه إلىٰ ظهرنا يفصل بيننا لوحُ الصّندوق الخشبيّ، وما ندري في هٰذا اللّيل إنْ كان يُغنّي أم يبكي فقد اختلطَ علينا الأمر، ولٰكنّ صوتَه في هٰذا الظّلام السّاجي كان سَاحِرًا، ومَنْ يملكُ حنجرةً ليُغنّي في الحرب؟! ومَنْ يستطيع أنْ يصدح بلحْنٍ وقد غطّىٰ صوتُ الانفِجارات علىٰ كلّ لحن؟!

وفي السّاعة الثّانية بعدَ منتصف اللّيل وصلْنا إلىٰ مستشفى الصّداقة بأمانٍ ونحنُ لا نكادُ نصدّقُ أنّنا نجَوْنا، ونزلْنا من العربة، واختفى الصّبيّ من بعدُ فلم نجدْ له أثرًا. ولا أدري كيفَ نبتَ هٰذا الصّبيّ مع عربته في الطّريق؛ الطّريق الّتي كانتْ خاليةً من كلّ شيءٍ عَدا الموت، ولعبتْ بي الأحلام حتّىٰ خُيِّلَ إلَيّ أنّه لم يكنْ صبيًّا، بل كان ملاكًا بعثَه الله إلينا، وجنحتْ بي الأحلام أكثر حتّىٰ ظننتُ أنّه لم تكنْ هناك عربة ولا صبيّ، وأنّنا وصلْنا إلىٰ هنا علىٰ بساطِ الرّيح، أو بقدرة الله الّذي بعثَ لنا وسيلة لا تُرَىٰ ولا تُحَسّ، وأنّنا كُنّا نمشي حتّىٰ تعبتْ أقدامُنا، ولم تستطعْ (سلام) أنْ تمشيَ أكثر، فملْنا إلىٰ تلك البناية المُهدّمة لنستريح من التعّب، فلمّا رَكَنّا ظهرَينا إلىٰ ذٰلك الجدار المثقوب، غلَبَنا النُّعاس، فنمنا، ولـمّا استيقظْنا وجدْنا أنفسنا في هٰذا المستشفىٰ.



(٣٨) مَصائبُ عنقوديّة

الطّبّ رَحِمٌ ورحمة، ولِذا حينَ دخلتُ أنا و(سلام) إلى المستشفىٰ عَرَفَني أكثرُ من طبيبٍ ومُمرّضٍ ورحّبوا بي، والتقيْتُ بمدير المستشفىٰ، فسألْتُه: «ماذا يُمكن أنْ أُقدّم؟!». فابتسم وقال: «كلّهم هنا مرضىٰ سرطان، وقد لَحِقَ بنا ما لحق بالمستشفيات الأخرىٰ، ولم نعدْ قادرين علىٰ فِعْل شيء».

وبدأ المُمرّضون الوافِدون من المُستشفيات الأخرىٰ يتبادلون الأخبار، وتكشّفتْ لنا فظائع غير الّتي شاهدْتُها بعينَيّ، ولا أدري كيفَ يُمكن أنْ يكون لهٰذه الفظائع حَدّ؟! ولم أكترثْ لِما قاله مُدير المستشفىٰ، ورحتُ أطوفُ أنا و(سَلام) على الأقسام، ونمرّ بالغُرَف، ندخلها، ونُسلِّمُ علىٰ أهلها، ونبتسمُ في الوجوه الشّاحبة، ونجلسُ عندَ رأس المريض، ونقرأ عليه شيئًا من القرآن وندعو له ونخرج. ومع أنّ المستشفىٰ لَحِقَ بها من القصف ما لَحِقَ بسواها، إلاّ أنّها كانتْ أحسنَ حالاً ولو بقليل، وكان القليل في حومة المصائب يعني الكثير. مثلاً كان لا يزال هناك بعضُ المحاليل وبعضُ الأدوية، وكانت القذائف لم تُهدِّمْ إلاّ أجزاءً من الجهة الغربيّة، وأجزاء من السّور، وأمّا الغُرَف فكانتْ سليمة، وإنْ لم تكنْ نظيفة، كان فيها طبقات من الغُبار والأتربة، وذٰلك إمّا لأنّ الماء والمُنظِّفات غير موجودة، وإمّا لأنّ عددًا من العاملين استُشهِدوا أو نزحوا من هٰذا المكان، أو لَحِقوا بِمَنْ تبقّىٰ من أهلهم في أماكن الإيواء.

وفي تجوالنا على العيون الزّائغة، والأنفاس المُتباطِئة، سمعْنا حكايا ما كان لنا أنْ نسمعها، ولا أنْ نتخيّل أنّها موجودة، وعجيبةٌ هٰذه الحياة تأتي بكلّ عجيبة، وأعجبُ منها الحرب الّتي جعلتْ لهٰذه العجائب أجسامًا تتحرّك، وجِرارًا تفيض. ورُحْنا بعدَ يومنا الأوّل نبحثُ في المُستشفىٰ عن زاويةٍ أو بُقعةٍ أو ناحيةٍ هنا أو هناك نُريح علىٰ مخدّتها أو بلاطِها رأسَيْنا، أو هٰذا الضّجيج الّذي لا يكفّ عن نَقْرِ جماجمنا من الدّاخل!

وفي ساحة المستشفىٰ في الصّباح رأيتُ سيّدة تُلاعِبُ طِفْلَها ذا الأعوام الثّلاثة، ترفعه إلى الأعلىٰ فيضحك، ثُمّ يهوي بين يدَيها فتحتضنُه، وتُدَغدِغُه في بطنه فيزاداد ضَحِكُه، وتملأ كركَرتُه الفَضاء، وتُعيد ذٰلك مرّاتٍ، اقتربْتُ منها وهتفْتُ: «صباح الخير». ردّت وذُبالة ضَحِكتها الأخيرة لم تنطفِئ بعدُ: «صباح النّور». سألتُها: «هل أنتِ مُحتاجةٌ إلىٰ رعايةٍ؟» وأشرْتُ إلى الصّغير. ردّتْ: «نحنُ بألفِ عافيةٍ كما ترىٰ». وتجرّأتُ علىٰ سؤال آخر: «ما اسمُه؟». «عِصام». «وأينَ أبوه؟». وكانتْ لا تزال تحتضنُ طِفلَها، فأنزلتْه، ووقفَ إلىٰ جانبِها وهو مُمسِكٌ بكفّها، وصمتتْ قليلاً وخفضتْ رأسَها، وتغيّر صوتُها وهي تقول: «استُشهِد». «بقي لكِ هٰذا الصّغير الجميل!». «لقد استُشهِدت أختاه وأخوه الأكبر منه، لم يبقَ من عائلتي سِواه. أنا هنا من أجل أبي. السّرطان في مراحله الأخيرة». ومسحَتْ بأصابِعها دمعةً تحدَّرتْ علىٰ وجنتها، وشعرتُ أنّني أخطأتُ في السّؤال، وأردفتْ: «ولٰكن الحمدُ لله. سوفَ تنتهي هٰذه الحرب، وسيكبُر هٰذا الصّغير، وسيأخذُ بثار أبيه وأهله، وسيكون مثلَ الآلاف من الأطفال الّذين فقدوا أهلهم وقودَ التّحرير». ورفعتْ عَينَيها إِلَيّ، ورأيتُ فيهما يقينًا وتحدِّيًا كبيرًا، وهزّتْ رأسَها مع ابتِسامةٍ شاحبة، وهتفتْ بأبياتٍ طروبةٍ:

أنـا يـا بُنَـيّ غَـدًا سَـيَطْوِيني الغَسَـقْ
لـم يبـقَ مِـن ظِـلّ الحيـاةِ سـوىٰ رَمَـقْ
وحُطـامِ قلـبٍ عـاشَ مَشـبوبَ القَلَـقْ
فـإذا نفَضْـتَ غُبـارَ قبـري عـن يَـدِكْ
ومضيْـتَ تلتمـسُ الطّريـقَ إلـىٰ غَـدِكْ
فاذكـرْ وصيّـةَ لاجِـئٍ تحـتَ التُّـرابْ
سَـلَبُوه آمـالَ الكهولـةِ والشّـبابْ

ثُمّ أعطَتْني هي والطّفل ظَهرَيْهما ومضَيا إلىٰ خيمتِهما.

يا لله ما يحدثُ في غزّة! مرّ زمنٌ طويلٌ علىٰ هٰذه الحرب اللّعينة، ذهبَ حرّ التّشارين، وجاءَ بردُ الكوانين، انتصفَ النّهار، ثُمّ راحَ يقصُرُ شيئًا فشيئًا، إنّه لا يريدُ أنْ يمكثَ في غزَة طويلاً لبشاعة ما يرىٰ، يتركُ دورَه للّيل من أجل أنْ يستر كلّ فضيحةٍ شاهدةٍ على انتهاء عهدِ الإنسانيّة، كم من أَجِنّةٍ وُلِدَتْ، ثُمّ سلبَتِ الحربُ نصفَ ما جاء منها وهم في أرحامِ أمّهاتهم، ولٰكنّ النّصفَ الآخَر خرجَ إلىٰ هٰذه الحياة، ها هو يكبرُ علىٰ صوتِ الرّعب، وعلىٰ أزيز الطّائرات، وهدير المُتفجّرات، ثُمّ ها هم الّذين كانوا أطفالاً يتعلّمون أبجديّات الحُبّ والثّورة، الحُبّ للوطن الّذي لا يُشبِهه حُبّ، والثّورة على المحتلّ الّتي لا تُشبِهها ثورة.

كانتْ أشجارُ غزّة سامقةً مُونِعة، ثُمّ حرقَها الاحتلال بالقنابل الّتي يزيدُ حجمها عن حجم الغُرفِ الكبيرة، ثُمّ نكَّسَتِ الأشجار الشّهيدة رأسَها، فزرعتْ في رَحِم الأرضِ بذورًا جديدة، ثُمّ يومًا ما ستنمو هٰذه البذور، وستكبر، وستتعملق حتّىٰ لا يُمكن لاحتلالٍ أيًّا كان أنْ يحرقها أو يجتثّها.

كانتِ الوجوه طافِحةً بالبِشر والأمل، ثُمّ غَيّرَتْها الحرب إلى الحُزن واليأس، ولٰكنّ التّجاعيد الّتي امتلأتْ بها الوجوه الحزينة تجدّدتْ في

نُضرةِ الوجوه القادمة، الوجوه الّتي ستلعنُ العربَ المُتخاذلين، ولـٰكنّها لنْ تتركَ بلادَها للغربان والأفاعي، ولن تستسلم، ولن تقبلَ بأنصافِ الحلول، وستُقاتِلُ حتّىٰ آخر قطرةٍ من أجلِ يومِ التّحرير.

هـٰكذا هي الحياة؛ ليستْ فرحًا دائِمًا ولا حُزنًا مستمرًّا. ليستْ هناءةً ولا بُؤسًا، ليستْ لونًا واحِدًا، ليستْ جحيمًا ولا نعيمًا، ليستْ هنا وليستْ هُناك، ولـٰكنّ أهل غزّة أحسنُ شعبٍ يُمكنُ أنْ يعيشها مع تناقضاتها كلّها، أحسنُ شعبٍ يُمكن أنْ يُراوِغَها، وأقوىٰ شعبٍ يُمكن أنْ يصمد ويخرجَ منها مُنتصِرًا.

كلُّ فردٍ في الحياة يُصابُ بفقدٍ من نوعٍ ما، يموتُ أحدُ أبنائه، يُداهِمه مرضٌ فَتّاك، ترحلُ حبيبتُه، تستقرّ ذكرياته في قلوب الرّاحلين فيرحل قلبُه معهم، تُسافِرُ بعضُ أحلامه فيتدثّر بما بقي منها من أجل أنْ يستمرّ في نصفِ الحياة الباقي له منها، كلّ واحدٍ تنهشُ عافِيتَه وطُمأنينته مُصيبةٌ واحدة، واحدةٌ فحسبُ، فيرىٰ فيها أنّها النّهاية، وأنّ الظُّلمة قد ملأتْ كلّ شيءٍ حوله، ولـٰكنّ أهل غزّة يعانون مصائب تتبعُها مصائب، إنّها مصائبُ عنقوديّة، حينَ تنضجُ مُصيبةٌ في خيطِ روحه تنعقدُ علىٰ هـٰذا الخيطِ مُصيبةٌ أخرىٰ، تتبعُها مُصيبةٌ ثالثة، وهـٰكذا حتّىٰ يكبرَ العنقود، وتتدلّىٰ من تحتِ ذٰلك الخيط فتصل إلىٰ قدَمَيه، ومع كلّ هـٰذه الأرتال من المصائب، يجدُ من خَلَلِها فُرصةً لكي يقول: تريدون منّي أنّ أنتهي، أنْ أنسحق، ألاّ يكونَ لي وجود، خسئتم! أنا كالعنقاء أخرجُ من الرّماد وأتعالىٰ علىٰ جَلاّدي وأطير من جديد!

كانتْ جامعة الأزهر القريبة من مستشفى الصّداقة قد أُبيدَت. دُمِّرتِ المباني، وأُحرقتِ الأبحاث، ونُسِفَتِ المُختبرات، أردْتُ أنْ أسيرَ إليها وحدي، بقيتْ (سلام) في المستشفىٰ تنقلُ بكاميرتها قصص المُصابين

بالسّرطان من ورائي. حينَ وصلْتُ إلى الجامعة رأيتُ أطلالاً تسفي فيها الرّياح وتعوي فيها الكلاب، لم يبقَ حجرٌ على حجر، ولا ورقةٌ على ورقة، ولا كِتابٌ على رَفّ، كان مشهدُ اغتِيال الكتب أفظعَ مشهدٍ رأيتُه في حياتي، مُلقاةً على الأرض في كلّ مكانٍ مُحترقةً لا تقرأ فيها سطرًا واحِدًا كامِلاً، وقد علتْها الأغبرة، ولَوّحتْ وجهها نُثارات الرّماد، كان كلّ سطرٍ فيها شاهِدًا على العقليّة الوحشيّة الّتي حَكَمَ بها هؤلاء الصّهاينة على منابر العِلم، لا يريدون لنا أنْ نكونَ قادَة العالَم ولا رادَتَه، خابوا في ظنّهم، نحنُ اليومَ نُحرّكُ العالَم ونوقِفُه على قدَمَيه لِيُشاهِد عبقريّتنا في الطّبّ والهندسة والعلوم والأدب والتّاريخ، نحنُ الّذين نصنعُ التّاريخ، نحنُ الّذين نُعطيه وجهه المُشرِق، وهم سَوَّدوه ولَطّخوه وأحرقوه وملؤوه بالمخازي، نحنُ باقون وهم زائلون، هٰذه أرضُنا، وهنا كتَبْنا في صحيفة التّاريخ مجدَنا، ليسَ في غزّة اليوم إلاّ صاحبُ علمٍ وفكرٍ وراية، غزّة الّتي هي أكثر بلدٍ في العالَم تحوي حمَلَة الشّهادات العُليا، أطبّاء غزّة هم المُستشارُون في قضايا الجراحة والعِلم لأرقى الجامعات، إنّ هٰذا الدّمار لن يُغيّر من الحقيقة شيئًا، نحنُ حمَلَةُ شعلة الحرّيّة الّتي تُنير للعالَم المُتخبِّطِ طريقَه، وهم حملةُ رايات العنصريّة والتّفرقة والخوف والكُره السُّود، والأيّام ستُثبِتُ من سيبقى ومَنْ سيرحَل!

مستشفى الصّداقة التّركيّ هو المستشفى الوحيد في غزّة للمُصابين بمرض السّرطان، يُعالَج فيه حوالي عشرة آلاف مُصاب بالسّرطان، شَحّتْ فيه الأدوية، والمرضى يُواجِهونَ الموتَ والرّحيل في كلّ لحظة، يُمكنُك أنْ ترى الخُذلانَ في عيونهم، إنّ أعمقَ حديثٍ في الحُزن يُمكن أنْ تنطقَ به العيون، العيون الّتي تختلطُ فيها أنهارُ الرّجاء مع أنهار الخوف، يتصارَعان فلا يغلبُ أحدُهما الآخَر، وإنْ كان الرّجاء بعذوبة مائه يطغى

أحيانًا على الخوفِ بمرارةِ تدفُّقِه.

قضيْنا في مستشفى الصّداقة أكثر من أسبوعَين، ولا يُمكن لقلبٍ أنْ يحتمل ما يرىٰ هنا عِوضًا عن أنْ يرويه، وَمَنْ يُحدِّثُ عن العيون الحزينة هنا، مَنْ يستطيع أنْ يحكي الحِكاية، لا لغةَ قادرة ولا حروف ولا أوراق ولا دِماء.

الأنفاس تتقطّع، أجهزة التّنفّس الاصطِناعي لم تعدْ تعمل في المستشفىٰ، المرضىٰ يُواجِهون موتًا مُحتَّمًا، اخترعْنا أجهزة تنفُّس يدويّة، صنعناها من جالونات البلاستيك، ووصلْناها إلىٰ أفواه المرضىٰ بالبرابيش، لكمْ أنْ تتخيّلوا كيفَ تعمل، كادرنا الطّبّي لم يعدْ كافِيًا للوقوف علىٰ رأسِ كلّ مريض، علّمْنا ذوي المرضىٰ كيفَ يُحافِظون علىٰ تدفّق النّفسَ عبر الأجهزة الّتي صنعناها، يضغطُ على الجالون بيدَيه ليتدفَّق الهواء، لٰكنّ الهواء يسير بطيئًا، يدخل قليلاً إلىٰ رِئَتَي المريض، حتّى الهواء صار قليلاً في غزّة، ومليئًا بالميكروبات، ومُلوَّثًا، ويُفاقِمُ المشكلة أكثرَ مِمّا يحلّها، ولٰكنْ ماذا نفعل؟!

ماتَ أمس عشرةُ مرضىٰ بالسّرطان، استفحلتْ خلاياه في أجسادهم، لم يكنْ مُمكنًا أنْ نُعطيهم جرعةً كيمياويّة ولا أنْ نستأصل بعضَ الخلايا المُمِيتة، ولا أن نحُدّ من انتشارها، فعلْنا ما بِوُسعنا، ولكنّنا عاجِزون، وكان يُمكن لهؤلاء أنْ يكتبَ لهم الله حياةً جديدةً لو كانتْ أجهزةُ المستشفىٰ تعمل.

صارَ يموتُ كلّ يومٍ عشرة أو أكثر، استسلم ذووهم للأمر الواقع: «ادفنوهم بطريقتكم». تحوّلْنا نحنُ الأطبّاء والمُمرّضين إلىٰ حَفّاري قبور، لكنّنا لا نملك سيّارات لنقلهم، ولا حتّىٰ إلىٰ (كارّات)، اضطُرِرنا إلىٰ دَفْنهم في مقابر جماعيّة، تذكّرْتُ (نبهان)، كان يُمكن أنْ يكونَ

حال الموتىٰ أحسنَ لو كان موجودًا. كانوا سيحظَون بكفنٍ أبيض أو أسودَ أو حتّىٰ جُوال لم يعدْ ذٰلك مُهِمًّا، وكانوا سيحظَون كذٰلك بصلاةٍ علىٰ أرواحهم الطّاهرة، وبآياتٍ من القرآن الكريم يتلوها عليهم بصوتِه الشّجيّ الحنون، فترتاح أرواحُهم في سَفَرِها الأخير!

لا تكفّ (سلام) عن توثيق اللّحظات الأخيرة في حياة الرّاحلين، إنّها تُشارك في هٰذه السّرديّة المُهمّة، نحنُ لا نموت، وإنْ سُجّيتْ أجسادُنا في الثّرىٰ ما دامتْ أقلامُنا وعَدَساتُنا تنقل كلّ شيء.

قُصِفَتِ المستشفىٰ خلالَ وجودنا فيها حوالي سبعَ مرّات، في كلّ مرةٍ يموتُ عددٌ جديدٌ من المرضىٰ، تضافَر عليهم وحشُ السّرطان مع وحشِ الانفِجارات، أطلقتْ قُوّات الجيش الإسرائيليّ علىٰ غزّة حتّى الآن ما يفوق أربعةَ أضعاف الّذي أطلَقَتْه أمريكا على اليابان من القنبلة النّوويّة في سِباق البشر الوحوش. تُرىٰ متىٰ يشبعون؟!

بعدَ شهرٍ من وجودنا في المستشفىٰ وصلَ إلينا (نبهان) مع (زكريّا) فرِحْتُ بوصولهما كأنّني فرحتُ برجوع واحدٍ من أهلي. كان جسدُ (نبهان) قد نَحُلَ تمامًا، وبرزتْ عظمتا وجنَتَيه، ولم أعرفْه أوّل الأمر لشدّة ما تغيّر، وقد صارَ ثوبُه فضفاضًا عليه، وطالتْ لِحيتُه وزادَ شَيبُها، ولم أدرِ إنْ كان هٰذا غُبار الحرب أم أنّه غُبار الهَرم، ولم يكنْ هناك من فرقٍ كبيرٍ بينهما. وأمّا (زكريّا) الّذي كانتْ تغوصُ عيناه داخل محجرَيهما، فقد بدا أنَّ طفولتَه قد غادرَتْه مُبكِّرًا، وأنّه صارَ رجلاً، وأوّل ما قال لي: «كيفَ يُمكن أنْ أُساعِدَ هنا؟».



(٣٩) سأهزمُ المَرَض

نبعثُ قائِمةً تِلو قائمة بالمرضى الّذين يحتاجون للخروج إلى (مصر) أو إلى (قَطر) من أجل أنْ يُتِمّوا عِلاجهم، هنا لا شيءَ ينتظرهم غير الموت. قوائم كثيرة، ضَمّتِ العشرات، نبعثُها إلى الصّليب الأحمر وننتظر الرّدّ للتّنسيق مع الجانب المصريّ لإخراجهم، كانتْ نصفُ القوائم يموتُ أصحابُها قبل أنْ تأتيهم الموافقة، والّذين خرجوا ماتَ بعضُهم على المعبر وهو ينتظر.

كان (نبهان) يُخفِّفُ جراح المرضى بأحسنَ مِمّا نفعل، ويقوم مقامًا في هذا أفضل من مقامنا. يدخل على المريض وقد أشرقَ وجهُه، يُقابِله بابتِسامة، ووجهٍ وَضِيْء مع أنّ الحربَ ألقتْ عليه أطنانًا من البؤس حاربَها بإيمانه العميق. يجلسُ إلى جانب المريض، يضع يدَهُ في يدِه، ويُحدِّثه أحاديث الصّابرين من الصّحابة، يقصّ عليهم قِصّة معاذ بن جبل وأبي عبيدة عامر بن الجرّاح، يُحدّثهم كيفَ نهشَ الطّاعون لُحومَهم، كيفَ صبروا، كيفَ واجهوا الموت بيقين الله في الجنّة، في الدّرجات العُليا في مُستقرّ رحمته، كيفَ لم تخرجْ من أفواههم في أشدّ حالات الألم إلاّ كلمة: «الحمدُ لله».

يسأله المريض: «حدّثْني حديثَهما». فيقول: كان معاذ بن جبلٍ يقول: «ما أصبحتُ صباحًا قطّ، إلا ظننتُ أنّي لا أُمسي. ولا أمسيتُ مساءً إلا ظننتُ أني لا أُصبح. ولا خطوتُ خُطوةً إلا ظننتُ أنّي لا أُتبِعُها غيرَها.

وكأنّي أنظرُ إلىٰ كُلّ أُمّةٍ جاثيةٍ تُدعَىٰ إلىٰ كتابها. وكأنّي أرىٰ أهل الجنّة في الجنّة يَنعمُون، وأهلَ النّار في النار يُعذَّبون». فيشهقُ المريضُ شهقةَ الشّوق إلى الله، فيشدّ (نبهان) علىٰ يده، ويهتفُ بقوله تعالىٰ: «وبَشِّر الصّابرين». فيسأله مريضٌ بجانِبه: «زِدْنا، فإنّا إلىٰ مناجاة الصّحابة الصّابرين لمُحتاجون». فيقول: «كانَ معاذ بن جبل لَمّا حضرَتْه الوفاة، يُحدِّقُ في السماء ويقول مناجيًا رَبّه الرحمٰن الرّحيم: اللّهمّ إنّي كنتُ أخافُك، لٰكنني اليوم أرجُوك، اللّهمّ إنّك تعلمُ أنّي لم أكنْ أحبّ الدُّنيا لِجَرْي الأنهار، ولا لِغَرْس الأشجار. ولٰكنْ لِظَمأ الهواجر ومُكابدة السّاعات، ونَيْل المزيد من العلم والإيمان والطّاعة». ثُمّ يصمتُ هُنيهةً ويبسطُ يَمينه كأنّه يُصافح الموت، ويروح في غيبوبته يقول: «مرحبًا بالموت.. حبيبٌ جاء علىٰ فاقة». ثُمّ يقول لمن حوله: «وقد جاءَ قَدَرُ الله لكم علىٰ فاقةٍ وفقرٍ وألمٍ، فلا تستقبلوا ما جاءكم به الله إلاّ صابرين مُستبشرين».

وكان يخرجُ (نبهان) من عند المريض وقد امتلأ قلبُه بحبّ الله، وارتاح إلىٰ لقائه، فإذا تركه دخل إلىٰ غرفةٍ أخرىٰ فيُبادِرهم وهو يضع يده في يدِ أحدهم، وقد سقطَ شَعْرُ حاجِبَيه، وحالَ لونُ وجهه فصار أبيضَ كالشّمع، قائِلاً: «إنّ أبا عبيدة لمّا أُصيب، استخلف معاذ بن جبل في طاعون عمواس، فاشتدّ الوجع بالنّاس، فصرخوا إلىٰ معاذ: «ادعُ اللهَ أن يرفع عنا هٰذا الرِّجْز، فكان يقول: إنّه ليس برِجْز ولٰكنْ دعوةُ نبيّكم، عليه الصّلاة والسلام، وموتُ الصّالحين قبلكم، وشهادةٌ يخصُّ الله بها مَن يشاء منكم. أيّها الناس: يأتي زمانٌ يظهر فيه الباطل، ويأتي زمانٌ يقول الرَّجُل: والله ما أدري ما أنا، لا يعيش علىٰ بصيرة، ولا يموت علىٰ بصيرة». ويسكتُ

(نبهان) قليلاً، وتتحدّر الدّموع من عَينَي مُحدّثه، فيهوي عليه في سريره فيحتضنُه، ويقول: «قد عرفْنا هَدْي الصّحابة، فإنْ لم يكنْ من الموتِ بُدٌّ فلْنَمُتْ علىٰ بصيرة».

ثُمّ يخرجُ يُغالِبُ دموعَه، وأنا أراه، وأعرفُ ما يُحدِّثُ به النّاس، فآتيه، فأقول له: «إنّي إلىٰ مثلِ هٰذا الحديثِ لأحوج، إنّها أيّامٌ ثقيلة، وإنّها أوجاعٌ وبيئة». فيحتضنني، وأشعرُ بارتِجافة صدره وهو يبكي، وأسمعُه من خلال دموعه يقول: «بل قُلْ إنّ رحمة الله واسِعة».

ثُمّ لا يتركُ غرفةً في صُبحِه ومسائِه إلاّ ويَلِجُ عليها أصحابَها، فيُحدِّثهم، حتّىٰ صارَ كلّ مريضٍ ينتظر حديثَه وعِظاته، كان قد رأىٰ فتًى لم يبلغ الحُلُم قد حوّله السّرطان إلا كُتلة من العِظام، وقد خَطَفَ لونَ وجهه، وأغار ماءَ رُوائِه، فيأتيه، فيقول: «كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول: اللّهمّ آتِ آل معاذٍ نصيبَهم الأوفىٰ من هٰذه الرحمة، كان يُسمّيها رحمة، فَطُعِن ابناه، فقال: كيف تَجدانِكما؟ قالا: يا أبانا، (الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِين). قال: وأنا ستجدانني إن شاء الله من الصّابرين، ولَـمّا طُعِن هو في إبهامه جعلَ يَمَسُّها، وينظر إليها ثُمّ يُقبِّلُ ظَهر كَفِّه، ثُمّ يقول: ما أُحِبُّ أنَّ لي بما فيك شيئًا من الدُّنيا. ثُمّ قضىٰ شهيدًا مُحتسِبًا.

ولم تكنْ لدىٰ (نبهان) غيرُ الكلمة يُخفِّفُ بها أوجاع المرضىٰ، ولم يكنْ لدينا نحنُ كذٰلكَ سِواها، ولم تعدْ لدينا حُقَن المُهدِّئات، ولا المضادّات الحيويّة، ولا حتّى الماء الّذي نمسحُ به الوجوه الشّاحِبة، فيا ربّ ما أرحمكَ بنا!

في إحدى اللّيالي، وكنتُ قد اتخذْتُ خيمةً لي ولسلام في باحة المُستشفىٰ، صحوتُ علىٰ صوتٍ عالٍ من أحدِ الزّملاء يُوقِظني،

خرجْتُ بسرعةٍ، هتف الزّميل: «الحقْ بنا، أبو صادق...». ولم أتبيّنْ ما يريدُ قولَه، فهُرِعْتُ إلىٰ داخل المستشفىٰ، فرأيتُ مجموعةً من الأطبّاء يحاولون مع (أبو صادق) لإنزاله من الحبل الّذي عَقَده حول عنقه وربطَه إلىٰ مروحةٍ في السّقف، وقد وقفَ علىٰ كرسيٍّ فوقَ سريره مُحاوِلاً الانتِحار، وبقيّة المرضى الّذين في الغرفة كان بعضُهم ينظرُ إليه بعينَين مرعوبتَين، وبعضُهم ينظر إليه بلا مُبالاة، وقِسْمٌ ثالِثٌ كان يغطّ في النّوم، ولم أدرِ ماذا كان ينتظر الأطبّاء وهم يُحاولون إقناعه بالعدول عن فكرة الانتِحار، وهُرِعتُ أوّل ما رأيْتُ المنظر نحو (أبو صادق) فركل الكرسيّ بقدمه أوّل ما رآني، وراحَ الحبل يشدُّ علىٰ عنقه، وراحتْ رُوحُه تُحشْرِج، ووصلتُ إليه قبلَ أنْ يَتَمكّن الحبلُ من خَنقه، أمسكتُ بساقَيه ورُحتُ أرفعه إلى الأعلىٰ بكلّ ما أوتيتُ من قُوّة وأنا أصرخُ بالممرّضين: «اصعدوا السّرير وفُكّوا الحبلَ عن عُنُقِه، ماذا تنتظرون؟!». وأنقذناه في اللّحظة الأخيرة قبل أنْ يكون حبل الحياة قد انقطع، وأجرَيْنا له الإسعافات الممكنة، وسمعتُه يهمس بصوتٍ مبحوح مجروح وهو يُحشرج: «لماذا لا تتركُني أموت، ماذا يُمكن أنْ تفعل لي؟!».

يمرّ الزّمن في الحرب مرور الصّمْتِ في القبور، لا هو إلى الأمام ولا إلى الوراء، ولا يُدرىٰ له جهة، ولا يُعلَمُ له رأي. وبدأتْ بطْنُ (سلام) تكبر، ويبدو أنّني سأصبحُ أبًا لأوّل مرّة منذُ أنْ تمنّيتُ ذٰلك قبل حوالي ثلاثين سنة، فلا أدري كيفَ حُرِمْتُ هٰذا الولد في زمن الدَّعة، وها أنذا أُمنَحه في زمن الضّيق والحُزن والأسىٰ! ولٰكنّ الله يفعلُ ما يشاء!

بدأ شيءٌ من السّعادة يتسلّل إلىٰ قلبَينا أنا و(سلام)، إنّه عهدٌ جديدٌ، ورغم أنّ الفرح لم يكنْ له مكانٌ في وسط الجحيم، إلاّ أنّه كان مُمكِنًا أنْ

تسرقه، أنْ تخطفه لدقائق، أنْ تقول له: «انظر إلينا قليلاً أيّها العنيد، نحنُ نستحقّ منكَ أنْ تزورنا ولو خفيةً في ليلٍ بهيم علىٰ غفلةٍ من الأزيز». أقول لسلام: «هل يُمكن بالفعل أنْ أُصبِحَ أبًا؟!». وتضحك، وتردّ: «إنّ لله في أمرنا شأنًا!».

صلّىٰ (نبهان) اليوم علىٰ راحلين جُدُد، كانوا ثلاثةً، أحدُهم شابٌّ في الثّلاثين، واثنَان في السّتين بينهما امرأة، حينَ كَفَّنّا الثّلاثينيّ، وجدَ (نبهان) تحتَ مِخدَّته رسالةً له، كان يقول فيها: «سأعودُ قريبًا، أبلغْ أطفالي أنّني لن أتأخّر عنهم هٰذه المرّة، سأشتري لهم كلّ ما كانوا يتمنّونه، سأشتري لهم دُكّان أبي محمّد بأكمله، أنا مُسافِرٌ إلىٰ مكانٍ تتحقّق فيه الأمنيات، وحينَ أمتلكُ المال سأعودُ من سفري وأُحقّق لهم أمنياتهم. أعرفُ أنّني خذلْتُهم، قل لهم إنّ أباكم كريمٌ ولٰكنّه مُفلِس، قويّ ولٰكنّه مريض، يُحبّكم ولٰكنْ ليسَ بيده حيلة. لا يحزنوا إذا سافرْتُ دون أنْ أخبرهم، ولا يستعجلوا عودتي فلا بُدّ للمُسافِر أنْ يعود، وسأعود، أعدهم أنّني سأعود، وسألبسُ أجمل الثّياب، وسيرونني بصِحّة جيّدة. قُلْ لهم: إنّني سأهزمُ المرض والحِصار والحرب والجوع وسأنتصر عليها كُلّها، فأنا مُحارِبٌ عنيد، وإذا سألوا عنّي في غيابي فقل لهم: إنّ غيبتي لن تطول».

لم تعدْ غزّة قبل الطُّوفان كما كانتْ قبله؛ تغيّرتْ تمامًا. نسينا تمامًا طعمَ اللّحم، وطعمَ الخُضار، ورائحة الطّبخ، لم نعدْ نجد ما يُؤكل، حتّىٰ أولئك الّذين يبحثون عن الخُبّيزة في الأمكنة الّتي لم تحرقْها الطّائرات لم يعودوا يجدونها، نسينا شكلَ البندورة أو الخيار أو البصل، لم نعدْ نراها، ولو رأيناها فإنّ نعيمَ الله المُعجَّل يكون قد نزل علينا. صِرْنا ننبشُ في التّراب من أجل أنْ نجدَ ما يُؤكل، وماذا كانتْ أقصىٰ آمالنا: أنْ نجدَ جذورًا ليّنة رَطبةً

ننكتُ عنها التّراب ونَزْدرِدُها، ولكنّنا لم نجدْ هٰذه الجذور المليئة بالدّيدان والصّراصير، بل وجدْنا بقايا الشّهداء، وأشلاء الموتىٰ.

ما زالَ في أذني صوتُ جدّتي وهي تروي قِصّة الأرنب الّذي يقول لأمّه مُتذمّرًا من تكرار الطّعام نفسِه: «كلّ يوم خَسّ وجزر». لم تعشْ جدّتي رَحِمَها الله إلى اليوم الّذي لم يعدْ فيه لاً خَسٌّ ولا جزر، ولو كانا موجودَين فإنّنا بلا شكّ سنشعر أنّنا في نعمةٍ كبيرة!

صَلِّ يا (نبهان) علىٰ هٰذه الأرواح، قُلْ لها كلمةً طيّبة. هَدِّئ هٰذه القلوب المُرتجِفة، امسحْ بيدَيكَ الحانِيَتَين هٰذه الدّموع الحرّىٰ، لا تتركْنا أيتامًا فوقَ يُتمِنا، لا تجعل الوجع ينبزُ من وجعٍ أشدّ، إنّ أوجاعنا ستبرأ لو أنّكَ أدمْتَ النّظرَ إليها بهاتَين العينَين الصّافِيَتَين!

سيخرج (زكريّا) إلىٰ مستشفىً آخر، قال لي: «لا أستطيعُ أنْ أفعل شيئًا في هٰذا المُستشفىٰ، وقد تعبْتُ من منظر الموتىٰ». ابتسمْتُ بسمة الّذي يُخفي دموعه: «ولٰكنْ إلىٰ أين ستذهب؟». «سأبحثُ عن مستشفىً آخر يُمكن أنْ يستفيد منّي النّاس فيه». «المستشفيات كُلّها تئنّ، لن تجدَ ما تتوقّع». «إذًا أمشي إلىٰ حيثُ يريدُ الله». «إلىٰ أين؟». «سأسيحُ في الطُّرُقات، سأسلكُ الدروب الذّاهبة إلى الجنوب». «ولٰكنّكَ صغير». «وماذا تريدُني أن أفعل هنا؟! نحنُ ننتظر الموتَ بلا طائل!». «ابقَ معنا». «في الصّباح لن تراني». حضنْتُهُ وأردْتُ أنْ أبكي، فما وجدْتُ في العينَين دمعًا أُخفِّف به حُرقتي. وحاولتُ مُحاولةً أخيرة: «ولٰكنّكَ ابني». «لسْتُ ابنًا لأحد؛ أنا ابنُ هٰذه الحرب. أنتَ سيكونُ لك ابنٌ عمّا قريب. أمّا أنا فليسَ لي إلاّ الشّارع!».

(٤٠) طلعَ الصّباحُ وليتَه لم يَطْلُعِ!

الحياةُ كرةٌ من اللّهب يهربُ منها المرءُ وهو يحتضنُها. جلسْتُ مع (نبهان) ذات ليلةٍ من اللّيالي لم يعدْ لها وجه، ولم نعدْ ندري كيفَ تمرّ، ذلك أنّ اللّيالي تتابعتْ حتّىٰ صارتْ ليلاً واحِدًا طويلاً، طويلاً جِدًّا إلىٰ الحدّ الّذي لا يطلع معه نهارٌ ولو كان يتيمًا!

قال لي (نبهان): ذهبْتُ إلىٰ بيت أختي (لُطفيّة) في حيّ (الصّبرة)، سُمِّيَ حي الصّبرة بهٰذا الاسم نسبةً إلى الشّيخ (سالم صبرة) الّذي كان من أولياء الله الصّالحين ومقامه معروف حتى الآن في المقبرة القديمة بجوار دوار عسقولة، وقد دُمّرتِ المقبرة ودُمِّرتْ عسقولة كلّها، كان الشّيخ مسؤولًا عن التنبيه على الغزو ومُراقبته في عهد صلاح الدّين الأيُّوبي وذٰلك بإشعال النار فيكون الدخان إشارة علىٰ قدوم طلائع الغزو. دخلْتُ إلىٰ بيتها الّذي كان مُدمّرًا جُزئيًّا، وبَقِيَتْ في الطّابق الّذي تسكنُ فيه ثلاثُ غُرَف يعيشُ فيها عددٌ كبيرٌ من النّاس. (مرام) ذات الأعوام الثّمانية ابنة أخي (عدنان) كانتْ قد نزحتْ عندها.

كانتْ أختي (لُطفيّة) وابنة أخي (مرام) مع عشر نساءٍ أخرىٰ لا أعرفهنّ يعشْنَ في غرفة، أمّا الغرفتان الأُخريان، فقد تقسامَهما اثنان وعشرون آخرون. السّرير الّذي يتّسع لشخصٍ واحدٍ كان ينام عليه اثنان من الكبار وثلاثة من الصّغار، هٰذا لمن كان محظوظًا، أمّا أولئك الّذين لم يُسعفهم الحظّ فقد كانوا ينامون على البلاط ودون غِطاء. وكان في البيت الّذي لا

يتّسع لأكثر من ستّة أشخاص أكثرُ من ثلاثين شخصًا. مَنْ كان ينام علىٰ كنبةٍ أو علىٰ حرفِها أو علىٰ مسندها أو تحتَ قدمَيها أو بينَ الممرّات، أو علىٰ حصيرةٍ أو خيشٍ أو أيّ شيء. لم يعدْ في البيت الّذي لا تزيدُ مساحته عن مئةٍ وعشرين مترًا شبرٌ واحدٌ ليسَ عليه لحمُ بشريٍّ نازح. لقد قالوا إنّ الحَيّ رغم الموت ما زالتْ فيه بقيّةٌ من حياة!

كانتْ رجلُ أحدهم تستقرّ في بطنِ آخر، أو تتمدّدُ في المساحة الضّيقة بين رأسين محشورَين في بقعةٍ ضيّقة. إذا نمتَ علىٰ (كَنَبةٍ) فعليكَ ألاّ تمدّ رجلَيك ولا واحدةً منهما، وعليكَ أنْ تتكوّر علىٰ نفسك مثل الجنين في بطن أمّه، أيّ حركة للرِّجل سوف ترتطم ببطنِ أحدهم أو بلحمٍ ما!

تقاسَمْنا الطّعام الموجود في البيت، وزّعْتُه أنا، تولَّيْتُ الأمر من أوّل قُدومي إلىٰ هنا باعتباره بيت أختي، وأنا بالتّبعيّة صاحب البيت، أمّا زوجُ أختي وأبناؤه فقد استُشهِدوا قبلَ أكثر من شهرٍ. غيرَ أنّ الطّعام لم يكنْ كثيرًا، ولو كانت الثّلاجة مملوءة به فإنّه سوفَ ينتهي في يومَين أو ثلاثة. صار أمرُ تدبير توزيع الطّعام أصعبَ مهمّة وأخطرها في الوقت نفسِه!

في اللّيلة الثّالثة هدّدَ الجيش الإسرائيليّ البيت الّذي قُبالتنا، كان اللّيل قد انتصف، سمعْنا جارتنا تنادي علىٰ أولادها، كان هٰذا إنذارًا بالقصف، رغم أنّ كلّ شيءٍ كان هادِئًا وساكِنًا تمامًا، ولٰكنّه هدوءٌ حذر، والسّكون الّذي يسبق العاصِفة، واضحٌ أنّهم اتّصلوا بجارتنا فراحتْ تُوقِظ أولادَها واحِدًا واحِدًا. قلتُ لأختي: «أكيد هناك إخلاء، شيءٌ ما سيحدث في حارتنا». لم تقلْ شيئًا، بل نطقتْ عيناها برُعبِ القادم، قلتُ لها: «دَعِينا نخرجْ إلى الشّرفة». كان هٰذا قرارًا بمواجهة الصّواريخ مباشرة،

زحزحْتُ مَنْ كان ينام في الشّرفة بقدمَيّ، وبالكاد استطعْنا الوقوف في مكانٍ يُمكن أنْ نُطلّ فيها على المشهد الخارجيّ مع أنّنا كُنّا مملوءَين بالذُّعر، ولَـمّا صار الشارع مرئيًّا، كان هناك أناسٌ يهبطون من العمارة الّتي قُبالتنا، وهم يحملون ما استطاعوا من متاعهم، ويركضون في الشّارع هاربين، تحقّقْنا من أنّ الصّواريخ في طريقها، المرعب ألاّ يكونَ هناك إنذار، ألاّ تسمع الصّاروخ إلاّ إذا صار فوقَ دماغك، صرخْتُ بها: «بسرعةٍ أيقظي كلّ مَنْ في الشّقّة، دعيهم يُخلون». أيقظْنا أوّل الأمر مَنْ كان في الشّرفة، ثُمّ صرنا نجري في الشُّقّة نوقظ كلّ نائم: «هَيّا... بسرعة... إخلاء... لا يوجد وقت». أخذتْ أختي حقيبةً كانتْ قد أعدَّتْها لهٰذه اللّحظة، وحملْتُ أنا (مرام)، وصرخْتُ بأعلىٰ صوتٍ ممكن: «إخلاء... كلّ واحد يوقظ مَنْ يعرفه». وجَرَينا هابِطين السّلالم، كُنّا في الطّابق الثّالث، لم نكدْ نستوي في الشّارع حتّىٰ سمعنا صوتَ الانفجار، ركضْنا بأسرع ما نستطيع، اختلطتْ أصوات الهابطين من الشّقّة مع صرخات الموت مع وقوع بعضهم عن الدّرج مع صوتِ الرّدم، بأقصىٰ ما أملك من قوّة ركضْتُ وأنا أحمل (مرام)، كُنّا بقدرة الله قد ابتعدْنا مسافةً لم يُصبْنا فيها الصّاروخ، لٰكنّ العمارة كلّها هوتْ علىٰ منْ تبقّىٰ فيها، ولم يكنْ بإمكاننا أنّ ننقذهم، لا أدري كم دُفِنَ تحتها، من شُقّتنا اندفن علىٰ الأقلّ عشرة، وإذا كان في كلّ شقةّ عشرةٌ لم يتمكّنوا من الهرب قبل أنْ ينطبقَ عليهم الصّاروخ، فهٰذا يعني أنّ ستّين شخصًا قد دُفِنوا تحت الرُّكام في لَحَظات، ولم نقدر أنْ نعودَ إليهم ولا أنّ ننتشل مَنْ كان جريحًا، ولا بُدّ أنّهم سيُعانون الموت مئة مرّة قبل أنْ يموتوا بالفعل، ولعلّهم وهم يُنازِعون سيتمنّون ألاّ يُبطِئ الموت قُدُومه نحوهم! الموتُ ليسَ مُخيفًا،

إنّه أكثر عملٍ مُريح، الخوفُ يكون من مُقدّمات الموت، ومصارعته وهو يلهو بالرُّوح طويلاً قبل أنْ تستسلم!

أين سنذهب في هٰذا الوقت من اللّيل؟! النّساء اللّواتي نَجَوْن خرجْنَ بثياب الصّلاة. لا سيّارات في الشّارع يُمكن أنْ تحملنا إلىٰ منطقةٍ آمنة، ولا حتّىٰ كارّة حمار واحدة. نحن نجري بالرّعب إلى المجهول، لم تتوقّف الطّائرات من التّحليق فوقَ رؤوسنا، وطيّارات (الكواد كابتر) كانتْ تلازمنا، وكُنّا مُعرّضين أنْ نُقصَفَ في أيّة لحظة فنتحوّل إلىٰ لحومٍ مشويّة، وعظام مطحونة لا يُمكن التّمييز بينها وبين الرّماد. قالتْ أختي: «يُمكن أنْ نذهب إلىٰ أختنا مهديّة». نظرتُ إليها ونحن ما نزال نجري، وقد أنزلتُ (مرام) عن ذراعَيّ: «لقد قُصِفَ بيتُها هل نسيت؟ ولا ندري إلىٰ أين لجأتْ!».

بقينا نجري إلىٰ لا جهة. حينَ شعرْنا أنّنا صرنا في مأمن دخلنا بيتًا من البيوت الّتي في الطّريق علىٰ أمل أنْ يكونَ فيها مُتّسع يؤوينا، فالنّاس في غزّة يحتملُ بعضُهم بعضًا. كان البيت الّذي دخلْناه يكتظّ بأكثر من خمسينَ نازِحًا. تركْناه إلى البيت الثّاني فالثّالث، حتّىٰ تمكّنا في النّهاية أنْ نجدَ بيتًا يتّسع لأختي وابنة أخي. أمّنْتُ عليهما مع أكثر من خمسَ عشرةَ امرأةً أخرىٰ في إحدى الغُرف. وحينَ هبطْتُ كان عددٌ من الرّجال ينامون على الدّرج. نمتُ تلك اللّيلة في الشّارع مع آخَرِينَ لا أعرفُ منهم أحدًا.

طلعَ الصَّباح وليتَه لم يطلع. كلّ الشّارع الّذي تركْناه خلفَنا كان قد سُوِّيَ بالأرض وصارَ خَلْقًا آخر دون أيّ إنذار. أخذْتُ أختي وابنة أخي ورُحْنا نسير في تدفُّقٍ بشريّ نحو الجنوب.

آثار الموت مِن فَقْد الأحبّة أصعبُ من الموت، الإصابة من كسرٍ أو عُضوٍ مُمَزّق، منظرُ الدّمِ المُختلِطِ بالرّماد على الوجوه... كلّ هٰذا أصعبُ من الموت. الموتُ نفسُه؟ كُنّا نضحك ونحن نتساءَل: «كيفَ سيكون شكلُ الموت حينَ يأتي؟» يُجيبُ آخَر: «يا جماعة هي قرصة واحدةٌ خفيفة». راحَ بعضُنا يقرصُ الآخَر في خَدّه: «هٰكذا... هٰذا هو الموت... ليسَ أوجعَ من هٰذا ولا أطول... مرحبًا بالموت علىٰ هٰذا النّحو، مرحبًا بالشّهادة!».

لجأنا في تدفُّقنا نحو الجنوب عبر الممرّ الآمن كما قالوا إلىٰ مدارس الأونروا. امتلأت الصّفوف في البداية، ثُمّ امتلأت ساحات المدرسة، نصبَ النّازِحون فيها خِيامًا. تزايدَتِ الأعدادُ بشكلٍ غير طبيعيّ، نحنُ في غزّة ننسلُ من تحتِ الشّقوق، نحنُ أكثرُ من الموت، وأكبر من الفَناء، ترىٰ كلّ هٰؤلاء فتسأل: «من أينَ جاؤوا؟! أفي غزّة هٰذه الأعداد الغفيرة كلّها؟!». غزّة ممتلِئة بالحياة، بالكرامة، بالإباء، بالعِناد، بالنّضال، بقيمٍ تغارُ منها شعوبٌ كثيرة!

بالاكتِظاظ الخانق تَوافَقْنا علىٰ أنْ تنام النّساء في الصّفوف وننام نحنُ الرّجال في السّاحات في الخِيم. الخيم الّتي لم توفّرْها لنا الأونروا اشتريناها نحنُ بما تبقّىٰ لدينا من مال، الخيمة نشتريها بمئتَي شيكل. نحتاجُ خيامًا كثيرة؛ كم سيتبقّىٰ لدينا مِمّا يكفي للخُبز؟! أينَ الخُبز؟! يكفي أنْ نراه في خيالِنا، أنْ يكون حُلُمًا في ليل الجوع يتبخّر في صباح الانتِظار. أيّ شيءٍ يُؤكل مِمّا يُبقيك حَيًّا كان يُعدّ بالنّسبة لنا طعامًا. إنّنا نراوغ الموت ما استطعْنا.

الصّفوف الدّراسيّة الّتي عادةً ما تحتمل فوقَ طاقتها أيّام الدّراسة

بخمسةٍ وثلاثين طالبًا، انحشرَ فيها أكثر من ستّين امرأة يَنَمْنَ بشكلٍ سَيفيّ طُوليّ، أو يتكّوَرْن أَهِلّةً لا تستطيع الواحدة منهنّ أنْ تمدّ رِجلَها إلاّ في بطنِ جارتها. يُمكن أنْ تسمعَ نَفَسَ الجارة، دَقّات صدرها الحزينة، وبكاءَها الصّامت الّذي يهرّ في الأحشاء دون أنْ يجدَ طريقةً للخروج! تتضجّر امرأةٌ شابّة: «أنا مش قادرة أتنفّس». تنهرها امرأةٌ مُسِنّة: «اسكُتي... الهواء يكفينا جميعًا».

الجامعات الّتي لم تُدمّر تمامًا تحوّلتْ هي الأخرىٰ مثل المدارس إلىٰ مراكز إيواء. في الجامعة ساحاتٌ أكثر، قليلٌ من الهواء الفائض، قليلٌ من الحياة المنهوبة، قليلٌ من الفقد الّذي لا يُفرّق بين صغيرٍ وكبيرٍ، ولا بين أستاذٍ جامعيّ وطالبٍ في الابتِدائيّة، كلّنا في فم الموتِ سواء.

كان الوصول إلى الحَمَّام مثلَ الحِمام. ليسَ بينه وبين الموت إلاّ مسافةُ شبرٍ. وجهٌ آخر من وجوه المعاناة السّوداء، تطلعُ فيه أفعىٰ بألفِ رأس، كلّ نابٍ في رؤوسها يقطرُ سُمًّا. ماذا جنينا حتّىٰ يحلّ بنا كلّ هٰذا؟! أَصْرَرْنا علىٰ ألاّ نفقد كرامتنا مهما ساءَ كُلُّ شيء.

كان الدَّوْر على الحمّامات أطولَ من شاطِئِ غَزّة، إذا كنتَ قادِرًا علىٰ الوقوف، فإنّ ساعتَين من الانتِظار لا تكفيان حتّىٰ يحينَ دورُك، وإذا كان الشّيبُ قد اشتعلَ في قلبك قبل رأسك وأوهنَ كَرُّ الأيّام عِظامَك فعليك أنْ تحجز دورَك على الحمّام من اللّيلة الفائتة. كانت الحمّامات الّتي لا تزيدُ عن عشرة حمّاماتٍ تُغلَق ليلًا، في الثّانية عشرة تُسَدّ في وجهك الأبواب، في المدرسة ثلاثون صَفًّا على الأقلّ، يقطنُ فيها ما يقربُ من ألفَي امرأة، وفي السّاحات يقطنُ ألفان من الرّجال، أربعةُ آلافٍ تُراودهم أنفسهم بعدَ منتصف اللّيل أنْ يفعلوها علىٰ أنفسهم! أينَ يذهبون؟!

(٤١) نكبةٌ جديدة!

بقينا أسبوعًا في المدرسة. كلّ ثانيةٍ مرّتْ بمأساة. لوحة الوجع لها ألفُ لون. والحياة لها ألفُ وجهٍ مُميت، والنّاسُ موتىٰ ولا أحدَ يرثي لهم. وكُلُّ نازحٍ ينظر إلىٰ قلبه فيراه مِخلاةً قد ثُقِبتْ بألفِ سهمٍ مسموم. نحنُ لوحةٌ لم تُرسَم بعدُ في خيال أكثر فنّاني العالَم تراجيديّة!

كيفَ تتدبّر النّساء أمر الغسيل؟ كُنّ يغسلْنَ بالجرادل. أينَ الماء؟ أين يَنشُرْنَ هٰذا الغسيل؟ على الشّبابيك، تتدلّىٰ من حدائدها أثوابٌ هي كلّ ما تبقّىٰ من بيوتٍ رحلتْ نساؤها بثياب الصّلاة وبما يرتدين وقتَ الغارات. ثُمّ على الشّجر، كانت النّساء تنشر ما تغسلُ علىٰ أيّ مكانٍ مُمكنٍ، علىٰ العذوق النّافرة من تحتِ أيّ شجرة. علىٰ خَشبٍ في الخَيال؛ يأتين بكراسيّ يضعنها في وجه الشمس، وينشرْن الغسيل فوقَها، ويقلْن: «أيّتها الشّمس الّتي صارتْ تبدو خجولة في كوانين هٰذا العام الحزين، سلّطي حرارتك علىٰ هٰذه الثّياب، فلا وقتَ لدينا من أنْ أجل أن نلبسها مرّة أخرىٰ».

الّذين نزحوا من الأطراف كانت معهم الكارّات، تصطفّ الحمير بعرباتها أمام بوّابات المدرسة، تنهق هٰذه الحمير في اللّيل فتوقظ الموتىٰ. كانت هي الأخرىٰ منزعجةً مِمّا يحدث. سمعتُ حمارًا في إحدى اللّيالي يصيح: «ألم تعدْ في قلوبكم أيّها البشر رحمة؟!». المسكين لم يأكل منذُ أربعة أيّام، اعتذرْتُ منه: «لم يعدْ هناك شعير يأكله البشر حتّىٰ تأكلوه أنتم أيّها الحمير. الحرب لم تفرّق بيننا كثيرًا. اصبرْ يا أخي. إذا خرجْنا من الحرب سالِمين فأعدك أنْ أنثر في معلفك كلّ يومٍ جوال شعير». ينهق

مرّة أخرىٰ كأنّه لا يُصدّقني!

أمام سور المدرسة، في السّاحة على الأطراف، في كلّ زاوية بدأتْ تتراكم أكوام القُمامة، انتشرت الرّائحة، استعانَ بعضُهم بالنّار علىٰ التّخلّص منها، صرْنا بين رائحتها والدُّخان الخانق.

تعبْتُ من سماع القصص المُؤلِمة، قال (نبهان) وهو يشيحُ بوجهه بعيدًا، علىٰ ضوء شهابٍ يلمع من خلال لحيته. تعجّبْتُ: «أنتَ يا نبهان؟! نحنُ نتعب وأنتَ لا تتعب. أنتَ عَزاؤنا جميعًا». «ولٰكنْ ألسْتُ بشرًا؟!». يُتابع وهو يكاد يبكي: «تخيَّلْ أنّ كلّ قِصّة سمعتُها في النّزوح لها ألفُ عينٍ تنزف. يا أخي مش هيك. بلادٌ تموت. عائِلاتٌ كلّها تُمسَح من الوجود. أنا لم يبقَ لي إلاّ أختي وابنة أخي. خوفي من فقدانهما في أيّة لحظة يجعلني أعيشُ في رُعبٍ كلّ لحظة. إنّهما كلّ ما تبقّىٰ لي. لماذا علَيّ أنْ أفقدهما أيضًا؟!». انحدرتْ دمعةٌ بالفعل من عينه الّتي تَلِيني، رأيتُ لمعتها علىٰ ضوء النّجوم في السّماء. هٰذا الشّيخ صافٍ!

لم تبقَ مدرسةٌ واحدةٌ لم تُفتَح للاّجئين. المدراس الحكوميّة أشرعتْ أبوابَها. أينَ يذهبُ النّاس؟! لم يبقَ جدارٌ واحدٌ قائمٌ على الأرض في شمال غَزّة ووسطها، الأرض كلّها حُرِثَت حرثًا!

الصّفوف ازدحمتْ بشكلٍ غير مسبوق. أزحْنا قوارير الشّتلات، ونمنا علىٰ حَوافّ الشّبابيك. التّوزيع لم يكنْ طبقيًّا في الغُرَف؛ كان عشوائيًا، يأتي النّاس فيستقرّون في أيّ مكانٍ يعرضُ لهم، قد يتكتّل الأقارب في غرفة ما، ولٰكنّهم مهما كان عددُهم لن يستولوا علىٰ الغرفة، ذٰلك أنّه ما من تكتُّل لعائلة مهما كبرتْ أنْ تصل إلىٰ ستّين فردًا، ليسَ لأنّها لم تصلْ من قبل، ولٰكنْ لأنّ أكثرها إمّا استُشهِد وإمّا فُقِد وإمّا

توزّع علىٰ أكثر من مكانٍ لجوء، أو نزح إلىٰ بقاعٍ أخرىٰ ظَنّ أنّ الموتَ قد لا يصلُ إليها أو أنّه ربّما ينساها لبعض الوقت.

كُنّا نقطعُ وقتَ الموت بالفُكاهة، سِكّينُ الزّمن تُحتَمل بالسّخرية، نضحك يعني فلانة محظوظة لقد أخذت غرفة المدير. فلان أخذ المَرسَم. فلان قاعد في المختبر. فلان في صفّ أول يتهجأ الحروف مثلما كان في يومه الأوّل حينَ كان يبكي. فلان في صفّ ثالث لقد ترفّع تلقائيًّا!

تخيّلْ أنّنا نحن الغزّاويّين سكنّا في محطّات البنزين المهجورة. كُنّا عرضةً بعودِ ثقابٍ واحدٍ أنّ نحترقَ جميعًا فكيفَ إذا سقط علينا صاروخٌ بزنة مِئة طنّ؛ أينَ سنكون بعدَها؟! هل هناك أماكن في خلق الله ليسَ فيها نيرانٌ مُحترقة؟! إنّنا نرجو ذٰلك. ما أبعدَ الرّجاء لِمَنْ رأىٰ!

القُمامة تتراكم من جديدٍ. مُخلّفات من كلّ شيءٍ. لم نكنْ ندري أنّ هٰذه المدرسة قبل أنْ نَفِدَ إليها قد تبعثرتْ فيها أشلاءُ شهداء لم نرهم. الرّائحة تُنبِئ علىٰ أنّ هٰذه أجساد بشريّة سقطتْ هنا ولم ينتبه أحد. كوارث صحّيّة. بدأنا نختنق. الزُّكام هو الآخَر كان عدوًّا قاتِلاً. القَتَلَةُ الأخفياء يتكاثرون. الفيروسات في كلّ مكان، نحن نتنفّسها ونأكلها ونشربها ونُصافحها في الطّرقات.

قُصِفَتِ المدرسة. هٰكذا ببساطة كما أُحدّثك؛ قُصِفت المدرسة. وقبلَ أنْ نعدّ الشّهداء الّذين سقطوا، كان محيط المدرسة علىٰ بُعدِ شارِعَين يُقصَف هو الآخَر بِحزامٍ ناريّ، بين كلّ صاروخ وصاروخ ثانية واحدةٌ، في عشرين ثانية سقط عشرون صاروخًا مسحتْ الحَيّ بأكمله.

كان الحزام النّاري قد بدأ بمنطقة الكرامة، ثُمّ توسَّع إلى الخارج. في السّابق، أعني في الحروب السّابقة، وفي بداية هٰذه الحرب كان الجيش

يقصفُ بيتَين بيتَين، الآن صارَ يقصفُ شارِعًا شارِعًا، وفي خلال دقيقة أو أقلّ تكون بيوت أكثر من خمسمئة عائلة في خبر كان. جَرَدوا المنطقةَ جردًا. تركْنا المدرسة وحملْنا ما يُمكن من الأغراض وتوجّهنا إلىٰ منطقة الشّيخ بدران. لم أعرفْها. أقول ذٰلك بدون أدنىٰ مبالغة، تهت، هل هٰذه هي؟! كان لا يصيحُ فيها ديك، ولا تموءُ فيها قِطّة. صار النّزوح إلى الجنوب أمرًا مُحتَّمًا. يبدو أنّنا سنُضطرّ للاستِجابة لأوامر الجيش الإسرائيليّ بالنّزوح الكامل إلىٰ جنوب القِطاع.

مكثْنا ليلتَين دامِيتَين ونحنُ نُلملمُ حاجيّاتنا، يتأكّد كلّ واحدٍ من أنْ عائلته معه، لو كانتْ ناقصة فردًا أو اثنين فهٰذا أمرٌ طبيعيّ، السّير بالموجود هو المقصود. خلال هاتين اللّيلتين حاولنا أنْ نعيش بأقلّ المُمكن. غيرَ أنّ العطشَ لا يرحم إذا كان الجوع يرحم أحيانًا، ونحنُ في ظلامٍ تامّ؛ تقطّعت أسلاك الكهرباء، لم تعدْ هناك أعمدة في الشّوارع حتّىٰ يكون هناك ضوء. المُولِّدات الّتي في الشّوارع قُصِفت هي الأخرىٰ، فلم تعدْ هناك كهرباء نهائيًّا، خلايا الطّاقة الشّمسيّة استُهدِفَت هي الأخرىٰ. نحن الآن نعيشُ عصر الكهوف المُظلِمة، وعصر الظّلمات المُتتابِعة.

خطرتْ في بالِ بعضنا فكرة. استصلحوا بعضَ المُولِّدات وربطوها علىٰ جرّات الغاز، وجرّبوا؛ فأضاءتْ. كانتْ فكرةً جميلة لو كان هناك جرّات غاز كافية، انتهىٰ كلّ شيء. لا ماء لا كهرباء لا لبيوت لا أمان لا شيءَ غير الموتِ والدّمار!

الجنوب كان يعيشُ في رفاهٍ بالنّسبة لنا نحنُ في الوسط أو في الشّمال. كُنّا نتندّر عليهم: «احمدوا الله، ولا حَدَا يتكلّم على الحرب، اليهود بضربوا عندكم صاروخ صاروخين تلاتة، اليهود بتدلّعكم بترميلكم كلّ يوم أربع خمس صواريخ احنا دمّرتنا احنا كانوا يضربونا بـ (١٠٠) صاروخ في

الليلة». يا الله أنتَ هنا.. أنتَ تسمعُ وترىٰ؛ خُذنا إليكَ من هٰذا الجحيم!

تأكّدْنا في النّهاية أنّ بقاءنا في المدارس مع انصِباب السّماء علينا بالصّورايخ موتٌ مُحقّق، فعزمْنا أنْ نرضخ لِما يطلبه جيش الدّفاع المجنون منّا؛ سنمضي في قافلة النّزوح إلى الجنوب. صباح اليوم الثّالث بدأنا النّزوح بموتٍ مُحقّق، كان اليهود يريدون لنا أنْ نذعر فنُهرَع إلىٰ الهروب، كانوا يريدون تمشيط الشّمال من كلّ ديّار، لينفردوا للقضاء على المقاومة. اليوم نصفُ غزّة الأعلىٰ مدائن أشباح، وهياكل أموات، الشّعبُ مثلَ النّمل يجلو عن مُدنُه الشّماليّة.

بدأتْ نكبةٌ جديدةٌ، لا أدري تمامًا كيفَ كان شكلُ نكبة عام ١٩٤٨م ولٰكنّني مُتأكّدٌ أنّنا في نكبةٍ أقسىٰ وأشدّ. بدأنا النّزوح في السّاعة الثّامنة صباحًا، خلال شارع صلاح الدّين، الّذي تجمّع فيه النّاس من كلّ مكانٍ في الشّمال، كُنّا عشرات الآلاف لا أدري إنْ كُنّا اكثر من ذٰلك، أنا رأيتُ أمامي الشّارع مُكتظًّا تمامًا علىٰ مَدّ البصر، ونظرتُ خلفي فرأيتُ النّاس يموجون فيه، كأنّ غزّة كلّها قد خرجتْ عن بكرةٍ أبيها، كنتَ لا ترىٰ للموج البشريّ أيّ بدايةٍ أو نهاية، أعتقدُ أنّ مليون غزّاويٍّ يعيشون في الشّمال قد سلكوا طريق الآلام هٰذا إلى الجنوب.

طُلِبَ منّا أنّ نسير عبر شارع صلاح الدّين إلىٰ وادي غزّة، كانت الطّريق أكثرَ من عشرين كيلومترًا. في البداية استعنّا ببعض السّيّارات والكارّات، كانت السّيّارة الّتي تحمل خمسةً في الوضع الطّبيعيّ قد حُشِر داخلها عشرة، واستقرّ فوقَ حديدها الأعلىٰ ستّة آخرون على الأقلّ، ولم يكنْ لدينا وقود، فملأنا خزّانات السّيّارات بالزّيت، ولا أدري كيفَ كانتْ تسير السّيّارات بهٰذا الوقود ولا كيفَ تحتمل هٰذا العدد المهول ومعهم أغراضهم من الفرشات وأسطوانات الغاز الّتي جلبوها من بيوتهم

وبعض العُلَب الّتي تحمل وثائقهم المدنيّة كشهادات الميلاد، الميلاد الّذي صار موتًا في هٰذه السّاعة، وما تمكّن بعضُ النّازحين من جَلْبِه من طعامٍ كان في بيوتهم كعُلب الفاصولياء والفول والعدس والملح.

أمّا الكارّات فكان يستقرّ في بطن العربة الّتي يجرّها الحِمار أكثر من عشرة أشخاص مع فرشات الإسفنج والحرامات. وكانتْ تسير على الأرض قِطَعٌ أخرىٰ كعربات الأطفال، وصناديق حديديّة صُنِعتَ لتُجرّ علىٰ عَجَلاتٍ لم أرَ مثلَها من قبلُ، وأكياس من البلاستيك كبيرة يحملها أطفال في العاشرة من أعمارهم أصغر حجمًا منها تحتوي علىٰ بعضِ الملابس، وكان هُناك كبارٌ في السّنّ وعَجَزة يُجَرُّون علىٰ كراسيّ مُتحرّكة من قبل ذويهم، أمّا مشهدُ الّذين كانوا يسيرون برجلٍ واحدةٍ ويتّكِئُون علىٰ عُكّازٍ بدل الرّجل المبتورة فكانوا يشكّلون سيلاً لا تُحصَىٰ أمواجُه. وكانتْ بعضُ النّساء تحمل طفلَين صغيرَين في الرّابعة والثّالثة من العُمر بين ذراعَيها، وتشدّ بخرقةٍ ما طفلاً ما زال رضيعًا علىٰ ظهرها، ويستقرّ طفلٌ رابعٌ في الثّانية من عمره علىٰ ما يبدو مربوطٌ بإحكامٍ علىٰ رأسِها بخرقةٍ ملفوفةٍ حول عُنُقها!

لم يكنْ شارع صلاح الدّين هو الشّارع الّذي نعرفه، لقد صارَ وجهًا مجدورًا مملوءًا بالحُفَر، وفي كلّ حفرةٍ جُثّة شهيد، وتحتها جُثّة وفوقها جُثّة، وعن يمينها جُثّة وعن يسارها جُثّة... ولا أدري كيفَ لم يكنْ بين جثث الشّهداء مسافة، ولا طريقٌ يُمكن أنْ نعبره في نكبتنا الجديدة!



(٤٢) الممرّ الآمن!

إلىٰ وادي غَزّة كُنّا نسير. ولم يكنِ الموتُ الّذي ينتظرنا هناك بأحسنَ من الموتِ الّذي نعيشُه عبر طريقنا هٰذه. إنّنا لا نسير في طريق النّجاة، كاذِبٌ مَنْ قال ذٰلك، بل كُنّا نسير من الموتِ إلى الموت، ومن الرّعب إلى الرّعب، ومن الجنون الّذي يُطاق إلى الجنون الّذي لا يُحتَمَل!

كان الشّهداء أمامنا مَرميّين كأنّهم أكياسٌ، أدوات، أشياء، ليسوا بشرًا حقيقيّن، كانت عُيُونهم مُفتّحة تنظر نحو السّماء وتنتظر رحمةً ما. أمّا الجرحىٰ فكانوا يَئِنُّون من شدّة الألم، وما كان أحدٌ منّا ينظر ناحيتهم خجلاً منهم؛ لم نكنْ نملك لهم شيئًا، شعورٌ بالقهر والألم. كان لرجائهم عُيون مُبصِرة وكان لقلّة حيلتنا وهواننا ألفُ عينٍ مُطفأة.

كانت الدّبّابات المُوجّهة فوهاتها نحونا تحفّ بنا من كلّ جانب. وكان القَنّاصون يعتلون كلّ بنايةٍ علىٰ جانِبَي الطّريق، أو علىٰ تلاّت من الرّمل صنعوها وتمركزوا خلفَها أو فوقَها، وكانتْ تُطلّ من فجوات تلك التّلال آلاف البنادق الآليّة المُلقَّمة والمُستعدّة في أيّة لحظة وبضغطةٍ واحدة على الزّناد أنْ تحوّل الشّارع كلّه إلىٰ جحيم. وكُنّا نسير علىٰ أطراف قلوبنا نتوقّع في كلّ ثانيةٍ أنْ يضغطَ ذٰلك الصّهيونيّ بسبب أو بدون سبب على الزّناد فنُستَشهدَ على الحال. كان هٰذا التّرقّب للحظةِ النّار مُؤلِمًا أكثرَ من أيّ ألمٍ آخرٍ قد تتخيّله!

كان القنّاصة الصّهاينة يتفنّنون في بثّ الرُّعب. يصيحُ أحدهم بالعربيّة: قف. فنتوقّف. وتتوقّف مع ذٰلك أنفاسُنا ترقُّبًا لِما يحدث، بل تتوقّف الأرض عن الدّوران في انتظار اللّحظة الآتية. ثُمّ نسمعه يشتم بالعبريّة، ثُمّ يطلبُ منّا أن نسير، فنسير ونحنُ لا نكادُ نُصدّق أنّ الله مَنَحَنا ثانِيةً أخرىٰ قبل أنْ تنقطعَ أنفاسُنا ونسقطَ في بِرَكِ دمائنا.

الممرّ الآمِن الّذي حدّدوه لنا عبر شارع صلاح الدّين، كان أكثر شوارع الكرة الأرضيّة ذُعرًا وخوفًا وموتًا، لم يكنْ فيه من الأمان شيء. كلّ ذرّةِ رملٍ فيه كانتْ قاتِلة، كلّ نسمةِ هواءٍ فيه كانتْ خانِقة. كلّ همسةِ رجاءٍ فيه كانت نذيرَ شُؤم. كُنّا فيه ولم نكنْ فيه. أنتَ في عين الموتِ. كان الموتُ نفسُه في ذُعْرٍ من سَطوته وقُوّته وسيطرته علينا، كانَ يتعجّبُ مثلنا في اللّحظة التّالية أنّه لم يقبض أرواحَنا في اللّحظة السّابقة!

لا ملامحَ للشّارع سِوىٰ ما تُحدّده أقدامُنا، كُنّا نحنُ الشّارع، بأجسادنا المُرتعِبة المُتدفّقة نحو المجهول، بأقدامنا الّتي ترتجفُ من الخوف وتُغطّي كلّ شيءٍ فيه. أمّا تحتَنا وحوالَينا فقد تغيّر وجه الشّارع إلى الأبد!

يصرخ قنّاصٌ بُندقيّته أطول منه لامرأةٍ كانتْ تسير أمامي: «تعالَي أنتِ... تعالَي هاتِي أغراضك». تتوقّف أكثر من امرأة لا تدري مَنْ مِنهنّ المقصودة. يصرخ القنّاص من جديد: أنتِ ذات الحجاب الأبيض. حين تعرفُ المرأة ذات الحجاب الأبيض أنّها المقصودة تكاد قدماها تخرّان على الأرض من الخوف. تطمئنّ لحظيًّا خمسُ نساءٍ من اللّواتي حولَها، تعودُ أنفاسُهنّ إلىٰ صدورهنّ الّتي توقّفتْ دَقّات قُلوبهنّ لحظة صُراخ القنّاص بهنّ. تستدير المرأة ذات الحجاب الأبيض نحو الصّوت، تجد البندقيّة مُصوَّبة مُباشرةً نحوها، ترتسمُ علىٰ وجهها أمارات الرّعب،

تنظر بعينَين مفتوحتَين على اتّساعهما في فوهة البندقيّة، تغوص في قناتها السّوادء تتخيّل أنّها تنحشر في الفوهة وتنضغطُ داخلها ثُمّ تنفجر هناك إلىٰ ألفِ شظيّة. ينعزلُ حولَها كلّ شيء فتشعرُ أنّها وحدها في هٰذا المكان وأنّ النّاس ذابوا، لم تعدْ تسمعُ شيئًا، خيال الرُّعب عَطّل حاسّة السّمع عندها، تسمعُ بعدَ لحظةٍ تالية أصواتًا مُتداخلة، لم تعدْ تميّز منها شيئًا، ينفردُ صوتٌ يُشبه نعيق غرابٍ يُغطّىٰ بسواده فضاء غَزّة: أنتِ، نعم أنتِ، تعالَي ألا تسمعين يا... ويُتبِعها بشتيمة بذيئة. تتقدّم نحو القنّاص وهي توقن أنّها النّهاية، يشدّها المُجرِم من حجابها، وتختفي خلفَ تلّة الرّمل، ونتابع نحنُ سيرَنا دون أنْ ندري ماذا حصلَ معها!

كانتْ راياتنا البيضاء تعتلي رؤوسنا، ويرفعها مَنْ كان قادِرًا علىٰ رَفْعها. كانوا في لحَظات الملل يُصوّبون علىٰ هٰذه الرّايات ويُطلِقون رصَاصهم، تسقط الرّاية، يَبْذَعِرُّ النّاس من صوتِ الرّصاص، يصيح القّناص: توقّفوا. كلّ مَنْ لم يتوقّف سيسقط بالرّصاصة القادمة. يقتل ثلاثةً يختارهم من الّذين لم يستجيبوا لصرخاته. تنثعب الدّماء، تنفتح الشّرايين، تدفّق الرّوح، تسيل كالدّم إلىٰ مستقرّ لا قرار له، نتجمّد في أماكننا. ينظر إلينا الشّهداء المُحتَملون وهم يتخبّطون في دمائهم. لا نملك لهم شيئًا. انحنىٰ أحدهم ليحمل جريحًا، اخترقتْ رأسَه رصاصةٌ لم نسمعها، سقطَ إلىٰ جِوار الآخَر. مضينا دون أنْ نلتفت.

كانتْ أختي أمامي، رأيتُ رُكبَها تنثني، كادتْ تسقط، لا أدري لماذا حدثَ معها ذٰلك، أهو الجوع؟ أهو التّعب؟ أهو هٰذا الّذي نراه؟ أهو الاستسلام بعدَ أنْ لم تعدْ هناك طاقةٌ للاحتِمال؟ تركْتُ يدَ ابنةِ أخي. وركضتُ نحوها أسنَدْتُها. رشَقْتُ وجهها بشيءٍ من الماء كان معي.

استعادَتْ وعيها، لو سقطتْ فإنّها لن تقومَ أبدًا. همستُ في أُذنَيها: «لا تموتي. اصبري. سنصل إلىٰ مكانٍ آمن». كانتْ هٰذه أكبرَ كذبةٍ قلتُها في حياتي.

ممنوعٌ علينا أنْ ننظر جهة البنادق المُصوّبة نحونا ولا إلى الدّبّابات، ولا عن شِمال، ولا إلى الخلف، كان فقط مسموحًا لك أنْ تنظر إلى الأمام باتّجاه الجَنوب وأنت ترفعُ رايتَك البيضاء وترفع يدك الثّانية مُستسلِمًا.

كانتْ هناك امرأة حامل، يبدو أنّها في شهرها الأخير. كُنّا قد مشيْنا أكثر من أربع ساعاتٍ دون توقّف. تعبتْ. مَنْ لم يتعبْ؟! انحنتْ قليلاً، فقط نصف انحناءة، كانتْ أكبر أمانيها في تلك اللّحظة أنْ تجلسَ على الأرض ولو لدقيقة ترتاح من قدمَيها اللّتين لم تعودا تحملانها مع جنينها. وضعتْ يدَيها علىٰ ركُبتَيها، صاحَ بها قنّاصٌ جاءَ صوتُه من خلف آذاننا: «امشي... امشي...» تحاملَتْ علىٰ نَفْسِها، مشتْ عشرينَ مترًا آخر، أرادتْ أنْ تنحني مرّة ثانية، لم تعدْ تحتمل: «صاحتْ أنا تعبانة...». لم تكدْ تُكمل جملتها حتّىٰ جاءتْها صليةٌ من الرّصاص من قنّاص كان يتمركز أمامها، ثقبت الرّصاصاتُ بطنها، سقطتْ على الأرض، واندلقتْ أحشاؤُها في لحَظَات. نهضتْ برأسِها قليلاً، وبيدَين مُرتجفَتين حضنتْ جنينها الّذي لم يُصدِر أيّ صوتٍ لٰكنّ رجلَيه تحرّكتا، ضَمّته إلىٰ صدرها، اخترقتْ رصاصات أخرىٰ رأسَها، فهوىٰ على الأرض وهي لا تزال تحتضن الجنين. خمدتْ حركتُها. الآن قد ارتاحت. مضينا. لم يكنْ بوُسعنا فِعْلُ شيء.

بعدَ ساعةٍ أخرىٰ، بدأتُ آكُلُ نفسي من الدّاخل: لماذا لم ننقذها؟ كان يُمكن أنْ نفعل شيئًا؟ يا لَنا من جُبناء؟ هل ظلّ الجنينُ حَيًّا؟! كان يُمكن أنْ تُكتَب له حياةٌ لو قطعتُ حبلَه السُّرِّي وحملتُه بينَ ذراعَيّ، وعهدتُ

به إلى امرأةٍ وَلَدَتْ حديثًا فأرضَعَتْه، أو قطرْتُ في فمه بعض الماء؟ لعلّه كان سيعيش، وسيكبر وسيتزوّج وسيكون له أولادٌ يأخذون بثأره وثأر جدّتهم!

قبل وادي غزّة بكيلومترَين اثنَين أو ثلاثة. طلبَ الجيش الإسرائيليّ من الّذين كانوا يركبون السّيّارات والكارّات أنْ يترجّلوا منها ويُتابِعوا النّزوح على أقدامهم. لم يدر هؤلاء ما يفعلون! تردّدوا في الاستِجابة؛ أينَ يذهبون بهذه الأمتعة كلّها، إنّهم لا يقدرون على حملها على ظهورهم؟! صلية من الرّصاص في الهواء حسمتِ الأمر. ترجّلوا من الكارّات والسّيّارات، وحملوا ما استطاعوا حَمْله، غير أنّ الجيش أرغم السّائقين على أنْ يسيروا بسيّاراتهم وكارّاتهم خارج الشّارع. ولَمّا تجمّع أكبرُ عددٍ منهم، قصفها بالقذائف فتحوّلَتْ إلى كتلٍ من النّيران، واحترق كلّ مَنْ كان فيها.

استُشهِدَ في الطّريق ضِعفُ الشّهداء الّذين كانوا ينزرعون فيه، إنّ هذا الممرّ الآمَنَ نَقصَ أكثرَنا بالموت. عددٌ منّا استسلمَ لقدره جلسَ على الأرض وانتظر رحمة السّماء أنْ تأتي على شكلِ رصاصةٍ تُفجّر رأسَه فتُريحه في لحظةٍ سريعةٍ من هذه المعاناة.

لم نعدْ ندري مَنْ ظلّ حَيًّا مِنّا مِمّن رحل. الأخ لم يعرفْ ما حلّ بإخوته. الأب لم يعرفْ ما حلّ بأبنائه. الأخبار عنهم كانتْ معدومة. لم نعرفْ شيئًا. لم تصلْ إلينا سيّارات الإسعاف، ولم يستجبْ لنداءاتنا أحد، مَنْ سقطَ على الطّريق قُنِص. مَنْ قُنِص أُكِل من الكلاب. الكلاب في غزّة جائعة مثل البشر، وهي تأكل لحوم الشّهداء لتبقى حيّة.

وصلْنا إلىٰ وادي غَزّة أخيرًا بعدَ أنْ سرنا حوالَي عشر ساعاتٍ. كانت دبّابات الجيش تعيثُ فيه كالنّمل. حُدِّدت لنا طريقٌ واحدة من أجل عُبُوره إلى الجنوب. تفرّق النّاس إلىٰ مدن الجنوب، أكثرُنا ذهبَ إلىٰ رفَح. لم يعدْ هناك أهلٌ أو أقارب أو حتّىٰ بشرٌ في البيوت الّتي تسبق الجنوب، كان مُبادًا بالكامل، مَنْ كانتْ علىٰ ظهره خيمة فقد كان محظوظًا ومحسودًا، إنّه يستطيع أنْ يحميَ نفسه من أنياب الكلاب الضّالّة ولو إلىٰ حين. أنا وأختي وابنة أختي نمنا في العَراء.

في اليوم الثّاني تابَعْتُ المسير، أمّنْتُ عليهما في مُخَيّم للنّازحين في رفح. ودَّعْتُهما. آخرُ ما تبقّىٰ لي من عائلتي. ثُمّ عرفْتُ أنّكَ في مستشفىٰ الصّداقة فجِئتُ إليك. قبل أنْ أصلَ مشيًا علىٰ قدَمَيّ رأيتُ هٰذا الّذي تُسمّيه ابنَك؛ (زكريّا)، لقد عرفَ هو الآخَر أنّكَ هُنا، فجِئنا لنلتقي مُجدّدًا، لقد صرتم عائلتي أيضًا، لا أدري ما سيحدثُ لنا جميعًا غدًا. نحن في أقدار الله. والله لن يُضيّعنا.

«أحيانًا تراودني أفكارٌ سوداء يا فرج، أتعرفُ أنّني فكّرْتُ بالانتِحار أكثر من مرّة؟!». «أنتَ يا نبهان. مُستحيل. أنتَ رجلٌ مُؤمن. أنتَ الّذي وهبْتَ البسمة لآلاف الوجوه الحزينة مُستحيلٌ أنْ تُفكّر بالانتِحار». «أنا أتساءل يا فرج عن معنى الحياة، عن جدواها، عن الفائدة من البقاء أحياء. إذا كانتْ هٰذه النّهاية مُقدَّرةً علينا، فلماذا لا تأتي سريعًا؟! لقد تعبْنا والله!!». «لا تقلْ ذٰلك. ها نحنُ قد اجتمعْنا من جديد. ثِقْ بالله. سنخرج منتصرين. انظرْ إلى الفجر هناك... في الأفق البعيد».



(٤٣) بين يدَي الله

يقولون إنّهم سيضمّون شمال قِطاع غزّة إلىٰ دولة الاحتِلال. أوهام. نحنُ نقاتل. نحنُ الّذين ما زلنا أحياء سنقاتل. سنموت من أجل ألا تسقطَ ذرّة رملٍ من غزّة في أيدي الاحتِلال. ما هو أعظمُ شيءٍ نفقده؟ أرواحنا؟ ما أسهلَ أنْ نُقدّمها في سبيل ألاّ نرىٰ وجه جُنديّ واحدٍ علىٰ أرضنا. قد لا يكون ذٰلك اليوم أو في الغد القريب، لٰكنّه كائنٌ لا محالة، نحنُ موقِنون بذٰلك، وإنْ لم نشهدْه نحنُ فسيشهده أولادُنا، وإنْ لم يشهدْه أولادُنا فسيراه أمرًا واقِعًا أحفادُنا. نحنُ جيلٌ يسلّم راية الثّأر إلى الجيل الّذي وُلِدَ في هٰذه الحرب الشّعواء. مَنْ يتكهّن بما سيفعله أبناء الحرب حينَ يكبرون، إنّهم سيسحقون هٰذا الكيان الغاصب لا شَكّ.

لقد اعتقلوا آلافَ الشّباب. يأخذنوهم في الجيبّات العسكريّة إلىٰ السّجون في محيط غزَةّ. تنهال عليهم سِياطُ الحقد، يُعَذَّبون بأقسىٰ أنواع التّعذيب، تُقلَع أظفارهم، تُفقأ عيونهم. لقد جُنّ الاحتِلال من هٰذا الصّمود الأسطوريّ. لا ينالون مِنّا كلمةً واحدةً تُفرحهم، الجُبناء لا يملكون إلاّ أساليبهم في التّعذيب من أجل أنْ يهزمونا، لو كُنّا في الميدان لساحتْ جلودهم بمجرّد أنْ ننظر في وجوههم، لٰكنّهم هنا يُقيّدوننا، يربطون أيدينا بالسّلاسل والجنازير من الخلف إلىٰ كراسي التّعذيب، ويفعلون ذٰلك بأقدامنا، انظروا إلىٰ هٰذا العقيد الّذي تتربّع النّجوم علىٰ كتفَيه والّذي يلبس بِزّة الاحِتلال العسكريّة إنّه مرعوب لمجرّد أنْ نمدّ شررَ عيوننا إليه،

يُمعن في تعذيبنا، تسيل الدّماء علىٰ وجوهنا، لكنّنا لا زلنا ننظر إليه بتحَدٍّ لا يفهمه ولا يعرفُ له تفسيرًا، ولٰكنّ نظراتنا - نحن الّذين لا نستطيع أنْ نتحرّك أبدًا بسبب قيودنا - تحرق قلبه، تُرعِّشُ ساقَيه، يسيلُ دمُ الخوف في عُرُوقِه فيهبطُ حتّىٰ يحلّ رُكَبَه ويكاد يتبّول علىٰ نفسه! مَنْ فينا الّذي يُرعِبُ الآخر؟ مَنْ فينا القادر علىٰ هزيمة الآخر، نحنُ الّذين نغرقُ في بِرَكِ دمائنا أم هو المتمتّع بكلّ سلطته ويقفُ بكبرياء زائفة مُحاوِلاً أنْ يخفي موجة الخوف الّتي تجتاحه وتُسيطر علىٰ كيانه. إنّه الفرق الحقيقيّ بين صاحب الأرض وبين من جاءها من بلادٍ بعيدة، نحنُ أصحاب الحقّ، نحنُ أهل الأرض، نحنُ مَنْ زرعَ ترابَها، وسقىٰ أشجارَها، وفَجّر ينابيعها، ولهٰذا لن ننهزم مهما صَبّوا علينا أسواطَ عذابهم، أمّا هم فسيرتعِشون، سيعرفون أنّنا سنقاوم حتّىٰ آخر قطرة مهما هَجّروا ودمّروا، نحنُ لا نخاف الموت أمّا هم فيودّ أحدُهم لو يُعمّر ألفَ سنة، ما أسهل أنْ نموت في سبيل قضايانا، وما أصعبَ أنْ يفهم هو ذٰلك! إنّ الموتَ لا يُخيفنا، ولا الرّصاصة ولا السّوط ولا القوى السّفليّة الغاشِمة، أمّا هو فلو رأىٰ بُندقيّة مقاومٍ مُصوّبةً نحوه فسيبكي مثلَ طفلٍ صغير، بل إنّنا سنجعله يبكي ليسَ برفع البندقيّة في وجهه، بل برفع عيوننا - عيون الحقّ - تُجاهه!

هٰذا الجيش الجبان يسرقُ كلّ شيءٍ. في مداهماتهم للبيوت الّتي هُجِّرْنا منها، كانوا يدخلون إلى الغرف فيسرقون الأموال والذّهب والهواتف الخلويّة، وحينَ كانوا يُداهِمون محلاّت الصّرافة سرقوا ملايين الشّواكل منها، إنّه جيشُ لُصوص!

ولٰكنّه لم يكتفِ بذٰلك، بل سرقَ مِئات جُثث الشّهداء، ماذا يريدون منها؟ هل كانوا يريدون تشريح عقولهم لمعرفة سِرّ صمودنا؟ صمودُنا لا

يُفسّر إلاّ لذي قلب، ولا ينتبه إليه إلاّ ذو إيمان، وهم بلا قلبٍ وبلا إيمان. هل كانوا يريدون أنْ يبادِلوا شُهداءَنا بأسراهم! نحنُ سَلّمْنا هٰذه الأرواح لله، فما يضيرُ سلخ الشّاة بعدَ ذبحها، إنّه لا قيمة لهٰذه الأجساد، إنّها قِشرة تُغطّي أرواحنا، عَرَضٌ كان يُخفي الجوهر، أمّا وقد صارتْ أرواحُنا في حواصل طيرٍ خُضْرٍ فما قيمةُ الأجساد المنهوبة!

لم يكتفوا بسرقة جثامين الشُّهداء. بل نبشوا القبور على الشّهداء الّذين دَفَنَّاهم، وأخرجوها، ووضعوها في ثلاّجات خاصّة، وذهبوا بها إلىٰ تلّ أبيب، إلى المشارح الكُبرىٰ، ماذا يريدون؟! يريدون أنْ يفهموا كيفَ أنّنا مع كلّ السّحق والقتل المُمنهَج لم نخرجْ من غَزّة؛ لن يفهموا. مع كلّ هٰذا الموت لم نُهاجِر وبقينا مُتشبّثين بترابنا؟ لن يفهموا. مع كلّ الألم بقيتْ عندنا مساحةٌ للأمل مُحرّم عليهم أنْ يدخلوها ولو ملكوا أموال العالَم كلّه، وجمعوا أسرار الكون كلّه، وسألوا العباقرة كلّهم؛ لن يفهموا. نحنُ شعبٌ عَصيٌّ على التأطير والنّظريّات والقوانين، نحنُ شعبٌ خارج التّقدُّم التّقنيّ الخادع، نحنُ شعبٌ مع الله، والله معنا، ومَنْ كانَ الله معه فأنّىٰ له أنْ يُهزَم، وأنَّىٰ لعدوّه أنْ يُفكّك أسرارَ صمودِه!!

أمّا في المعتقلات فكانوا يستخدمون أساليب لم تخطرْ في بال الشّيطان. كانوا يتلذّذون بتشريح أجسادِنا، كانوا يختمون نجمة داود بالنّار علىٰ وجوهنا، أيّها السّفلة: قلنا لكم إنّ أجسادَنا ليستْ لنا، إنّها بين يدَي الله، تستطيعون أنْ تفعلوا بها ما تشاؤون، نحن نبذلها لكم دون أنْ يطرفَ لنا جفْن، أمّا أرواحنا فلا تملكون عليها أدنىٰ سيطرة، ولا تستطيعون أنْ تتحكّموا بها، إنّ أرواحَنا لله، وحدها تلوذ به، برحمته، بظِلالِ عرشِه، بالفوز بجنّته، وهي لن تركع، ولن تهون مهما كلّف الأمر،

ومهما كان حجم التّضحية، قُلنا لكم هٰذه أمورٌ لن تفهموها لا في معركة اليوم ولا في معركة الغد ولا حتّىٰ في معركة التّحرير القادِمة، والزّمان المُثقَل بكلّ العجائب سيكون شاهِدًا علىٰ ما نقول!

المُعتَقلات كانتْ جحيمًا لا يقلّ عن جحيم الموت خارجها. يشبحوننا إلى السّقوف والنّوافذ العالية بقيودٍ من حديد تحزّ المعاصِم وتغوص فيها إلىٰ أنْ تنزع نُتَف اللّحم ويبينَ العَظْم، يتحرّشون بنا السّفَلَة كانوا يُحضِرون مجموعاتٍ من الصّهاينة ليروا تعذيبنا، يُعرّوننا أمامهم وينهالون علينا بالسِياط وبالكلاليب، وبمقابس الكهرباء، تسيلُ الدّماء علىٰ كلّ خليّة من أجسادِنا ولا نصرخ، نشُدّ علىٰ أسنانا ونلعقُ دماءَنا ولا نصرخ، في حين كانَ حضور الحفلة يصرخون لا يحتملون المنظر، جاؤوا بهم من أجل أنْ يتشَفَّوا بمنظر تعذيبنا فأصابوهم بالذُّعْر وبألفِ مرضٍ نفسيّ لن يُشفَوا منه ما عاشُوا، جاؤوا بهم من أجل أنْ يظهروا بمظهر المُنتصِرين أمامهم، ولٰكنّهم جُبناء، يَسْتَقْوُون علىٰ ضَعْفنا، أيّ فضيلةٍ لقاتلٍ في يدَيه أعتىٰ أنواع الأسلحة وأشدّ أدوات التّعذيب ينهال به علىٰ جسدٍ عارٍ أعزل ليُثبِتَ انتصاره؟! إنّها أوضحُ هزيمةٍ بين عدوَّين، بين طرفَين، بين لِصٍّ وبين صاحب حَقّ، بين لئيمٍ وكريم.

أمّا الّذين شاهدوا حفلات تعذيبنا، فسيعودون إلىٰ بيوتهم، وسنبرز لهم في فُرُشِهم الوثيرة كوابيس تُطاردهم لا يستطيعون معها النّوم، سوفَ نُقاتلهم بهٰذه الكوابيس داخل بيوتهم الآمِنة، لن تعودَ آمِنةً بعدَ اليوم، إنّنا سنظهر لهم طيوفًا مُرعِبة، سيتصوّروننا أسودًا مُفترِسة تفغر أفواهَها تريدُ أنْ تزدردهم بلقمةٍ واحدة. إنّنا هزمناهم في غيابنا، فكيفَ سيكون شكلُ هزيمتهم إذًا في الميدان؟!

كلّ المعتقلين الّذين أُفرِجَ عنهم خرجوا بعاهاتٍ بسبب هٰذا التّعذيب، كانوا يفتحون رؤوسهم بمشارطَ وهم ينظرون، ويأخذون من لحم الوجه، كانوا يبترون أعضاءً من الجسد المُدَمّىٰ ويحتفظون به، لماذا يفعلون ذٰلك؟ إنّه لسؤال مُحيِّر، لٰكنّكَ لو فكّرتْ بعقولهم المريضة فستُدرك أنّ دولة إسرائيل المُتحرّرة من قِيَمِ الإنسانيّة كلّها تبتر هٰذه الأعضاء وتحتفظُ بها، إنّ لديها أكبر بنكٍ في العالَم للأعضاء البشريّة. يقتلوننا تحتَ التّعذيب، ثُمّ يشقُّون صدورَنا، ويخرجون منها الرّئة والطّحال والكبد، يجمعونها ويُجرون عليها التّجارب كما لو كُنّا فِئرانًا. أكبادُنا ستظلّ أكبادَ المُقاومين المُجالِدين المُجاهِدين، المساكين يريدون أنْ يسرقوا هٰذه الأعضاء ليضعوها في أحشاء مرضاهم، إنّهم لا يدرون أنّ المريضَ الّذي تُبدّل أعضاؤه التّالِفة بعضوٍ غزّاويّ سوفَ يتحوّل بعدَ أنْ يشفىٰ إلىٰ مُقاوِمٍ يُشبه صاحب العضو المسروق، وحينَ يكون قادِرًا علىٰ حمل البُندقيّة سيقتل بها أقربَ أبناءِ جنسه إليه، نحنُ نقاوم حتّىٰ بأعضائنا المسروقة، نحنُ شعبٌ لا يُقهر، لأنّه يملكُ عقيدةً لا يمكن هزيمتها!

عندما كُنتُ بمستشفى الشّفاء اختطفوا مدير المستشفىٰ، ومعه عددٌ آخر من الأطبّاء والممرّضين، نقلوهم إلىٰ سجن (عُوفر)، كانوا يتستّرون تحت غِطاء منظّمة الصّحّة العالَميّة، هٰذه المُنظّمة الّتي تظهر حملاً وديعًا تريدُ مساعدة أهل غزّة ليستْ إلاّ ذِئبًا كاسِرًا، يتعاون مع جيش الاحتِلال ويُسلّمهم أمهر أطبّائِنا وأصدقهم وأكثر وفاءً والتِزامًا بواجبهم الإنسانيّ.

في (عوفر) يتمّ تعذيبهم. يُعَلَّقون من أياديهم بالجنازير إلىٰ حلقاتٍ في السّقوف ويُسحَبون برافعاتٍ ترفع أقدامهم فوق الأرض ليتدلَّوا كالذّبائح المُعَدّة للسَّلْخ وهناك يبدؤون بممارسة ساديّتهم في تقطيع

الجسد المُدلَّىٰ. كانوا يُعذّبونهم ليُدلوا باعتِرافاتٍ عن مكان المُقاوِمين، يصرخون في وجوههم: «أنتم تُخبّئونهم في غُرفٍ سريّة وسراديب تحت المستشفىٰ». يُجيب طبيب: «أنا لم أرَ وجه مُقاومٍ واحدٍ من أوّل الحرب فكيفَ نُخبّئهم، هم في غِنًى عن طاقمنا الطّبّيّ كلّه، لديهم أطبّاؤهم الخاصّون، هم لا يريدون لأحدٍ أنْ يراهم حتّىٰ ولو كان غَزّاويًّا مثلهم، إذا وقعوا تحتَ الرّصاص يسحبهم رُفقاؤهم ويتولّى العناية الصّحّيّة بهم أطبّاء لا نعرفهم ولا يعرفوننا، في كلّ هٰذه الحرب إلى اليوم وأنا أتمنّىٰ أنْ أرىٰ وجه واحدٍ، كان ذٰلك سيكون شرفًا لو كان». يزدادون وحشيّة في التّعذيب: «أنتم تتستّرون تحتَ الغِطاء الطّبّيّ من أجل أنْ تُخبّئوا هٰؤلاء المُخرّبين». المساكين لا يعرفون أنّ جدّتي الّتي ماتت منذُ أكثر من عقدَين إذا كانتْ قد رأتْهم فإنّني سأكون أنا قد رأيتهم!

في كثيرٍ من المرّات لم يكونوا يريدون اعترافاتٍ أو إجاباتٍ لأسئلة ما، كانوا يُنفّسون حِقدهم الدّفين على الأطبّاء العباقرة بَصبّ جامّ غضبهم من خلال التّعذيب، كانوا يضربونهم بالكوابل الحديديّة حتّىٰ تتكسّر أضلاعهم، كانوا يهتفون ساخِرين مُتشفّين في وجه الدّكتور محمّد والدّكتور عدنان وهما من أمهر أطبّائِنا وأوفاهم: «ألم تكونوا أخصّائيّين في جراحة العِظام؟ أَرُونا كيفَ يُمكن أنْ تُعالِجوا عِظامكم المكسورة أيّها الأبطال!!». كلّ مَنْ شُبِحَ أو رُفِعَ إلىٰ حلقةٍ في سقف الزّنزانة كانتْ تُكسَّر عِظامه، كان يُضرَب بهراواتٍ ثقيلة من المعدن علىٰ صدره، وعلىٰ ساقَيه وعلىٰ ذراعَيه وأنحاء متفرّقة من جسده. لم يكونوا يرحمون أحدًا. لا طبيبًا نال أعلى الشّهادات وأنقذَ آلاف الأرواح وشاركَ في أكبر المُؤتمرات ولا غيره، وكانتْ أكبر العقول

الطّبّيّة تحتشد في أكبر القاعات من أجل أنْ يجيءَ من وراء البحار من غزّة إلىٰ أمريكا أو بريطانيا لتستمع إلىٰ كلماته الّتي لا تُشبِه كلماتهم، وإلىٰ عبقريّته وخبرته في هٰذا المجال الّتي لا تُشبها عبقريّة أخرىٰ ولا خبرة! أوّاه يا زمَن الخُذلان! أوّاه كيفَ تركتَ حُثالة الأمم تتحَكّم في أنقى النّاس وأعلاهم درجةً في العِلم والفهم والصِّدق! كيفَ جعلتِ الوحوش تتسلّط علىٰ هٰؤلاء الّذين كان أكبرُ همّهم أنْ يُعيدوا الحياة للأجساد المُشفِية على الموت، أن زرعوا الأمل في الإنسان اليائس الّذي ملأتْه الحروب بالنّكبات والكدمات النّفسيّة والآلام الّتي لا تُرىٰ ولٰكنّها لا تنتهي!



(٤٤) وداعًا يا أمّي!

(زكريّا) غادَرَنا منذُ أسبوعٍ تقريبًا. لم يطبْ له المقام، تغيّر هو الآخَر كثيرًا. كيفَ يُمكن أنْ تُهرِمَ الحرب أطفالاً لم يبلغوا الحُلُم، لم أدرِ ماذا كان يريد؟ وفي أيّ موقعٍ سيستقرّ به المقام في هٰذه الحرب الّتي جعلتْ بعضَنا ينزحُ حتّى الآن أكثر من ستٍّ مرّات. في كلّ مرةٍ يتشكّل الوجع أكبر من الوجع السّابق، وتُرهَف سكّين الذّكريات بشكلٍ أشدّ فتوجع أكثر، ويزداد مع كلّ نزوحٍ الفقد والحرمان فتتعملق المأساة. إنّ بعضَنا بعدَ مرور ما يقربُ من خمسةِ أشهرٍ علىٰ بدء الحرب لا يعرفُ إنّ كانتْ عائلته ما تزال حَيّة أمْ لا؟ وما إذا كانوا قد ماتوا جميعًا أو ماتَ جزءٌ منهم، وأولئك الّذين لم يُعرَفوا في الأحياء ولا الأموات، أهم تحتَ الأنقاض؟ أما زالتْ هناكَ فرصةٌ ولو ضيئلةٌ لإخراجهم من تحتها، وإذا كانوا قد ماتوا فكم يومًا ظلّوا يُعانون وينزفون حتّىٰ لحظتهم الأخيرة؟ ومَنْ كان يقدر أنْ يتخيّل مدى الوجع والألم والخوف الّذي كانوا يُعانونه مع كلّ ثانيةٍ تمرّ عليهم.

إذًا زكريّا لم يعدْ هنا. كان يُمكن أنْ يظلّ معنا. كنتُ أريدُ له أنْ يظلّ معنا، ولٰكنّه فقدَ كلّ مَنْ يُمكن أنْ يكون له به صِلةٌ من أبٍ وأمّ وأخوةٍ وأخواتٍ وعمّات وأعمام، كان يقول: لسْتُ مُتأكّدًا من أنّ كلّ إخوتي قد ماتوا، ولٰكنّني لستُ متأكّدًا كذٰلك من أنّ واحِدًا، واحِدًا على الأقلّ ما زال حَيًّا. إنّني أُمنّي نفسي بذٰلك، أحلمُ بأنّني في يومٍ ما في مكانٍ ما في لحظةٍ ما سأرىٰ وجه أخي الأكبر، وسيُقبِلُ عَلَيّ هٰكذا من دون أنْ أعرفَ

كيفَ فيحتضنني كما كان يفعل حينَ كنتُ أعودُ من المدرسة وأنا في الابتِدائيّة.

لم يقلْ (زكريّا) حينَ غادرَ إلىٰ أيّ مكانٍ سيمضي. ولم يُجِبْ حينَ سألتُه عن ذٰلك، أغلبُ الظّنّ ومن معرفتي القصيرة به الّتي جعلتْني أفهم رُوحَه أنّه سيمضي إلىٰ إحدىٰ مستشفيات الجنوب، ربّما إلىٰ مستشفىٰ شهداء الأقصىٰ في دير البلح، أو مستشفىٰ دار السّلام أو مستشفىٰ ناصر الطّبّي في خان يونس، أو مستشفى الشّهيد (أبو يوسف النّجّار) في رفح. أعرفُ ذٰلك أو أشعر به؛ لأنّني مثله، سنغادر أنا و(سلام) عمّا قريب مستشفى الصّداقة ونتوجّه إلىٰ مستشفيات الجنوب. لم يكنْ ذٰلك ليحدُث لو لا أنّ المرضى الّذين هنا لا يحتاجون إلىٰ مُتطوّعين، أعني من تبقّىٰ منهم، ومَنْ ظلّ يجدُ حتّىٰ هٰذه اللّحظةِ سريرًا ينامُ فوقه، إذْ رحلَ عددٌ منهم هم وأَسِرَّتهم جرّاء قصفِ أجزاءٍ من المستشفىٰ، هٰذا إلىٰ أنّ طبيعة مرض السّرطان يُمكن أنْ يُعنَىٰ بمُصابيه عددٌ أقلّ من الطّاقم الطّبّيّ.

تذكّرتُ عندما أُغلِقَ مستشفى الطّبّ النّفسيّ كيفَ ساحَ المرضىٰ النّفسيّون في الشّوارع، أمر الاحتِلال بإغلاقه بعدَ أنْ دمّر أكثرَ من نصفه. جمَعَ الله على المرضىٰ مُصيبتَين الأولى الموت بالقذائف المُباشرة ثُمّ الموت في الشّوارع بلا رعاية. كانوا كُتلةً بشريّة من الوجع تتحوّل من مكانٍ إلىٰ مكان، لا يتعرّفون إلىٰ ذويهم، وذووهم إمّا مفقودون هم الآخرون أو لا يستطيعون العثور عليهم في ظروف الحرب القاهرة.

كان بعضُهم قد فقدَ النُّطق بشكلٍ تامّ مع أنّه كان أخطبَ من سحبان أيّام صِحّته، تُحدّثه فلا يستجيب، تسألُه فلا يُجيب، وتراه ينظر إليك ولا يراك، كان لِسانُه قد حبَسَتْه الأهوال الّتي عاناها.

بعضُهم كان يسير في الشّارع وهو يرتجفُ من الخوف والهلع، ولربّما كان الشّارع خاليًا، ولكنّه كان يضمّ ذراعَيه على جذعه ويتلفّت حوله مذعورًا كأنّ أحدًا يُلاحقه ويُهدّده مع أنّه لا أحدَ في الشّارع سِواه، كانتْ عقولهم تُهَيِّئ لهم أنْ يروا ما ليس موجودًا، وأنْ يتصّوروا أشياء لا واقعَ لها. كانوا من قبل الحرب يُعانون المرارة والوساوس والذّهان، فلمّا ألقتْ بهم الحربُ إلى الشّارع ازدادتْ مُعاناتهم أضعافًا مُضاعَفة.

يتلفّتون في كلّ ناحية، ويصرخون فجأةً دون أيّ سبب، سِوى ما يتشكّل في جماجمهم فيتصوّرون جيوشًا من الوحوش تهجم عليهم، فيركضون إلى لا جهة، ويحتمون بالهواء ظانّين أنّهم يحتمون بأسوارٍ عالية. تنفردُ بهم ذكرياتُهم وما انطبع في أدمغتهم من الصّور القديمة فإذا نهضتْ ورأوها في مِخيالهم تكوّروا على أنفسهم وبدؤوا نوبةً من البُكاء الجماعيّ الّذي لا تفسير له. إذا ساروا خانتْهم قُواهم لأنّ العقل تخلّى عنها، فتراهم يترنّحون ويسقطون، ولربّما تناول أحدُهم من الأرضِ أداةً من حديدٍ فجرَّفَ بها رأسه، ورأى الدّم يسيل على وجهه ويُغطّي عينَيه فارتاع أوّل الأمر، ثُمّ إذا لَعِقَه دخل في نوبة ضَحِكٍ هستيريّة.

لقد عانَى ذووهم الّذين استطاعوا أنْ يعثروا عليهم في الشّوارع أكثرَ منهم. فهؤلاء المرضى ربّما ارتاحوا من التّفكير بالمعاناة لأنّهم لا يملكون تلك القُدرة على التّفكير والإحساس بها، وإنْ كانوا يُعانون دون أنْ يعرفوا معنى المعاناة، ولكنّ مأساة أهاليهم كانتْ مُركَّبة. ولقد رأيتُ أحدَهم وأنا أعرفُه من قديمٍ بطيب الأخلاق ورِفعة القدر جاءَ إلى المستشفى يطلب دواء (اللّبوبنكس)، فلمّا تأخّر عليه الطّبيب أو أرادَ أنْ

يتحقّق من هويّة المريض الّذي سيأخذ له الدّواء، استلّ من جيبه سِكّينا كبيرةً ورفعها في وجه الطّبيب الّذي تفاجأ بالأمر، وراح يصرخ: «أختي يا عالَم ... أختي تريدُ أنْ تقتل طفلتي الصّغيرة... يا عالَم يا ظالِم... أريدُ الدّواء الآن». ثُمّ انخرطَ بالبُكاء الشّديد!

الشّيخ (نبهان) ظلّ يطوفُ على المرضىٰ، كأنّ الله بعثَه من أجل ترميم الجروح الّتي لا تنفعُ معها الأدوية. كان الموتُ الجاثِمُ علىٰ غزّة، والّذي ينهشُ أرواحنا في كلّ لحظةٍ قد حَوّله إلىٰ رجلٍ عجيب. إذا احتاج الأمر إلىٰ حفر القبور فستجده حَفّارًا ماهِرًا، وإذًا احتاج إلىٰ تغسيلٍ أو تكفينٍ أو صلاةٍ فإنّه يؤمّ المُودّعين من ذوي الرّاحل في كلّ مكان. ويرافق الجنائز إلىٰ مثواها الأخير، وتراه أكثر ما تراه ساهِمًا، كأنّما يرى الموتَ رجلاً أو شبحًا يسير بيننا، وحدَه - لكثرة ما عايَنَ اللّحظات الأخيرة في حياة الرّاحلين - كان يُمكن أنْ يرى الموتَ أو يشعر بوجوده، أو يسمعَ حفيفَ قدمَيه إذا أقبلَ أو غادر. وكان يُمكن أنْ يُحادثه كأنّه صديق، أو يهمِس في أذنيه: «لقد رحلْتَ بأطفالٍ كثيرين مُبكّرًا! ألم يكنْ مُمكِنًا أنْ تتركهم يعيشون أطول ليروا حياةً أفضل من هٰذه». فيعتذر، وترىٰ في صوته بَحّة الحنان: «مَنْ قال لك إنّهم لو عاشوا سيرون حياةً خيرًا من هٰذه؟! ثُمّ لو كان الأمر بيدي لفعلتُ، ولٰكنّ الأمر كلّه لله».

سألتُه ما أعجبَ ما رأيتَ في علاقتِك الطّويلة بالموتىٰ؟ قال: «كنتُ أَتبعُ امراةً تهرول إلىٰ ثلاّجة الموتىٰ تريدُ أنْ ترى ابنَها الشّهيد، سُحِبَت جُثّته على المحفّة، فأقبلتْ عليه تُقبّله، ثُمّ أخذتْ وجهه بين يدَيها تُحدّثه، فرأيتُه قد فتَحَ عينَيه وابتَسمَ لها. نعم ابتسمَ لها حتّىٰ قَرّ قلبُها. وشعرَتْ بأنّ هٰذه الابتِسامة كانتْ كافِية ليقول لها: وداعًا يا أمّي الحبيبة،

الملتقىٰ على الحوض. ورأتْ هي ذٰلك كافِيًا، فهتفتْ: الله يرضىٰ عليك يا ابني، ثُمّ أشارتْ إليه مُودِّعةً وخرجتْ وعلائم البشر والسّكينة والرّضىٰ تملأ وجهها». صمتَ قليلاً، فأردْتُ أنْ أسأل (نبهان) عن سرّ عينَيه اللّتَين نَظَرتا مُباشرةً إلىٰ عَينَي أمّه، وعن سِرّ هٰذه الابتِسامة، ولٰكنّني خِفْتُ أنْ أجرح هيبةَ المشهد. سألْتُه: «ماذا رأيتَ أيضًا يا نبهان؟». هَزّ رأسه: «رأيتُ أشياء لا تُصَدّق، لولا أنّني اطمأنَنْتُ إلىٰ أنّها في عالَم الغيب مُمكِنةٌ لَمَا صَدَّقْتُها، ولٰكنّني أؤكّد لك أنّني رأيتُها بعينَيّ هاتين». سألتُه: «ماذا رأيتَ يا نبهان؟ قُلْ لي ولا تتردّد فأنتَ عندي مُصَدَّقٌ». ردّ وهو يُغطّي عَينَيه بباطن كَفّه: «كنّا قدْ دَفَنّا مجموعة من الشّهداء بعدَ مجزرةٍ حدثتْ قريبًا من مخيّم النّصيرات، صَلّينا على الشّهداء، ودَفّناهم واحِدًا إلىٰ جَنْبِ أخيه». توقّف قليلاً وضَحِكَ ضحكةً حزينة: «كان هٰذا قبل أنْ نُضطرّ إلىٰ دَفنْ العشرات منهم في قبرٍ واحد». صَمَت صَمْتَ تألُّم، وأردف: «بعدَ أنِ انتهَينا من الدَّفن وسرْتُ، سَمِعْتُ من خلفي صوتًا غريبًا، إنّه صوتٌ قادِمٌ من الأعماق، لا أدري إنْ كان صوتًا بشريًّا بالأساس، نظرتُ خلفي فرأيتُ ترابَ أحدِ القبور يتحرّك، تخيّل يا فرج، إنّني أُقسِمُ لك، كان تُرابُ القبر يتحرّك ويتهاوىٰ من أعلىٰ قُبّته، ثُمّ رأيْتُ شيئًا يخرجُ من القبر، تجمّدَ الدّم في عروقي، تخيّلْتُ للحظةٍ أنّ يدَ الشّهيد سوفَ تخرج من باطن الأرض، وبقيتُ مُتسمّرًا مكاني وعيناي مُعلّقتَان بذٰلك القبر، بدأتْ وردةٌ تخرجُ من هناك، نعم وردةٌ حمراء ومَع أنّها خرجتْ من القبر إلاّ أنّه لم يكنْ عليها ذرّة ترابٍ واحدة، كانتْ حمراءَ قانِية كأنّما استعارتْ من دمِ الشّهيد لونَها، ثُمّ انتشرتْ رائحتها الشّذيّة في الأجواء. بقيتُ مشدوهًا

لفترة، قبل أنْ أحوّل جذعي عن المشهد الغريب، وأُعطي القبر ظهري، وأنسحبُ بهدوء كأنّني لا أحتملُ أنْ أرىٰ مزيدًا من العجائب. ومضيت!».

بدأنا أنا و(سلام) نُفكّر بالرّحيل من جديدٍ إلى الجنوب القَصِيّ من أجل البحثِ عن الحياة الهاربة، في بطنِ (سلام) ابنُنا القادم. إنّه ابنُ الحرب. أبناءُ الحرب أبناءُ المُعجِزات. آه يا بُنَيّ، لقد جِئتَ علىٰ عَطَشٍ، وليتَكَ لم تأتِ في زمن الحرب، ماذا سأقول لكَ حينَ تُولَد؟ أأقول إنّني مثلكُ لا أملكُ قدرةً علىٰ أنْ أجدَ شيئًا آكُلُه؟ أنتَ الّذي انتظرْتُكَ طويلاً هل ستتفتّح عيناك علىٰ وجه أبيكَ الشّاحب وعلىٰ ترقوته الّتي تبرز عظامُها حتّىٰ تكاد تنفر من تحتِ جلده الرّقيق؟! هل ستعرفُ لأمّكَ معاناتها من أجل أنْ تأتي سليمًا، هل ستقرأ في وجهها سُطُورَ الحكاية؟ المأساة الّتي كلّما تقدّم الزّمن ازدادَ عُمقُها، وغاصتْ في أرواحِنا المُتعَبة؟ هل تغفر لنا أنّنا لم نوفّر لكَ أبسطَ حقوقِكَ الّتي يتمتّع بها أيُّ طفلٍ في هٰذا العالَم؟! غيرَ أنّ العالَم صارَ أكثرَ من عالَمٍ يا بُنَيّ، لهم عالَمُهم الّذي يتشدّق بحقوق الأطفال ويصرخ بها صباحَ مساءَ، ولٰكنّه يُغطّي عينَيه عن حقوقِكَ في عالَمنا الظّالم، عالَمِنا الّذي لن تجدَ فيه مهدًا لنهزّك فيه، ولا ملابسَ جديدةً لنستر بها جسدَكَ الرّقيق، ولا صدرَ أُمٍّ حَنونٍ لِتُرضِعك؟ أيّ حليبٍ سترضع يا بُنَيّ حينَ تجيء، وحليبُنا صار دمًا، واختلطَ بالقهر والبُؤس، وحليبُنا لوَّثَتْه أغبرة الدّمار، وحليبُنا شابَه رمادُ النّيران؟! أيّ حليبٍ في عالَمٍ يقطعُ عنك أدنىٰ سُبُل المعيشة ويتفاخَر بخَنْقِ أنفاسِك؟!

لٰكنّكَ ستُولَد بإذن الله رغم هٰذا الحقائق المُفجِعة كُلِّها. وستكبر بين هٰذه الخيام المُبعثرة الّتي لا تقي من حَرٍّ ولا تدفعُ بردًا،

وستكون مثلَ وردةٍ نبتَتْ بين شقوق الإسمنت والحديد، فأينعتْ بماء الكرامة والصّمود، وسيكبرُ أطفال غزّة مثلك، وسيكون لهم شأنٌ عظيمٌ يتحدّث عنه القاصي والدّاني، وحينَ يكبرُ الهِلال رغم الجوع والحصار ويصير بدرًا سيضيء الدّروب المُظلِمة للفاتِحين، ولكنّه سيكون نارًا مُحرِقَةً تُصَبّ فوقَ رؤوس الغاصِبين، وستأكل النّار كيانهم شيئًا فشيئًا حتّى يخرّ من عليائِه وسيصير رمادًا كما يفعلون بنا اليوم، وإنّ الأيّام يا حبيبي دُوَل!



(٤٥) ثكنة عسكريّة

في ليلةٍ غادرتْها النّجوم، ولم يعدْ لها دورٌ في أنْ تُرصِّعَ السّماء خجلاً من أنْ تُضيءَ وجه العالَم القبيح، كان الاحتِلال قد احتلّ مستشفىٰ الصّداقة، وحوّله إلىٰ ثُكنةٍ عسكريّة. السّبب الّذي يقولونه دائِمًا: المستشفىٰ يضمّ مخرّبين. من أوّل مستشفىٰ عملْتُ فيه وأنا أسمع هٰذه الجملة، ويتدرّع بها الاحتِلال دائِمًا ليهدمَ المستشفىٰ علىٰ رؤوسنا.

بدأتْ عمليّات قصف المستشفىٰ منذُ شهورٍ طويلة، في أوائل نوفمبر الماضي كانوا قد أرسلوا لنا طائرةً، ضربتْ صاروخَين، هدَمتْ أجزاء كبيرة من المستشفىٰ وقتلتْ مرضى السّرطان علىٰ أسرّتهم. نزحَ من المستشفىٰ ثلاثة آلاف مريضٍ بالسّرطان منذُ الاستِهداف الأوّل، لا يُمكن أنْ تتخيّل كيفَ يسير ثلاثة آلاف مريضٍ عاجزٍ في الشّوارع بلا غاية، وبلا سقف يحميهم، كان بعضُهم ينزف، لم يرحم الاحتِلال صغيرًا ولا كبيرًا، المُسنّون الّذين أكلَ السّرطان دِماءَهم في عروقهم أكمل الاحتِلال شُربَ دمائِهم من خلال هٰذا القصف.

كان الهلع بادِيًا على الوجوه، ركضْنا بالمِئات أوّل ما سمعْنا القصف، لم أخرجْ من البوّابة الرّئيسة، توقّعتُ أنْ تكونَ أوّل أهداف الجيش في قصفِه للمستشفىٰ، استدرْت وخرجْتُ من بابٍ خلفيّ، في اللّحظة الّتي فتحتُ فيها الباب وخرجْتُ رأيتُ الدّمار يُقابلني تمامًا، كانتِ السّاحة تحترق، أشجار الصّنوبر تحترق، الحديقة تحترق، والزّاوية الشّماليّة بأكملها قد انهارتْ.

خلال ربع ساعة كان الآلاف من المرضىٰ بلا مأوىٰ. لم يأتِ من أجلهم أحدٌ، لم يكنْ هناك أحدٌ ليأتي، أكثر أبناء مرضى السّرطان استُشهِدوا من قبلُ، وجدَ مرضى السّرطان أنفسهم وحيدين، كانوا ينتظرون الموتَ علىٰ أسرّتهم، فأخرجهم القصفُ إلى الموتِ في الشّوارع، عدا مَنْ لم يقدرْ علىٰ أنْ يمشي خُطوةً واحدةً، شَقّ ثِيابَه، وفتَحَ صدره للموت، وقال: أهلاً ومرحبًا.

تمرْكَزَتْ في البداية ثلاثون دبّابة في الجهة الشّماليّة من المُستشفىٰ، أخذتْ كلّ عشر دبّابات جانِبًا من تلك الجهة، كانتْ مدافعها موجّهة إلى المستشفىٰ مُباشرة. كان صوتُ جنازيرها ومُحرّكاتها وتهميرها في اللّيل مُرعِبًا. بعضُ الّذين خرجوا من هٰذه الجهة من المرضىٰ قصفتْهم الفُوهات فتناثروا في الفضاء، تحتَ أقدام هٰذه الدّبّابات الثّلاثين أكثر من مئةِ مريضٍ بالسّرطان شهيدٌ.

عُدْتُ للمستشفىٰ. طلبْنا الإمدادات، وجّهْنا النّداءات إلى الصّليب الأحمر وإلىٰ منظّمة الصّحّة العالَمية من أجل حمايتنا. لم يستجبْ لنداءاتنا أحد. ميثاق الحروب يقضي بألا تُطلَق رصاصةٌ واحدةٌ نحو أيّ سيّارة إسعاف أو مُنشأة صِحّيّة، غير أنّ الميثاق لا وجود له في عقل هٰذا الجيش الهمجيّ المتوحّش.

تحصَّنْتُ في المستشفىٰ، لا أريدُ الخروج منه، تابَعْتُ أنا و(سلام) عَمَلَنا والحُزن يقطر من أرواحنا، كانت الدّبّابات يحلو لها أنْ تصدح في اللّيل، لم ندرِ إنْ كانوا يقصفون جهةً ما، أم أنّ هٰذا القصف كان من أجل إدخال الرُّعب إلىٰ صدرونا؟! بعدَ فترةٍ لا تقلّ عن أسبوعَين، تمركزتْ ثلاث مجموعات أخرىٰ من الدّبّابات في الجهة الجنوبيّة، كنتُ لا أزال في المستشفىٰ، وكان لا يزال حوالي خمسة آلاف مريضٍ يُقيمون فيه،

وهم يعلمون أنّه لا فائدة من طول الإقامة إذا كان العدوّ قد احتلّ الجهة الشّماليّة ومنع أنْ يدخل الدّواء من هناك، وها هو يحتلّ الجهة الجنوبيّة ويُضيّق الحِصار أكثر فأكثر، نعم كانوا يعرفون أنّهم لن يتلقّوا العِلاج هنا حتّىٰ ولو بَقُوا فيه، لٰكنّه لم يكنْ لديهم خيارٌ آخَر، إمّا أنْ يموتوا في الشّوارع، وإمّا أنْ يموتوا داخل المستشفىٰ، فاختاروا أنْ يموتوا داخِلَه فهو أسهل المِيتَتَين، لقد كُنّا بالفِعل نعيشُ بينَ خيارَين، إمّا الموت وإمّا الموت، الحياة ليستْ خيارًا، نحنُ فقط نملك أنْ نختار طريقة الموت الّتي سترحل بنا من هٰذه الأرض!

في الجهة الجنوبيّة كان عددُ الدّبّابات ستّين دبّابة، وكانوا قد بدؤوا بإقامة سواتر ترابيّة في تلك الجهة تُغطّي الجهة الجنوبيّة الشّرقيّة، وتَخَنْدَق خلفَها عشراتُ القنّاصة الّذين كانوا يُصوّبون علينا رشّاشاتهم طَوال الوقت، ولا أدري مدى الخُطورة الّتي كان يُشكّلها مرضىٰ السّرطان ليقوموا بهٰذا كلّه!!

ليسَ ذٰلك كلّ شيءٍ، في الجهة الغربيّة استدعوا عددًا آخر من الدّبّابات، وبعدَ يومَين فُوجِئنا بأحد الضُّبّاط الّذين يتكلّمون العربيّة يطلب منّا أنْ نغادر المستشفىٰ، وأعطَونا مُدّة يومَين فقط للإخلاء.

كيفَ سيخرجُ خمسةُ آلاف مريضٍ في غضون يومَين؟ أين سيذهبون؟ لا بيوتهم بقيتْ قائمة، لقد سَوّاها الاحتِلال بالأرض، ولا أهلُهم بقوا أحياءً، لقد قُتِلَ وفُقِدَ الباقون، ومَنْ ظلّ حَيًّا نَزَح إلىٰ دير البلح أو إلىٰ رفح، أو إلىٰ أيّ مكانٍ في الجنوب. أو فَضَّلَ أنْ ينزوي في خَرابةٍ ويموت في صمت!

لم نعرفْ ما نفعل. عددٌ من المرضىٰ جاءَه مَنْ عرفَ مِن أهله، وهٰذا

كان أكثرنا حَظًّا. وعددٌ استجابَ لنداء الإخلاء فَخَرَجَ وحده يجرّ رِجلَيه وعُمرُه يحني ظَهرَه، وهامَ علىٰ وجهه في الأرض، ولا ندري ما حصلَ معه من بعدُ. وعددٌ فَضّل أنْ يبقىٰ، وهمسَ لنفسِه: «إذا كان الموتُ مُحتّمًا، فلْيكنْ هنا».

بعدَ يومٍ آخر من الإنذار، في الصّباح الباكر، وقبل أنْ تُرسِلَ الشّمسُ أولىٰ خُيوطِها إلى الأرض الثّكلىٰ، تجَمّع أكثرُ من ثلاثمئة ضابطٍ وجُنديّ في ساحة المستشفىٰ، خَطَوا بخطواتٍ عسكريّة، كانوا ينتعلون البساطير، ويعتمرون الخُوذ، ويحملون علىٰ أكتافهم رشّاشاتهم، وكان قائِدهم يصيحُ بهم مُغضَبًا، رفعوا العَلَم اليهوديّ، وأنشدوا (هَتِكْفاه)، ثُمّ أشار القائدُ بيدَيه إليهم فأخلوا السّاحة في أقلّ من خمس دقائق، وفي أقلّ من خمس دقائق أُخرَىٰ كانت مدافع الدّبّابات تُمطرنا بالقذائف، وتُصلينا بالنّيران، مات على الفور المِئات منّا، سحَبْتُ أنا و(سلام) و(نبهان) والممرّضون والأطبّاء ما نستطيع من أسرّة المرضىٰ، وخرجْنا بها من بوّابات المستشفى المتفرّقة، ولم نخرجْ من بابٍ واحدٍ حتّىٰ لا نُستَشهد كلّنا. نَجا نِصفُنا أو أكثر، ورحل نِصْفُنا الآخَر في طرفة عَين.

كُنّا ما نزال نسمع صوتَ القذائف خلفنا، ونُحِسّ بلهيب النّيران الّتي شَبّت بالمُستشفىٰ تُحرِقُ ظهورنا، وكانتْ أصواتُ المُحترقين والجرحىٰ تصكُّ مسامعنا، ولم نستوعبْ تمامًا ما الّذي حدث، لماذا غدروا بنا، لماذا قصفونا قبل انتهاء المُدّة؟! لماذا هٰذه الوحشيّة؟! ما الخطر الّذي يُمكن أنْ يُشكّله مرضى السّرطان؟! بقينا نجري إلىٰ أنْ شعرْنا ببعضِ الأمان، وإنْ لم يكنْ في غزّة كلّها أمان. كانتِ أسرّة المرضىٰ قد شَكّلتْ لوحةً يبكي لها قلبُ الحجر، انقلبَ بعضُها بسبب الانفجار، اصطدمَ عددٌ منها بالجدران وبالرّدم ولم يقدرْ صاحبُ السّرير أنْ يفعل شيئًا، بعضُها

احترق، من استطاع من المرضىٰ أنْ يجري علىٰ قدميه جَرَىٰ، مَنْ لم يقدر وبقي في المُستشفَى التهَمَتْه النّيران وهو حَيّ، واختنق تحتَ الرّدم وهو ينتظر، لا يُمكن أنْ تشعر بعذاباتهم فوقَ عذابات السّرطان، كانوا ينظرون إلى الموت في النّفق المُظلِم ويستجدونه أنْ يهجم عليه فيقضم تُفّاحة أرواحهم دُفعةً واحدة.

المرضى الّذين كانوا يجلسون على الكراسي المتحرّكة، لم يُسيطروا علىٰ حركتها، عددٌ منهم كانَ فوقَها وهو غائِبٌ عن الوعي بسبب تأخّر الجرعة أو بسبب نقصٍ حادّ في ضغطه، وكان الكرسي يلعبُ به، يتقاذفُه في كلّ اتّجاه.

أمّا المرضى الّذين نَجَوا وخرجوا علىٰ أسرّتهم فقد شكّلوا بالنّسبة لنا مُعضلةً كُبرىٰ، لقد أصبحْنا معهم في العَراء، ولا ندري كيفَ يُمكن أنْ نحميهم. فكّرْنا بأنّ نذهبَ بهم إلىٰ مستشفيات قريبة فلم نعرف، أو نضعهم في مراكز صحّيّة فلم نجدْ مركزًا قادِرًا على استقبالهم إضافةً إلىٰ أنّ أكثر هٰذه المراكز مُسِحَ عن الأرض. فكّرْنا في أنْ نبعثَ بهم إلىٰ أقربِ مراكز إيواء، كان هٰذا الحلّ يبدو الأقلّ ضررًا في الخيارات الموجودة، ولٰكنّه تأجيلٌ للموت، إذ إنّ مراكز الإيواء لا يستطيعُ أهلُها رعايةَ ذويهم علىٰ أنْ يتمكّنوا من رعايةِ قادمين جُدُد، يحتاجون إلىٰ رعايةٍ خاصّة، فهم مرضىٰ، وليسَ أيّ مرض، إنّه السّرطان!

قِسْمٌ من هٰؤلاء طلبَ منّا أنْ نتركه لِقَدَرِه في هٰذه الشّوارع المُدمّرة، قال لي أحدُهم: «فقط أَدْخِلْني إلىٰ قاع بنايةٍ مدمّرة أتّقي بها البردَ والمطر واتْرُكْني هناك، سأتدبّر أمري، لا تقلق!». قسمٌ آخَر طلبَ أنْ ينزحَ معنا إلى الجنوب.

وهٰكذا تحوّل المستشفى الوحيد الّذي يرعىٰ مرضى السّرطان في غزّة إلىٰ ثكنةٍ عسكريّة. مُلَغّم، مُلَقّم، محفوف بالخنادق وأكياس الرّمل الّتي تختبئ خلفَها بنادق الموت. وتمنَّيْتُ أنْ يخرجَ لهم المُقاوِمون من تحتِ الأرض، من تحتِ دبّاباتهم فيُفجّروها ويُحوّلوها إلىٰ كُتلٍ من الحديد المنصهر، وأنْ يحترقَ داخلها كلّ مَنْ قامَ بإحراقنا وقَتْلِنا وتشريدنا وتهجيرنا، واضطرارنا إلى النّزوح مرّة بعدَ مرّة.

لم يكنْ تدبُّر أمر النّزوح باتّجاه الجنوبِ سهلاً. بِتْنا تلك اللّيلة في العراء بعدَ أنْ مشينا أكثر من ساعتَين، ثُمّ استطاع بعضُنا أنْ يجدَ كارّة ويستأجرها، وبعضُنا وجدَ سيّاراتٍ قديمة فاستأجروها، وكانتِ الطّريق الّتي نسير بها عبر شارع صلاح الدّين ملأىٰ بالنّازِحين الجُدُد.

تمكّنّا أنا و(سلام) و(نبهان) وعددٌ من الأطبّاء والمُمرّضين والمرضىٰ والنّاس وبعضِ أهل المنطقة مِمّن لم ينزحْ من قبل أنْ نستأجر شاحنةً، تمضي بنا إلىٰ (رَفَح)، كانت الشّاحنة مُعَدَّة فيما مضىٰ لنقل جوالات الطّحين، ولذٰلك لا يزال البَياضُ من أثر الطّحين في قاعها باقِيًا، اليوم لا قمحَ ولا طحين، فقط عظامُنا هي الّتي تُطحَن. وكانت غير مهيّأة لأنْ تنقل بشرًا، ولٰكنّ الحرب غيّرتْ كلّ شيءٍ، وصنعتْ مفاهيمها الخاصّة، وأوجدتْ أساليب لم تكنْ ممكنةً فيما مضىٰ للتّعامل مع كلّ أمرٍ طارِئ. كانت الشّاحنة عالية الجوانب، وهٰذا الفضاء العالي كان يُمكن الاستِفادة منه بركوبِ عددٍ أكبر من النّازحين، ولكنّنا مع ذٰلك انحشرْنا في بطنها انحِشارًا، همَسَ أحدُ المرضىٰ في أذني: «إنّ منظر الشّاحنة وحجمها سيكونُ لافتًا للعدوّ؟ من سيسمح لشاحنةٍ مثل هٰذه أنْ تعبر؟ هل تعتقدُ أنّ هيئتها وعددَنا سيكون ذٰلك سببًا في إيقافنا؟ ألم يكنْ من الأفضل لو استأجرْنا كارّة؟! أجبْتُه: «صحيح، ولٰكنْ هل لديكَ كارّة؟!».

(٤٦) سفينة «أبي العبد»!

قال لنا صاحب الشّاحنة: «عليكم أنْ تُساعِدوني في أنْ نبني طابقًا آخر في الوسط». كان هٰذا في زمن الرّخاء صعبًا، وهو يبدو في وقتِنا هٰذا مستحيلاً، فلا وقتَ ولا وسيلة! نظرَ في عيون بعضِ الشّباب: «أنتم عليكم أنْ تفعلوها معي». أقرّ له بذٰلك ستّة من الشّباب الّذين لم يبلغوا العشرين. بحثوا في الأرض عن مواسير حديديّة، جمعوا من الأردام خلال عشر دقائق أكثر من أربعين ماسورة، قفز أحدُهم على الجانب الأيمن من الشّاحنة والثّاني على الجانب الأيسر، وتحتهما في البطن ثالثٌ كان يناولهم الماسورة: «خُذْ» يأخذها الأيمن يمدّها نحو الأيسر، يهتفان: «زابطة». يتناول ثانية: «خُذْ هٰذه». يُجرّبها الشّابّان: «لا إنّها قصيرة، لا تنفع، نريدُ واحدةً أطول تصل بين طرفي الشّاحنة ويجب أنْ تزيد قليلاً. تعرف لماذا». من أربعين ماسورةً اختبرها الشّباب، وجدوا ستّ عشرةَ صالحة، هتف بهم السّائق: «تكفي لكي تحمل النّاس في الطّبقة الثّانية». زَمّ بعضُ الشّباب شفاههم: «ممكن». قال بعضُهم: «لا، يُفترضَ أنّ نزيدها قليلاً». قال آخر: «أعتقد أنّها كافية». لامَه الّذي إلىٰ جانبه: «لن تحمل كلّ هٰؤلاء. يا رجل انظر، إنّها لن تحمل النّاس فقط، بل ستحمل حقائبهم وفرشاتهم وأدواتهم وجرّات الغاز، والأفران الصّغيرة، وحتّى الأحذية». ضحك أحدُهم: «أين الأحذية؟». حسمَ سائق الشّاحنة الجِدال: «الوقتُ يُداهمنا، يجب أنْ نُتِمّ الأمر». «ما الّذي تريدُه

يا أبو العبد؟». سأل أحدُ الشّباب سائق الشّاحنة. ردّ أبو العبد: «محفّات».
أرجعَ بعض الشّباب أعناقهم إلى الوراء مُستفهمين، بعضُهم ضَيّقَ عينه، وآخرون نظروا نظرات بلهاء، وقال غير واحد: «محفّات؟ ماذا تعني».
«يا هُبُل. خشب. يعني كم بَسْطة خشب نحطّها علىٰ مواسير الحديد».
«لٰكنّ أين نجدُ ذٰلك؟!». «الدّمار فيه كلّ شيء» ردّ أبو العبد. وانتشر الشّباب في أردام البنايات يبحثون عن محفّات، عن قِطَع خشب تكون كبيرة، وفيما كانوا يفعلون ذٰلك، كان أبو العبد مع اثنين آخرَين يلتقطان من الأرض بعض أسلاك التّربيط ذات الخمسة مِلّي. وبعدَ ربع ساعة بدأ العمل الأهمّ، راحوا يمدّون قطِع الخشب، كان على القطع أنْ تكون طويلة بحيثُ تصل بين طرفَي الشّاحنة أمّا عرضُها فليسَ مهمًّا كثيرًا، المهمّ أنْ يرتكز هٰذا العرض علىٰ إحدى المواسير الّتي يُباعد بين كلّ ماسورة وأخرىٰ متر أو أكثر قليلاً. «خُذْ». «لا، أريدُ واحدةً أعرض قليلاً».
«خُذْ. هٰذه تصلح؟». «ممتازة». «اربط المحفّات مع المواسير بأسلاك التّربيط جيّدًا» يهتف أبو العبد بأحد الشّباب. «لا تقلق» يردّ شابٌّ يتعلّق كالقرد بإحدى المواسير، أهمسُ في أعماقي: «أين موضع لا تقلق في كلّ هٰذا الفضاء الّذي يرشح بألفِ قلق؟!». بعدَ ساعتَين من العمل المُضني صارت الشّاحنةُ تتكوّن من طابِقَين. نَظّم أبو العبد العمليّة: في الطّابق الثّاني تصعدُ أغراضكم الخفيفة الحمل، الفرشات، الثّياب، المواعين، جوالات الأغراض الشّخصيّة، ومع كلّ مجموعة شخصٌ واحد، يعني ما بِدّي أكثر من عشرين شخصًا فوق مع الأغراض». بدأ الشّباب يحملون الأغراض، ويُناولونها للّذين في الأعلىٰ، ترتّبتِ الفرشات:
«أبو العبد هٰذا معه حوالي عشر فرشات، الطّابق ما رح يسع ارتفاعها».

«حُطْها فوق التّندة». ردّ أبو العبد، وأردف: «اربِطْها كويّس مع الحديد». وراحَت الأغراض تسير في خطّ سيرٍ متناغم إلى الأعلىٰ، وحاول الشّباب ترتيبها بشكلٍ يأخذ أقلّ مساحة ممكنة بأكبر عددٍ ممكن منها. وسأل أبو العبد الشّبابَ بعدَ أنْ امتلأ نصف الطّابق العلويّ بالأغراض: «هل المحفّات ثابتة. كيف الوضع؟». ردّ عليه أكثرُ من واحد: «لُوز». وتتابعتِ الأغراض في الصّعود إلىٰ أنْ امتلأ الطّابق بكلّ ما يُمكن أنْ يخطرَ ببالِك. «والآن؟» هتفَ أبو العبد، وأردف: «بس يِطلع شخص واحد مع كلّ مجموعة أغراض تخصّ أهله». وبدأ النّاس يصعدون الطّابق الثّاني، كان التّرقّب بادِيًا علىٰ وجه (أبو العبد) وهو يُدقّق النّظر في الفواصل وفي المواسير وفي أسلاك التّربيط. صعدَ عشرةٌ، قال أبو العبد: «بكفّي». ردّ عددٌ آخَر: «أغراضنا فوق». «كيف؟». «الطّابق يتّسع يا أبو العبد». «طيّب». وصعد عشرةٌ آخرون، واختبأ عددٌ منهم في غفلةٍ من أبو العبد بين ثنايا الفرشات أو خلفَ الجوالات، وحمل الطّابق العلويّ أكثر من ثلاثين. صرخَ أبو العبد صرخةً بدا أنّه يريدُها أنْ تكون الأخيرة: «كلّ شيء تمام؟». جاءه صوتُ المرح: «لوز... لوز يا أبو العبد».

في الطّابق الأرضيّ الأصليّ من بطن الشّاحنة، صعدَ الغرباء. أعني الّذين كانتْ لهم طِباعٌ غريبة، أعني أنّ الحرب صَيّرَتْها غريبة، فلقد كانتْ وقتَ السِّلم أكثرَ من عاديّة. صعدَ شابٌ وهو يضمّ إلىٰ صدره قِطّة ويمسح علىٰ رأسِها، وينظر إليها بحنان، راقَبَه أبو العبد وفي نفسِه أنْ يقول له: «دَعْ قطّتكَ واصعد. القطّة ستتدبّر أمرها». وكأنّ الشّابّ سَمِعَ صوتَه الدّاخليّ، فهتف: «إنّها لا تستطيع تدبُّرَ أمرها. مسكينة قِطّتي الحبيبة. لو تركتُها هنا ستموت من الجوع». تذكّرْتُ قطّتي (جوري)،

هي الأخرىٰ ماتت، لكنّها لم تمتْ من الجوع، بل ماتت من الحُزن، القطط تحزن مثل البشر، وتبكي كذٰلك، وينفطر فؤادُها علىٰ رحيل صاحبها. رُحتُ أمسحُ مثلَه علىٰ فرو قِطّته الرّماديّ المَشُوب بالبَياض، وأهمس في أذنه: «اصعدْ، لا يهزّك أبو العبد ونَظَراتُه، وحافِظ علىٰ قطّتك، فربّما لن تجدَ صديقًا سِواها». وصعدَ وهو يبتسم، أمّا أبو العبد فراح يرمقني بنظرات عتابٍ وتحذير.

صعدتْ امرأتان حُبلَيَان إلىٰ سفينة أبي العبد. يا الله. لقد رأيتُ نساءً حوامل في الحرب بقدرِ ما رأيتُ من الشّهداء. هل هو سِباق تعويض؟! يموتُ طفلٌ شهيدٌ، ويخلُفُه طفلٌ وليد؟! إنّ معركة النّساء أشدّ ضراوةً من معركة الرّجال في زمن حربنا اللّعينة هٰذه. لا أدري إنْ كان هٰذا يدور في خاطرهنّ؛ إنّ عليهنّ أنْ يُنجِبْنَ بأكثر ما يستطعْن، إنّ أطفالهنّ الجُدُد أقوىٰ سِلاحٍ نُقاتل به عدوّنا الغاشِم، إنّهم قنابل موقوتة، يجري إعدادُها بشكلٍ دقيقٍ للمعركة الكُبرىٰ. نظرتُ إلىٰ بطنِ (سلام) وابتسمْتُ.

صعدَتْ معنا طفلةٌ تحمل قفصًا فيه عصفور، كانَ أخوها يطلبُ منها أنْ تتركه، وهي تنهره: «اسكتْ». نظرَ إليها أبو العبد وإلَيّ وكأنّه يقول: «وهٰذا القفص؟ هل له مكان؟». ربَّتُّ علىٰ كتف أبي العبد: «عليكَ أنْ تتفهّم مشاعر النّاس، وخاصّة هٰؤلاء الّذين فقدوا كلّ شيءٍ، وبقيَ لهم شيءٌ ما علَّقوا عليه أملهم. ضَعْ نفسَك مكانَهم يا أبا العبد». وقلتُ الجملة الأخيرة كأنّني أسترضيه. اقتربْتُ من الطفلة، وسألْتُها: «هٰذا العصفور لك؟». «آه». ولماذا تأخذينه معك؟». «لا أستطيع أنْ أتركه وحيدًا، هو يعرفُ أنّني إذا بقيتُ حَيّة فسيبقىٰ حَيًّا، وإذا متّ سيموت معي». «بعيد الشّرّ يا بنتي. ايش اسمك؟!». «خديجة». «والعصفور هل له اسم؟». «منصور...

منصور صديقي، هٰذه ثالث مرّة أنزح، كلّ مرّة آخذه معي». «كيفَ يأكل؟».
«مثل ما آكل. أصلاً الحبوب الّتي يأكلها هي الّتي نصنع منها الخبز...
نتدبّر أمرنا وربّك كريم. أحيانًا أنا وهو نعيش ثلاثة أيّام على الماء.
يصبر مثلي، هو يحسّ بي، يعرف أنّني عطشانة فلا يقبل أنْ يشرب، وإذا
أكل، فلا نأكل إلاّ معًا!». «أنتِ حنونة يا خديجة». «وهوّا كمان حنون».
كادتْ دمعةٌ تطفر من عيني، أردفْتُ: «أين أبوك وأمّك؟». «استُشهِدوا».
«من متىٰ؟». «من أوّل الحرب». «كيفَ تتدبّرين أمركِ؟» نظرتْ إلىٰ
الواقف بجانبها: «كلّ عائلتي استُشهِدوا، ظلّ أخي عليّ، هو الّذي يأتي
لي بالطّعام». «كيف؟». «يجمع الحطب ويبيعه، ويشتري بثمنه الطّحين».
«هل لديكم خبز؟». «ليسَ دائِمًا... أحيانًا نبقىٰ أسبوعًا دون خُبز».
«فكيفَ تأكلين؟». «قلتُ لك، أخوي عليّ شاطر ويأتي لي ولمنصور
بالطّعام». وأشارتْ إلى العصفور داخل القفص، وأردفتْ: «هو دائِمًا
يفعل ذٰلك». ونظرتْ إلىٰ أخيها، وابتسم أخوها بفخر، وشعرَ أنّه رجلٌ،
وأنّه قادرٌ علىٰ إسعاد أخته، ضممتُهما، وساعَدْتُهما علىٰ صعودِ الشّاحنة:
«أنتما هَيّا، هيّا يا حلوين».

وتتابعَ صعودُ النّاس إلى الشّاحنة. وكان أبو العبد علىٰ بابها يراقب
الدّاخلين إلىٰ شاحنته، ويُبدِي ملاحظاته بين حينٍ وآخَر: «لا نريدُ أن
نلفتَ الانتِباه... أنتَ، يكفي. الشّاحنة لن تتّسع لكلِّ هٰذا...».

«الكلب لن يصعد». هتفَ أبو العبد وهو يُشير إلىٰ شابٍّ في أواسط
العشرينيّات يقودُ كلبًا رماديًّا ذا وجهٍ مُستدقّ أقربَ إلى الذّئب، وقد بدَوَا
ناحِلَين تمامًا. توقّف الشّابّ: «أرجوك». «لا... لا يُمكن... الشّاحنة لا
تتّسع للبشر حتّىٰ تتّسع للكلاب». وأحسّ الشّاب بأنّ في الكلمة إهانةً

له ولكلبه، فَاغتاظ وهَمّ بأنْ يصرخ، لكنّه كظَمَ غيظه، وألانَ صوتَه: «أرجوك، إنّه صديقي منذُ خمس سنوات، لا يُمكن أنْ أتخلّىٰ عنه لمجرّد أنّ إسرائيل أرادتْ لي بهٰذه الحرب أنْ أتخلّىٰ عنه». ومَطّ أبو العبد شفَتَيه وهو يركز يُمناه علىٰ وسطه: «أووف... إسرائيل تريدُ لكَ أنْ تتخلّىٰ عن كلبك، هو كلبك صاير كلب أهل الكهف يعني!!» وألانَ صاحبُ الكلب لهجته مرّة أخرىٰ أمام حِدّة (أبو العبد): «سأُعطيكَ نقودًا زيادة». «الأمر لا يتعلّق بالنّقود». «بِمَ يتعلّق إذًا؟». «بالبشر.. الشّاحنة للبشر وليسَ للحيوانات». «اعتبرْه واحِدًا من البشر، اعتبرْه مثلي، سأدفع لكَ عنه مثلما أدفع عن نفسي». «أنتَ لا تفهم، لن يصعد إلى الشّاحنة. اتركْه هنا لن يموتَ من الجوع، أنتَ الّذي ستموت من الجوع وهو سيتدبّر أمره أفضل مِنّي ومنك». «لن أتخلّىٰ عنه». «لن يصعدَ الشّاحنة». «لماذا تركْتَ صاحب القِطّة وصاحبة العصفور يصعدان إذًا، هل الكلب حيوان والعصفور والقِطّة بشر؟!». ونفخَ أبو العبد طويلاً قبل أن يبحثَ عن جوابٍ مُقنِع للسُّؤال: «إنّهما صغيرا الحجم، ولن يحتلاّ مساحةً من الشّاحنة». «والكلب لن يحتلّ، سيظلّ في حضني، سيلتصق بي، سنشغل أنا وهو مكانًا واحِدًا. هل هٰذا يُرضيك؟». وتدخّلَ (نبهان) بعدَ أنْ سمع صياحهما، واحتضنَ (أبو العبد) ونظرَ في عينَيه ونسيَ نفسَه في حنانهما، وسمعه يقول له: «يا أبو العبد مَشِّيها الله يسعدك». وأشاح أبو العبد برأسِه بعيدًا وزفر، وصعد الشّاب والكلب بعيدًا عن نظره.

كُنّا أكثر من مئة. الكبار والصّغار. المُسنّون والأطفال. النّساء والرّجال. الشّيوخ والوِلدان. الفرشات والمخدّات، الجوالات والأكياس، الأحذية والثّياب، البصل والملح، البهار والفلفل، وأشياء أخرىٰ ومُنَمنَمات لا يعرفُ سِرّها إلاّ الله.

صعدَ معنا طفلٌ رضيعٌ في أحضان أمّه، وصعد شيخٌ يبلغ التّسعين، كان أكثرَنا تفاؤلاً. في الزّاوية الأبعد في بطن الشّاحنة صفَفْنا المرضى الّذين يُمكن أنْ نقوم برعايتهم هناك. كان معنا خمسةٌ يجلسون على كرسيّ مُتحرِّك، عددٌ آخر من مرضى السّرطان حاوَلْنا ما أمكنَ أنْ نوفّر لهم مكانًا مريحًا، كان المكان المريح يعني في هذه الحالة أنْ يجلسَ عشرةٌ منهم مُتلاصِقين لا يحتلّون أكثر من سبعة أمتار من حرف الشّاحنة الأيمن.

عندَ الظّهيرة، وبعدَ أنْ أجهدنا ترتيب الصّاعدين، كان العددُ قد اكتمل، واطمأنّ أبو العبد على أنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام، والتفّ إلى باب السّائق، وصعدَ إلى مقعده، وجلسَ إلى جانبه اثنان من أقربائه و(نبهان)، أمّا أنا فجلسْتُ مع (سلام) في قلب الشّاحنة قريبًا من المرضى لأخدمهم.

وأدار أبو العبد مفتاح السّيّارة، ودار مُحرّكها، وهدرَ صوتُها، فطربْنا لهديره، وانطلقتْ بنا سفينة أبي العبد تمخر عُبابَ الموتِ والدّمار نحو الجنوب القصيّ، ولا ندري أيكونُ الجنوبُ ذابِحًا كما كان الشّمال، أم أنّ في الجنوب بعضَ الأمل، والأملُ لا يغيب عن كلّ ذي قلبٍ حزين!!



(٤٧) وين الملايين؟!

تَهادتِ الشّاحنة، مشتْ بسلام. فرحْنا. الهروب من الموت الشّديد إلىٰ موتٍ لا تدرِي بعدُ شِدّته يمنحك شعورًا خادِعًا بالفرح. نحن راضون، ليخدعنا الفرح ولو قليلاً. مع كل ارتجاجةٍ في الشّاحنة وهي تحاول أنْ تتفادَى الحجارة الكبيرة والحُفَر العميقة كانتْ تتساقط علينا من الطّابق الثّاني بعضُ الأدوات، طنجرة، قلاّية، كيس ملح، وأحيانًا فردةُ حِذاء، وما كان صغيرَ الحجم يُمكن أنْ ينفلتَ من بين شقوق الألواح الخشبيّة!

بعدَ ساعة بدا تهادي السّيّارة في الطّريق المُحفّرة قد خلخلَ تلك الألواح الّتي يُسمّيها أبو العبد المحفّات، صاح شابٌ في الأعلىٰ وهو يَثني جذعه جهة النّافذة حيثُ يجلسُ السّائق مادًّا جِذعه ماطًّا صوتَه: «أبو العبد، لازم نشدّ المرابط». «ماذا تقول؟» لم يسمع من أوّل مرّة: «المحفّات يا أبو العبد بدها شَدّ لنُوكل هَوا». توقّف أبو العبد بعد أنْ فَهِم. قفز غيرُ شابٍّ من الشّاحنة، وأسرعوا في البحث عن أسلاكٍ معدنيّة، وفي أقلّ من عشر دقائق عادتِ الألواح إلىٰ متانتها الأولىٰ، وتابَعْنا السَّير.

كانتْ (سلام) تجلسُ إلىٰ جانبي، لم يكنْ لنا في بطن الشّاحنة من موضعٍ يُمكننا أنْ نتحرّك فيه، فقط صنعنا ممرًّا في وسطها عرضه أقلّ من ثلاثين سنتيمترًا يفصل بين طرفَيها من أجل أنْ نُسهّل عمليّة الانتقال أو الخروج أو الإسعاف لعشرة مرضىٰ بالسّرطان غير الحالات الأخرىٰ، ولم يكنْ هٰذا الممر فارغًا علىٰ طول الشّاحنة، كان ينغلق كلّ مترٍ ببعضِ الأغراض.

ظَلّتْ (سلام) صامتة أكثرَ الوقت، كانت فقط تنظر إلَيّ نَظَراتٍ ساهِمة، أحيانًا لا تُشيحُ بنظراتها عنّي، أشعرُ بالحرج أحيانًا. لِمَ تفعل ذٰلك؟ ساوتِ الحربُ بيننا، المشاعر الّتي كانتْ في الغُرَف المُغلَقة أيّام السِّلم تهدَّمتْ مع تَهدُّم تلك الغُرَف. نحن الآن مكشوفون تمامًا. لا تُديمي النّظر في عَينَيّ يا (سلام) أنا لا أحتمل ذٰلك. ردّتْ بصوتٍ هادِئٍ كأنّما جَرَحَه الحُزن: «لا أستطيع. أشعرُ أنّني سأفقدك». «ليسَ هٰذا وقتَ هٰذا الكلام». «أنتَ سألتَني». وضعتْ يدَها علىٰ بطنها، وأردفتْ: «هٰذا الّذي يكبرُ هنا جعلنَي أتعلّق بِكَ أكثر».

كُنّا نعرفُ أنّ مصير مرضى السّرطان الّذين معنا مجهول. هم كذٰلك يعرفون أنّهم يقضون بعضَ الوقت مَع من يعرفونهم أو مع أناسٍ يتعلّلون بهم عن مواجهة الموتِ وحيدين، في الحقيقة لم نكنْ نعرف إلىٰ أين نأخذهم؟ ولا ماذا يُمكن أنْ يكون مصيرهم غدًا أو بعدَ قليل، بل لم يكنْ أحدٌ مِمّن في بطن هٰذه الشّاحنة يعرفُ ما يُمكن أنْ يحدث في اللّحظة التّالية.

تولّىٰ (نبهان) مهمّته المُقدّسة مع المرضىٰ خاصّة، يتركُ الجلوسَ بجانب السّائق، وينضمّ إلينا، كان يُمازحهم، يضحك في وجوههم، بل يُلاعبهم ألعابًا لم تكنْ لتُستساغ لولا أنّه جعلها بطريقته الخاصّة مُستساغة، استخرج لكبار المرضىٰ من الماضي السّحيق ألعابهم الّتي كانوا يلعبونها في الطّفولة وشاركَها معهم. لَعِب معهم (الدّواحل)، اصطنع حُفرًا عند أرجلهم، وراحَ يضرب بأصابعه ويضربون هم بأصابعهم تلك الدّواحل لتدخل في الحُفرة الصّغيرة، ومَنْ كان يفوز كان يُعطيه جائزة، يخرجها من جيب ثوبه الّذي كان ينتفخ بالجوائز دائِمًا.

لَعِبَ كذٰلك لُعبة الأوراق، وأدهشهم بإتقانه بعض الخُدَع القديمة الّتي لا يعرفونها، وصنع لهم الوردة الورقيّة الّتي يُكتَب على كلّ طرفٍ منها (حاكم، جلاّد، لصّ، مُفتّش)، وكان يسأل شيخًا مُسنًّا قد هَدّه السّرطان: «اعرفْ لِصَّك». ويضحك المُسِنّ: «اللّصّ معروف يا سيادة المُفتِّش». وتستمرّ اللّعبة وبستمر الضّحك.

فجأةً وسطَ نوبةٍ من الضّحك قفزَ عددٌ منّا نحن الّذين في مؤخّرة بطن الشّاحنة إلى وسَطها، وتكوّمَ بعضُنا فوقَ بعضٍ، كانت الشّاحنة قد هَوتْ في حُفرة عميقة ولولا أنّ السّائق تدبَّر الأمر بزيادة السّرعة لكُنّا قد علقْنا داخل الحفرة ولم نخرجْ منها أبدًا، كُنّا نتقافز من حينٍ لآخر، لم يكنْ ذٰلك مؤثّرًا علينا نحن الّذين كُنّا بصحّة جيّدة، أمّا الكِبار والمرضى فقد كان هٰذا يُسبِّبُ لهمُ الغَثَيان، وكانوا يتقيّؤون، وإذا لم نكنْ حاضرين أو مُنتبِهين لجعلهم يتقيّؤون في أكياسٍ فإنّ المُشكلة ستكون مُضاعَفة.

كانت الشمس قد زالتْ عن عرشِها السّماويّ، وبدأتْ تميلُ للغروب، وقد بدا الجوّ في شهر شباط من هٰذا العام لطيفًا مع برودةٍ تجرحُ حينًا وتشفي حينًا آخَر، وهنا سَمِعْنا صوتًا شبابيًّا في الطابق العلويّ يُغنّي:

الله مَعَانا أقوى وأكبرْ مِن بني صُهيونْ
يُشنُقْ يُقتلْ يِدْفِنْ يُقبُرْ أَرضِي مَا بِتْهُونْ
دَمِّي الأحمرْ رَاوِي الأَخْضَرْ فِي طَعمِ اللَّيمونْ
نار الثورات ما تسَعَّرْ نِحْنَ المِنْتَصْرِينْ
وِيْنْ، وِيْنْ... وِيْنْ، وِيْنْ...؟!

ورُحنا بصوتٍ واحدٍ نُردّد معه: وِيْنْ... وِيْنْ؟! وكان الإيقاع يبعثُ الحماسة والأسىٰ معًا، فَرُحْنا نلوذُ به، وازدادتْ حماسةُ الشّباب وهم يهتفون مُغنّين:

أقــوىٰ مِــنِ الجِبــالْ.. أكثــرْ مِــنِ الرِّمــالْ
داخِــلْ الاعتِقــال نْغَنّــي شُــهَدانا حَيِّــنْ
خَــارِجْ الاعْتِقــال نْقَاتِــلْ لا نَرْكَــعْ لا نْلِيْــنْ
وِيْنْ، وِيْنْ... وِيْنْ، وِيْنْ...؟!

ولم نكدْ نقول: وِيْنْ، وِيْنْ... حتّى ارتجّت الشّاحنة، وأظلمتِ الدُّنيا، وعلا الغُبار، وسمعنا صوتَ صياحٍ وهَيَجان، وحينَ انجلى الغُبار، وتبيّن المشهد، عرفْنا أنّ صاروخًا ضربَ عددًا من السّيّارات الّتي خلفَنا فتناثرَ كُلُّ ما فيها، وسقطَ العشرات يتخبّطون في دمائهم، ونزلْنا من الشّاحنة أنا ومجموعة من الشّباب، وحاولْنا إنقاذَ مَنْ يُمكن إنقاذه، واتّصلْنا بالمستشفيات القريبة، لٰكنّها كانتْ تُعاني أكثرَ مِمّا نُعاني نحنُ هنا، ورُحتُ أنا وثلاثة من الأطبّاء والمُمرّضين تعارفنا قدرًا في هٰذه اللّحظة الصّعبة نُعالِجُ مَنْ نقدر علىٰ عِلاجه، نلفّ الجروح بما تيسّر من ملابس، ولم تكنِ الملابس نظيفة ولم يكنْ هناك قطن ولا شاش ولا إبر مُسكّنة، ولا أدوية تُساعد علىٰ وقف النّزيف وتجلُّط الدّم، وبعدَ ساعة تمكّنَتْ سيّارتا إسعافٍ من الوصول إلينا، حمّلْنا فيها الحالات الحرجة، وصَعَدَ معهم عددٌ من ذويهم، وانطلقوا بحوالي عشرين حالةً إلىٰ مركزٍ صحيّ في النّاحية.

لم نعرفْ لماذا أطلقَ علينا الجيش الصّهيونيّ هٰذه القذيفة؟! لقد أجبرونا أنْ نسير في هٰذه الطّريق علىٰ أنّها الطّريق الآمنة، وأنّنا لو عبرْنا

الطّريق الموازية لها والّتي تبعدُ شارعًا أو شارِعَين فسنُعرّض أنفسَنا للخطر، فالْتَزَمْنا بذٰلك، فلماذا يقصفوننا ونحن نرحلُ بلا سِلاح، وليسَ معنا غير المرضى الّذين ينتظرون الموتَ في كلّ لحظة؟!

كانَ عددُ الشّهداء الّذين سقطوا جرّاء هٰذا الصّاروخ ثلاثةَ عشر شهيدًا، بينهم أربعة أطفال وخمسُ نساء. لم نفعل لهم أكثر من أنّنا أزلْنا عن وجوههم التّراب بما توافر من ماء، كَفّناهم في ثيابهم، لم تكنْ هناك أثوابٌ كافية ولا أكفان، وصَلّىٰ (نبهان) عليهم وصلّينا معه، ودفَنّاهم في جانب الطّريق، ولم يتعرّف عليهم أحدٌ من أقاربهم باستثناء طفل في السّادسة ورَجلٍ في الخمسين، فقد كان في رحلة النّزوح مَنْ يعرفهم. وهٰكذا أتاهم الموتُ غرباء نازحين، ودُفِنوا مجهولين عند النّاس معروفين عن الله، وبعدَ أنْ دفنّاهم قرأ الشّيخُ (نبهان) علىٰ مسامعنا قولَه تعالىٰ: «ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

رجَعَ النّازِحون إلىٰ سيّاراتهم وكارّاتهم أو ما تبقّىٰ منها، وتابعَ المشي مَنْ قَدِر عليه، وتجمّد أبو العبد مكانه لا يتزحزح، ولا يُحرّك الشّاحنة مترًا واحِدًا، وقال لِـ(نبهان) الذي يجلس عن يمينه: «سأموت». وابتسم الشّيخُ في وجهه حتّىٰ سُمِعَ صوتُ ابتِسامته: «أعرف». فزادَ شحوب وجه أبي العبد، ونظر نحوه (نبهان) وضحكَ بصوتٍ أعلىٰ، ورَبّت علىٰ كَتِفه: «كُلّنا سنموت. لا تقلق. هل هناك ما يدعو للقلق يا أبا العبد؟». وبلعَ أبو العبد ريقه، ولم يقلْ شيئًا. وتابع الشّيخ: «إذا كنتَ مُتيقّنًا من أنّ ساعةَ موتك لن تتأخر لحظة ولن تتقدّم لحظة فَلِمَ القلق، بِمَ يفيد؟! هَيّا... انطلقْ بنا لعلّنا نصل إلىٰ مُخيّمات رفح ونجد فيها راحةً من هٰذا التّعب قبل العِشاء». ولم يطمئنّ أبو العبد لكلمات الشّيخ بقدر اطمِئنانه لنظراته الصّافية الحنونة. وأدار أبو العبد المفتاح، وهمرتِ الشّاحنة، وهدرَ محرّكها،

ومضتْ إلىٰ غايتها، ففرحنا.

كانتِ الشّمس تتخلّىٰ عن عرشِها في الأفق البعيد، تُودِّع الرّاحلين، وترسل بعضًا من دِفئِها النّادر في مثل هٰذه الأوقات على القبور الّتي تركْناها خلْفَنا. وبدَت لنا الحياة غريبةً غامِضة غير مفهومة، وبدتْ رحلتنا في هٰذه الشّاحنة رحلةَ الحياة بأكملها، نحنُ نسير في هٰذه الطّريق لا ندري ما يحدثُ في الثّانية القادمة، يأتيكَ ما لم يكنْ بالحُسبان، لا تملكُ له دفعًا ولا جلبًا، يترجّل من شاحنتك بعضُ المسافرين الّذين دعاهم صاحبُ الطّريق إلى النّزول، ولا يصعدون مرّة أخرىٰ، النّازلون ليسَ لهم صِفةٌ مُحدّدَة، لا يعرفُ أحدٌ كيفَ اختارهم الموت، ودعاهم القدر إلىٰ حُفرته، قد يكونون من كبار السّنّ، وقد يكونون أطفالاً في المهد، لا أحدَ يعرفُ القانون الّذي يسنُّه القدر من أجل أنْ يقع على المُختارين، مرضى السّرطان الّذين كُنّا نتوقّع أنْ يموتوا قبل أنْ تطلع عليهم الشّمس مرّة أخرىٰ هم الّذين تجاوزهم الموت، أمّا أولئك الّذين كانوا في ميعة الصِّبا وعنفوان الشّباب، وكُنّا نظنّ أنّهم بمنجاة عن تلك الحُفرة الأخيرة كانوا هم أوّل مَنْ سقطوا فيها!

وصلْنا إلىٰ نهاية الطّريق، (المواصي) عن يميننا، و(خان يونس) عن يسارنا، ولم يبقَ بيننا وبين رفح إلاّ بضعة كيلومترات، وعلىٰ أنّها قريبةٌ، فقد بدتْ بعيدةً جِدًّا، وبدا أنّ رحلتنا الطّويلة والمُتعِبة ستنتهي عندَ هٰذا الحَدّ، وأنّه آنَ لنا أنْ نرتاح، ولٰكنْ حَدَثَ شيءٌ جديد؛ أوقفنَا حاجزٌ للجيش الإسرائيليّ قُربَ (خان يونس). كان اللّيل قد هبط، والشّمس قد رحلتْ، سمعْنا صوتًا عاليًا عبر مُكبِّر صوت: «توقّفوا». توقّف أبو العبد على الفور. نظرتْ إليّ (سلام) قَلِقة، «أُحِسُّ أنّ شيئًا ما سيحدث»، ضحكتُ وأردفْتُ ساخِرًا: «طبعًا شيءٌ ما سيحدُث، وإلاّ

فهم قد أوقفونا من أجل أنْ يسألونا عن سِعر البندورة هٰذه الأيّام!!».
أمرتْ قُوّة مكوّنة من عشرة أفرادٍ أنْ نرفعَ أيادَينا إلى الأعلىٰ. وأنزلوا كلّ الّذين في أعلى الشّاحنة من الشّباب وداسوا علىٰ عددٍ منهم، ووضعوا الرّشاشات في صدورهم، ثُمّ صعدوا إلىٰ قلبِ الشّاحنة، راحوا يثقبون الفرشات بالحِراب، وركلوا كثيرًا من الأغراض، وتقدّمَ عشرة آخرون خلفَهم استِعدادًا لأيّ طارِئ وقد لَقَّمُوا بنادِقهم. راحَ العشرة الأُوَل يطعنون النّاس في بطونهم بفوهات بنادقهم. نَبَحَ الكلبُ، ووثبَ ناحية أحد الجنود الّذين اقتربوا من صاحبه، صرخَ الجنديّ وتراجَعَ إلىٰ الوراء، وأطلقَ عددًا من الشّتائم المُتلاحقة، صوّب رشّاشه نحو الكلب الّذي ظلّ واقِفًا أمام صاحبه وصوتُ هريره يُسمَع عالِيًا، ثُمّ أطلقَ عليه صليةً من الرّصاص فمَزّقتْه وأصابتْ صاحِبه بجروح فراح ينزف، وعلا صوتُه، فوجّه إليه الرّشّاش من جديد، فاضطرّ أنْ يكزّ علىٰ أسنانه ويتألّم بصمتٍ، هُرِعت إلى الشّاب أريدُ أنْ أُسعِفه، فأوقفني جنديّان: «مكانك». تجمّدْتُ مكاني، تقدَّم أحدُهم إلَيّ، هتفتُ بالعِبريّة: «كما ترىٰ إنّهم مرضىٰ مُصابون بالسّرطان». رفَعَ بندقيّة من طراز «إم ١٦» في وجهي، ورأيتُ إصبعه يتحفّز للضّغطِ على الزّناد، ظهر الموتُ فجأة، رأيتُه، شعرتُ به، سمعتُ صوتَه، وتغشّاني سوادُه الهائل، جحظتْ عيناي، وارتعدتْ فرائصي، وانقطَع نَفَسِي. هتفَ الجنديّ وهو لا يزال يضع رشّاشه بينَ عينَيّ: «ما اسمُك؟». «فرج، وأنا مُمرّض. أرافق هٰؤلاء المرضىٰ من أجل رعايتهم». نظر إلىٰ جنديّ آخَر عن يمينه، وقال له بالعِبريّة: «خُذوه».

(٤٨) سيَجمعُنا الله مع الصّدّيقين

سيطرَتْ سحابةٌ من الذُّعرِ والصّمت على الشّاحنة. هَجَمَ ثلاثةٌ عَلَيّ، قَيّدوا يَدَيّ إلى الخلف، وراحوا يَدْفَعُونني بأعقاب البنادق من أجل أنْ أهبطَ من الشّاحنة، تعلّقتْ بي (سلام) رَجتْهم أنْ يتركوني، قالتْ لهم: «إنّه مُسعِف. هو فقط يقوم على العناية بالمرضىٰ». دفَعَها أحدُهم في بَطْنِها حينَ رأىٰ أنّها حامل، وقعتْ في الفراغ، وحينَ قامتْ تعلّقَتْ بي: «إذا كُنتم ستأخذونه فخُذوني معه». لم يفهم الجنود سِرّ تعلّقها بي: «أنتِ تُحبّينه؟». كانَ يُمكن أنْ يسمع النّاس ما لا أريدُ ولا تُحمَد عُقباه، نظرْتُ نَظَراتٍ حازِمة إليها، وهتفتُ وأنا أشدّ علىٰ أسناني: «كفىٰ توقّفي». بكت. لَفَّ ضبابٌ عينَيها، لم تعدْ ترىٰ من الدّموع المُنهمِرة، أردفْتُ محاولاً التّخفيف عنها مع شِدّة غيظي: «لستُ أوّل شخصٍ يُعتَقل، ما بِكِ يا امرأة؟!». «لا أريدُ أنْ أفقدك». مِلْتُ نحوها بجذعي ويدايَ يشتدّ عليهما القيد خلفَ ظهري: «حافِظِي علىٰ نَفْسِكِ وعلى ابْنِنا، ولا تخافي عَلَيّ، سنلتقي في إحدىٰ مُخيّمات رفح، لن يطول ذٰلك. ثقي بالله». ودفَعَني الجنديّ بفوهة الرّشّاش وتولّىٰ ذٰلك جنودٌ آخَرون، وهٰكذا اعتُقِلتُ أنا وخمسةٌ من الشّباب من الشّاحنة.

أمرَ الجنود الشّاحنة بأنْ تسير، وأطلقوا في الهواء صلياتٍ من الرّصاص، فأطلقَ أبو العبد لِمُحرّك شاحنته العِنان، وهربَ من المكان وهو لا يكادُ يُصدِّقُ أنّه نجا هو ومَنْ تبقّىٰ معه.

فكّوا قيودي مُؤقّتًا، أخذوني إلىٰ جانب الطّريق وضمّوني إلىٰ مجموعةٍ كبيرةٍ من النّازحين، كُنّا حوالي أربعين مُعتقَلاً. أمرونا أنْ نخلعَ ملابِسَنا. نخلع كلّ شيء. حتّى السّاعات الّتي في أيدينا، والأحذية الّتي في أرجلنا.

طلبوا منّا أنْ نتحلّق في دائرة، وأنْ يضعَ كلّ واحدٍ ذراعَيه علىٰ كتفِ الّذي أمامه، وينظر في الأرض، ويسير بسرعة، سِرْنا مثل القطيع، تجرّحتْ أقدامنا، سال الدّم من بين الشّقوق، غَطّى الدّم كلّ شيء، تجرّأ أحدُنا وصرخ: «الأرض مليئة بالزّجاج والحديد، نريدُ أنْ نلبسَ أحذيتنا». هوىٰ عليه الجنديّ الأقرب إليه بكعب البندقيّة فأوقعه أرضًا، جرّه جنديٌّ آخَر خارج الحلقة، وأكملْنا نحنُ السّير في دائرة القطيع. خرجْنا من دائرة الإنسانيّة، نحنُ لم نعدْ بشرًا!

قيّدوا أيادينا وأرجلنا من الخلف مرّةً ثانية، أظهروا أمامَنا ستّة كلاب ضخمة، سوداء، كان الزّبدُ يسيلُ من بينِ أشداقِها، وكانَتْ تنظر إلينا مُباشرة، رأينا في عيونها الموت، وأنا تخيّلْتُ لحمي يتمزّق بين أنيابِها المُرعبة. كانتْ تتفلّت من اللُّجُم الّتي يُمسكُها الجنود بها، وكانتْ تتقافز إلى الأعلىٰ وهي تنبح، وإذا عادتْ من قفزتها دارتْ عن يمينٍ وشِمال وهي تهرّ هريرًا عاليًا. وقفَ خلفَنا صَفٌّ من الجنود مُصوّبين بنادقهم نحونا، سمعنا أحدهم يقول: «لن تستطيعوا الفرار، وإذا تحرّكَ أحدُكم من مكانه فسيُقتَل على الفور، سنُطلِقُ عليكم هٰذه الكلاب من أجل أنْ تتأكّد من أنّكم لا تُخفون مُتفجرّات أو أسلحة أو أجهزة دقيقة... مفهوم؟!». لم ينبسْ أحدٌ منّا نحنُ الأربعين بحرفٍ واحدٍ، عقدَ الخوفُ الرّهيبُ ألسنتَنا، اجتمعَ علينا البردُ الجارح والكلاب والموتُ المُتربِّصُ بنا الجاثِم أمامنا ينتظر لحظته الحاسِمة. أطلقَ الجنودُ العِنان للكلاب، فهَجَمَتْ علينا،

تكوّرنا ونحنُ نحاول أنْ نحمي أنفسنا من مخالِبها وأنيابِها، حاولتُ ألاّ تكون حركتي أكبر مِمّا ينبغي لكي لا تأتيني رصاصةٌ من الخلف في جمجمتي. كانت الكلاب تهجمُ على الواحد تمدّ أقدامها الأماميّة وتتسلّق علىٰ جسده وتتلبّسه، وتتشمّمه من الأعلىٰ، ثُمّ تهبطُ فتشمّمه في وسطه وبين فخذيه وساقَيه، ثُمّ تدور حوله دورةً أو اثنتين، قبل أنْ تُعلِنَ خُلُوّه من الممنوعات. اثنان نبحتْ أمامهما الكلاب طويلاً. أخرجوهما من الصّفّ، قادوهما إلىٰ مبعدةٍ منّا، ثُمّ سمعْنا صوتَ إطلاق رصاص، وصوت حشرجاتٍ أخيرة!

نجونا نحن المُتبقّين بآثار المخالب الّتي حفرتْ خُطوطًا علىٰ أجسادِنا العارية، وغطتْ جذوعَنا النّحيلة بخيوطٍ مُتعرّجة من الدّم، وبجروحٍ في المناطق الحسّاسة لا شِفاءَ لها، وستظلّ تلازمنا ما بقينا أحياء.

قادونا إلىٰ حائطٍ طُوليّ، رُحنا نمشي ببطءٍ بما تسمح به القيود الّتي في أرجلنا من مدًى للخطوة الواحدة، جعلونا نركع علىٰ ركُبنا، كانتْ أيدينا مُقيّدةً من الخلف، ونحن عرايا كما خلقنا الله بلا خِرقة واحدة تستر شيئًا من أجسادِنا الذّبيحة، بعضُهم التقطَ لنا صُورًا بهاتفه الشّخصيّ، كانوا يُقهقِهون... سمعتُ اسم (السّنوار)... لا أدري كيف لَفَظُوه أو ماذا قالوا عنه، لكنْ بدا أنّهم يشتمون ويستهزِئون ويتشَفّون.

صرخ شابٌّ قدّرتُ من صوته أنّه في الثّانويّة: «بَرْدان». أجابهُ الضّابط بشفقةٍ مُصطَنعة: «الآن سنُدفِئك». أخذوه من الصّفّ الطُّولي، استرقتُ النّظر من خلال الرّمل والأرض وصوتِ الأقدام، ربطوه إلىٰ كرسيّ، أطلقوا عليه الرّصاص وأضرموا فيه النّار.

كان اللّيل قد أحكمَ قبضتَه علىٰ كلّ شيء، والخوف والفزع والتّعب قد تمكّن من كلّ واحدٍ فينا، مَنْ فَقَدَ وعيَه منّا كان محظوظًا، ونامَ آخرون، أمّا أنا فلم يغمض لي جفن. بقيتُ أُفكّر في (سلام)، وما حلّ بها. كانتْ قد غدَت العُروة الّتي تربطني بالحياة، شيءٌ ما في المرأة، في علاقتِك بها، في هٰذا الشَّجَن الخفيف، وذٰلك الحنان يجعلك تتعلّق بالحياة من أجلها، كان هٰذا وارِدًا، رُبمّا ابننا القادمُ كانَ سببًا أشدّ وضوحًا في سِرّ حُبّ الحياة، أو رُبّما نحن الغزّيّين نُحبّ الحياة علىٰ أيّة حال.

ستأكلُنا الحرب يا (سلام)، ستأكل كلّ ما ينبضُ بالحياة هنا، ستسحقنا عددَ الرّمل، ستطحننا حتّىٰ نصيرَ نحن الرّمل، وماذا بعدُ؟ سنكون رملَ الشّاطِئ الّذي يحمل أقدام المُتعَبين فيُخفِّف عنهم وَجَع الحياة وبؤسَها، سنكون ماءَ البحر الّذي سيحمل سُفُنَ الحالِمين إلىٰ شاطِئ الأمل. سنكونُ نحنُ!

لن نملّ من حُبّ بلادنا حتّىٰ تملّ الشّمسُ من شروقِها، ولن نتوقّف عن فدائِها بكلّ ما نملك حتّىٰ تتوقّف الكواكب السّيّارة عن دوارنها. انظري يا (سلام) إلى النّجوم هناك في السّماء، كم هي نقيّة، إنّ قلوبَنا أنقىٰ منها. انظري كم هي بعيدة، إنّ طريقَنا أبعدُ منها. وانظري كم هي عالية، إنّ عزيمتنا أعلىٰ منها.

سينتهي كلّ هٰذا، أعِدُكِ، سينتهي البؤس، والحُزن، والفقد، والأسىٰ، والخوف، والقتل، والرّعب، والجوع، والبرد، والموت، والدّمار، والجنون، والمرض، والقلق، والبُؤس، والحَفاء، والعَراء، والحنين إلىٰ الرّاحلين... سينتهي كلّ هٰذا، وسنعود كما يعودُ الماء إلى البحر، والدم إلى القلب، والخُضرة إلى الرّوض، أليسَ الرّبيع بقريب؟!

الحياة قِناع، سنخلعه إنْ غطّىٰ عيوننا عن الحرّيّة، كلّ شيءٍ بمقدار، هٰذا الّذي يحدثُ، وذٰلك الّذي مكتوبٌ في السّماء، وهٰذه البلايا الّتي تتشكّل على الأرض، سنخرج من كلّ ذٰلك كأنّنا رجعنا من الطّواف؛ بلا خطيئة.

ابنُنا سيأتي إلى الحياة قريبًا، كلّ وعدٍ مأمول، وكلّ قادمٍ مَأتيّ، ولكلّ شيءٍ أجل، وحينَ يأتي ستكون عيناه تُشبِه عينيكِ في صفائهما، وبسمتَك في رقّتها، وجمالَكِ في تجلّيه، وروحَك في سُمُوِّها، سماءٌ، سماء، هي أرواحنا هناك، خفيفةٌ كأنّها زهرةٌ صعدتْ بها نسمةٌ خفيفةٌ إلى الأعالي، مسحَ الله عليها من رحمته فعادتْ إلىٰ هٰذه الأرض رحمةً تمشي علىٰ قدمَين، سيجمعنا الله مع الصّدِّيقين يا (سلام).

النّظر إلى الماضي قاتِلٌ يا (سلام)، إنّه يجرّك إلىٰ بحر الحنين الّذي تغرق فيه مهما كانتْ قدرتكَ على العَوْم، وينزعك من الأرض فيرمي بكَ إلىٰ فضاء الشّوق الّذي لا يُمكن أنْ تتحكّم فيه بنفسِك، ستُصبِح ورقةً خفيفةً تلعبُ بها الرّيح في كلّ اتّجاه، سأتركُ الماضي ورائي يا (سلام) وأنظر إلى المستقبل، المُستقبل بكلّ ما فيه من غموضٍ وانكِشافٍ، بكلّ ما فيه من جَمال وبَهاءٍ، المستقبل لابنِنا الّذي سيأتي، فلا تخافي ولا تحزني!

مرّتْ علينا ليلةٌ بارِدةٌ جِدًّا، كان هٰذا في آخرِ ليلةٍ من شباط، البردُ يحزّ العَظم، ولا يُمكن أنْ تتّقيه وأنتَ مُتدثِّرٌ بالأغطية الثّقيلة، فكيفَ وأنتَ عارٍ! في الصّباح ماتَ ثلاثةٌ منّا، لم يحتملوا شِدّة البرد، قتلتْهم وجبةُ طعامٍ بسيطةٌ واحدة، لو أنّهم تعشّوا ولو رغيفَ خُبزٍ تلك اللّيلة لكان من المُمكن أنْ يبقَوا أحياء، ولٰكنّ الجوع قاتِلٌ آخر إذا اجتمع إليه البَرْد والهَرَمُ والمَرض والألم.

أيقظونا في الخامسة فجرًا تقريبًا. كان بعضُ الغَبَشِ الرّماديّ قد تَبَيّن، قادونا إلىٰ غرفةٍ كبيرةٍ في المُعسكر، حشرونا فيها، وطلبوا من كلّ واحدٍ أنْ يدخل غرفة التّحقيق. كُنّا ثلاثين أو خمسةً وثلاثين مُعتقلاً في غرفةٍ لا تتّسع لعشرة، كانتْ غرفةً مُؤقّتة، حينَ جاءَ دوري في التّحقيق، قال لي مُحقّق حنطيّ البشرة يتكلّم العربيّة من دون لَكْنة: «لماذا تتعاون مع حماس؟». أجبتُه: «أنا مُمرّض». «أنتَ إرهابيّ». وركلني أحدُهم في بطني. كُنتُ مقيّدًا، تكوّرْتُ علىٰ نفسي من شِدّة الألم، شدّ جنديّ آخر رأسي إلى الوراء، كاد يخنقني بأيديه الغليظة، وجاء جنديٌّ آخر فركلني في عيني، وأردفَ المُحقّق: «أنتَ مُخرِّبٌ كبير. هل تعرف أنّ عملكَ هٰذا مخالفٌ للقانون؟! هٰذه ليستْ دولة فوضىٰ». «أنا أقوم بإنقاذ حياة النّاس». اغتاظ: «لماذا تريدُهم أنْ يعيشوا؟ هٰؤلاء لا يستحقّون الحياة، هٰؤلاء قتلوا الأبرياء في السّابع من أكتوبر، هل تعرف الجرائم الّتي ارتكبوها؟!». «هٰؤلاء ليسوا مُجرِمين». «ماذا تُسمّيهم إذًا؟!». «مُقاوِمين». وهوتْ عصًا من المَعدِن علىٰ رأسي فأفقدَتْني الوعي.

دفعوا إلينا بحليب وخُبز في اليوم الثّاني. أكلْنا من شِدّة الجوع بِنَهَم. كانتْ عيني قد تورّمتْ ثلاثة أضعافِ حجمها الطّبيعي، ولا أكادُ أرىٰ من خلالها، في اليوم الثّالث أطلقوا سراح عشرين منّا، وأبقَوا علىٰ عشرة تقريبًا، كان هٰؤلاء من الّذين اعتقلوا معي يوم شاحنة أبي العبد فقط، لٰكنْ بدا أنّ هناكَ عددًا كبيرًا من المعتقلين في هٰذا المُعسكر. تجمّعَ في صبيحة اليوم الثّالث حوالي خمسين معتقلاً.

ربطوا أيادينا خلفنا، عَصبُوا عُيوننا، وشدُّوا العصائب بقوّة، ووجّهونا بفوهات البنادق لنصعد ظهر شاحنةٍ عسكريّة، كانتْ طويلة مع أنّها غير

عريضة، حشرونا فيها حشرًا، وكُنّا لا نلبسُ شيئًا غير ما يسترُ عورتَنا، كوّمونا قِطَعًا من اللّحم بعضُنا فوقَ بعض، كانت العصابات الّتي وضعوها علىٰ عيوننا من ثيابنا الدّاخليّة، رأيتُهم يشدّونها علىٰ رؤوسنا قبل أنْ نصعد إلىٰ هٰذه الشّاحنة الّتي تحوّلتْ إلىٰ علبة سردين، فجأةً شعرْنا بخَضّةٍ كبيرة، احتكّ اللّحم باللّحم، ومشتِ الشّاحنة إلى المجهول!

سمعتُ أصواتَ أربعةٍ يبدو أنّهم تمركزوا على الزّوايا الأربع لصندوق الشّاحنة المعدنيّ، أو أنّ اثنين منهم كانا في زاويتَين، واثنين كانا علىٰ ظهر رأسِ الشّاحنة، هٰكذا قدّرتُ من موجة الصّوت القادمة من هٰؤلاء الحُرّاس. طلبوا منّا ألاّ نأتي بحركة، ولا همسة وإلاّ فإنّ أسهل شيءٍ أنْ تخرج الرّصاصةُ من بيتِ النّار.

مضت الشّاحنة في طريقٍ لا نعرفه، يبدو أنّهم ينقلوننا إمّا إلىٰ معسكرٍ آخر أو إلىٰ سجنٍ من سجون الاحتِلال المُلاصِقة لحدود غزّة مع بئر السّبع في الجنوب. أنا أذكىٰ من يتكهّن بالأمور، أعني أسوأ شخصٍ يفعل ذٰلك، ولٰكنْ ليسَ لديّ خيارٌ آخر غير التّكهّنُ والتّذكّر، سأموت قهرًا أو حُزنًا لو لم أفعل، أو رُبّما أُجنّ، صرخات الصّبيّ الّذي أحرقوه قبل يومَين لا تغادر سَمْعي، سأُجنّ لو بقيتْ تلك الأصوات تطرقُ جمجمتي!

سمعنا أصواتَ أقدامٍ وأصواتَ همهمات، كانتْ هناك حركةٌ مُريبة، فجأةً ضَيّقْتُ عينَيّ من كميّة النّور الّتي تدفّقَتْ إليهما، لقد أزالوا العصابات عن عيوننا، استغربْتُ من ذٰلك، لكنّ أحدًا لم يتجرأ أنْ يسأل لماذا، بعدَ أقلّ من دقيقةٍ اعتدَنا على الضّوء، تلفّتُّ حولي لأعرفَ أينَ نحن؟ نحنُ لا نزال في (خانيونس)، نمضي شرقًا باتّجاه (عَبَسان)، في شارع خالد بن الوليد، لا شيءَ جديد علىٰ جانِبَي الشّارع ولا في الأحياء

الّتي تبدو علىٰ مبعدةٍ من هنا، كلّ شيءٍ فيها كان مُهدَّما، وكلّ قائمٍ ركع، وكلّ راكعٍ سَجَد. وكانَ هناك عددٌ من القنّاصين علىٰ سطوح البنايات، أو هٰكذا خُيِّلَ إلَيّ، وكان أمامنا سيّارة جيب عسكريّة وخلفنا اثنتان، ورأيت من خلال تَلَفُّتي بعضَ الدّبّابات في العُمق. سألتُ المُعتقَل الّذي بجانبي: «هل هٰذا شارع خالد بن الوليد فِعلاً؟!». هَزّ رأسَه بشكلٍ بندوليّ ولم يتكلّم، ولم أعرفْ من هَزّة الرأس تلك إنْ كان يقصد: «نعم» أم «لا»؟

تباطأتْ عجلاتُ الشّاحنة في سيرها حتّىٰ توقّفتْ. وتوقّفتْ أمامها وخلفها الجِيبّات العسكريّ، أشّر ضابِطَان علىٰ عددٍ منّا، أنتَ وأنتَ وأنت... تحفّزوا لِما سيُطلَبُ منهم، هتفَ جنديّ بعدَ أنْ تلقّى الأمر بنظرةٍ من قائده: «انزلوا». اختاروا عشرةً منّا، وطلبوا أنْ ننظرَ إليهم وهم يصعدون البناية الّتي عن يميننا، كانتْ مُهدَّمة تهدُّمًا جُزئيًّا، كان مع كلّ مُعتقلٍ جنديّ يدفعه بالرّشاش من ظهره، بدا بعضُهم يحمل كرسيًّا. وزّعوهم على الشّرفات البارزة من هنا، ربطوا الّذين يحملون الكراسيّ إليها، والآخرون قيّدوا أيديهم وأرجلهم، ثُمّ عصبوا عيونهم جميعًا، وصبّوا عليهم البنزين، وأضرموا فيهم النّار، وهبطوا، اشتعلتِ النّار فيهم بسرعة، علتْ أصواتُ استِغاثاتهم، حاول بعضُهم أنْ يتحرّك بالكرسيّ الّذي كان مربوطًا إليه بإحكام، أمّا أولئك الّذين لم يُربطوا إلىٰ كرسيّ، فألقوا بأنفسهم من هناك إلى الأرض، بعضُهم كان في الطّابق الرّابع. بكيْتُ دمًا، احترقَ قلبي وشَعْر رأسي من ألم ما رأيت. عادَ الجنود إلىٰ جيبّاتهم، والآخرون إلى الشّاحنة العسكريّة، نظرَ إلينا أحدُهم قبل أنْ يحتلّ رأسَ الشّاحنة وهو يبتسم ابتسامةَ تَشَفٍّ: «هٰكذا أحسن؟ أليسَ كذٰلك؟ لم تعودوا مَحشُورين مثل السّابق؟!».

(٤٩) هي أيّام وينتهي كلّ شيء!

نقلونا إلىٰ بنايةٍ أخرىٰ في الشّارع، توقّفتِ الشّاحنة العسكريّة أمامها، كانوا يحتجزون فيها عددًا من المُعتَقلين، فتَحَ جنديّ باب البناية السّفليّ علىٰ مصراعيه ونحنُ نرى المشهد كامِلاً، أمرَ مَنْ كان بالدّاخل أنْ يخرج، خرجَ عشرون رجلاً من هناك، أعمارهم بين العشرين والأربعين، أمروهم أنْ يصطفّ كلّ واحدٍ إلىٰ جانب الآخر ويتركَ بينه وبين الّذي يليه مسافة متر، كانوا قد قيّدوا أيديهم وأرجلهم، لكنّهم لم يعصبوا عيونهم. وقفَ خمسةٌ من الجنود خلفهم، كلّ جنديّ خلفَ أربعةٍ، صَوّبوا البنادق إلىٰ رؤوسهم، وبدؤوا بإعدامهم واحدًا تلو الآخر، إمّا رصاصة في الرأس أو في العنق. كل رصاصة اخترقتْ جسدًا واحدًا، لكنّها كسرتْ ألفَ قلبٍ يرىٰ ولو كان قلبَ حجر. دفعتِ غريزة البقاء بعضَهم إلىٰ أنْ يهربوا، من أولئك الّذين لم ترحمهم الرّصاصة أوّل طلقة ولم تُرْدِهم، هربَ بعضُهم وهو يقفز، كانوا أربعةً، رَمَتْهم الرّشّاشات فأسقطتْ ثلاثةً منهم، كان الرّابع شابًّا، راحَ يقفز قفزًا كالكنغر، اختفىٰ عن مرمى الرّصاص في إحدى البنايات ونَجا.

خَمَدَ صوتُ الرّصاص، وصوتُ الشّهداء، وصوتُنا المكبوت، وصوتُ الشّجر من خلفِنا، كان كلّ شيءٍ يبكي بصمتٍ، حتّى الرّصاصات الّتي اخترقتْ جسدَ طفلٍ في الثّالثةَ عشرةَ كانتْ هي الأخرىٰ تبكي عليه دون أنْ تعرفَ إذا كان هٰذا البكاء سيغفرُ لها خطيئتَها!

كانتِ النّساء تنظر إلىٰ تلك المأساة من النّوافذ، كلّ مَنْ سقطَ شهيدًا كان أخًا أو ابنًا أو أبًا لهؤلاء المفجوعات. صرخوا بالنّساء أنْ يخرجْن من البناية إلى الشّارع، كان على الواحدة أنْ تخرجَ فترىٰ أمامها مباشرة جسدَ زوجها الشّهيد أو أخيها أو ابنِها، وكانَ عليها حتّىٰ تعبر الشّارع أنْ تدوسَ علىٰ أجساد الشّهداء المُتكوّمة بعدَ الإعدام. رأيتُ إحداهنّ تخلعُ شالَها، وتُغطّي به إحدى الجُثث المكشوفة في هٰذا البرد القارص، يبدو أنّه ابنُها. بعضُهنّ رفضْنَ الخروج وفضّلْنَ البقاء في البناية علىٰ أنْ تطأ أقدامهن قلوبَ أرحامهنّ. أمرَ الضابط الرّتل العسكريّ أنْ يُتابِعَ السّير، بعدَ أنِ ابتعدْنا حوالي مئتَي متر، كانتْ قذائف الدّبّابات القريبة من تلك البناية تُدمّرها علىٰ رؤوس النّسوة المُتبقيّات فيها.

كيفَ للمرء أنْ يحافِظَ علىٰ عقله وسطَ هٰذا الجنون؟ لا سبيلَ إلىٰ ذٰلك. صرنا نهذي. نخمشُ وجوهنا، ونمسحُ الدّم النّازفَ من عيوننا علىٰ خدودنا، أحدُنا صارَ يحني جذعه إلى الأمام وإلى الخلف بحركةٍ بندوليّة سريعة كأنّه يريدُ أنْ يخرجَ من جسده، أمسكتُه من كتفه وهزَزْتُه: «توقّف، سوفَ تتسبّب بمقتلنا إذا لاحظَك الجيش. اهدأْ أرجوك». التفتَ إلَيّ، والتقتْ عيناه بعينَيّ وسمعتُهما تقولان دون أنْ تتحرّك له شفتان: «ألم نمتْ بعدُ؟ أكادُ لا أُصدِّق، نحنُ ميّتون علىٰ أيّة حال».

توقّفَ الرّتل من جديدٍ أمام بنايةٍ أخرىٰ. ماذا تريدُ الكلابُ منّا هٰذه المرّة؟! أخرجَ الجنودُ مَنْ في البناية علىٰ مرأىٰ منّا، كانوا كلّهنّ نساء، حوالَي عشرِ نساء، لوهلةٍ تخيّلتُ أنّ (سلام) من بينهنّ، خفقَ قلبي بشدّة، ودعوتُ الله في سِرّي ألاّ تظهر لي، ماذا كان سيحدُثُ لو رأيتُها بينهنّ؟ وخجلْتُ من نفسي، وأنا أدعو الله بهٰذا الدُّعاء، أليسَ لهنّ أزواج وآباء

وأبناء، فهل دمُ زوجتي أغلىٰ من دِمائهنّ، وتحوّل دُعائي إلىٰ ألاّ يفجعنا الله بإعدامهنّ أمامنا كما فعلوا بالرّجال قبل قليل.

حينَ أَتممْنَ اصطفافهنّ هٰذه المرّة بشكلٍ عَرضيّ، أمرَهُنَّ الضّابِط المسؤول أنْ يركضْنَ في الشّارع، وقال: «سأعدّ للعشرة وسأبدأ بإطلاق النّار، ونرىٰ من تنجو منكنّ!»، وضَحِك: «هل أنتنّ جاهزات؟! لا أريدُ واحدةً أنْ تغشّ، الغشّ حرام في دينكم، لا تركضي قبل أنْ أبدأ العدّ». وبدأ العدّ فورًا، وركضتِ النّساء، وبدأ بعدَ العدّ العاشر يُطلِق النّار، وسقطتْ نساء، ونجتْ نساءٌ أخرىٰ تمنّتْ بعدَ هٰذا الذّلّ لو أنها سقطتْ كالأُخريات!

مشتِ الشّاحنة حوالي رُبع ساعةٍ. كُنّا قد أُصِبْنا بالخَرَسِ وبالذّهول. لم نجرؤ من الخجل أنْ ينظر بعضُنا في عيونِ بعض، كُنّا إذا التقتِ العيون سرعان ما يُشيحُ الواحد بوجهه عن الآخَر. توقّفَتِ الشّاحنة ببطء. بَلَعْنا رِيقنا، وتحفَّزْنا لما سيأتي، ماذا سيفعلون هٰذه المرّة، لا بُدّ أنْ مصيبةً قادِمة؟! ترجّل عددٌ من الجنود، صعدوا شاحِنتنا، وعصبوا عيوننا، وركلونا في بطوننا وعلىٰ ظهورنا، ونزلوا، ومضت الشّاحنة في طريقها، يبدو أنّنا لا نزال نمضي جهة الشّرق، هٰكذا قدّرْتُ من سطوع أشعّة الشّمس، أو ربّما تميل عن الشّرق جهة الجنوب قليلاً، لكنّنا لا ندري إلىٰ أينَ نمضي، مضتْ ساعةٌ أو ساعتان حتّىٰ توقّفتِ الشّاحنة من جديدٍ، أنزلونا منها معصوبي العيون، واقتادونا عبرَ بوّابة قدّرْتُ أنّها من الشّبك أو يُحيطُ بها سِياجٌ من الحديد.

قادونا إلىٰ مهجع كبير، أزالوا العصائب عن عيوننا، فأبصرْنا من جديد، فكّوا قيودَ أيدينا وأرجلنا، كان القيدُ الّذي في يدي قد أكل من

اللحم، وحَزّ العظم، كان الألم فظيعًا، تعزّيتُ عن ألمه بألم الّذين قتلوهم أمام أعيننا. أعطونا ملابس رماديّة، وحصلَ كلّ واحدٍ منّا علىٰ رقم، أنا كنتُ صاحبَ الرقم (١٠٧)، كانوا ينادوننا بالأرقام المُلصَقة بوضوح وبخطّ كبير علىٰ صدورنا.

هل هٰذه بِئر السّبع؟! لا أدري. أينَ يقع هٰذا السّجن؟! لا بُدّ أنّه في الجنوب. هل هو داخل غزّة؟ لا أظنّ ذٰلك، سيكون في الجزء الجنوبيّ الحدوديّ منها على الأرجح. أعطونا وجبة طعام، ثُمّ ساقونا إلىٰ مهاجع متوسّطة، كان في كلّ مهجع عشرةٌ إلى اثني عشر مُعتقلاً، وكان هناك ثمانيةُ أَسِرَّة، ومَنْ زادَ ينام على الأرض من دون فرشة، والبرد هنا بردُ صحراء.

شغّلوا في اليوم الأوّل موسيقىٰ صاخِبة. كُنّا نسمعهم في الخارج يسكرون ويُغنّون ويرقصون. وكانوا يشتمون، لم نكنْ نفهم تمامًا، لكنّنا نعي فحوى الكلام. كانت تلك اللّيلة مُقدّمة لليالٍ رهيبة من التّعذيب. بدؤوا التّحقيق معي في اليوم التّالي: «ما هو دوركَ في حماس؟». «أنا مُسعِف». «لقد تتبّعْنا اتّصالاتك». «لقد كنتُ مُنقطِعًا عن النّاس والبشر كلّهم قبلَ الحرب». «أنتَ تكذب». «لا شيءَ أخافُ منه في حياتي من أجل أنْ أكذب». هراوة غليظةٌ في الظّهر. «كم مُخرِّبًا آويتَ في بيتك؟». «لا أحد». هراوتان في الصّدر. «هل شارَكْتَ في حَفرِ الأنفاق؟». «لم أخرجْ من بيتي طَوال خمس سنين أو أكثر». هراوة تهوي علىٰ قُمْع رأسي. «لدينا كلّ المعلومات عنك». «ليسَ لديّ ما أخفيه». وتوالتِ الهراوات، وانمحىٰ نورُ عينَيّ.

كان معي في الغرفة ثلاثةُ أطّباء، وأستاذان جامِعِيّان، وأربعة مهندسين، وطالبان في الجامعة. كان الأطبّاء أشدّنا تعذيبًا. قلعوا أظافر الدّكتور

(عدنان)، وكسروا أضلاعَه، وقَطَعوا بعضَ أصابِعه، كان ثابِتًا، لم يشكُ ولم يتأوّه، وكان يبقىٰ طَوال الوقت صامِتًا، لٰكنَّ جسده خانه جرّاء التّعذيب الوحشيّ والجوع، فغادرتْه روحه إلى السّماء.

شَبَحُوني في اليوم الثّاني من التّحقيق، شدُّوا يدَيّ من الرّسغين إلىٰ ماسورةٍ تخرجُ من حائطٍ إسمنتيّ مترًا في الفضاء، وأنا مرفوعٌ عن الأرضِ بِضعة سنتيمترات، ورِجلاي لا تَمَسّان الأرض. بقيتُ علىٰ هٰذه الوضعيّة من الصّباح إلىٰ غروب الشّمس، مرّ عليّ المُحقّق في اللّيل ومعه عددٌ من الجنود، وهتفَ بي: «ألا تريدُ أنْ تعترف؟!». كان الدّم قد تجمدَّ علىٰ ساعِدَيّ النّحيلَين. «أنا فرج، مُمرّض في مستشفى الشّفاء». وهَزّ رأسه: «مستشفى الشّفاء؟!» وهوىٰ أحدهم بكيبلٍ من الحديد علىٰ جذعي العاري فانثعب الدّم. وتجاوزني المُحقّق إلىٰ عددٍ آخَر من المُعذّبين، وتخلّف وراءه بعضُ الجنود الّذين صاروا يمسكونني من جذعي ويقومون بلَفّي في دوراتٍ حول مركز جسدي فأدور حوله مثل الذّبيحة، والقيود تكاد تكسر العظم فأسقط وقد انخلعتْ كتفي. دَوَّرُوني حولي حتّىٰ دُخْت، وسَقطَ رأسي علىٰ صدري، ورُحتُ في غيبوبةٍ عميقة، ولا أدري ماذا حدثَ بعدَ ذٰلك.

صحوتُ في اليوم التّالي على الأغلب، نظرتُ حولي في المهجع فرأيتُ المُعتقلين كلّهم قد تعرّضوا للتّعذيب في اللّيلة السّابقة، كان أحدُهم يجلسُ مقابلي وهو يُعطيني ظهرَه ووجهه إلى الحائط الّذي أمامه، كان يُكوّر ظهره ويدفنُ رأسَه في صدره، ورأيتُ خُيوطَ الدّم والجِراح علىٰ ظهره قد شَكّلتْ خريطةً تُشبه خريطة الوطن العربيّ، نحنُ مذبوحون في بلادِنا يا (سلام)، مَنْ ينظر إلىٰ مأساتنا ويسمع آهاتنا ونحنُ هنا معزولون عن العالَمِ كلّه؟!

كانوا يأتوننا بوجبةِ طعامٍ واحدةٍ طَوال اليوم، هٰذه الوجبة الوحيدةُ أبقتْ عَلَيّ حَيًّا، المرضىٰ ماتوا، لم يستطيعوا الاستمرار، كان الاستسلام للموت سهلاً، مُريحًا إلىٰ درجة أنّنا تمنّيناه جميعًا. وحدي كنتُ أقاتل للبقاء حَيًّا، أريدُ أنْ أرى ابني، لا أريدُ أنْ أموتَ قبلَ أنْ أراه، صارتْ تلك أمنيتي الوحيدة، لم أتمنَّ شيئًا يُمكن أنْ يبقي علىٰ خيطِ الحياة الرّفيع في روحي سِوىٰ هٰذه الأمنيّة، عجبًا! أنا أتمنّى الحياة وسطَ الموت، في زواجي الأوّل لم أكنْ لأتمنّىٰ مثل هٰذه الأمنيّة، لم تكنْ عزيزةً عَلَيّ أكثرَ مِمّا هي في هٰذه الأيّام؛ أيّام الحرب والتّعذيب والدّمار والجُنون!

بقيتُ في السّجن ثمانية أيّام، استُشهِد فيها عشرات الشّهداء من التّعذيب أمام عينَيّ، أكثرهم كانوا من الأطبّاء والمُهندسين، شهرُ رمضان يسيرُ بخطواتٍ لا تعترف بما يجري، يتقدّم نحونا، يقرعُ أبواب التّائقين، والجوعُ أثناء ذٰلك يحصُدُ أرواحَنا، ويقول لنا: لن تعيشوا طويلاً، هي أيّام وينتهي كلّ شيء!

لم ينقطعْ تفكيري في (سلام)، ما الّذي حَدَثَ معها؟ هل نجت؟ هل تمكّنتْ من الوصول إلىٰ مخيّمات النّزوح في الجنوب؟ هل حافظتْ على ابننا في رَحِمها؟ أيكونُ أحدُ الجنود الغِلاظ قد رَكَلَها في بطنها فأجهضت؟! سيكون ذٰلك أتعسَ خبرٍ يُمكن أنْ أسمعه لو حدث بالفعل. لقد انتظرتُ ابني هٰذا حوالي ثلاثين سنةً، أليسَ من حقّي بعدَ هٰذا الانتِظار الطّويل أنْ أراه؟ أيكونُ حَقٌّ بسيطٌ كهٰذا مستحيل التّحقيق؟ لماذا يكونُ انتظارُ مولودٍ أصعبَ حُلمٍ يعيشُ عليه ومن أجله رجلٌ وحيدٌ وبائسٌ مثلي؟!

فكّرْتُ كذٰلك بـ (نبهان)، هل نجا هو الآخَر؟ هل استطاع أنْ يُحافِظَ

علىٰ توازنه الرُّوحي وسطَ طوفان الجنون والكآبة؟! هل ما زال يحمل في جيبه الحلوىٰ والألعابَ من أجل الأطفال؟ هٰذا الّذي زرع الابتِسامة علىٰ وجوه الأيتام الصّغار مَنْ يدري ما يمورُ في أعماقه؟! لكَ الله يا (نبهان)!

خطَرَ ببالي في ساعات الغروب الباردة الحزينة كذٰلك (زكريّا)، لم أسمعْ عنه شيئًا منذُ غادرَنا أيّام مستشفى الصّداقة. إذا كان قد نَجَا إلىٰ الخِيام في (رفح) فما الّذي يصنعه هناك؟ إنّه الصّغير الأشدّ يُتمًا بيننا، قد يكونُ هناك مِئاتٌ أو آلافٌ من الأطفال مثله في غزّة اليوم، ولٰكنّه كان يحملُ روحَ الكِبار، كان يريدُ أنْ يتغلّبَ علىٰ وحدته بمساعدة النّاس، كان يريدُ أنْ يأخذ من جرح روحه بعضَ براءته ليمسحَ جِراحَ المرضىٰ والشّهداء الّذين يغصُّ بهم كلّ شبرٍ في غزّة الذّبيحة. كم أنا مُشتاقٌ في هٰذه اللّحظة أنْ أراه!

تشابهتِ الأيّام بعدَ ذٰلك. تحقيقٌ لا يتوقّف، وتعذيبٌ لا ينتهي، وآهاتٌ تشقّ سكونَ اللّيالي الرّهيبة، ودماءٌ تتفجّر على الأجساد فتُصبِحُ ثيابَها حينَ تجفّ، والموتُ يجلسُ بيننا كأنّه واحِدٌ منّا ينظر في وجوه الّذين سيرحل بهم عن هٰذه الدُّنيا، كان أرفقَ بِنا من الجلاّدين، كان يأخذُ بيدِ الّذي حانتْ ساعتُه، يمسحُ علىٰ وجهه، فيُطفِئ نورَ عينَيه في الدُّنيا، ويهمسُ في أُذنه: «سأنقلك إلىٰ عالَم النّور الحقيقيّ، حيثُ لا عذابَ ولا كيبلات، ولا تحقيق، ولا صَعْق بالكهرباء، ولا آهات».

في اليوم التّاسع، قادني أحدُ الحُرّاس في الثّالثة فجرًا إلى السّور الخارجيّ الغربيّ وسألني: «هل يُمكنك الركض؟». أجبْتُه والخوف يقفز في ضلوعي: «نعم». «إنّ قنّاصي السّجن على الأسوار تعرف ذٰلك؟».

هززْتُ رأسي بالإيجاب. ردّ: «عليكَ أنْ تركضَ بأقصى ما تستطيع لمدّة عشر دقائق دون أنْ تنظر وراءَك... هَيّا». ودَفَعَني من الخلف، وأطلقْتُ ساقَيّ للرّيح، وركضْتُ وسطَ الظّلام كأنّني ريحٌ مُرسَلة، ولم أتوقّف إلاّ بعدَ نصف ساعة، وأدركتُ أنّني نجوت، وآنئذٍ انخرطتُ في بكاءٍ شديد!



(٥٠) يَمشُون حُفاة!

كان الفجر بعيدًا، لم تتسلّل خيوطُ ضِيائه إلىٰ عالَمنا الأرضيّ بعدُ، وأغباشُ اللّيلِ طاغية. والكُحْليّ الغامق لا يزال يتباهَىٰ بأثوابه المُسدلة على الفضاء، ولا يريدُ أنْ يتزحزح بسهولةٍ لصالح البَياض. نظرتُ حولي فوجدْتُني في خَلاءٍ من الأرض لا أرىٰ فيها أيّ شيء. رَكَضْتُ من جديدٍ باتّجاه الغرب، لم أجرّب الغربَ من قبلُ، ماذا يُمكن أنْ يحملَ لي من هدايا؟! أظنّ أنّ الشّمس ستُشرِقُ بعدَ ساعةٍ أو أكثر، أملُ النّجاة ورؤية (سلام) زرع في أوصالي المُعذَّبة قُوّة كبيرة. عجائبُ لا تحدثُ إلاّ في المصائب. ركضْتُ بساقَين من رِيح؛ كأنّني أهربُ من وحشٍ يُدمدِمُ خلفي ويباريني في سِباقِ الموتِ والحياة. «سأنجو» همستُ لنفسي، وأردفْتُ: «رغم أنفِكم جميعًا أيّها السّفلة. وسألتقي بسلام».

بدأتْ بعضُ البيوت تظهر كأنّها جثامين هامدة في مدىٰ رؤيتي البعيد. صار لونُ الأفق رماديًّا، إنّه ينحو إلى البياض، بياضُ النّجاة لا بياض الزّبد في بحر غزّة، تخيّلْتُ أنّني أرىٰ بحر غزّة، البحر الّذي كان أبًا لنا جميعًا، نحنُ نسلْنا في غزّة من رَحِمه، ودرَجْنا أطفالاً أبرياء لا ندري ما سيحدثُ لنا علىٰ رمله، رمله الحنون الطّريّ، كان حزينًا هو الآخَر، الحُزن قدرُنا جميعًا. الشّفق الأحمر الّذي يذوب خلفي في الزّبد الّذي أمامي حالَ لونُه، واستعارَ من زرقة البحر شيئًا من صفائه، لا أدري ربّما هي زرقة السّماء، أنا موعودٌ بالحياة يا (سلام) رغم طوفان الموت الّذي ابتلَعَنا جميعًا. الوعدُ بالنّجاة خيرٌ ألفَ مرّة من انتظار الهلاك!

عَطِشْتُ، جَفّ ريقي من اللّهاث، ومن قلّة الماء في السّجن، كادتْ قواي تَخونُني في هربي الغامض هٰذا، جَمَعْتُها كلّها في ساقَيّ، وأمرتُهما أنْ تَركُضا مرّة أخرىٰ من أجل ألاّ تُصيبني رصاصةٌ ما، صار رُعبُ الرّصاصة الّتي تأتيني من الخلف علىٰ غفلةٍ هو هاجسي الّذي كان يحوّلني حينَ يُداهمني إلىٰ ورقةٍ يابسةٍ ترتعشُ وسطَ الرّيح. ركضت. الشّمسُ تُشرِق. النّجاة مُمكِنة. ما أجمل المُمكن في هٰذه الأيّام المُستحيلة يا (سلام)! الموتُ صارَ ورائي. الحياة كلّها أمامي. ابتسمتْ (رفح) الّتي هي جُزءٌ آخر منّا، من مُعجزاتِنا المُذهِلة. ظهر شريطٌ من البيوت فقدّرْتُ أنّه يُمكن أنْ أصل إليه في أقلّ من نصفِ ساعة، انتشرت سحابةٌ من الطّمأنينة في أعماقي حالَما رأيتُ شريطَ البيوت ذٰلك. أنا قادمٌ إليكِ يا (سلام).

ارتفعتِ الشّمس، وما أجمل الضُّحىٰ في هٰذا الوقتِ من السّنة في هٰذا الجنوب العزيز رغم ما تلبَّسني من الدّم والحُزن خلال الأيّام العشرة الفائتة. وصلْتُ إلى البيوت، كانتْ كلّها مهجورة، وتنتشر بينها بُسُطٌ من العُشب الأخضر، وعددٌ من الأشجار، كانتْ كلّها تحاول أنْ تنتصر على الموت مثلي. رأيتُ قبلها في الخَلاء راعِيًا يسوقُ أغنامه، تعجّبْتُ من ذٰلك، لا يُمكن أنْ يكونَ هٰذا حقيقيًّا، اقتربْتُ منه، كان أسمر البشرة، بملامح قاسِية، وذقنٍ مُستدقّة، ووجنتَين بارِزتَين، وعينَين صغيرتَين غائرتَين في محجريهما، لٰكنّهما تدوران كعينَي صقر؛ كان بدويًّا أصيلاً، هَشّ لرؤيتي مع أنّني رأيتُ علامات الحذر ترتسمُ علىٰ وجهه: «هل في غزّة أغنام؟» سألتُه. أجاب: «لا. غير ما ترىٰ. مَنْ يدري إذا كانتْ قذيفةٌ واحدةٌ يُمكن أنْ تحولّني معها إلىٰ أشلاء، لٰكنّني هنا بعيدٌ، أنا في خِصامٍ مع الحرب، هي تعمل في أرضٍ وأنا أعمل في

أرضٍ أخرىٰ». «أريدُ أنْ أصلَ إلىٰ مخيّمات النّزوح في رفح». «لا يزال لديك بعضُ الوقت حتّىٰ تصلَ إليها». «وماذا أفعل؟». «إذا تجاوزْتَ هٰذه البيوت الّتي تراها، فعليك، أنْ تتّجه إلى الجنوب قليلاً، ثُمّ تسير ساعةً باتّجاه الغرب، وهناك ستجدُ الخيام».

وصلْتُ أخيرًا إلى الخيام، دخلتُ ملهوفًا. أنظر في الوجوه، أبحثُ عن (سلام). سألْتُ أكثر من امرأة: «هل رأيتِ زوجتي؟!». كان بعضُهنّ ينظرْنَ في وجهي مُستغرباتٍ ولِسانُ حال الواحدة منهنّ: «أنتَ في ماذا ونحنُ في ماذا؟». «أنا أبحثُ عنها، خرجْتُ من المُعتقَل اليوم، وفقدْتُها في النّزوح الأخير. اسمُها (سلام) وهي صحفيّة. تعرجُ عرجةً خفيفة. لا أدري ربّما اختفتْ، وفي بطنها ابنُنا». وكُنّ يترُكْنَني لأسئلتي الّتي بدتْ لهنّ ساذجة وغبيّة.

بقيتُ طَوال اليوم أبحثُ في الخيام، أنتقلُ من خيمةٍ إلىٰ أخرىٰ، ومن مخيّم إلىٰ آخر بلا فائدة، شعرتُ باليأس؛ وراودَتْني أفكارٌ سوداء: «لا بُدّ أنّها أُعدِمت بالرّصّاص في بعض الطّريق، أنزلوها من شاحنة أبي العبد وأجهزوا علىٰ حياتها». وأستمرّ في تساؤلاتي: «ماذا حدث للجنين؟! هل كان يُمكن أنْ يكونَ قد ماتَ هو الآخر؟! إنّها في شهرها الخامس علىٰ ما أظنّ، إنّه لن يعيشَ حتّىٰ لو أخرجوه من بطنها».

كانتْ هواجسي تلعبُ بي، وتتقاذفني في الاتّجاهات كلّها، جلسْتُ على الأرض، ودفنْتُ رأسي في صدري، ولففتُ ذراعَيّ علىٰ ساقَيّ اللّذين رفعتُهما، عادوتْني الهواجسُ من جديد: «عَمّ نبحثُ ونحنُ كلُّنا مفقودون؟! مفقودون بالموت، بالرّحيل، بالغياب، بالجراح النّازِفة، بالحنين، بالخوف، بكلّ ما يُقطّع أوصالَنا...».

وفجأةً دَوّى انفِجارٌ هائلٌ، كانَ لشِدّته قد أطار بعض الخيام الّتي حولي، صحوتُ من غفلتي، ووقفْتُ كالملدوغ علىٰ ساقَيّ، ونظرتُ في مدى الرُّؤية فشاهدْتُ كُتلة من النّيران والدُّخان تصعدُ في المخيّم الّذي بجانِبنا، تساءلتُ مرعوبًا: «هل يقصفون الخِيام؟! الكلاب»، وشتمْتُ شتيمةً غير لائقة. وفجأةً رُحْتُ أركضُ باتّجاه موضع القصف، دارَ في خَلَدي أنّه يُمكنني أنْ أُساعِدَ في إنقاذِ الجرحي وتمريضهم، وتمنّيتُ لأوّل مرّة أنْ أرىٰ وجه (سلام) ولو بينَ الجرحىٰ، وأردفْتُ وأنا لا أزال أهمسُ في أعماقي: «أو ربّما سارعَتْ هي مثلي إلىٰ هناك من أجل أنْ تنقل الخبر. لا تنسَ أنّها صحفيّة».

وركضْتُ إلىٰ حيثُ النّار والموت والصّرخات الّتي تصعدُ في الفضاء. كان النّاس يركضون في كلّ اتّجاه، تجاوزْتُهم، ووصلتُ إلىٰ موقع المجزرة وأنا أهتفُ: «أنا مُسعِف، يُمكنني المُساعدة» ولم ينتبهْ أحدٌ لما قُلْت. ورُحْتُ أساعِدُ الجرحىٰ، كان هناك طاقمٌ طبّي وحيدٌ من دولةٍ عربيّة فيما يبدو يقوم بإجراء الإسعافات الضّروريّة في الموقع، انخرطْتُ بينهم، ورُحْتُ آخذُ الأمصال، وأغرزُ الإبر في سواعدِ الجرحىٰ، وألفّ مواضع الجروح بالشّاش، وأهمسُ في أذن كلّ جريح: «اصمدْ.. ستعيش». توالتْ بعدَها أطقمٌ أخرىٰ، هُرِعَ إلى الموقع ثلاث سيّارات إسعاف، ساعَدْتُ في نقل المُصابين، وبقينا حوالي ساعتَين ونحنُ نحاول أنْ ننقذَ ما يُمكن إنقاذُه. كانوا ينقلونهم إلىٰ مستشفىٰ ناصر.

جلسْتُ على الأرض من الإرهاق، قَدّم لي أحدُ الأطبّاء العرب زُجاجة ماءٍ صغيرة، أخذتُها وشكرْتُه، وشربْتُ منها، عندما نزلتْ جُرعتُها الأولىٰ في حلقي شعرتُ أنّني في الجنّة، منذُ يومَين تقريبًا لم تدخل جوفي قطرةُ ماءٍ واحدة.

رفعْتُ نظري إلىٰ مدى المُخيّم أنقّله بين الخِيَم، كانتْ آثار الدّماء وقد حالَ لونُها إلى السّواد لا تزال تترقرقُ على الأرض مع أنّها شربتْ من الدّماء اليوم أكثر مِمّا شرب الحجيجُ من ماءِ زمزم. في هٰذه اللّحظة لمحْتُ امرأةً تُمسِكُ ميكروفونًا وتُوجّه الأسئلة إلىٰ طفلٍ لا بُدّ أنّه فقد أهلَه في هٰذا القصف، رَكّزْتُ النّظر فيها، كان وجهها إلى الطّفل فلم أرهَ جيّدًا، غير أنّني رأيتُ بروزَ بطنها تحتَ سُترة الصّحافة فخفق قلبي، لا بُدّ أنّها هي، أمعنْتُ النّظر، إنّها هي، لا يُمكن أنْ تكونَ غيرَ (سلام) خفقَ قلبي بين ضلوعي بشدّة، فزَزْتُ علىٰ قدَمَيّ واقِفًا، ومضيْتُ نحوها، وحينَ صرتُ علىٰ مقربةٍ هتفْتُ بلوعة: «سلام... سلام...» ونظرتْ هي إلَيّ، والتقتْ عيوننا، وسالَ نهرُ الشّوق والمودّة، إنّها هي، هي... هي، وركضْتُ نحوها، وضممْتُها بينَ ذراعَيّ، ورحتُ أبكي: «خِفْتُ أنْ تموتي». وراحتْ هي تبكي، ووسطَ ذهول الطّفل الّذي أغناه الحال عن السّؤال رُحنا نبكي معًا.

«أنتِ لم تموتي إذًا؟». «ماذا ترىٰ؟» وضَحِكَتْ. «كيفَ نجوت؟». ونظرتْ إليّ: «ليستْ فرحتُكَ بنجاتي أكبرَ من فرحتي بنجاتك». «هل آذوكم في الطّريق؟». «لقد رأينا أهوالاً لا يُمكن أنْ أصفها. ولٰكنّني كما ترىٰ حيّة تُرزَق». ووضعتُ كفّي برفق علىٰ بطنها ورأتْ هِيَ الجروح علىٰ رُسغيّ واللّحم المُمزَّق هناك، وسألتُها: «هل هو بخير؟». ولم تُجِب علىٰ سؤالي، وقالتْ وهي تُشير إلىٰ رُسغي: «ماذا حدثَ لك؟». «لقد قادونا إلىٰ سجنٍ ما لا أدري ما هو، وهناك مارسوا علينا كلّ أصنافِ التّعذيب طَوال عشرةِ أيّام. لٰكنْ ليسَ هٰذا وقتَ الحديث عن الأسىٰ، حدّثيني عن هٰذا الّذي سيأتي» وأشرْتُ مرّة أخرىٰ

إلىٰ بطنها الّتي صار تكوُّرُه واضِحًا، قُبّةٌ صغيرةٌ تسبقها في الطّريق. «إنّه بخير، سيكونُ لنا مُستقبل يا فرج». «أيُّ مستقبلٍ يا سلام، إنّه حياتُنا كُلُّها، كأنّ كلّ ما ضاعَ من أمانينا، وما قُتِلَ من أحلامنا قد استبدلْنا بها رُؤية وجه هٰذا الّذي سيأتي». «لقد بدأ يرفسُ يا فرج» وضَحِكَتْ. «مُستعجِلٌ علىٰ أنْ يأتي إلى الدُّنيا!». «علامَ يستعجل يا فرج؟! إنّه سيأتي ولن يرىٰ غير الدّمار والأهوال!». «أرأيتِ الزّنبقة الّتي تأتي، إنّها تنبثقُ من بين الخَراب، ابنُنا هٰذا هو الزّنبقة الّتي ستملأ رِئتَينا بالشّذىٰ». وضَحِكْنا.

كان الطّفل لا يزال يُراقبنا وهو لا يدري أيذهب، أم ستُكمِل معه (سلام) المقابلة. وأشرْتُ لها بعيني ناحية الصّبيّ: «إنّه ينتظر». وانتبهتْ هِيَ إلىٰ ذٰلك، وأكملتْ أسئلتها وهي تنظر إلىٰ قدَمَيه الحافيتَين: «أليس لديكَ شبشب؟». «عندي شبشب». «فلماذا لا تلبسه؟». «لأنّه دورُ أختي، عندنا شبشب واحدٌ للعائلة كلّها، إذا طلعت مشوار بعيد بلبسه، لمّا أرجع أختي بتلبسه، مرّات لَمّا أنام بتطلع هي بتلبسه، بنبدلّ أنا وإيّاها، هي فِشْ عندها شبشب، انقطع». «طيّب ما بتنزل ع السّوق تشتري لك أو لأختك شبشب ثاني؟». «ما في شباشب بالسّوق، قلبْنا الدُّنيا علىٰ شباشب، ما لقينا غير هٰذا الشّبشب اشتريناه بعشرة شيكلات. سِعر الشّبشب هٰذه الأيّام مُمكِن بأربعين أو خمسين شيكل».

مشيْنا بعدَ ذٰلك، ونحنُ ننظر إلى الأقدام، كانَ أكثر من نصف النّازحين يَمشُون حُفاة. إنّ هٰؤلاء الحُفاة اليوم يدوسون علىٰ أرضٍ مليئة بالدّمار، لٰكنّهم في الوقتِ نفسِه يدوسون علىٰ كرامة مَنْ خَذَلنا، وعلىٰ عنجهيّة العدوّ المُتغطرس، وغدًا ستكون هٰذه الشباشب في أيدي هٰؤلاء الأطفال الّذين سيكبرون ويُصبحون مُقاوِمين هي الّتي يصفعون بها وجوه أعدائهم

ووجوه المُتخاذلين المُتواطِئين معهم.

«كيفَ تتدبّرين أمركِ هنا؟». «نحنُ من هٰؤلاء النّاس، نجوع معهم، وإذا وجدْنا رغيفًا نأكله فإنّنا نتقاسمه. يُمكن أنْ ننزعَ أنياب الجوع أو نُؤجّل قضمه لأرواحنا بين أشداقِه إذا تقاسَمْنا». «أينَ تعيشين؟». «في خيمةٍ. أينَ يُمكن أنْ أعيش؟ في قصرٍ مثلاً. ألا ترىٰ؟». وصمتُّ خَجِلاً. تابَعْنا السّير، وسألتُها: «هل ستبقين هنا؟». «أين سأذهب؟». «ربّما أبقىٰ هنا معكم في الخيام أيّامًا، ولٰكنّني في النّهاية سأمضي إلىٰ إحدىٰ المستشفيات القريبة». «أيّة مستشفىٰ؟». «مستشفىٰ ناصر أعتقدُ سيكون خياري القادم، لا أستطيع أنْ أبقىٰ هنا طويلاً. تعرفين ذٰلك؟». «أعرف». «هل ستأتين معي؟». «لا أدري. ربّما». ومضينا.

كان المُخيّم يعُجّ بالنّاس. النّاس حكايا. الحكايا ألم. الألم تعرفه حتّىٰ خيوط القِماش الّذي صُنِعَتْ منه هٰذه الخِيام. إنّها ليستْ نكبةً واحدة ولا وحيدة، إنّها نَكَبات، هم يريدون لنا أنْ نتركَ بلادَنا ونُهاجر. لن يحدثَ هٰذا. إنّ لحومنا عُجِنَت بتراب غَزّة، وإنّ دماءَنا اختلطتْ ببحرها، وإنّ أرواحنا لا تعرفُ غيرَ سمائِها، وإنّ كلّ ما يفعلون ويُخطّطون له تحتَ أقدامنا الّتي تجرّحتْ حتّىٰ تشقّق جِلْدُها.

ليسَ للبُؤسِ في المخيّم عنوان، كان بألفِ عنوانٍ ووجهٍ وسبيل. رأيتُ فيه مُهندِسًا يخرجُ من الصّباح إلىٰ مُحيط المخيّم، وأحيانًا يُغامِرُ بنفسِه ليصل إلىٰ مراكز تجمّع جنود الاحتِلال فيجمع الحطب مِمّا تساقطَ من الرّدم أو من بقايا الأثاث المُدمّر أو من جذوع الأشجار الّتي أسقطتِ الحربُ هامتها، وكان ينحني ليبحثَ من بين الأنقاض، ويضع خَدّه على التّراب، وينظر بعيونٍ ثاقبةٍ من بين الشّقوق،

ويمدّ يدَيه ليستخرجَ قطعةَ خشبٍ نجتْ من الموت، فيستجلبُها، ويجمعها إلىٰ جذوعه الّتي في حضنه، ويبقىٰ علىٰ ذٰلك ساعاتِ النّهار الأولىٰ كُلّها، ثُمّ يعود فيبيعها بعشرة شيكلات، وإذا كان مُوفّقًا فبعشرين شيكلاً، ثُمّ يشتري بها كيلو طحين أو بعضَ كيلو، من أجل أنْ يخبزَ لأهله فيأكلوا، وأحيانًا يُقايِضها بثلاث حبّات بندورة، ونصف رأس زهرة، وكأس زيتٍ إذا وجد، ويعودَ بغنيمته فيصنع للأفواه الجائعة عنده وجبةً صغيرةً يبقَون عليها يومًا كامِلاً. ثُمّ يعودُ في صباح اليوم التّالي إلىٰ سيرته، ويبدأ رحلة البحث عن الحطب من جديدٍ، وإذا لم يتمكّن في ذٰلك اليوم من جَمْع ما يكفي من الحطب فإنّه يبيتُ هو وعائلتُه دون طَعام.

رأيتُ في المخيّم أستاذًا جامعيًّا يبيع فُوَط الأطفال. كانتْ مفقودة ونادرة. كان يشتريها بما تبقّىٰ معه من مال من إحدىٰ شاحنات المُساعَدَات، ويربح فيها عشرين شيكلاً طَوال اليوم إذا باع ما يكفي، ويتدبّر أمر الطّعام لعائلته.

رأيتُ رئيس محكمةٍ، كان في السّابق إذا طرقَ منصّة القضاء أرهفَ كلّ مَنْ في القاعة السّمع لِما سيقول بما في ذٰلك الجُدران والأبواب، رأيتُه هنا يبيعُ الشّباشب، وإذا عَزّتْ فإنّه يبيع المُعلّبات، وإذا عَزّت فإنّه يبيعُ الحلوىٰ. ومن أجل ماذا؟! من أجل بضعة شيكلاتٍ تزيدُ علىٰ قيمة ما باع من أجل رغيفِ خبزٍ مصنوعٍ من علفِ الحَيَوانات، فيزدرده بصمتٍ ودمُوعُه تسيلُ علىٰ خدّه.

رأيتُ صغيراتٍ خَدّدتِ الحربُ خدودهّن، ونثرتْ شعورَهن، ومزّقتْ أطراف ثيابهنّ يَبِعْنَ الذّرة المشويّة، وعرنوس الذّرة يشترينه بثمانية شيكلات ويبعْنه بعشرة، وإذا بِعْنَ طَوال اليوم من شروق الشّمس إلىٰ

مغيبها خمسة عرانيس أو ستّة فإنّهنْ يعُدْن بغنيمةٍ كُبرىٰ إلىٰ أهلهنّ الّذين ينتظرونهنّ من بين شقوق باب الخيمة بلهفةِ مَنْ يحمل بين يدَيه الحياة!!

الألم رَحِمٌ بين الناس، والمأساة قُربَىٰ بين أصحابها، كانت الخطوب تُباعِدُهم وهواء غزة المُلطَّخ بالدَّم والغاز والحرائق والدُّخان يُقرّبهم. كيفَ يحنّ الفرع إلى الأصل! كيف يحنو الغُصن على الجذع! لقد سقطتْ أوراقٌ كثيرةٌ عن الشّجرة، ولٰكنّها بقيتْ واقفة!

نحنُ الغزِّيّين مُسالِمُون، لا نبتدئ أحدًا بالعداء، ولٰكنْ أنْ تهدمَ بيتي وتسرقَ قمحي وتُلوّثَ مائي وتَحرُثَ أرضي بالقنابل فسأحرقك وأحرق طائراتك، وأهدمها علىٰ رأسك مهما كان الثّمن، وأدافع عن تُرابي حتىٰ آخر قطرة من دمي. أنتَ لا تعرفني، أنا كُتْلةٌ من المفاجآت المُخبّأة، والخفايا الغامِضة. هل هناكَ أوضحُ من هٰذا؟! نحنُ لا نريدُ أن نموتَ بالمجّان، إنّ دماءَنا وقودُ السّراج الّذي سيُنير الظّلمات، إذا كان ظلامُ الاحتِلال قد خَيّم علىٰ بلادنا هٰذه الأزمنة كلّها، فإنّنا نحنُ الّذين سنُبدِّده، إنّ القلبَ قد لا يكونُ قادِرًا علىٰ ضَخّ الدّم إلى الأطراف ما لم تكنْ تلك الأطراف سليمة، سنُعيدُ الدّم إلىٰ شرايينا المفتوحة، وستكون لنا حياة!



(٥١) رَمَضان

دخل رمضانُ غزّة، مُثقَلاً، هَرِمًا، بائِسًا، يُجرجِر رجلَيه خلفَه، ويرمي ذراعَيه على جانِبَيه، ويُطأطِئ رأسَه، ويلبسُ مُسوحًا مُمزّقة، وينتعل حِذاءً باليًا، وينفضُ التُّرابَ عن رأسِه الحاسِر، ويعتذر لكلّ مَنْ يلقاه في طريقه: «لستُ رمضان الّذي تعرفونه فسامحوني!».

كان لرمضان طُقوسٌ مليئةٌ بالبهجة فيما مضى. اليوم لا طقوس. البُؤس يسيل من تحتِ الأقدام، الوجوه حزينة شاحِبة. الأفواه جائعة. الدّموع تتنازَعُ البقاء والانحِدار في العيون المُجرّحة.

استُشهِدت اليوم طفلتان جوعًا. كلّ شيءٍ مفقودٌ هنا. أنتَ لا تجدُ شيئًا بديلاً عن شيء. اللاّشيء هو الموجود، ومن اللاّشيء عليكَ أنْ تستمرّ في الحياة. يا فضل الله إنّنا نلجأ إلى ملكوتك فأطعِمْنا!

ضلوعٌ بارزة يُمكن أنْ تَعُدُّها بسهولة. الفكّ سَقطَ لا لَحم يحميه أو يرفعه، العيون انطفأتْ لا تجدُ قُدرةً على النّظر، السّاق نحيلةٌ إلى الحدّ الّذي لا يُمكن أنْ تحمل الجسد، الجوعى يزحفون، الذّراعان عَظْم. الوجنتان عظم. الأصابع عَظم. الصّدر عظم. الأكتاف عظم. البطن لا بطن، غائرٌ كأنّه مدفوعٌ إلى الظّهر مُلتصِقٌ به. الموتُ أقربُ من كلّ شيء، الأنفاسُ بطيئةٌ مُتقطّعة، نحنُ نموتُ من الجوع أيّتها الكلابُ المُتخَمة!

أردْتُ أنْ أصنعَ لي ولِـ (سلام) ولابْنِنا الّذي في بطنها وجبةَ إفطارٍ في

اليوم الأوّل، معي بعضُ النّقود، مئة شيكل، لقد كانتْ جيّدةً فيما مضىٰ، لا أدري ماذا يُمكن أنْ أصنع بها في هٰذه الأيّام؟

أخذتُ جولةً في السّوق، السّوق الّتي نبتتْ في وسطِ المخيّم بعدَ أنْ بُنِي بيوم واحدٍ. حاجات النّاس أقامَتْه. والأسواقُ حاجات، وإلاّ فَلِمَ تُقام؟ بقيتُ ثلاث ساعاتٍ تقريبًا من العصر أطوفُ على البَسْطات الّتي تعرضُ الأطعمة، زرتُ الباعة واحِدًا واحِدًا. المعروضات شحيحة وباهِظة الثّمن. ملح الطّعام الّذي كان يُباع قبل الحرب بشيكل للكيلو الواحد، صار سعره ثلاثةَ عشرَ شيكلاً!

عليكَ أنْ تقطعَ السُّوق من أوّله إلىٰ آخره وأنتَ تُعاينُ الدّكّات الخشبيّة وما عُرِضَ عليها، وتُفتِّشَ طويلا من أجل أنْ تعثر علىٰ بائع البيض. البيض أندر من الماس في المُخيّم، وجدتُ أخيرًا مَن يبيعها، البيضة الواحدة سعرُها ثمانية شيكلات، إنّه أمرٌ جنونيّ، كُنّا بهٰذه الثّمانية شيكلات نشتري طبق البيض كامِلاً وفيه ثلاثون بيضة!

أبسطُ الأشياء الّتي كانتْ توفّرها رمضانات الأعوام الفائتة في الأسواق الشّعبيّة لم تعدِ اليوم موجودة، أنا لا أبحثُ عن اللّحم، إنّه حُلُمٌ صعبُ التّحقيق إنْ لم يكنْ مُستحيلاً، أنا أبحث عن الحلاوة أو الدِّبس أو المُربَّىٰ أو قمر الدين أو الخرّوب، أو أيّ شيءٍ يُمكن أنْ يخلطَ بماءٍ ولو كان مالِحًا ويُشرَب، لٰكنّ هٰذه الأصناف البسيطة لم تعدْ موجودة. ماذا فعلتْ بِنا الحرب!

كانتْ موائدُ الفقراء تتزيّن فيما مضىٰ بأيّ نوعٍ من أنواع البقوليّات، الحمّص، الفاصولياء، العدس، الفول، اللّوبياء. لم يعد الأغنياء يستطيعون

شراءَها اليوم. حتّى البندورة والخيار والخسّ وكثيرٌ من أصناف الخضروات خلا منها السُّوق، رأيتُ فتاةً تبيع البصل، ولمّا سألتُها عن سعر الكيلو؟ قالت: (١٠٠) شيكل، لقد تحوّل إلىٰ ذهب (٢٤) قيراطًا!

كلّ ما كان معهودًا موجودًا مبذولاً للرّائح والغادي فيما مضىٰ، وكان لا يُلتَفتُ إليه ولا تُحَسّ له قيمة، صار في الحرب ثمينًا، ونادِرًا، وتحوّل إلىٰ أكبرِ الأحلام الّتي يحلمُ بها ربّ أسرةٍ من هٰذه الأُسر المُشرّدة.

بحثتُ عن حبّة شوكولاتة، بسكوتة، هريسة، سكريّات، أو أيّ صنف من الحلوىٰ يمكن أن أُقدِّمه لِـ (سَلام) ولطفلنا الّذي في بطنها فلم أجد!

تعبْتُ من الدّوران في المخيّم، لم نبدأ يومنا الأوّل في رمضان بسحور، لم يكنْ هناكَ شيءٌ يُؤكل، وجدْتُ تمرتَين، أكلتُ أنا واحدة و(سَلام) واحدة، وشربْنا معهما كأسَ ماء. الآن وقد قاربَت الشّمس علىٰ المغيب أرجو ألاّ أعودَ بلا شيء.

كان الأطفال يموجون في الشّارع التّرابيّ الّذي تشكّلتْ حولَه بسطات الباعة. عيونهم مليئة بالأسىٰ، ينظرون إلىٰ ما على البسطات ويحلمون بشيءٍ يسُدّ جوعهم، مع أنّ البسطات فارغة أو شبه فارغة، قليلةٌ هي الأشياء الّتي تُعرَض. عُدتُ في النّهاية بثلاث بيضات، وحبّتَي بندورة، ورغيفِ خُبز، لقد كانتْ هٰذه غنيمة، ومع فرحتي بأنّني تمكّنْتُ من توفير هٰذا الطّعام، إلاّ أنّ الغصّة كادتْ تخنقني، وأنا أرىٰ أطفالاً يسيرون عند الغروب في الشّارع دون أنْ أرىٰ أحدًا يُرافقهم من أهلهم، يضعون أصابعهم في أفواههم من الجوع، ينظرون في وجوه الّذين يقدرون علىٰ الشّراء لعلّهم يحصلون منهم علىٰ شيء، ولو كان حبّة بندورة واحدة!

تسألني (سلام) قبل أنْ يحلّ وقتُ المغرب ونحنُ نجلسُ أمام بيضَتين مسلوقتَين، وقد خبأنا الثّالثة لوقت السّحور: «هل ستطول الحرب؟». أصمت، تنظر في عينَيّ، هي لا تدري أنّ هٰذا السّؤال يتردّد في صدر كلّ واحدٍ في غزّة. تعرفُ أنّه سؤال بلا إجابة، ومع ذٰلك تُعيده بطريقةٍ أخرىٰ: «متىٰ ستنتهي هٰذه الحرب؟». «حينَ يشاء الله». تزمّ شفتَيها، وهي تحاول ألاّ تُخرج زفرةً حرّىٰ: «كلّ شيءٍ بمشيئة الله، ولٰكنّها طالتْ». «ستنتهي يومًا ما، إنّ هٰذا اليوم قادِمٌ لا محالة. لٰكنْ حتّىٰ يأتي ماذا يُمكننا أنْ نفعل؟ نحنُ نحتال علىٰ وجودنا بأيّ شيءٍ يُمكن أنْ يُبقينا أحياء، انظري إلىٰ هاتين البيضتَين، إنّهما ستُنهيان الحرب، ما دُمنا قادرين علىٰ أنْ نعيش فستنتهي الحرب. المهمّ ألاّ نيأس، ألاّ ننتهي نحن». ينطلق الأذان، لا تَمَرات. التّمرتان اللّتان كانتا على السّحور لم يكنْ لدينا سِواهما، نحنُ أحسنُ حالاً، أَمُدّ لها كأسَ الماء. «إنّه يسمع ويرىٰ»، تقول وتشير إلىٰ بطنها: «هٰذا الّذي هنا يسمع كُلَّ ما يحدث، ويراه من خلال عينَيّ، وأشعر أنّه هو وجيلُه سيكونون قادرين علىٰ أنْ يُكملوا المسيرة، وتكون نهاية الاحتِلال علىٰ أيديهم. هٰؤلاء الّذين يولَدون في مثل هٰذه الظّروف سيقصّرون عُمر إسرائيل».

لا تُوجد مساجد يُمكن أنْ تُصلّىٰ فيها التّراويح. ألفُ مسجدٍ في غزّة هُدِّمَ، قصفت الطّائرات المآذنَ كُلَّها، نحنُ اليوم نُصلّي في الشّارع، للتّروايح سِحْرٌ خاصّ، حتّىٰ في ظروف الحرب لا يُمكن التّخلّي عن هٰذا السِّحر.

الجوع الّذي تضاعفَ في رمضان دَفَع بكثيرٍ من أهل الشّمال مِمّن تَبَقّوا هناك أنْ ينزحوا إلىٰ هنا. نحنُ أيضًا جائعون في الجنوب.

لكنّنا أفضلُ حالاً. يستيقظ أهل الشّمال بلا سحورٍ، يبدؤون يومهم الشّاق بنقل المياه وجمع الحطب، الحطب الّذي صار الحصول عليه مغامرة، كلّ رزمة من الحطب تساوي حياةَ شخصٍ يُمكن أنْ يفقدها في مقابلها، ثم سيُغامِرون مغامرةً مُميتة أكثر من سابِقتها حين يتوجّهون إلى البحر من أجل انتظار المُساعدات الجوّيّة.

منذُ الفجر. يريدون أنْ يحصلوا علىٰ طَرْد المُساعدات. تجد الشّاطِئ يموجُ بالماء في البحر، وبالبشر في الرّمل. ينظرون في السّماء، يُحملِقون في الفراغ، يُرهِفون السّمع إلىٰ أصواتِ الطّائرات الّتي تحلّق هناك، لٰكنّها لا تأتي باكِرًا كما يتوقّعون، وعلى الرّغم من ذٰلك ينتظرون، فالجوع لا يرحم أحدًا، تمرّ ساعاتٌ طويلة دون أنْ تظهر بوادر قدوم هٰذه المُساعَدات الجوّيّة المُذِلّة، هم لا يملّون، ولٰكنّ جيشَ الاحتِلال هو الّذي يملّ من وجودهم، يُرسِلُ إليهم قذائف، يهتف وهو يُقهقه: «تريدون مساعدات، خُذوا، هٰذه القذائف يُمكن أنْ تتناولوها على الإفطار أيّها الأغبياء». تنفجر القذائف، يهيج البحر، تعلو أمواجه أعلىٰ من البنايات، تتفجّر الأجساد، تتبعثرُ نُتَفًا من اللّحم، تتدفّق الدّماء الفوّارة، تختلطُ بماءِ البحر، يُصبح الماء أحمر، تبدأ الصّرخات بالانخِماد، يمرّ الوقت سريعًا بطيئًا، تميل الشّمس إلى الغروب، في تلك السّاعة الأخيرة من ذٰلك النّهار الحزين، تترقرق مياه البحر أرجوانيّة اللّون علىٰ أشعّة الشّمس الرّاحلة وراء الأفق!

يمرّ اليوم. كيفَ يمرّ؟ يموتُ النّاس. كيفَ يموتون؟ يأتي اللّيل. كيفَ يأتي اللّيل؟ يصبغ كلّ شيءٍ بلون الدّم. الأفق، البحر، الرّمل، الجدران، طرود المُساعَدات. ثياب الممرّضين، صرخات المكلومين. ثُمّ يحول

اللّون إلى السّواد، لأنّ خلفَ هٰذا البحر، وراء ذٰلك الأفق، عند أولئك الجيران القريبين البعيدين قلوبًا سوداء قاتِمة.

يخرجُ النّاس في اليوم الثّاني لانتِظار المُساعدات، إنّ نِداء الحياة أقوىٰ من صرخات الموت في اليوم السّابق. إنّ أمل الحصول علىٰ الطّعام يُخفّف وطأة الموت المُتوقّع. تأتي الطّائرات هٰذه المرّة بعدَ ثماني ساعاتٍ. تبدأ بإسقاطِ المُساعَدات، تقع في البحر، أو تقع بعيدًا، أو تقع في البنايات المُهدّمة. وفي البحر يتبعُها مَنْ يعرفُ السّباحة ومَنْ لا يعرفها. يأكلُ البحر نصفَ الّذين طاردوها هناك، ويغرقون، وأمّا النّصف المُتبقّي، فتهربُ منه الطّرود ناحية الحدود المُحرّمة، إنّها أمهر منه في العوم وفي السّباحة، تتوغّل بعيدًا في المياه، يجتهد المسكين أكثر في ملاحقتها، يشتدّ في سرعته، حينَ يصل إليها أو يكاد تأتيه رصاصة في الجبهة: «لقد تجاوزتَ المسافة المسموح بها في البحر».

أمّا الطّرود الّتي سقطتْ بعيدًا، فيتراكض إليها النّاس، يصل إليها أسرع السّيقان وأقواها، أولئك الكبار في السّنّ، أو الّذين لا يملكون سيقانًا، أو الّذين حَنَى الجوعُ سيقانهم فليسَ لهم إلاّ الله.

وتلك الطّرود الّتي سقطتْ على البنايات فإنّها تعتلقُ بالأسلاك أو بالأعمدة أو النّوافذ، يتطلّب الوصول إليها مهارة قِرد، أو مهارة محترف تسلّق مرتفعات، إذا لم تكنْ محظوظًا فإنّك ستسقط من شرفة الدّور الرّابع في محاولاتك المُستميتة للحصول علىٰ طرد الأغذية. وإذا لم تكنْ محظوظًا أكثر، فسيطلع في وجهك من النّافذة البعيدة في الجهة المُقابلة قَنّاص، ويُجهز عليكَ برصاصة غادرة!

(٥٢) ماذا سأُسمّيه؟!

يستمرّ الجوع. كأنّ ما كان قبل رمضان لم يختلفْ كثيرًا. كأنّنا في صِيامٍ متّصل، كأنّ كلّ شهورنا رمضان. الشّمال تذبحه المجاعة الحقيقيّة. النّاس لا يدرون ما يفعلون، إنّهم لا يجدون حتّى الماء. الموتُ يتربّص بهم هناكَ جوعًا، وإذا نزحوا تربّص بهم الموتُ الكامن في رشّاشات القنّاصين وفوهات الدّبّابات، وإذا جاؤوا إلى الجنوب هربًا من الجوع فإلى الجوع يهربون!

هٰذه عائلةٌ تخرجُ من بيتها المُهدَّم في الشّمال، ترفع الرّاية البيضاء حتّىٰ لا تنهمر عليها الرّصاصات، الأوبئة هنا تفتك بالنّاس، قاتِلٌ آخر في صفّ القتلة الّذين لا ينتهون، لٰكنّ الحياة احتِمالٌ والموتَ يقين. تسير نحو الجنوب. السّيّارات مفقودة. الكارّات نادرة، إنّهم يمشون علىٰ أقدامهم، يسقطُ بعضُهم في الطّريق من الجوع والإعياء. الطّريق قاتِلٌ جديد!

الّذين تبقّوا في الشّمال ماذا يأكلون على الإفطار؟ التِّبْن. نعم التّبن، لقد ماتت الحمير، وماتت الدّواب، وتبقّىٰ قليلٌ من علف الحيوانات (التّبن)، كان العثور عليه أمرًا يستحقّ الاحتِفال، يُنقّىٰ من الرّوث، أو يبقىٰ علىٰ حاله، يُخلَط بالماء، يُضاف إليه شيءٌ ما حتّىٰ يجعل مَرَقَتَه أكثفَ ليملأَ الفراغ الكبير في المَعِدة، ثُمّ يُحتَسىٰ!

الدُّقّة طعام الأثرياء في هٰذه الأيّام. الخُبّيزة اختفتْ. كانتْ تملأ مساحاتٍ واسعةً من الأرض، هَجَم عليها الجوعىٰ، إنّ بعضهم لا يجدها

أصلاً، إنّها طَعامٌ رائعٌ لو توافرتْ. آلاف من النّاس عاشوا عليها لشهور. لقد ساعدَتْهم علىٰ أنْ يبقوا أحياء حتّىٰ هٰذه اللّحظة.

لو فتَّشْنا في الزّرائب الّتي لم يطلْها القصف، فلربّما نجدُ شيئًا يُؤكل، علفُ الأرانب هٰذه المرّة. الحصى الصّغير الّذي فيه يُجرَش، جريشة العلف تُصبح سَوِيقًا شهيًّا إذا أضيفَ إليها الماء. الأرانب ماتت، ترىٰ لو أنّنا قدّمنا لها هٰذا الّذي نأكله أكانتْ تفعل؟!

الخُبز، أعني رغيف الخبز، لأنّ الخُبز كلمة كبيرة، تخيّل أنْ ترىٰ طبقًا فيه أكثر من رغيف، إنّكَ في الجنّة إذًا، عددٌ من الأرغفة مثلاً خمسة أو عشرة علىٰ طبقٍ واحدٍ، وتراه دُفعةً واحدة، هٰذا لا يحدثُ إلاّ في الجنّة، نحنُ لا نرى الرّغيف في الشّهر أكثرَ من مرّة، تمامًا كالبدر، إذا رأيناه أكبرْناه، وعرفْنا أنّه خلقُ الله البديع، وهتفْنا ونحنُ نُشير إليه دون أنْ نجرُؤَ علىٰ تلمُّسه: «سبحان الله!».

آه الصّبّار، يُمكن أنْ تعثر في رمضان علىٰ صبّارة واحدةٍ نجتْ من الموت. يُمكن أنْ تجدها اختبأَتْ في شَقّ بيتٍ مُهدّم، في موضعٍ لم تطله القذائف ولا الأدخنة، حينئذٍ يُمكن أنْ تقتسمَ عائلةٌ كاملةَ حبّةَ الصّبّار هٰذه، إنّها هديّة وقعتْ من السّماء السّابعة!

النّاس صائمةٌ منذُ شهور، منذُ أنْ شحّ الطّعام بعدَ شهرٍ من الحرب، إنّ رمضان لم يغيّرْ شيئًا كثيرًا، لٰكنّه ضاعفَ شبَح الموت الّذي ينتظر النّاس علىٰ أبوابِ خيامهم. الآباء يصومون ثلاثة أيّام لا يأكلون، ليسَ لأنّهم غيرُ جائِعين، بل لأنّهم يدّخرون حصّتهم من أجل أطفالهم، إنّهم يُمكن أنْ يؤجّلوا الإغماء بسبب الجوع الشّديد بضعة أيّام،

أمّا أطفالهم فلا يستطيعون. إنّهم يبتسمون في وجوههم وهم يمدّون لهم حصّتهم ودموعهم تنهمر في أعماقهم.

المساجد سُوّيتْ بالأرض بسبب الغارات الجوية، والأيتام يتجولون في الشوارع، يتسكّعون ينتظرون مُحسِنًا يشتري لهم شيئًا يُؤكل. النّاس باتتْ تخشى التّجمّعات الكبيرة حتّىٰ لا تجذب انتباه طائرات الجيش الإسرائيلي، القصف عند العدوّ أسهل من شرب الماء. أحيانًا يقصف للتّسلية. قائدُ السّرب يشعر بالملل والرّتابة، ويريدُ أنْ يرىٰ مشهدًا دراميًّا، هو لا يعدُّنا أكثر من ذٰلك.

سهرات ليالي رمضان تحوّلتْ إلى اختباءات في الخِيَم، محاولة النّوم مُبكّرًا، سَمَر أهل السّمر صار من الماضي، ضجيج الصواريخ والغارات والتفجيرات غطّىٰ علىٰ كلّ شيء، وقتلَ كلّ بهجة.

آه لو كان الزّمان غيرَ الزّمان لرأيتم كيفَ يكون كرم أهل غزّة. كيفَ يكونُ التّفنُّن في الطّبخ عند المرأة الغزّيّة؛ كُنّ يطبخْن المُسخّن، رائحته الشّهيّة تُشَمّ علىٰ بُعدِ عشرات الأمتار، الدّجاج المُحمَّر، الزّيت البلديّ، السُّمّاق الأصليّ، الخبز، البصل، والخلطة الّتي تجعل أرغفة الخبز طريّة تغوص فيها الأصابع بليونة.

الآن لا تُوجَد لحوم، لا دجاج، لا شيءَ يُذبَح ليُؤكل، تحوّلْنا إلىٰ نباتيّين رغمًا عن أنوفنا، وحتّى النّباتات صارتْ عزيزة. النّساء المحظوظات يطبخن (المقلوبة الكذّابة) أرزّ منقوع، برأس زهرةٍ دون بطاطا أو باذنجان ولا دجاج، في النّهاية هٰذا هو المُمكن. الميسورون لا يأكلون أكثرَ من العدس والتونة المُعلّبة والمعكرونة.

صناعة الخبز هٰذه الأيّام محفوفةٌ بالمخاطر. لا غاز، لا كهرباء، نوقد النّار بعدَ أنْ نجمع الحطب، ولٰكنّ الحطبَ ليسَ سهلاً كذٰلك، الطّحين نادر، يُمكن أنْ نطحنَ العلف، الخميرة غير موجودة، سيكون عويصًا، لا بأس، إنّ الحصول علىٰ رغيف من علف الحيوانات يستغرق حوالي ستّ ساعات!!

رمضان يسير والنّاس لا تدري، أو ربّما تُشيحُ بنظرها بعيدًا عنه إذا رأتْه يمشي بأسماله البالية في السُّوق، حتّىٰ رمضان نفسُه جاع، وهَزُلَ جسدُه. أمّا النّاس فقد تغيّرتْ ملامحهم إلى الحدّ الّذي لم يعدْ يعرفُ الأخ أخاه إذا غابَ عنه شهرًا أو شهرَين في هٰذه المجاعة، الأجساد ذابتْ، العيون غارت، الوجنات برزتْ عِظامُها، التَّرقُواتُ نفرتْ. مَنْ كان ذا نِعمةٍ منّا فقدَ من وزنه أكثر من عشرين كيلو غرامًا!

المخيّم يعيشُ خارجَ الحياة، إنّ الّذين نجوا من الموت بالقصف في الشّمال، جاؤوا إلىٰ هنا ليموتوا من الجُوع. غزّة مليئة بالمُفاجآت، صباح اليوم الفائت خرجْتُ من خيمتي لأجدَ الأرض والخِيَم قد امتلأتْ بمنشوراتٍ ألقَتْها علينا طائرات الجيش الإسرائيليّ فجر هٰذا اليوم، كانت المنشورات تدعو إلى التّسامح، إسرائيل تدعونا إلى التّسامح فيما هي تقصفُنا بآلاف الأطنان من القنابل الّتي فاقتْ شدُّتها إلى الآن شدّة ستّ قنابل نوويّة. إسرائيل أمّ التّسامح والسّلام!!

أمسكْتُ أحدَ هٰذه المنشورات لأقرأ هٰذه العبارة: «أَطْعِمُوا الطَّعام وأَطِيبُوا الكلام، صومًا مقبولاً وذنبًا مَغفُورًا وإفْطارًا شهيًّا» ثُمّ في ذيل المنشور: اسم «الفتح الصادق - فتح آفاق جديدة لسكان غزة»، مرفقة بنجمة داوود.. يا لله؛ أيّة وقاحةٍ هٰذه؟! أيّ منطقٍ هٰذا؟!

لو كانوا يُلقون هٰذه المناشير على القرود الّتي تتقافز في الأدغال لَما صدّقَتْهم! أفعَلَيْنا نحنُ الّذين نذوق ويلاتِها في كلّ لحظة ألفَ مرّة، ونتجرّع سُمُومَها وتأكلنا وحوشُها في كلّ حين أنْ نُصدِّقَها. لماذا إذًا تمنعون الطّعام من أنْ يدخل إلينا، وإذا سقطَ علينا من الطّائرات تقتلوننا؟! لماذا لا يُدخل جيشُكم الحنون هٰذه المُساعَدات والمَعُونات للمُواطِنين الأبرياء الجوعىٰ؟! أليس هٰذا نوعًا من التسامح؟!». صحيح يا إسرائيل، لقد صُمْنا على الجوع وأفطرْنا علىٰ قذائفكم الّتي زَيّنتْ موائدنا الرّمضانيّة، تفضّلي أفطري معنا إفطارًا شهيًّا؛ إفطار الدّم واللّحم المحروق!

غيرَ أنّه يُمكن استخدام هٰذا الاستِغباء في أمرٍ جيّد، الأطفال جمعوا الأوراق، وفي المساء أوقدوا تحتها النّار واستدفؤوا.

مرّ الأسبوع الأوّل من رمضان ولا أحدَ يدري كيفَ يُمكن أنْ يمرّ الجُوع هٰكذا. إنّها أيّامٌ تتشابَه، الخِيَم في اللّيل شديدة البرودة، وفي النّهار تغلي، والحشرات تلسعُ كلّ شيءٍ، بعضُها يحطّ على الجلد يريدُ أنْ يمصّ شيئًا من الدّم، يهتفُ به الوريد: «حزينٌ أنا من أجلك، لم يعدْ هناك دَمٌ لِيُمَصّ».

الأطفال تجول في الأتربة دون غاية. النّساء الكبيرات في السّنّ يَجلِسْنَ أمام الخِيَم علىٰ مقاعدَ بلاستيكيّة، يَنظُرْن ساهِماتٍ في الفراغ، الرّجال يجوبون الأنحاء، يبحثون عن طعام، يُهرعون إذا سمعوا بوجود مُساعدات، أو شاحِنات قادِمة من المعبر، لماذا علينا أنْ نموت ونحنُ ننتظر لقمة الخُبز المُغطَّسَةَ بالدّم؟!

في اليوم التّاسع أو العاشر من رمضان، كُنتُ مستيقظًا بعدَ منتصف

اللّيل، لم أجدْ للنّوم سبيلا، فكّرْتُ فِيّ وفي (سلام)، وفي ابننا القادم، الغريب أنّنا لم نقترحْ له اسمًا، كيفَ شَغَلَتْنا الحربُ عن ذلك. رُحتُ أقول، سأُسمّيه: «عمر»، لا. «صلاح». لا. «سعيد» سيملأ قلبَنا بالسّعادة. ثُمّ توقّفْتُ. يا إلهي كيفَ نسيت؛ ماذا لو كانَ بِنتًا، سأُسمّيها (رجاء)، لا. نبش الماضي ليسَ جَيّدًا. سأُسمّيها على اسم أمّي. لا، ماذا لو لم ترضَ (سلام) بذلك، إذًا فلأُسمِّها على اسم أُمّها، ثُمّ توقّفْتُ وحككْتُ ذقني، ولكنْ لماذا لا أسأل (سلام) نفسها، وأردْتُ أنْ أوقِظَها، فلم أكدْ أهزُّها من كَتِفَها: «سلام... سلام...» حتّى طرْتُ أنا وطارتْ هِيَ وطارَ نِصْفُ مَنْ في المُخَيّم.

حينَ استعدْتُ الوعي، عرفْتُ أنّ قنبلةً ألقيتْ على الشطر الجنوبيّ من المخيّم الأقرب إلى الحدود، وأنّه من قُوّة الانفِجار طارتْ خيمُتنا وبعضُ الخِيَم المجاورة، لم أصَبْ بأذى، ولا (سلام)، خدوش بسيطة. لكنّ الصّاروخ قتلَ حوالي مئة شهيد، وأكثر من أربعمئة جريح، ركضْتُ إلى مكان الانفِجار، وبدأتُ مهمّتي المُقدَّسة، أنقل المُصابين، أخيطُ الجروح المُستعجلة، أربطُ الأربطة الآنية، أَهمسُ الهمسات المُعتادة: «اصبر... ستعيش». وهُرِعتْ سيّارات الإسعاف من المستشفى القريب ومن المستوصفات الصّحيّة، ومن بعضِ المراكز في المُخيّم، وتعاون ذوو الجرحي على نقلهم فوقَ المحفّات، وركبْتُ مع أوّل فوجٍ سارَ بجرحاه إلى مُستشفى ناصر، وهكذا استقرّ بي المطاف هناك، وعُدتُ إلى عملي القديم ثانية.

(٥٣) يَموتُ الّذي نَجا مِنَ الموت!

بقيتْ جُثَث لم تُحمل على النّقّالات. إمّا لأنّ سيّارات الإسعاف لم تعدْ تتّسع، وإمّا لأنّه لم يتعرّف إليهم أحدٌ، إنّهم شهداء مجهولون. هناك أربعة أو خمسةٌ ظلّوا وقتًا طويلاً مُسَجَّيْن على الأرض، في العَراء. عُدتُ إليهم مع أوّل سيّارة عائدة. قال لي (نبهان): لا داعي لأنْ تأخذهم إلى المُستشفى، سأكفنّهم بما تيسّر، وسنصلّي عليهم معًا، وسندفنهم بعدَ آخر خيمة. صارت الجهة الغربيّة الجنوبيّة من المخيّم مقبرة، أعني تحوّلتْ مع الأيّام إلى مقبرة، الشّهداء الّذين يجدون لهم قبرًا هم شُهداء محظوظون بلا شكّ، تذكّرْتُ الّذين لم يستطعْ أحدٌ أنْ يُزيحهم عن الطّريق أثناء نزوحنا الثّاني، المنظر لم يكنْ أحدٌ ليحتمله!

القبور لا ترتفع عن الأرض كثيرًا، لا شواهد لها، الشّواهد رُخام، لا رخام اليوم في غزّة، كلّ ما يُمكن أنْ يفعله ذوو الشّهيد أنْ يعثروا على طوبة يكتبون فوقها اسمَ ابنهم، أو صخرة صغيرة أو حجرٍ يضعونه عند رأسه، أكثر الشّواهد كانتْ بلا أسماء، إلاّ أنّ عددًا منها كان يحمل أسماء الشّهداء المُرتقِين، كانوا يضعون اسمه على الشّاهدة مع المنطقة الّتي نزح منها أو عاشَ فيها، رأيتُ المناطق الآتية مكتوبة على تلك الشّواهد: «الزّيتون، المواصي، التّفاح، الدّرج، الصّبرة، الشّجاعيّة، الشّيخ رضوان،...». لم يكونوا ليجتمعوا مثل هذا الاجتِماع في مكانٍ واحدٍ لولا الحرب. ولقد فرّقَتْهم الحياة وجَمَعهم الموت!

لحقتْ بي (سلام) إلى مستشفى ناصر. بدأ بطنُها يكبرُ مع الزّمن

وحركتُها تثقل. في مستشفىٰ ناصر رأينا فَظَاعاتٍ لا تقلّ عمّا رأيْناه في مستشفى الشّفاء. كانت هدفًا مستمرًّا للجيش. كان النّازحون والهاربون من الجحيم يبنون بعضَ خيمهم في ساحته الخلفيّة، ولم يكونوا يدرون أنّهم يهربون من الجحيم إلى الجحيم.

سألتْ (سلام) أحدَ النّازحين: «من أينَ نزحت؟». ردّ: «نزحْتُ أوّل الأمر إلىٰ مستشفى الشّفاء، ثُمّ قصفونا هناك، ونزحْنا إلىٰ منطقة النّفق في حيّ الشّيخ رضوان، ثُمّ قصفونا، ونزحْنا إلى الجلاء وقصفونا، ونزحنا إلىٰ هنا في مستشفىٰ ناصر في خانيونس، وها هم يقصفوننا»، وتنهّد، سألتْه سلام: «أمسِ رأيتُكَ هنا في هٰذه الخيمة، وكنتَ جالِسًا مع أطفالك وعائلتك، وأنا الآن أراك تقوم بِفَكّ الخيمة، ما الّذي جرىٰ؟». «قصفونا هنا في مستشفىٰ ناصر. سأنزح للمرّة الخامسة أو السّادسة». «إلىٰ أين؟». «إلىٰ رفح». «نحنُ قدمْنا من رفح، هل هناك الأمور أحسنُ من هنا؟» «لا». «ولماذا تنزح إلىٰ هناك؟». «أجرّب حظّي؛ بعد إطلاق النار أمسِ على المستشفىٰ حلّتْ حالةٌ من الرُّعب والخوف علىٰ زوجتي وأولادي وامرأة ابني، وقرَّرْنا النّزوح إلىٰ رفح. لو شردْنا إلى الصّحراء رُبّما يكون الوضع أكثر أمانًا، تجمّع الخيام معرّضٌ للقصف في كلّ مكان». «ما الّذي حدث أساسًا؟». «ليلة أمس صار إطلاق نار من طائرات كواد كابتر وكان هناك عددٌ من القنّاصين في نوافذ البنايات المُحيطة بالمُستشفىٰ، تخيّل أنْ تكون نائِمًا وسطَ خيمتك في أمان الله، وغافِلاً عمّا يدور حولك، وتأتيك رصاصةٌ في عينك، القنّاصون لا يرحمون، أمسِ كان هناك عشرات الإصابات، إنّنا موضعُ تسليةٍ بالنّسبة لهم». «ما الإصابات الّتي حدثتْ؟». «الشّهداء كانوا مرميّين في كلّ مكانٍ، رأيتُ شهيدًا صحا من الموت». ابتسمْتُ

وظلّتْ عيناه جامِدتَين وشفتاه مزمومتَين. أردف كأنّه يريدُ أنْ يُؤكّد كلامَه: «أريدُ أنْ أبتعد عن الحرب وعن القَنْص، أريدُ أنْ أجدَ مكانًا أطمئنّ فيه قليلاً». «أليستِ المستشفىٰ بالأساس مكانًا آمِنًا؟! على الأقلّ حتّىٰ هٰذه اللحظة لم يقولوا لكم أنْ تخرجوا من المجمّع ولم يهدّدوكم ولا أمروكم بالإخلاء». جحظتْ عيناه، وهتف مُستنكِرًا: «مَنْ قال لك ذٰلك؟ التّهديد في كلّ لحظة، والطَّخّ في كلّ لحظة، والكواد كابتر لا تكفّ عن التّحليق فوق الخِيام ولا ثانية». «يعني مستشفىٰ ناصر لم يعدْ مكانًا آمِنًا؟!». «لا... لا... كُنّا نقول عن مستشفى الشّفاء إنّه مكان آمِن واكتشفْنا أنّه غير آمن، كُنّا نقول إنّهم لن يقتحموا المستشفىٰ، ولٰكنّهم اقتحموه وقتلوا كلّ مَنْ فيه، ونبشوا القبور الّتي حوله، وسرقوا أعضاء الشّهداء، والتقطوا لهم صُورًا تذكاريّة هناك!!». «إذًا أينَ هو المكان الآمن برأيك؟». «لا يُوجد مكان آمنٌ واحِدٌ في غزّة، حتىٰ ونحنُ نازحون بعدَ قليلٍ وذاهبون إلىٰ رفح ليس هناك أمان، كُنّا سنذهب إلىٰ تلّ السُّلطان، البارحة قصفوه، وكان هناك عدد كبير من الشُّهداء والجرحىٰ، قلت لعلّي أنزحُ إلىٰ منطقةٍ أُخرىٰ. نحن موتىٰ هنا وموتىٰ هناك وموتىٰ في كلّ مكان». «لٰكنْ هل قرارُك بالذّهاب إلىٰ رفح مدروس؟ أنتَ تعرف، رفح فيها أكثر من مليون شخصٍ ونصف المليون، وهي بقعة صغيرة، مساحتها قليلة، ولا تستطيع أساسًا أنْ تقف فيها، هل تدبّرتَ مكانًا هناك؟ أم أنّكَ تَفُكّ الخيمة، وتذهب علىٰ باب الله تبحث عن مكانٍ هناك؟». «لا شيءَ مضمون، أنا أُحاول. أنسِبائي هناك، أريدُ أنْ أستقرّ عندهم قليلاً قبل أنْ أبحثَ لي عن مكان». «وهٰذه الأغراض؟ هل ستحملها إلىٰ هناك؟». «أغراض بسيطة، لا طقم، ولا فرشات ولا أدوات مطبخ، ولا شيء، يعني كله هرابيش، كلام فاضي بس هيك.. تَمشِيات حياة». «هل هٰذه الخيمة وحدها

ستحميكم من البرد وخاصّة في اللّيل؟ هل تقي أطفالك وتسترهم؟».
«لا طبعًا، نحنُ نموت من البرد كل ليلة، وفي النّهار الجوّ حارّ، قالوا لنا يُمكنكم أنْ تطلبوا أغطيةً من المؤسسات والجمعيات. كذّابون. لي هنا أكثر من خمسين يومًا أطلب كلّ يوم حرامًا وفرشتين، ليسَ لدينا فرشة ننام عليها، لا حرامات نتغطّىٰ بها، بطانيّتان هٰذا كلّ ما لدينا». تنهّدتْ سلام نظرتْ حولها، سألتِ النّازح: «هٰؤلاء جيرانُك؟». «نعم». «سيمكثون هنا في ساحة المستشفىٰ، في خيمتهم أم أنّهم سيرحلون؟». «الله أعلم. كل واحد وعقليّته. أما بالنسبة إلي فقد انتهى الأمر، أخذت قرارًا بالرّحيل إلىٰ رفح، لشدّة الخوف الّذي تُعاني منه زوجتي وكَنَّتِي وأولادي، هم في رقبتي ولا أستطيع أنْ أتحمّل البقاء هنا أكثر».

دأبتْ (سلام) علىٰ مقابلة النّاس كعادتها، والاستِماع إلىٰ حكاياهم، في رمضان حكايا النّاس تلبسُ ثيابًا أشدّ قتامة. الجوع السّيّد المُتمكّن من أرواح النّاس اللاّعبُ بها، ورمضان يُعطي للجوع مستوًى آخَر، يرتقي به إلىٰ درجة أنّه يتعادل مع الموت، ونحنُ كُنّا بين موتاتٍ كثيرةٍ نحاول أنْ نجدَ طريقًا ولو ضيّقةً للحياة.

ننام أنا و(سلام) على الأغلب في خيمةٍ مع النّازحين، نسمع مثلهم الزّنّانات، وأزيز (الكواد كابتر)، صار هٰذا أمرًا عادِيًّا، صار الموتُ صديقًا، لا ليسَ صديقًا، لا أحدَ يُحبّ الموت، صارَ صديقًا اضطراريًّا، أو قُل إنّه صار رفيقًا، يُجالِسك في كلّ حين، ويتفرّس في وجهك كلّ لحظة، وكانتْ عداوته شِبه مستحيلة، وخيار الابتِعاد عنه أشدّ استِحالة، تذكّرْتُ بيتَ المتنبّي:

وَمِن نَكَدِ الدُّنيا على الحُرّ أنْ يرىٰ

عَـدُوًّا لـه مـا مـن صداقتِـه بُـدُّ

أنا أُجري عشرات العمليّات الجراحيّة مع الأطبّاء، نحاول أنْ نصل الخيطَ المُنقطع؛ خيطَ الحياة المُتهتّك، أحيانًا أجدُ عبثيّة في محاولاتنا تلك، وأشعر أنّ الموتَ يسخر منّا، ذلك أنّنا رُبّما نقضي ستّ ساعاتٍ في عمليّة جراحيّة ما، لنهنّئ المريض بنجاح العمليّة، ثُمّ نُخرِجه من غرفة العناية المُركّزة إلى الغُرَف العاديّة، أثناء خروجه ذلك يُقصَف المُستشفىٰ ويَموتُ الّذي نَجا مِنَ الموت قبل قليل! ألا يعبثُ الموتُ معنا بهذه الطّريقة؟ ألا يسخر من كلّ محاولاتنا المُجهَدَة؟!

منذُ أنْ قدِمْتُ إلىٰ هنا قبل حوالي عشرة أيّام، وها نحنُ في العشر الأواخر من رمضان، وأنا لم أهدَأ يومًا واحِدًا، أساعِدُ رئيس قسم جراحة الأوعية الدّمويّة في المُستشفىٰ، نقضي ساعاتٍ يوميًّا في إجراء العمليات الجراحية، وغالبا ما نعمل طوال الليل، ونُفطِر بسرعةٍ عند غروب الشمس علىٰ كل ما يمكن أن يجده زملاؤنا في ذلك اليوم قبل أنْ نعودَ إلىٰ غرفة العمليّات.

كُنّا ملوكًا؛ ذلك لأنّنا أكلْنا كثيرا من الملوخية إلىٰ جانب أعشاب أخرىٰ، مَنْ يستطيع أنْ يجدَ الملوخيّة في هذه الأيّام، تذكّرْتُ عندما قرأتُ ذات مرّة أنْ المُلوخيّة بالأساس كان اسمُها (المُلوكيّة) ذلك أنّها كانتْ طعام الملوك، وكان الملوك يمنعون النّاس من أكلها، وضَحِكْتُ في سِرّي: «لقد جعلتْنا الحربُ ملوكًا إذًا!».

نعودُ إلى الفقر في طعامنا من جديدٍ، نترك الملوخيّة لأهلها، ونملأ أمعاءَنا الخاوية بالعدس، كم كان صعبًا أنْ نوفّره قُبيل ساعات الغروب. أمّا صلاة التّراويح فقد كان هناك مَنْ يُقيمها في فراغٍ خلف الخيام المُقامة في السّاحة الخلفيّة لمستشفىٰ ناصر، أمّا المساجدُ ذات الأقواس الجميلة، والقِباب المُذهّبة والمُزيّنة، والمآذن الشاهقة الصّادحة بالنّداء الخالد،

والتي كانت ذات يوم تُمثِّلُ أفق غزة المزدحم بالجَمال والرّوحانيّة، فقد تحولت إلىٰ أنقاضٍ وأردامٍ.

شَهِدْتُ لحَظاتِ الوداع الأخيرة لكثيرٍ من الرّاحلين، كان ذٰلك يكسرني من الدّاخل في جانبٍ منّي، ويُقوّيني في الجانب الآخَر، أمّا الّذي يكسرني فَحِدّة الحُزن، واليقين بأنّ ما فات مات، وأنّه لا يُمكن أنْ يعود، وأمّا الّذي كان يُقوّيني فشيمة أهل غزّة من الوفاء والصّبر وقوّة الاحتِمال والعرفان بالجميل في لحظات الوداع.

رأيتُ رجلاً قرابة السّتين، كان قد جَثا علىٰ رُكبتَيه حافِيًا، أمام جُثمان زوجته، وقد أحنىٰ رأسَه جِهة رأسِها الشّهيد، ووضع يده اليُمنىٰ علىٰ جبهتها، وكان لو كان للكون قلبٌ لانفطر، ولو كان له أُذُنٌ لأصغىٰ له وهو يهمسُ في أذنَيها: «الله يسامحك يا بنت عمّي، عمرك ما حكيتي لي كلمة تؤذيني، الله يدخلك الجنّة، ويدخلك الفردوس الأعلىٰ، كنت لي أحسن صديق، وأحسن رفيق، الله يوسّع عليك يا بنت عمّي قبرك، ويا ربّ ما يطوّل بُعدي عنّك، أنا تزوّجتِك على العشرين يا بنت عمّي، وأنا الحين ثماني وخمسين سنة،أنا وإيّاها عِشرة عمر، قدّيش كانتْ طيّبة وحنونة...». ولم يمتلك نفسَه فأفلتَتْ منه بعضُ الدّمعات، وسمعنا له بعضَ الشّهقات، ثُمّ استعادَ هدوءَه، وأردف: «عندي أربع بنات وأربعة ولاد، الله يصبّرهم علىٰ موت أمهم، كانتْ كلّ شيء بالنّسبة لهم ولي، واحد من أولادنا جاءه مولودٌ جديد»، ورفَعَ رأسَه وابتسم حتّىٰ بانتْ عوارضه، ثُمّ أردف: «أجاه المولود من عشرين يوم، لسّا ما شُفناه، ولا هي شافته، استُشهدت قبل أنْ تراه، الله يا بنت عمّي يرحمك، ويجعل مثواك الجنّة، ويسامحك». ثُمّ حَنَىٰ رأسَه حتّىٰ مسّتْ جبهتُه جبَهتها ولا أدري كم بقي علىٰ هٰذه الحال!

(٥٤) ليلة القدر

تركْتُ مستشفى الشّفاء قبل أكثرَ من أربعة أشهر، لم يكنْ قد ظلّ فيه حَيّ، كلّ شيءٍ دُمِّر، الأدوية أُحرِقت، أكثر أجزائه تهدّمت، ساحاته الّتي كانت مُعبّدة نظيفة زاهية تحوّلتْ إلىٰ ساحات ترابيّة مُحفّرة، بعضُ الحفر فيها بعمق مترين، الأوساخ والقاذورات تنتشر في الزّوايا، الجثث المُتفحّمة تتوزّع على السّاحات، تُغطّيها بعضُ الأتربة، فيتماهىٰ لونُها مع لونِ التّراب، فيُصبحان شيئًا واحِدًا لولا أنّ بعضَ المحاجر في الجمجمة تُذكّرك بأنّه كان هنا إنسان. بقايا العِظام تتناثر كأنّها بقايا دوابّ أو أضاحٍ ذُبِحت قربانًا إلىٰ إلهٍ ما... المُستشفى احتُلّ بالكامل من قبل الجيش الإسرائيليّ بعدَ أنْ أعدموا كلّ مظهرٍ فيه للحياة، وحوّلوه إلىٰ بقعةِ أشباحٍ وعظام، وغاب الاحتِلال وابتعدَ عن المكان قليلاً، فعادَ النّاسُ إليه، يبحثون عن بقايا ذويهم وأبنائهم ومَنْ مات علىٰ ثراه ولم يُنقَل عنه خبر، ولا عَلِمَ بما آلتْ إليه حالُه أحد. غيرَ أنّ الاحتِلال ظَنّ بعودة بعض النّاس إلىٰ ساحته وإلىٰ أطلاله المُهدّمة، وإلىٰ رُدُهاته المُدمّرة الّتي تلعبُ ببقاياها الرّيح أنّ المُقاومة تتّخذه مركزًا لها، فعادَ إليه ببارجاته وقذائفه وطائراته المُسيّرة وجنوده، وكأنّه خافَ أنْ يقوم الموتى الّذين تحوّلوا إلىٰ عِظام نَخِرة من موتهم، ويقفوا علىٰ سيقان عِظامهم ويحملوا الرّشّاشات ويبدؤوا بقتلهم!

كانتِ الأخبار تصلُ إلينا نحن الطّاقم الطّبّي من هناك ونحنُ لا نزال هنا في مستشفىٰ ناصر الّذي لا يقلّ إجرامُ المحتلّ فيه عن إجرامه في أيّة مُنشأةٍ طبّيّة من مُنشآت غزّتنا الّتي لا تبرأ من ذبحٍ ولا سفكِ دمٍ ولا تقتيل!

يقولون إنّ جنود الاحتلال قاموا باغتصاب نساءٍ وفتياتٍ مِمَّن تواجدْنَ في المنطقة المُحيطة بمُستشفى الشّفاء، وإنّ صرخاتهنّ كانت تُسمَع على الملأ، وكان جنود الاحتلال يقتلون كلّ من يحاول الاقتراب منهنّ ومساعدتهنّ. أنا لا أستبعد هٰذا علىٰ عقليّة احتِلالٍ منزوعٍ من كلّ خلق، وغارقٍ في الوحشيّة.

إنّ ليالي الحرب لا نهارَ لها. كانتْ كُلُّها ظلامًا حالِكَ السّواد، أمّا السّماء فكانتْ أرجوانًا قاتِمًا كأنّما لَبِسَتْ ثيابَ الشّهداء، وأمّا الطُّرقات فكانتْ مصبوغةً بالدّم، وانتشرتْ رائحة اللحم المُتفسِّخ في كل مكان، وزكمتْ روائحُ - لا يُمكن احتِمالُها - أنوفَنا! أيَن روائح اللّيالي البيضاء؛ ليالي المودّة الصّافية؟! لقد تبدلّ ياسمينُها، الكلاب صارتْ ضاريةً ومسعورة، تأكل ما تبقّىٰ من الجثامين المُلقاة في الشوارع أو تحت الأنقاض، حتى القطط الأليفة تلوّثتْ أفواهُها بالدّم، وغطّتْ أُنوفَها، لأنها لم تجد شيئًا آخرَ تأكله!

ليلة القدر قريبة، ترىٰ كيفَ يُمكن أنْ تكونَ فيها الرّائحة، هل يبعثُ الله لنا ملاكًا من السّماء لِيُغطّي بجناحَيه روائح الموتِ والفنَاء، وينشر في ضلوعنا روائح الحياة والرّيحان والشّذىٰ والأسرار؟!

جلسْتُ مع (سلام) في اللّيل، كُنّا قد أعددَنْا كُوبَين من الشّاي، وجدْنا النّعنع، إنّه شايٌ فاخرٌ إذًا؛ شايٌ بالنّعنع، لم نجدْ سُكّرًا، لكنْ لا بأس:

«غدًا ليلة القدر، أينَ يُمكن أنْ يقضيها الإنسان؟» سألتُها. أجابتْ: «في أيّ مكانٍ وفي كلّ مكان يا فرج». «ولٰكنّ الأرضَ قبور، والخَلَوات مليئةٌ بالأشلاء. هل هٰذه الأماكن تصلحُ للصلاة؟». «الصّلاة الّتي تكونُ فوقَ رُفاتِ شهيدٍ أطهرُ من أيّة صلاةٍ فوقَ أيّة أرضٍ أخرىٰ». تمتمتُ: «ما حيلة المضطر إلاّ ركوبُها». ثُمّ سألتُها: «هٰذا الّذي في بطنك». «يتربّىٰ بعزّك». «هل هو صبيّ أم عروس؟». «مَنْ يدري. ماذا تُحبّ أنْ يكون؟». «صبيًّا». «لماذا، هٰذا تحيّز. يسمّونها اليوم ذكوريّة». وضَحِكتْ. ضحِكْتُ معها مُردِفًا: «لا... أنا أريدُه صبيًّا حتّىٰ يكونَ بذرة مُقاتِلٍ في الغد فيأخذ هو وأترابهُ بثأرنا». استنكرتْ: «والفتاة لا تأخذ بثأرك؟». تساءلتُ: «كيف إنّها لم تُخلَق للقتال؟!». ردّتْ: «إنّ الّذين يُقاتِلون اليوم في الصّفوف الأُولىٰ هم الّذين رَبَّتْهم أمّهاتهم، لولا المرأة ما رأيتَ ما فعل هٰؤلاء المُجاهدون من الأعاجيب». خفضْتُ رأسي مُقِرًّا. سألتُها: «إنْ كان صَبِيًّا، فماذا سنسمّيه؟!». «عليّ». «لماذا؟». «خَطَر ببالي الآن» وضَحِكتْ وأردفتْ: «المولود يأتي ومعه اسمه لا تقلق. وماذا سنُسمّيها لو كانتْ فتاة؟». أجبْتُها: «ريم». «لماذا؟ هل خطر ببالك الآن أيضًا؟». «لا، بل على اسم الاستشهاديّة من حيّ الزّيتون الّتي قامت بعمليّة بطوليّة علىٰ معبر إيريز في عام ٢٠٠٤م».

صمَتْنا فترةً طويلة، مرّتْ لَحَظاتُ هدوءٍ وسُكون، الصّمْت غطّىٰ الأمكنة المُجلّلة بالسّواد، لم يكنْ يُسمَع سوىٰ صوتِ رَشَفاتنا الأخيرة، وصوتِ الآهات الّتي تصل إلينا من بعيد في غُرَف العمليّات الّتي لا تتوقّف ساعةً من ليلٍ أو نهار. دخلْنا إلىٰ خيمتنا. نمنا تلك اللّيلة من تعبٍ مرير. في الفجر استيقظْتُ. نحنُ لا يُمكن أنْ ننامَ ليلاً طويلاً، ولا ليلاً كامِلاً.

اقترحَ الزّملاء أنْ نذهب إلىٰ مسجد الفاروق لنُقيم فيه ليلة القدر، هو مثلُ كلّ المساجد الّتي دُمِّرتْ في غزّة، أصابتْه غارةٌ جويّة فأزالتْه غير ما تبقّىٰ من أنصاف الأعمدة. رددتُ بأنّه بعيدٌ نوعًا ما، إضافةً إلىٰ أنّنا لا يُمكن أنْ نتركَ المستشفىٰ دون مَنْ يقوم علىٰ خدمة المرضىٰ والجرحىٰ فيه، قالوا: «نندبُ بعضَنا للذّهاب، ويبقىٰ بعضُنا. نحن الباقين سنصلّي في ساحة هٰذا المستشفىٰ، سيكون الرّجوع إليه في الأمور الطّارئة سريعًا». وهٰكذا كان.

قامَ بعضُ الشّباب باستِخدام أحد مُولِّدات المُستشفىٰ من أجل وصله بسمّاعتَين واحدة في الأمام وأخرىٰ في الخلف، تعاونّا كذٰلك علىٰ تنظيف ساحةٍ معقولةٍ من الحجارة والطّوب المُكسّر وبقايا الرّدم، ومددْنا حبالاً فوقَ تلك السّاحة ربطْناها بأعمدة قائمة أو أقمْناها من أخشابٍ أو من حدائد مُتوفرّة، وأتينا ببعض الأهلّة والفوانيس الّتي استطاعت العامِلات في المُستشفىٰ توفيرها، وقدّمْنا (نبهان) ليؤُمّنا في الصّلاة. كان (نبهان) معروفًا في مستشفيات غزّة بصوته الشّجيّ الّذي يُقرّبك من نفسِك الضّائعة، ويُفتِّش عنك فيكَ، الصّوت الّذي لا يملك المرء أمامه إلاّ أنْ يستعيدَ لياليَ قديمةً من الصّفاء؛ فيخشعَ ويبكي.

علىٰ مقربة من المكان الّذي أحيينا فيه ليلة القدر، كانتْ هناك ثلاثة قبور، شواهدها واضِحة من هنا، شَطَرَتْها العتمة مع الضّوء الشّحيح القادم من بعض الفوانيس المُعلّقة. كان (نبهان) يقرأ: «ولا تحسبنّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعملُ الظّالِمُون». فرأيتُ صاحب القبر الأوّل كأنّه تبسّم تبسُّم الرّضا. وقرأ في الرّكعة الثّانية: «وَعَدَ اللهُ الّذين آمَنوا». فرأيتُ صاحب القبر الثّاني كأنّه تبسّم تَبسُّم البِشر. وقرأ في إحدى الرّكعات بعدَ ذٰلك:

«وَيَومَئِذٍ يَفرَحُ المُؤمِنُونَ بِنصرِ الله» فرأيتُ صاحب القبر الثّالث كأنّما تبسَّم تبسُّم السعادة.

فلمّا كانتْ صلاةُ الوتر، وقفْنا على أطرافِ قلوبنا، قد أثقلتْنا شهور الحرب الطّويلة، وقَضَمتْ أرواحَنا، ولوّنتْ أعماقنا بألفِ لونٍ من أسًى ولوعة، وكُنّا قد وقفْنا على حرفِ تلك المشاعر المُتضاربة المُتداخلة المُختلطة الّتي تمور فيها أعماقُنا، وهٰذا هيّأنا أنْ نبكي لأقلّ سبب، أنْ نبكي لمجرّد أنْ تسمع صوتًا ملائكيًّا بآيةٍ يتلوها في الصّلاة، ولٰكنّ بعضَنا تماسكَ وتجلّد، فلمّا قام الإمام من الوتر، ورفَعَ يدَيه إلى السّماء انهمر كلّ ما في أجسادنا وقلوبنا وعيوننا ووجوهنا من دموع، كان (نبهان) قد وصلَ بنا إلى الفُيُوض، كان يدعو: «طال ليلُ الظّالمين، وأنتَ رَبُّ المُستضعَفين فلا تتركْنا وحدَنا». وكم كُنّا نشعر بالفعل أنّنا وحدَنا، ولكنّنا في كنفِ هٰذا الصّوت شعرْنا أنّ الله معنا.

في اللّيلة التّالية، قصَفَتْنا دبّابات الجيش، وحاصرَتْنا القُوّات الغازِية، وعَلِمْنا أنّها النّهاية، وراودني ذٰلك الشّعور أيّام تركْتُ مستشفى الشّفاء، إنّها النّهايات القاتِمة.

حدثَ ذٰلك في السّاعة الثّانية بعدَ منتصف اللّيل أمرونا بإخلاء المستشفى، قلتُ لِـ (سلام): «اذهبي إلى مخيّمات رفح، سأُوافيك هناك». ردّتْ: «سأبقى معك». حاولتث إقناعَها: «قد يحتاجُني بعضُ الجرحى هنا». ردّتْ بإصرار: «سأبقى معك. ليسَ من الوفاء أنْ أترُكَك». «أرجوكِ. القضيّة لا تتعلّق بالوفاء، أعرفُ ذٰلك. أنتِ عندي أكثر النّساءِ وفاءً على وجه الأرض، لٰكنّ الأمر أكبر من الشّعور بهٰذا. إنّ نصفَنا اليوم ميّت، نصف هٰؤلاء الأطبّاء والمُسعفين سيلقى حتفه اليوم لا محالة،

إذا قدّر الله أنْ أكونَ من هؤلاء فعليكِ النّجاة بنفسِك وبِابْنِنا، لماذا نموتُ جميعًا؟ وإذا نجوتُ لحقتُ بك إلى المخيّم. أعرفُ أين أجدك». اقتنعتْ وتسلّلتْ هي وعددٌ من ساكني الخيام قبل أنْ يُحكم الجيش حِصار المُستشفى.

امتثلْنا للأمر، خرجْتُ وأخرجْتُ معي مرضاي، أولئكَ الّذين كنتُ أُشرِفُ على علاجهم، حتى الحالات الّتي كانت تُنقَل إليها وحدات الدّم، حملْتُ الدّمَ معي وأعطيتُهم العلاجات اللاّزمة ومضيتُ بهم، كانت الدّبابات تُرابط في مُحيط المُستشفى، فجأةً هجَمَتْ نحونا القوّات الخاصّة، رأيتُ ما قدّرْتُ أنّه يزيدُ عن خمسين جُنديًّا، وراحوا يُطلِقون النّار علينا. «لعنةُ الله عليكم أيّها الملاعين، معنا مرضى ألا ترون؟!». الأَسِرَّةُ الّتي نسوقُها أفلتَتْ، أكياسُ الدّم انفجرتْ وسال الدّم منها على الأرض، أكياس المحاليل هي الأخرى انثقبتْ وتدفّق ما فيه على صدور المرضى وعلى رؤوسهم، وراحَ الدّم يتفجّر في كلّ زاوية، ورُحنا نجري هربًا من الموتِ الوشيك.

اختبأتُ أنا وعددٌ من الزملاء ومَنْ نجا معنا من المرضى خلفَ بعضِ الجدران الّتي لجأنا إليها حالَما حدثَ هذا الرُّعب. فجأةً رأيتُ طرفًا آخر يُطلِقُ النّار، أووه؛ إنّها المُقاوَمة، لم نرهم، كانوا قد أعدّوا كمينًا يَرَون ولا يُرَون، راحوا يقنصون جنود قوّات الجيش الإسرائيليّ الخاصّة، سقطَ الأوّل والثاني، والثّالث... و... أنا رأيْتُ بأمّ عيني ستّة قُنِصوا مثلما يُقنَص الذُّبابُ، رَقَصَتْ أعماقي من الفرح وسطَ الموت، انجلى الخوف الرّهيب، وحلّ محلّه شعورٌ بالفخر والعِزّة، وبأنّ هناكَ مَنْ يُدافِع عنّا وسط هذه المذابح، وقادِرًا على أنْ يثأر ويردّ بالنّار على النّار.

بقينا علىٰ حالنا حتّى الخامسة فجرًا، لم يتوقّف صوتُ الرّصاص. شاهدتُ الأحزمة النّاريّة الّتي يُطلقها الجيش تحصدُ الأرواح بالعَشَرات، وبعدَ ساعتَين أو ثلاث ساعاتٍ من الاشتِباك راحَ صوتُ الرّصاص يتقطّع، ويخفتُ، وأمامي رأيتُ جُثثًا لا حصرَ لها من المرضىٰ والنّازحين الّذين استُشهِدوا في هٰذه المعركة!



(٥٥) نحنُ جوعى ولكنّنا طَعامٌ جيّد!

الدّبّابات كانتْ تُشكّل طوقًا حول المُستشفىٰ. الّذين في الخيام سقطوا بين قتيلٍ وجريحٍ، وتمكّن عددٌ منهم من الهرب وإنْ بِجِراحٍ لا تُشفَىٰ. عددُ الجُثث كبير. في الخامسة فجرًا رأيتُ دبّابةً علىٰ باب مستشفىٰ ناصر تروحُ وتَجيءُ في مدىٰ مئتَي متر، ورأيتُ أُخرىٰ تتمركز عند مدرسة أحمد عبد العزيز وتُراوح في حركتها جيئةً وذهابًا، بقينا يومَين مُحاصَرِين، لا نستطيع أنْ نخرج من المستشفىٰ ولا أنْ نبقىٰ، وكان القصف يحدثُ بين ساعةٍ وأخرىٰ، وقد مات بينَ يدَيّ عددٌ من المرضىٰ، ولا أدري كيفَ بقيتُ حَيًّا حتّىٰ هٰذه اللّحظة!

كنتُ خلفَ شَبَكِ النّوافذ في غرفةٍ تُطلّ نافذتها على السّاحة الّتي يُمكن أنْ ترىٰ منها مدرسة أحمد عبد العزيز، كانتْ هناكَ جُثّتان لزميلَين من زملائنا، شعرتُ بالعار إنْ لم أقمْ بسحبِهما إلى الدّاخل أو محاولة ذٰلك، أو حتّىٰ تغطيتهما بشيءٍ ما بدل أنْ تظلّ مكشوفةً هٰكذا، مرّتْ ساعاتٌ ثقيلة وأنا أُقدِّمُ خطوةً وأؤخّر أُخرىٰ. أخيرًا قرّرتُ أنْ أخرج من الغرفة وأسحبَ الجُثّتَين، كانت الشّمس قد لَفَحتْهُما، نحنُ في الثّامن والعشرين من رمضان، لقد استُشهِدا صائِمَين، ما كدتُ أضعُ قدمي خارجَ الغرفة حتّىٰ أزّتْ رصاصةٌ فوقَ رأسي وثقبتِ الجدار، للحظةٍ شعرتُ أنّها ثقبتْ جمجمتي، صرختُ بأعلىٰ صوتي وتراجعتُ، وعُدتُ إلى الغرفة، ركنْتُ ظهري علىٰ أقربِ جدارٍ وهويتُ منزلقًا وأنا أغطّي وجهي وأدخل

في نوبة بكاءٍ شديدة.

صارَ وقتُ العصر، الشّمسُ تُلهِبُ أجسادَ الشّهداء وهي متروكة في العَراء. عندما بدأتِ الشّمس تميلُ جهة الغرب، رأيتُ جيشًا من الكلاب والقِطَط يتقدّم ناحية الجُثث، كانتْ هٰذه محاولةً منها لِجَسّ النّبض، تريدُ أنْ تعرفَ فيما إذا كان هناك مَنْ سَيطردُها عن الجُثث، كان بينها وبين الجثث أقلّ من عشرين مترًا، راحتْ تتجمّع في شكلٍ دائريّ، وهي تراوحُ مكانها، وتتشمّم الأرض، وتهزّ أذنابها، وتُبصبِص، وتهرّ هريرًا عاليًا، تملّكني الخوف من أنْ تتقدّم أكثر من ذٰلك، وكأنّها أردات للخوفِ أنْ يتضخّم لا أنْ يتقزّم، فتقدّمتْ بالفِعل أكثر، ووقفْتُ علىٰ قدَمَيّ واقتربْتُ من النّافذة، وأمسكْتُ بقضبانها ورُحْتُ أهزّها وأنا أصرخ بشكلٍ هستيريّ: «هااااه... لا تقتربي». وخنست الكلاب والقِطط، وبعدَ أقلّ من عشر دقائق انضمّتْ إليها مجموعة أخرىٰ، ورأيتُ بينها حيواناتٍ لا هي بالكلاب ولا بالقطط، ولا أدري إنْ كانتْ ذئابًا أو ضِباعًا أو شياطين علىٰ شكل كلابٍ، ونظرْتُ إلىٰ أعلىٰ فرأيتُ عددًا من الطّيور الجارحة الّتي لم أرها من قبلُ في سَماء غَزّة، ويبدو أنّه لا يُمكن أنْ تدفعَ كلّ هٰذا العدد ولا أنْ تخرجَ لتنقذَ الجُثث، نحنُ جوعىٰ ولكنّنا طعامٌ جيّد. وتقدّمتِ الكلاب والجيشُ الّذي يربضُ أكثر ولَـمّا لم تجدْ من ينهرها، راحتْ تنهشُ الجُثث، ورأيتُها تبدأ بالبطن فتنقبه وتُخرج المصارين والأحشاء، ثُمّ العنق، وتمصّ الدّم، وكانتْ ترفعُ أشداقَها بين لحظةٍ وأخرىٰ وهي تبتلع الأمعاء أو الأشلاء وتشرقُ ما سال من دمٍ علىٰ جانبَي تلك الأشداق وقَطَرَتْ أنيابُها بدمٍ أَسْود... أمّا الطّيور الجارحة فكانتْ تنتهز فرصة ابتِعاد السِّباع للحظات،

وتهوي بسرعةٍ على البطون فتنقرُ نَقَراتٍ حادّةً شديدة، وتأخذُ بين تلك المناقير ما قَسَمَ الله لها، وحينَ تهجمُ عليها الكلاب تبتعدُ وتطير إلىٰ الأعلىٰ وقد أخذتْ بين مخالبِها ما يكفيها من جسد الشّهيد!

غَطّيْتُ عينَيّ من هول ما رأيتُ، وجثوتُ علىٰ ركبتَيّ، ودفنْتُ رأسي في صدري بعدَ أن وضعتُ أكفّي علىٰ رأسي، وبقيتُ مشدوهًا لا أعرفُ ما أفعل، وغرقْتُ في ذُهولٍ من الوجع والحُزن، واستسلمْتُ لهما، وتمنّيتُ لو تُريحني تلك المناظر قليلاً فأذهبُ في غيبوبةٍ طويلة أو نومٍ لا أصحو من بعده.

سمعتُ صوتَ خُطُواتٍ يأتي من داخل الغُرف الّتي تلي الغرفة الّتي أتحصّنُ فيها، تحفّزْتُ للآتي، دارَ في خَلَدي أنّ قوّات الجيش قد دخلتْ وأنّ النّتيجة الطّبيعيّة ستكون إعدامًا سهلاً، رصاصةٌ في الجبهة أو العنق وينتهي كلّ شيء، وللحظة تمنّيتُ حَقًّا أنْ يحدثَ ذٰلك، لأنّ راحتي بالموت أحسنُ كثيرًا من مُعاناتي بمشاهدة هٰذه الأهوال كلّها.

اقتربتِ الخُطُوات أكثر، ووقفتُ علىٰ قدَمَيّ، وشبكْتُ كَفَّيَّ خلفَ ظهري بلا مبالاة وانتظرْتُ قدَري. ها هي الخطوات صارتْ على الباب، رأيتُه، إنّه شيخٌ في السّتّين أو السّبعين، كان أبيَضَ اللّحية، وكان هادِئًا وقورًا، يتقدّم بخطوات واثقة، ويبتسم في وجهي، مَدّ يدَيه بحبّة تمر، وقدّمها لي: «أفطرْ، أعتقدُ أنّكَ لم تفطر بعدُ. لقد ارتفع أذان المغرب قبل دقائق». وشعرتُ بالطّمأنينة، وتناولتُ حبّة التّمر، وأكلتُها هنيئًا مريئًا، لٰكنْ لم يكنْ هناك ماء، لقد سال من دمائنا ما يكفي لأنْ يُغرِقَ العالَم، فما فائدة الماء الآن؟!

«يجب ألا نتركَ الجُثث في الخارج أكثر من هٰذا». «لقد حاولتُ». «أعرف، سأحاول أنا هٰذه المرّة». «ستُقتَل». «لم يبقَ في عمري الكثير، الموتُ قَدَر. إنْ جاءني اللحظةَ فلقد كانتِ الحياة هيّنةً عَلَيّ من قبلُ وهي عَلَيّ الآن أهون». «هل أخرجُ معك؟». «لا، أستطيعُ أنْ أسحبها وحدي»، ونظر إلىٰ بعضِ المرضىٰ ذوي العيون الزّائغة: «ساعِدْ هٰؤلاء علىٰ أنْ يعيشوا». وخرجَ، ركضَ، من أوّل ما ركض سمعتُ صوتَ الرّصاص كأنّه صوتُ ألف سبعٍ غاضب، لٰكنّه لم يُبالِ بها، ولم يتراجع، ساعدَه الظّلام قليلاً علىٰ أنْ يفلتَ من بعضِ الرّصاصات، سحبَ الجُثّة الأولىٰ، ثُمّ عادَ فسَحَب الجُثّة الثّانية، قال لي: «هناكَ جُثث أخرىٰ أبعدُ من هاتين». «يكفي ما فعلت». خرجَ دون أنْ يردّ بكلمة، سَقطَ برصاصة في السّاق، زحفَ وعادَ إلى الدّاخل، قلتُ له: «أنتَ بطل يا شيخ». ردّ وهو يمسح الدّماء عن ساقه: «بسيطة، جرح بسيط». عالجْتُها له بما أقدر عليه، ثُمّ احتضَنْتُه طويلاً وبكيتُ علىٰ كتفه.

«ماذا سنفعل بالجُثّتين؟» سألتُه. ردّ: «سنصلّي عليهما وندفنهما». «أين؟». «هنا». ونظرَ حوله ومن دون أنْ ينتظرَ رأيي، خلعَ إحدىٰ قُضبان النّوافذ المُتهالِكة، واختار بُقعةً قد أصابتْها قذيفةٌ سابِقة، وانهمكَ في الحفر، خجلْتُ من نفسي، تناولتُ قطعةَ حديدٍ متدلّية من سرير، ورُحتُ أساعده في الحفر، بعدَ قرابة ساعة أتممنا الحفرتَين. لففَنْا جُثّتَي الشّهيدَين بملاءات أسرّة المرضىٰ، وصلَّيْنا عليهما، ودفنّاهما هناك! غادرَ الشّيخُ ولا أدري إلىٰ أين؟ ربّما ليسحبَ مزيدًا من الجُثث، ويحفر قبورها بيدَيه، ويُصلّي عليها صلاتنا، ويُرقِدها في مثواها الأخير!

المُستشفىٰ تحوّلتْ إلىٰ مقبرةٍ كبيرة. كانت قبور الشّهداء تملأ الممرّات والغُرف، والرّدهات الدّاخليّة، ناهيكَ بمن استطعْنا دَفْنه في الخارج في عتمة اللّيل، أو أولئك قليلي الحظّ الّذين ظلّتْ أجسادُهم مُشرعةً للكلاب والطّيور الجارحة والسّماء الصّامتة وعيون الجيش الّتي تتربّصُ بكلّ مَنْ يتحرّكُ في هٰذا المُجمّع الطّبّي.

رفعْتُ جسدي، أرسلْتُ نظرةً بعيدة، رأيتُ في النّوافذ البعيدة المُحيطة بالمُستشفىٰ عيون القنّاصة، لا أدري ما الّذي جعلني أبقىٰ واقِفًا أُحدّق فيهم مع أنّني كنتُ عرضةً للقنص بسهولة، تملكّني غضبٌ عارم، صرخْتُ بأعلىٰ صوتي: «يا كلاب، لماذا تُطلِقون علينا الرّصاص؟! نحنُ مُسالِمون، نحنُ طاقمٌ طبّي، يا سَفَلَة يا أَوْباش يا أوغا..» ولم أنهِ الكلمة الأخيرة فقد انهمرتِ الرّصاصات، ظننتُ أنّها أُطلِقتْ باتّجاهي، تلمّسْتُ جسدي، رأسي، صدري، عنقي... لٰكنّني حَيّ، يا إلٰهي ما زلتُ حَيًّا... سمعتُ صوتًا من خلفي، انحنيتُ وابتعدتُ عن النّافذة، كان الصّوت يزحف، خرجْتُ من الغرفة، تلقّاني الشّيخ السّتيني، كانتِ الرّصاصات الّتي سمعتُها قد رسمتْ خريطةَ الدّم علىٰ جسده، وخضّبتْ لحيته فصارتْ حمراء مَشُوبةً بالبياض، سحبْتُه إلى الدّاخل، وأردْتُ أنْ ألومَه قبل أنْ يهتفَ بصوتٍ ضعيف: «خرجْتُ من أجل أنْ أُنقِذَ مزيدًا من الجثث من بين أنياب الكلاب والكلاب البشريّة». «لم تكنْ مُضطرًّا إلىٰ ذٰلك». «يا أخي أنا في لَحَظاتي الأخيرة، لا تتركني من دون أنْ تحفر قبري. عِدني بذٰلك يا...». «أنا فرج». «عِدْني بذٰلك يا فرج». ثُمّ رفَعَ ذراعه بوهن، وأشهرَ السّبّابة وسمعتُه ينطقُ بالشّهادَتين،

ثُمّ ترتخي ذراعه، وتنسدل إلىٰ جانبه وما زال إصبع السّبابة يحمل دمَ نُطقه بالكَلِمَتَين الخالِدَتَين. حفرتُ له قبرًا كما وعدتُه، وصلّيْتُ عليه، ودفنْتُه حيثُ استُشهِد.

انتصفَ اللّيل تقريبًا. لا ماء، لا كهرباء، لا طعام، لا شيءَ غير الدّم. تجرّح حلقي من العطش، فكّرْتُ بأنْ أذهبَ إلىٰ غرفة الصّيانة أبحثُ عن الماء، لا بُدّ أنْ أجدَ ولو جرعةَ ماءٍ واحدة، مشيْتُ إلى الغرفة، فتحْتُها، فاحتْ منها رائحة الموت والدّم والغُبار، قلَّبْتُ مُحتوياتها كلّها، العُلب الفارغة، الإسرنجات، الكراتين، بعض الشّاش المُمزّق... لم أجدْ ماءً، في النهاية وجدتُ علبة محلول فارغة وقد استقرّ في قعرها شيءٌ ما من السّائل، رفعتُها إلىٰ فمي، وقَطَّرْتُ ما فيها علىٰ شَفتَيّ فرَطَّبْتُهما، شعرتُ براحةٍ نسبيّة، وبأنّ عطَشي تأجّل قليلاً.

فجأةً أزّتْ رصاصةٌ بجانب أُذُني، انتبَهْتُ إلىٰ أنّني كنتُ واقِفًا قريبًا من النّافذة، وأنّني في مرمى الرّصاص، ارتميتُ على الأرض وبدأتُ أزحف، كان صوتُ الرّصاص يُلعلِع، كلّ نوافذ المستشفىٰ وجُدرانه كانتْ تتعرّض لموجٍ لا يتوقّف من الرّصاص الغزير، زحفْتُ خارِجًا من الغرفة، شاهدْتُ جريحًا ينزف، اقتربْتُ منه وأنا لا أزال أزحف، أردْتُ أن أتأكّد أنّه ما زالَ حَيًّا أم لا، جَسَسْتُ عِرْقَه، كان جسدُه بارِدًا، سمعْتُه يهمسُ: «أنا واعٍ يا أخي». كانَ قد أصيبَ في ظهره فسبّب له ذٰلك شللاً فيما يبدو، هُرِعْتُ إلىٰ غرفة الصّيانة وأنا مُنخفض الرّأس، لم أجدْ غيرَ الشّاش، عُدْتُ إليه، كانتِ الرّصاصة قد اخترقتْ ظهره وخرجَتْ من بطنه، «سيعيش، ولن يُصاب بالشّلل» همستُ لنفسي، بحثْتُ عن أنبوبة أكسجين لأساعده على التّنفُّس.

وجدْتُ أنبوبةً مثل تلك الّتي صنعناها من البلاستيك، وضعتُها على فمه، ورُحتُ أضغطُ عليها ليتسلّل الهواء إلى رِئَتَيه. أردْتُ أنْ أحمله وأضعه على سرير، أيّ سرير، لم يكنْ هناك أيّ سرير، سحبتُه إلى زاويةٍ نظيفة، وتركْتُه هناك.

توجّهْتُ إلى الجانب الشّرقيّ من المستشفى، قنّاصة الجيش الإسرائيليّ يُحيطون بالمستشفى من كلّ اتّجاه. رأيتُ حوالي خمسةٍ يخرجون ويسيرون في الخطّ المُوازِي للجهة الشّرقيّة وهم يحملون الرّاية البيضاء، ما كادوا يمشون بضعة أمتار حتّى انهمرتْ عليهم الرّصاصات، سقطَ ثلاثةٌ في البداية، هربَ المُتبقّيان، لكنّهما لم ينجحا في الفرار سِوى بضعة أمتار أخرى وسقَطَا يتخبّطان، وهما يُغرغِران وأنفاسُهما تُغادر جسدَيهما.



(٥٦) سَتَعُودين شابّة!

كيفَ نمتُ؟ لا أدري. كيفَ استسلمْتُ له؟ لا أدري. نحنُ ننامُ على مشاهدِ الموت ونصحو عليها. أيقظني نِداء الفجر في داخلي، وليسَ في مآذن غزّة، فالمآذن كلّها قد هُدِّمتْ. صحوتُ إنّه فجر اليوم التّاسع والعشرين من رمضان. سيبدؤون بتحرّي هلال شوّال من الآن، ضَحِكْتُ من غيظٍ مكبوتٍ في داخلي، كيفَ يطلع علينا هلال شوّال وسطَ هٰذه المجازر الّتي لا تتوقّف، ألا يخجل العيدُ من نفسِه ليأتينا ونحن في هٰذه الحالة الفظيعة؟!

ركَنْتُ ظهري إلى أقربِ حائط. تيمَّمْتُ وصلَّيْتُ الفجر، وبكيْتُ في السّجود الأخير حتّى بلّتْ دموعي الثّرى، ولو أنّني أبقيتُ على دموعي لكان أحسنَ من أنْ أفقدها، وأنا أحتاجُ لها في عَطَشٍ شَقّقَ حلوقَنا، وجرّح خدودَنا، وجَعَّدَ جلودَنا.

زحفْتُ أبحثُ عن ناجين، أو عن أحياء يختبِئون هنا أو هناك. المرضى الّذين تركْتُهم في الغرفة الّتي كنتُ فيها أمس لا أدري ما حصلَ لهم. زحفتُ إليهم لأعرفَ ما جرى، فما وجدْتُ أحدًا، وجدْتُ الأَسِرّة فارغة، لا أدري إنْ كانوا حاولوا النّجاة في الهزيع الأخير من اللّيلة الفائتة فنجوا أو استُشهِدوا، أوّ أنّه شملَتْهم رحمةُ الله، فجاءتْهم ملائكتُه، فحملتْهم على أجنحتها، وطارتْ بهم إلى السّماء بعيدًا عن هٰذه المذبحة!

زحفْتُ إلى البوّابات الّتي تُؤدّي إلى السّاحة الخلفيّة لأبحثَ عن فرصةٍ للنّجاة، قدّرْتُ أنّني لو خرجْتُ من البوّابة الرّئيسة فلن أنجو أبدًا. في الطّريق وجدْتُ فتًى في العاشرة بين الموت والحياة، كانتْ ساقُه مكسورة، لَـمّا رآني هتفَ بصوتٍ ينضح بالرّجاء: «أنقذْني». كيفَ أنقذك يا صغيري، أنتَ ترىٰ أنّنا في قبضة الموت لا يُمكن لأحدٍ أنْ يُفلِتَ منها. اقتربْتُ منه، تبسّم بشفتَين واهنتَين، عَبَره الأمل، الأمل الكاذب بالنّجاة. كانتْ لا تزال فيه بقيّة من حياة. حملْتُه بينَ ذراعَيّ، ورأيتُ في عينيه موجةً من السّعادة والشُّكر، بحثْتُ عن سريرٍ أضعه عليه، لم أجدْ، تمكّنْتُ من وضعه علىٰ مصطبةٍ مرتفعة تحتَ أحدِ الأدراج. «اصمدْ... ستعيش»، جملتي الأثيرة، ألقيتُها علىٰ مسامعه وأنا أعرفُ أنّها جملةٌ كاذبة، ولٰكنّها مع كذبها منحتْه أملاً حقيقيًّا، يا إلهي ما أضعفَ الإنسان! كيفَ تتعلّق روحه الغريقة بقشّة في خضّم الموج الطّاغي.

تناهَشَتْني الأفكار: «سأحمله وأخرجُ أنا وهو». «أنتَ تخدعُ نفسكَ، ستُقتلان معًا». «إذًا أُعالِجه هنا بما أقدر عليه». «ليسَ في المستشفىٰ شيءٌ تعالِجه به، أنسيت؟». «لٰكنْ هل بحثْتَ؟». «نعم بحثْتُ مرارًا وتكرارًا، المستشفىٰ خاليةٌ إلاّ من الموتِ والموتىٰ». «لا تقنط من رحمة الله». «إذًا فلأتحلّ ببعض الأمل».

رُحْتُ أبحثُ عن مُسكّنات، دخلْتُ غُرفة الصّيانة، والصّيدليّة، وغرف العناية المُركّزة، وغرف العمليّات، ولم أجدْ شيئًا. «ماذا أفعلُ لكَ أيّها الفتىٰ». مزّقْتُ قميصي الّذي ألبسُه، وصنعتُ منه شاشًا، ولففْتُ موضعَ جرحه، وأتيْتُ بخشبةٍ وجدْتُها بين الرّدم، وأمسكْتُ بساقِه المكسورة، ودون أنْ أقولَ له: «ستشعر بألم فظيع وعليكَ أنْ تحتمل» شدَدْتُها،

فصرخَ صرخةً اهتزّ لها الدّرج، وتبعثرَ جرّاءها الرّدم الّذي حوله، ربطْتُها بما تبقّىٰ من قميصي المُمزّق، وبدأ نشيجُه يخفت، وشعرَ براحةٍ وغطسَ في النّوم. تركْتُه ومضيت.

حينَ ارتفعتِ الشّمْسُ قليلاً، بدأتْ مكبّرات الصّوت تصدح: «علىٰ الجميع في مستشفىٰ ناصر الإخلاء الآن ومَنْ يبقَ فسيُقتَل». وفجأةً بدأ النّاس يخرجون، ولم أدرِ أنّه ما زال في المُستشفىٰ هٰذا العدد كلّه، كُنّا نرفع الرّاية البيضاء، ونسير بجانب الجدران الخارجيّة ونتّجه نحو الجنوب، تاركين المستشفىٰ خلفَ ظهورنا.

«اخلعوا ملابِسكم». هتفوا بنا، وطيّارات الكواد كابتر تزنّ فوقَ رؤوسنا، والدّبابات تهمر في المدخل وفي الطّوق، وفوهات البنادق الآليّة مُصوّبة نحونا. خلعْنا ما نلبس. النّساء رَفَضْن، ورُحن ينظرْن بعيدًا عنّا حتّىٰ لا نقع في الإحراج.

وانتشرَ علىٰ جانِبَي صفّنا في الخارج صَفّان من جنود الجيش الإسرائيلي المُصوّبين بنادقهم إلىٰ رؤوسنا. «توقّفوا». فتوقّفْنا. صاروا يأخذون خمسةً خمسةً منّا، يُفتّشونهم، فإمّا أنْ يُعدِموا مَنْ يشكّون في أمره، وإمّا يسمحون له بالمرور. سقطَ عددٌ غيرُ قليل، وكنتُ أرى الجنود يركلونهم ببساطيرهم ويَبصُقون عليهم، ويَشتُمونهم، ويَدوسُون علىٰ وجوههم المُعفّرة بالدّم والتّراب.

سمعتُهم يطلبون من النّساء أنْ يخلعْنَ حجاباتهنّ. هتفتْ واحدة: «إلاّ حجابي». دفَعها جندي بفُوهة بندقيّته فسقطتْ على الأرض. هتفتْ أخرىٰ: «نحنُ نساء». تقدّمتْ جُنديّات وقُمْن بتفتيشهنّ، سمعتُهنّ: «مُخرّبات..

ساقِطات... حماس... يا كلبات..». ورُحْن ينزعْنَ حجابهنّ، وهن يصرخْن كعاهراتٍ. كان بعضُهنّ عربيّات، الأخريات كُنّ يصرخْن بلهجاتٍ مختلفة. ثُمّ ساقونا جميعًا إلىٰ معسكرهم. وزّعوا الرّجال علىٰ غرفة، والنّساء علىٰ غرفةٍ أخرىٰ. وبقينا من الظّهر حتّىٰ منتصف اللّيل عندهم.

قادَني ضابطٌ نحو غرفةٍ يجلسُ فيها جنديّ إلىٰ طاولةٍ فوقَها جهاز حاسوب. سألني عن اسمي. أجبْتُه: «فرج أبو العوف». كتبَ الاسم علىٰ (اللابتوب)، ونظرَ إلَيّ، وسَرَدَ المعلومات الّتي تخصّني من يوم ميلادي إلىٰ هٰذه اللّحظة. وسألني: «كم سنة انتسبْتَ إلىٰ حماس؟». «أنا مُمرّض. قضيتُ حياتي كلّها في التّمريض». «كذّاب». «لديكَ علىٰ جهازك كلّ المعلومات فلماذا تقول إنّني كذّاب؟». شَتَمني، وأمر الجنديّ الّذي يحرسني بإعادتي إلىٰ غرفة الاعتِقال.

جاؤونا بتمرٍ وماء. أفطرْنا. وفي التّاسعة مساءً تقريبًا، جاءنا ضابط، ونادَىٰ علىٰ عشرة أسماء، وهتف: «أنتم ستخرجون». سألْتُه: «ستُعيدوننا إلىٰ مستشفىٰ ناصر؟». قهقه ساخِرًا مُتشفّيًا: «لم يبقَ هناكَ أحدٌ غير الجُثث المُتعفّنة والكلاب، هل تريدُ أنْ تعودَ إلىٰ هناك؟». لَمّا صرْنا خارجَ الغرفة، هتفَ الضّابطُ نفسُه: «سنُخرجكم من عند المدارس إلى المستشفى الأردني». عاجَلْتُه: «هل سنبقىٰ هناك؟». نَظَر إلَيّ هٰذه المرّة بغضب: «إلاّ إذا أردْتَ أنْ تموت. ستسلك الطّريق من المستشفىٰ الأردنيّ إلىٰ منطقة المواصي، ثُمّ من هناك إلىٰ رفح». خرجْنا نرفع أيديَنا فوقَ رؤوسنا، حينَ اقتربْنا من المستشفى الأردنيّ، وجدْتُ أنّهم جمّعوا هناك عددًا كبيرًا من النّساء والأطفال وكِبار السّنّ، وأمرونا ثانية: «اسلكوا الطّريق الآمن إلىٰ رفح». كانتِ الطريق مُعتِمة، إنّه نزوحٌ جديد،

بدأنا نسير، وفي الأعماق تختلطُ مشاعر مُتضارِبة من الحزن على الّذين استُهشِدوا، والفرح بالنّجاة من هٰذه الأهوال كلّها. مشاعر من القهر والرّضىٰ. فكَّرْتُ بالشّيخ البطل وبالفتىٰ ذي الرّجل المْكسورة، وبِابْنِنا الّذي ينتظرني هو وأمّه في مخيّمات رفح على الأرجح.

كان الجيش قد تركَنَا نمشي. استوقَفَنا رجلٌ مِنّا أربعينيّ علىٰ ما يبدو، وهتفَ بنا: أنا ابنُ هٰذه المنطقة، نحنُ لا نسير في مكانٍ آمن، نحنُ في منطقة عسكريّة وفي مرمى القنّاصة، إذا أردْتُم أنْ تنجو فعليكم أنْ تتبعوني». انقسمَ النّاس إزاءَ نِدائه إلىٰ فريقيَن، فريقٍ صدّقَه ورأىٰ أنّ الله بعثَ به إلينا لننجو، وفريقٍ كَذّبه واعتقدَ أنّه عميل، وأنّه يريدُ أنْ يقودَنا إلىٰ فَخّ نُذبَح فيه جميعًا. أنا كنتُ من الفريق الّذي صَدَّقه. أحسنُ من الفريقَين، ذٰلك الفريق الّذي لم يُصدِّقْه ولم يُكذِّبْه، لأنّه لم يسمعه، فاختار له الله الطّريق، وفي النّهاية نحنُ لا ننجو إلاّ إذا قَدّرَ الله ذٰلك.

ولمْ تخلُ الطريقان من القنّاصة، ولم تخلُ من الموت، ولٰكنّ الموت كان يتربّص بالنّاس أقلّ في طريقٍ من أخرىٰ. ومشيْنا في عتمة اللّيل نجرّ همومنا وأثقالَ بُؤسِنا، ولا نكاد نُبصِرُ كلّما عاودَتْنا مشاهدُ المجزرة الّتي تركْناها خلفَنا!

كُنّا في الطّريق الخلفيّة ومعنا دليلُنا. وكانَ الرّصاص لا يتركنا هنا، ولا ندري إنْ كان يتركهم هناك، وغيّرَ بعضُنا الطّريق قبل أنْ يشتم الدّليل، ولٰكنّه لم يكنْ يملك من أمره شيئًا، وكان الموتُ يكمنُ له هناك كما يكمنُ لنا هنا، وكان إذا سقطَ أحدُنا حملَه الّذي لا تزال فيه قُوّة وسار به. وهٰكذا تشكّلتْ قافلتُنا، والنّاس كلّهم يمشون في قوافل، ولا يدري أحدٌ منّا أينَ تحطّ به قافلتُه الرّحال!

لم نكنْ نملك رفاهة الوقت لندفن مَنْ يسقطُ منّا على الطّريق شهيدًا. بعضُنا حملَ أباه أو ابنه الشّهيد طَوال الطّريق، رأيتُ فتًى في العشرين حمل أباه على ظهره من السّاعة العاشرة ليلاً حتّى انتصفَ اللّيل، ولَمّا صِرْنا بعيدين عن مرمى القنّاصة، راحَ يحفر على جانب الطّريق قبرًا له، وساعَدْتُه في ذلك فشكرني، وطلبَ منّي أنْ أُصلّي عليه معه ففعلتُ، ثُمّ دَفَنّاه، ولحقنا بالقافلة الّتي لم تتوقّف أملاً في النّجاة.

كانتْ معنا امرأة قدّرْتُ أنها في السّبعين، كان ابنُها يحملها على أكتافه، كانتْ مُصابة بالسّرطان، كانتْ تقول له: «أنزلْني هنا، وتابعْ أنتَ سيرَك، ما الفائدة في أنْ تحمل أُمّكَ الّتي ستموتُ على أيّة حال؟!». وكان لا يكفُّ عن البُكاء. وكانتْ تُلِحّ عليه، وهو يقول: «سنصل إلى رفح. أرجوك لا تقولي ذلك يا أُمّي. وهناك سأُقدّم طلبًا إلى الصّليب الأحمر، وستخرجين إلى مصر عبر معبر رفح، وستُعالجين، سأذهب بك إلى أحسن المُستشفيات ولو عملتُ طَوال حياتي من أجلك، وسنستأصل الوَرَم، وستعودين شابّة، وستطبخين لي الطّبخة الّتي كنت تطبخينها لي وأنا طفل... أعدكُ يا أمّي... ستعيشين، وستقبريننا نحن أولادكَ جميعًا...».

سَمِعْنا أنّ اليوم هو اليوم الثلاثون لشهر رمضان. وأنّ العيد سيكون غدًا. لاحتْ لنا رفح، ولاحتْ لنا خيامُها المبعثرة الحزينة الّتي تسدُّ الأفق، وفرحْنا، وتسارعَتْ نَبَضاتُ قلوبنا، وسرقْنا الخُطُوات المُتبقّية، ومَنْ يدري ما يصنع الله بنا أو لنا، وكم تبقّى لنا من أيّام لنحياها في هذا العالَم الغامض؟!

(٥٧) السَّقّاء

احتضنْتُ (سلام) بكلّ ما فِيّ من شوق: «أنتَ مثل القِطّ بسبعة أرواح». قالتْ لي وهي تضحك. رددتُ ضاحِكًا: «والله متّ أكثر من ألف مرّة في هٰذه الحرب، فأنا قطيعٌ من القطط الصّامدة». «غدًا العيد؟». «نعم، ولٰكن ماذا يُمكن أنْ يكون في العيد خيرًا مِمّا مرّ من أيّام؟! إنّ الأيّام هنا تتشابه، والمآسي، والشوارع، والوجوه، والخِيام تتشابه كذٰلك». «تعرف ماذا؟». «ماذا؟». «زكريّا». «زكريّا الّذي كُنّا ندعوه ابننا». «نعم». «ما باله؟». «هو هنا في المخيّم». رَفّ القلب كما يرفّ سِربُ حمام: «أين أنتَ يا زكريّا؟»

وحضر (نبهان): «يا فرج، ألا تُساعدني أنتَ وسلام». وركّبْنا الزّينة، وعلّقنا الأضواء الّتي لا تُضيء، ومددنا الحبال بين رؤوس الخيام، وجَمَع (نبهان) أكثر من مئة طفلٍ في السّاحة صبيحة العيد، وكان يحمل جوالاً أزرق فيه هدايا كثيرة للأولاد لا أدري من أينَ جاء بها، كان دائِمًا يقول: «سقطتْ في يدي». فإذا سألتَه: «من أينَ سقطتْ في يدك؟». يقول: «من السّماء». وكان الأولاد ينظرون إلى السّماء حَقًّا، ويتخيّلون الهدايا والعطايا نازلةً من هناك، تعبر الغيوم، والسّحب الرّاكضة، وتترك وراءها الشّمس والقمر والجبال والنّجوم وتأتي إليهم.

كانَ يوزّع الألعاب، يمدّ الأطفال إليه أذرعهم النّحيلة لكي يصلوا إلىٰ جُواله، يتعلّق الصّغار بلحيته: «عمّو بدّي هديّتي». يبتسم، يمدّ يده عميقًا في الجوال، تُخرج يده لعبةً ما، لا يهمّ ما اللّعبة، كلّ واحدٍ وحظّه،

لعبته هي مَدّةُ اليد في الجوال دون النّظر في داخله، واستخراج حظّه من هناك: «خُذْ يا حبيبي». «هٰذه لعبة بنات». «أعطِها لأختك». «لا يوجد عندي أخت»، يتلعثم، قبل أنْ يُتِمّ: «كان لي أخت، راحت بالقصف». تتقدّم طفلةٌ شَعرُها مربوط بربطة مطّاط وحيدة، تنظر إليه دون أنْ تقول، عيناها تقول: «أنا آخذها». يمدّها لها. ثُمّ يُجرّب حظّ الطّفل مرّة أخرىٰ.

كان (نبهان) يوزّع الألعاب على الأطفال في الخِيم، ويغنّي معهم، ويرقص، ومن ورائهم كانتْ الطّائرات تقصف جهة الشّرق من المخيّم. وكانتِ الأدخنة تتراقصُ هناك سوداء كثيفة تتصاعد في كُتَلٍ كبيرة إلىٰ السّماء فيما كان الأطفال هنا يهزِجون ويُغنّون، وإذا ما انفجرتْ قذيفة غَطّىٰ صوتُها علىٰ صوتِ الأطفال، فإذا خمدَ صوتُها استمرّ صوتُ الأطفال بالغِناء. إنّ الموت هناك يخجل من الحياة هنا!

رأيتُ (نبهان) يجلسُ إلىٰ طفلٍ ويلعب معه لعبة القِطار الّذي يسير في سِكةّ بلاستكيّة في حلقةٍ دائريّة... كان القِطارُ يدور ويدور ولا يتوقّف، وإذا أرادَ الطّفل أنْ يُغيّر رتابة المشهد، وضعَ إصبعه في منتصف السّكّة، فإذا كان اندِفاع القطار بطيئًا توقّف وظلّ صوتُ عجلاته الّتي تدور في مكانها مسموعًا ولٰكنّها لا تبرح موضع إصبعه، وإذا كان اندفاع القِطار عاليًا وهو غالبًا ما يكونُ قبل المُنعطَف أو قبلَ انتهاء السّكّة أو بدايتها فإنّه يخرجُ عن تلك السّكة وينقلب، وإذا ما انقلبَ سُمِعَتْ ضِحكةٌ في الجوار... نحن القطار يا (نبهان)، أعمارنا تدور في دائرة الحرب، وإنّ إصبعًا واحِدًا يقف في تلك الدّائرة كفيلٌ بأنْ يُوقِفَ الحياة أو يقلبها رأسًا علىٰ عقب!

التقيتُ (زكريّا) بعد ذلك. «أينَ كنتَ يا زكريّا؟». «لقد سِحْتُ في بلاد الله». «إنّها غزّة، بلدٌ أضيقُ ما يُمكن أنْ تقول عنها سِحْت». «بل هي أوسعُ مِمّا تظنّ، كذبوا عليك، أعني الإعلام، غزّة لا تساوي مساحتها الجغرافيّة الّتي نسمعها في الإذاعات، غزّة عالَم، بل عوالِم، أنتَ لم ترَ شيئًا». أنا؟». «نعم». «ماذا حصل لك يا زكريّا؟». «لا شيء». «لماذا تقول إنّني لم أرَ شيئًا؟ وكلّ هٰذه الأهوال، لقد رأيتُ ما لو رأيتُه يومَ القيامة من الأهوال لكان مثله أو أكثر». وفرّتْ منّي ابتِسامةٌ مريرة، وردّد: «أستغفر الله». وبدا الجِدّ على وجهي، وهتفت: «قُلْ لي ماذا حدث، يبدو أنّكَ تغيّرت!». «يا فرج، أنتَ رأيتَ ما فوق غزّة، هناك ما تحتها، هناك ما وراءَها، هناكَ ما خلفَ صحرائِها، وجنّاتها، وحدائقها، وبين سماواتها، إنّهم يُقاتلوننا على أمتار مربّعة، ونحنُ أكبر من الأرض نفسِها». «لم أفهم». «لأنّكَ لم تر». «إذًا دَعْني أرَ».

صار (زكريّا) سَقّاء. كان العطش العنوان الأبرز في المخيّمات، كانَ أشدَّ من الجوع. وكلّ المصائب الأخرى الّتي تنقلها المحطّات تأتي بعدَ هٰذين العنوانَين. صار الماء يدخل إلينا من شاحنات قادمة عبرَ معبر رفح، وأحيانًا عبر معبر (كرم أبو سالم). الماء الّذي يأتي من معبر (كرم أبو سالم) كان المُستوطِنون يُوقِفونه، يثقبون إطارات الشّاحنات، ويفرّغون محتوياتها، ويسكبون الماء الثّمين سائِحًا على الأرض، ويمنعون أيَّ شاحنةٍ من العبور.

كان من الطّبيعيّ أنْ ترى الأطفال ينحنون ليغرفوا من تجمّعات بعض المياه الملوّثة بأيديهم ويرتشفوا ما علقَ بِغَرْفة أيديهم ليدفعوا غُول العَطَش. كان الماء من أوّل الحرب أعزّ مفقود، كُنّا في الشّمال نقفُ

في طوابير من الفجر لستّ ساعاتٍ علىٰ مراكز توزيع الماء حتّىٰ ينتصف النّهار، ونعود بجردل أو بنصف جردل لا يكفي يومًا واحِدًا، وقد نعود بلا ماءٍ لأنّنا لم نُبكّر في الذّهاب قبل الفجر، وانتهى الماء قبل أنْ يصل إلينا الدّور.

كان (زكريّا) قد حال لونُ وجهه، شَحُبَ حتّىٰ غاض بهاؤه، ورَكِبَتْه شهور الهَمّ والفقد، فلم يعدْ طِفلاً، وكنتُ أراه لا يكفّ عن الحركة لأنّه كما قال لي: يريدُ أنْ ينسىٰ. ولا حاجة لأنْ تسأله: «ماذا تريدُ أنْ تنسىٰ؟»؛ لأنّ كلّ إنسانٍ في غزّة يحمل بدل الجرح آلاف الجراح الّتي لا تُنسَىٰ، وإنّ السّؤال عن واحدٍ منها أو عشرةٍ أو مئةٍ خيانةٌ لبقيّتها، فالأسلم أنْ تُبقي على الجراح تطوف في خَلَدِ المُصابين محلّقة في فضاء الجمجمة دون أنْ تُصوبّ لها سَهم السّؤال فتسقطَ شهيدةً في قاعها.

«ما رأيُكَ يا زكريّا أنْ تذهبَ معي إلىٰ مستشفىٰ شهداء الأقصىٰ». «لماذا؟». «لِتُساعِدني كما كنتَ تفعل أيّام مستشفى الشّفاء». «لا. لا أرغبُ بذٰلك». «لماذا؟». «لقد تعبْت». «تعبْت من ماذا؟». «تسألني؟». وصمتَ وصَمَتُّ قبل أنْ يهزّ رأسه ويُتابع: «تعبْتُ من منظر الدّماء، ومن رائحة الموت، ومن الصّرَخات، ومن الصّياح والآهات المُعذّبة، ومن الأرجل المبتورة، والسّيقان المُكسّرة، والرّؤوس المقطوعة، وتعبْتُ من رائحة المحاليل، واللّحوم المُشرشَرة، و... ماذا أقول لك يا فرج، أنتَ أدرىٰ، أعرفُ أنّكَ عشْتَ في هٰذا سنوات عمرك كلّه، أنا بالفعل أتعجّبُ من صبرك!». «نحنُ لا نملك إلاّ أنْ نفعل، لقد حبستُ نفسي خمس سنوات بعد استشهاد (رجاء)، ولٰكنّ نداء الواجب أعادني». «كلّ واحدٍ لديه نداؤه الخاصّ، صوتُه الدّاخليّ الّذي يدفعه إلىٰ أنْ يقومَ بشيءٍ،

رُبّما لو فكّر في الأمر قليلاً لتخلّىٰ عنه». «هل أصبحْتَ فيلسوفًا في غيابكَ عنّا يا زكرّيّا؟!». وضَحِكْت. وأضاف: «ألم تقلْ إنّ الحربَ علَّمَتْنا ما لم تعلّمه الجامعات ولا معاهد الفلسفة». «أنا قلتُ هٰذا؟». وضَيَّقْتُ عَيْنَيّ. وابتسم، وأردف: «يا سيدي قلتَه أو لم تقلْه، لقد قلناه كلّنا، قالَه العالَم عنّا». «طيّب يا زكريّا، ما النّداء الّذي جعلك تعود إلى المخيّم؟». «الماء». «الماء؟ لم أفهم!». «لأنّكَ لم ترَ». «أووف يا زكريّا!». وتركني ومضىٰ.

كانتْ طريقُ الماء مُعبّدةً بالدّم. الدّم جسرُنا إلىٰ كلّ شيء، فإذا أردْنا أنْ نأكل قدَّمْنا الدَّمَ مهرًا، وإذا أردْنا أنْ نشرب قايَضْنا الدّمَ بالماء، وإذا أردْنا أنْ ننام فعلينا أنْ نُقدّم لوحشِ الحرب أطنانًا من دمائِنا لكي ينامَ! بعضُنا إمّا حسيرًا وإمّا شهيدًا، وإذا أَرَدْنا أنْ نعبرَ من الشّمال إلى الجنوب، وكُنّا مئةً فإنّ علىٰ نصفنا أنْ يُقدِّمَ دَمه لغول الحرب من أجل أنْ يعبر النّصفُ الآخَر. وإذا أردْنا أنْ نقطعَ ضِفَّتَي الطّريق فإنّ مَنْ قَطَع هٰذه عليه أنْ يُسلِّمَ شهيدًا علىٰ مُنتظِره في الضّفّة الأخرىٰ!

دخل (زكريّا) في سِلْكِ السّقاية في المُخيّم. تعرّف إليه عُمّال المنطقة وموظّفو الإغاثة وبعضُ الطّواقم الطّبّيّة على الحدود، كان يستقبل الشّاحنات الواصِلةَ إلى المخيّم، يعرفُه القائِمون عليها، يسوقُ حمارًا وكارّة، يُعطونه حُصّته اليوميّة (١٠٠) جالون يحملها علىٰ دفعتَين في بسطة الكارّة، يُوزّع الخمسين الأولىٰ على الخِيام الّتي يحفظُها ويحفظُ أسماءَ أصحابِها، ويعود في المرّة الثّانية ليفعل الشّيء ذاته، فيوزّع ما تبقّىٰ. كانت الخِيَم الّتي يُوصَل إليها الماء معروفة باسم (خِيَم زكريّا)، وكان القاطِنون فيها ينتظرون بلهفةٍ أنْ يُطلّ عليهم وجه (زكريّا) من خلف قماش المدخل، ليعطيهم جردل الماء، وكان الماء حياةَ النّاس،

ومنذُ أنْ خلقَ الله البشر كان كذٰلك، وكان (زكريّا) يمدّ لهم يدَ الحياة.

وبقي (زكريّا) علىٰ ذٰلك شهرًا كاملاً حتّىٰ أوائل شهر أيّار، لا يكلّ ولا يملّ، وكان يعمل بصمت، ولا يبقىٰ حتّىٰ يسمع كلمات الشّكر الّتي تنطقُ بها الأفواه، وكان غائِبًا عنّا وعن نفسه، أجلسُ معه لأعرفَ ما يدور في ذهنه فلا أصلُ إلىٰ ما أريد، أُحاوره فلا ينطق إلاّ بكلماتٍ قليلة وجُمَلٍ غير مفهومة، حتّىٰ صارَ غريبًا بالنّسبة لي بعد أنْ كانَ منذُ أوائل الحرب قريبًا جِدًّا إلىٰ نفسي حينما تمنَّيْتُ أنْ يكون ابني، ولا أدري ما الّذي غَيّره، و... تَبًّا، إنّها الحرب، غيّرتِ الحجر أفلا تُغيّر البشر؟!

ورأيتُ ذاتَ مرّة ثلاثَ شاحناتٍ للماء تعبر طريق المُخيّم، وأمواجُ النّاس تتبعها من خلفِها ومن جوانبها، وهم يحملون الجرادل الصّفراء، ويمدّون أذرعهم بها عاليًا نحو فوهات الشّاحنات، وكانتْ هٰذه الشّاحنات تتهادىٰ بسبب الطّريق التّرابيّة وتميل جهة اليمين واليسار، والماء يتساقط منها دُفُقاتٍ دُفُقاتٍ، والنّاس تمدّ جرادلها في تلك اللّحظات لعلّها تتّلقف شيئًا من الماء، ولٰكنْ هيهات! ورأيتُ (زكريّا) وسطَ هياج النّاس هٰذا وتدافعهم يجلسُ القرفصاء علىٰ جانب الطّريق وحيدًا، وقد ركنَ ذقنه علىٰ رُكبتَيه وراحَ ينظر ببلاهةٍ وصمتٍ إلىٰ أمواج النّاس، وهو ساكنٌ ولا أحدَ ينتبهُ إليه، ولا أدري ما الّذي حَملَه علىٰ ذٰلك؟! فقد كان فيما مضىٰ هو الّذي يُنظّم الدّور، وهو الّذي يُزوِّد النّاس بالماء في خيامهم. ولم أشأ أنْ أقطَعَ عليه صمته، ولا أنْ أقتحمَ عليه خلوته، فتركْتُه وشأنه.

ورأيتُه في اليوم التّالي واقِفًا في ظلّ الشّمس، وهو يركز كَفَّيْه مثلَ راعٍ هَرِمٍ علىٰ عصا خشبيّة، وينظر في الأفق، وبقي علىٰ ذٰلك زمنًا طويلاً،

جُثمانًا ساكِنًا، والشّمسُ تصفعه بأشعّتها الحارقة، وهو لا يتحرّك قيدَ أنملة، وأتيتُه فسألتُه: «زكريّا. ما بك؟ لِمَاذا تقف هٰكذا؟!». «وانزعجَ من سؤالي كأنّني قطعتُ عليه تأمّلاته، ولم يُجب. فأعدتُ عليه السّؤال: «لماذا تقفُ في الشّمس؟». وردّ عليّ هٰذه المرّة: «أريدُ أنْ أرىٰ». «ترىٰ ماذا؟». «أرىٰ موضعي». «وأينَ موضعك؟». وأشارَ إلى البعيد: «هناك في صحراء النّقب». وتعجّبْتُ من إجابته، وبقيتُ صامِتًا، وأردف: «ومن هناك ستهبطُ غمامةٌ باردةٌ بيضاء، وستحملني إلى السّماء». وَهَزَزْتُه من كتفه: «ماذا حصل لك؟». «أنتَ لا ترىٰ». وأردْتُ أنْ أحضنه، وأعودَ به إلى المُخيّم، فتخلّص من ذراعَيّ برفق، ومضىٰ يمشي ببطءٍ ومعه عصاه جهة صحراء النّقب. وقلتُ في نفسي: «سأتركه اليوم علىٰ راحته، وغدًا سأستوعب ما يحصل معه».

ولٰكنّ الغَدَ لم يطلعْ. و(زكريّا) لم يظهر بعدَ ذٰلك اليوم. ومرّ شهرٌ واثنان علىٰ لقائنا الأخير، ولم أره، ولا أدري إنْ كانَ بلغَ موضعه من الصّحراء حَقًّا، أو أنّه حملتْه غمامتُه البيضاء الباردة إلىٰ حيثُ يريد؟!



(٥٨) لنا الله!

كان الحَمْل قد أعادَ لها شيئًا من عرجتها، كانتْ تمشي وتضع يُمناها على خصرها وقد مال جذعها باتّجاهه، وتُطلق آهةً خفيفةً بعدَ أنْ تمسحَ عرقَ جبينها، وتجلسُ إلى كرسيّ من كرتون، وأجلسُ إلى مثله. «أنا في الشّهر السّابع». «اقتربتِ السّاعة». أقولُها وأضحك، بينما هي تُقطّب جبينها: «الحَمْل مُتعب، لم أجرّبْ أنْ أكونَ أُمًّا من قبل». وضحِكْتُ ثانية: «ولم أُجرِّبْ أنْ أكونَ أبًا». وصَمَتْنا، فيما كان الأطفال مثل النّهر الأسود يجوبون الطّرقات في الشّارع المكتظّ بهم بينَ الخيام، نظرتْ (سلام) إليهم طويلاً وهتفتْ بصوتٍ يجرحه الأسى: «هؤلاء الأطفال الّذين أمامنا ويزيدُ عددُهم عن مئتي طفل، كلّ واحدٍ منهم له عائلتُه، وحِكايته، وأحلامُه...» صمتتْ برهةً قبل أنْ تُتِمّ: «تخَيّل أنْ يأتيهم صاروخٌ واحد، فقط صاروخٌ واحد، سينتهي كلّ شيء، عائلاتهم أحلامهم وحكاياتهم...» وصمتَتْ ثانيةً، وتنهّدت، قبل أنْ تُشيح بنظرها عن يمينها مُتحاشِيةً النّظر إلى الأطفال: «وتخيّل أنْ يكون ابنُنا بينهم... هل تتوقّع أنْ ينتهي الأمر هكذا؟! بلمحة عين، بكبسة زرٍ من وحشٍ يطير في السماء، يُطلق القذيفة وينتهي كلّ شيءٍ على الأرض فيما هو يتابع سيره إلى نهرٍ آخرَ من الأطفال!! هل الحياة ظالمةٌ إلى هذا الحَدّ؟!». اقتربْتُ منها، حضنْتُ رأسَها بينَ ذِراعَيّ أُهدِّئُ موجةَ الألم الّتي عَبَرَتْها: «ابنُنا سيأتي سليمًا بإذن الله، وسيُزهر في بيئةٍ غير هذه الّتي عانينا منها،

وسيكون قائِدًا في جيشٍ يُحرّر الأقصىٰ ويُعيد فلسطين إلىٰ أهلها. أفي الله شَكٌّ؟!». ورفعتْ بَصَرَها إليّ وفي عينَيها رَجاءٌ تُحلّقُ نوارسه البيضاء بعيدًا: «سأصنع لكَ الشّاي».

عادتْ بعدَ عشر دقائق، تحمل صينيّة وكأسين، أخذتُ كأسي، ورشفْتُ الرّشفة الأولىٰ، وهتفت: «سأذهب إلىٰ مستشفىٰ شهداء الأقصىٰ». هَزّتْ رأسَها، دون أنْ تقول شيئًا. ثُمّ أردفْتُ: «إنّه الوحيد الّذي بقي يعمل حتّى الآن، مع أنّه كسواه لم يسلمْ من القصف». قالتْ بصوتٍ خفيضٍ كأنّما تعتذر: «أنا لا أستطيع أنْ أذهبَ معك. تعرف...». وأشارتْ إلىٰ بطنها المُنتفِخ، وأردفتْ: «ولٰكنْ، لن أقفَ في وجهك، مع أنّني أتمنّىٰ ألاّ تذهب». «ولِمَ؟». «أخافُ عليك، أنا حتّى الآن لم أتخيّلْ أنّك نجوتَ من المجزرة الأخيرة في مستشفىٰ ناصر، إنّ ما رَوَيْتَه لي لا يُصَدّق». «ولٰكنّني نجوت، وها أنذا أمامكِ، لم ينقصْ منّي شيءٌ. الموتُ قَدَر، مَنْ يُمكن أنْ يهربَ منه». «لا أحدَ يهرب منه يا (فرج). ليسَ لأنّنا لا نريد، بل لأنّنا في قبضته، فما نهربُ منه إلاّ إليه». «وعليه، فإنّ ذهابي يتساوىٰ مع بقائي». «ولٰكنّني أخافُ أنْ يحينَ موعدُ ولادتي وأنتَ غير موجود». «لا، بالطّبع، سأعودُ بعدَ شهرٍ علىٰ أبعدِ تقدير، لنْ تكوني قد وضعتِ». «لا أحدَ يدري. أليست الولادة قدرًا كالموت؟!». «إذا علمْتُ موضعًا أستطيع أنْ أُقدمّ فيه المُساعدة فلا أصبر على الانتِظار». «لنا الله». «لا تقلقي». «لا لن أقلق، فالقلق فكرةٌ لا مكانَ له في الحرب لمن يوقن أنّه في أيّة لحظة سيموت، هوان الموتِ علينا هَوّن كلّ ما دونه، ولا شكّ أنّ القلق والخوف والألم دون ذٰلك». «لا أدري أينَ ستلدين إذا حانتِ الولادة؟!». «بالطّبع ليس في أيّة مستشفىٰ، فلا مستشفيات».

أمّنْتُ على كلامها: «ولا في أيّ مركزٍ صحّيّ». «فأين؟». «المُخيّم يعجّ بعشرات الطّبيبات، إنّهنّ مُتمرِّسات خبيرات». «ويولِّدْنني باللّقن وبالماء السّاخن!» وضَحِكتْ. ثُمّ أردفتْ وضَحِكتُها تَخفُت: «لقد عُدْنا إلى أيّام سِتّي وسِتّك». «الحرب كلّ يومٍ في شأن».

تركْتُ (سلام) في المخيّم، ومضيتُ على كارّة أنا و(نبهان) إلى مستشفى شهداء الأقصى، نجونا من عشر محاولات قَنصٍ طَوال الطّريق، لم أعدْ أترقّب الأمر أو أتردّد أو أخاف منه كما كُنت يوم غادرنا المستشفى الأندونيسيّ أنا و(سلام)، صار الأمران سِيّين، نجونا من القنص المرّة الأولى والثّانية، إلى العاشرة، وها نحنُ ندخل مستشفى شهداء الأقصى وصوتُ الرّصاص لا يزال يطنّ في آذاننا، فيا لبُؤس اعتياد الموت!

كان المستشفى مُكتَظًّا بالكامل، يُقدّم الخدمات الطّبّيّة لأكثر من مليون غزّاويّ، أي أنّ نصف أهل قِطاع غزّة يَفِدون إليه، ومع ذلك، رأيتُ أجزاء من غُرَفِه قد أصابَتْها القذائف، وطوابق قد تهدّمَتْ سُقوفُها خاصّة تلك العالية، وكان على كثرة مُرتاديه يعمل بمولّد واحدٍ، ومعنى ذلك أنّه إذا توقّفَ المُولّد لِعُطْلٍ ما، فإنّ آلاف المرضى والجرحى سيكونون عرضةً للموت خلال ساعاتٍ من ذلك، ولم تتمكّن الإدارة الصّحّيّة من توفير مولِّد آخر، وها نحنُ في غزّة، يُصبح موتُنا رهين توقّف المُولّد أو استمراره، فيا لَبُؤسِ حالِنا!

مَضى (نبهان) إلى عادته، طافَ بالغرف، اختار الّذين كانوا يرون الموتَ في صباحِهم ومسائِهم، مسَحَ بيدِه الحانية، وقرأ آيات الطُّمأنينة، ودعا.

كان المُستشفىٰ يستقبل في اليوم الواحد حوالي ألف حالة، أكثرها إصابات بالرّصاص، وكانَ الجرّاح الواحد يُجري في اليوم الواحد عشر عمليّات جراحيّة، مِمّا يعني أنّه كانتْ تجرىٰ مِئات العمليّات الجراحيّة في المُستشفىٰ يوميًّا، طبعًا ليسَ كلّها في غُرَف العمليّات، غرف العمليّات ترفٌ بعيد، كُنّا نُجريها في الغرف العاديّة وفي الممرات وتحتَ الأدراج، نعم تحتَ الأدراج في كلّ طابق، كان الموضع المنزوي هنا مساحة متعدّدة الاستِعمال، والعمليّة الجراحيّة الّتي تُجرَىٰ فيه كانتْ أحسنَ من العمليّات الّتي تُجرَىٰ في سِواه.

قصص المُصابين هنا أكثرُ من أنْ تقولها آلافُ الكتب، لو بقيتُ مئة عامٍ طَوال النّهار واللّيل أحكيها لكم فلن تنتهي!

(رَزَان) كانتْ في خيمتها في منطقة المواصي علىٰ شارع الرّشيد، كانَ الوقتُ قُبيل المغرب، لم يكنْ قد بقي في مصباح النّهار إلاّ ذُبالته الّتي تَنُوس، أَوَتِ العائلة إلىٰ تلك الخيمة مع الغروب، تمكّنوا من إيقادِ النّار في رزمةٍ من الحطب ليأكلوا ثلاثَ بيضاتٍ مقليّة، ثُمّ يُوقدون علىٰ ما تبقّىٰ من النّار إبريق الشّاي، ويشربون بمتعةٍ، ثُمّ يُصلّون العِشاء وينامون، فلا شيءَ يُمكن أنْ يفعل بعدَ العِشاء في وقت الحرب. في غفلة النّوم، وفي الثّالثة فجرًا، اقتحَمتْ عليهم دبّابة (الميركافا) خيمتهم، كانتْ (رزان) وأمّها وأختها ينمْنَ بالحجاب خوفًا من أنْ يُستشهَدْنَ وهنّ بدون غِطاء على الرأس، جاءتْ جنازير الدّبّابة على الجزء الأيمن من جسدِ (رزان) وفَرَمَت ذلك الجزء، وعَلِقَ حجابها بجنازير الدّبّابة فظلّتْ تسحبُها حتّىٰ رمَتْها على الشاطئ، وقد تهتّكَ نصفُ جسدها وانسحق تحتَ الجنازير والمفارز، نجتْ بقيّة العائلة لأنّ أجسامَهم جاءتْ قَدَرًا في الفراغ الّذي

بين جِهَتَي الجنازير. ظلّتِ الأمّ والأخت تصيحان، والأب المكلوم يبحثُ عن ابنته، وهو لا يدري هل توزّع جسدُها على مفارز الدّبّابة فلم يعدْ لها منه شيء؟! كان لا يشكّ أنّها تحوّلتْ إلى لحمٍ مفروم، ولكنّه كان يأملُ أنْ يعثر على بقاياها فيجمعها، ويُصلّي على روحها الطّاهرة، ويدفنها.

استمرّ بحثُ الأب عن ابنته حتّى الثّامنة صباحًا، عندما لاحَ له جسدُها على الرّمل قريبًا من الشّاطِئ، هُرِعَ إلى هناك، وتعرّف عليها مِن عينَيها اللّتين كانتا مفتوحتَين، وتستغيثان. حمَلَها وقد ذهبَ كثيرٌ من جسدها قِطَعًا مفرومةً أو منثورةً على الرّمل أو مختلِطةً به. وجاءَ بها إلى هذه المستشفى.

كانَ جزءٌ من بطنها قد اخترِم، وجزءٌ من جهازها الهضميّ، أمعاؤُها لاكَتْها جنازير الدّبّابة، أجريْنا لها في المستشفى أكثر من عشر عمليّات، بعضُ العمليات كانتْ تستغرقُ سِتّ ساعاتٍ، عادَتْ إليها الحياة تدريجيًّا، استعادَتْ وعيها، وقدرتَها على النُّطق. وهكذا عادَتْ إلى شفتَيها ظلالُ بسمةٍ شاحبة، كانتْ مقاتِلة من طرازٍ فريد، كانتْ تريدُ أنْ تعيش، تقول لي: «لا تتركْني، أعرفُ أنّ الموتَ والحياة بيد الله، ولكنّ الله يمكن أنْ يكتبَ لي الحياة على يدَيك». ومضى أسبوعٌ آخَر، وصِحّتُها تتحسّن، لكنْ بعدَ ذلك، أَنْتَنَ الجُرح، وحدثَ تَسمُّم في الدّم نتيجة البكتيريا الموجودة معها، لم تكنْ في المُستشفى كمّيات دمٍ كافية لتبديل الدمّ المُتسمِّم، ولم نكنْ مُتأكّدين من نوع البكتيريا الّتي هاجَمَتْها لأنّنا لا نقدر على أخذ عينات لعدم وجود مختبرات صالحة في هذا الظّرف، أجرَيْنا لها عمليات أخرى، لكنّها دخلتْ في الصَّدمة، وأبقيناها على أجهزة

التَّنَفّس الصّناعيّ في غرفةٍ عاديّة مليئة بالجرحى الآخرين، ولم نستطع أنْ ننقلها إلىٰ وحدة العناية المُركزّة إلاّ بعدَ أنْ استُشهِد أحدُ الجرحىٰ، فوضعناها مكانه، بقيتْ في العناية المُركّزة يومًا كامِلاً، لم تكنْ تستجيب للأجهزة، وفي صباح اليوم التّالي كانتْ قد فارقتِ الحياة. كان يُمكن أنْ تعيش. ولٰكنّ انتِكاسَتها كانتْ لقلّة الأدوية، ولقلّة الطّعام، وندرة المياه والمحاليل والمُضادّات الحيويّة. لقد فارقتِ الحياة وهي لا تزال تقاتِلُ من أجل أنْ تبقىٰ. وما بكيتُ علىٰ رحيل شهيدةٍ مثلها، ذٰلك أنّها لو كانتِ الظّروف أفضلَ قليلاً من هٰذا لعاشتْ، غدرتْ بها الأوضاع وقلّة الإمكانيّات، ولو أنّها في أيّ مستشفىٰ عاديّ خارجَ غزّة لكانتْ فرصتها في النّجاة كبيرة.

كان (نبهان) يُحدّثني عن كرامات الشّهداء، كان يقول لي: «إنّكَ لمَ ترَ». فأقول له: «أرني». فيقول: «احضرْ معي تغسيلهم أو لحظات النّزع الأخيرة، وانظر إلىٰ إشراقة وجوههم وجَمالِ ابتساماتهم». «أنا عندي ما يكفيني. هٰذه اللّحظات الأخيرة تمرّ عليّ يوميًّا في مِئات الجرحى الّذين أُعاينهم أو أراهم».



(٥٩) مِن أينَ تأتي هذه الرّائحة؟!

عادَ عددٌ من النّاس إلى الشّمال يريدون أنْ يتفقّدوا منازلهم، يعرفون أنّها مُدمّرة، ولكنّ بعضَ الذّكريات فيها لا يُمكن تدميرها، كانوا يريدون أنْ يستمعوا إلىٰ حفيف الذّكريات تلك. كانوا يسيرون وأرواحهم علىٰ أكفّهم. بعضُهم سقطَ في الطّريق، لا يدري كيفَ يكونُ الموتُ أسهلَ عندهم من البُعدِ عن منزلٍ مُدمّرٍ لكنّهم حَنُّوا إليه، إنّ الحنين لطاغٍ إذا ماجَ في أعماق النّفس!

إنّ هٰذه العودة المُتقطّعة من الجنوب إلى الشّمال بعدَ سبعة أشهرٍ علىٰ بدء الحرب لم تنتهِ، رغمَ المآسي الّتي تحدثُ فيها، غالِبًا ما تكون العودة من أجل البحث عن بعضِ الضّروريّات، وأحيانًا من أجل الموتِ هناك فوقَ رُكام المنزل لا تحتَ طُنُب الخيام ما دام الموتُ واحِدًا.

كان هناكَ ثلاثة شُبّان قد غامروا من أجل الحصول علىٰ كيس طحين، قُنِصَ اثنان قُبيل الوصول إلى الكيس، استسلما لِمَنْ وَهَبَهما الرّوح أنْ يستردّها، الثّالث أصابَتْه الرّصاصة في ساقه، فارتمىٰ على الأرض، فأصابَتْه رصاصةٌ في بطنه، فلم يتراجع أو يهرب، كان جوع أطفالِه من خلفه قد جعله يستخفّ بالموت القادمِ إليه، زحَفَ باتّجاه كيس الطّحين، كانت الرّصاصات تنهمر فتثقب الأرض عن جانِبَيه، وتصعد نَقَرَاتٌ من هناك حولَه كأنّها نُقاط الماء المتناثرة، جاءتِ الرّصاصة المِئة في كيس الطّحين، فانهال ما في داخله على الأرض وتبعثر،

واختلطَ بالتّراب، لكنّ نداءَ أبنائه أنْ يعودَ لهم برغيف خبزٍ واحدٍ قبل أنْ يأكلهم الجوع كان أقوىٰ وأشدّ، فشَدّ علىٰ جرحه، ثُمّ راح يجمع الطّحين المُتناثر على الأرض بكفّيه ويزحف... ثُمّ قُنِص في رأسه فخمدتْ حركته، وسال الدّم على الطّحين وامتزجَ به فصار عجينًا.. يُمكنكم الآن أنْ تأكلوا خُبزَ دمه الشّهّيّ أيّتها الوحوش الجالسة خلفَ الكمائن!

قال لي (نبهان): «تعال»، وأخذني من يدي. ودخلْنا ممرًّا مُعتِمًا. وهتف: «ماذا ترىٰ؟». نظرتُ إليه مُستغرِبًا: «لا أرىٰ شيئًا. المكان مُظلِم». «يا أخي، استمع إلى الرّائحة وستراها». وصمت، وطلبَ منّي أنْ أُغمِضَ عينَيّ من أجل أنْ أراها. وأغمضْتُ عينَيّ بالفعل، وقادَتْني الرّائحة إلى المشرحة. كان العدوّ قد قصفَ عمارةً بمنطقة الزّوايدة، فانهارتْ بالكامل، واستُشهِد أكثر من فيها، ونُقِلتْ جُثَث الشّهداء إلىٰ هنا، لا بُدّ أنّ (نبهان) جهّزهم في هٰذه الغرفة للصلاة، كانوا مصفوفين ثلاثةَ صفوف عرضيّة، كلّ صف فيه حوالي عشرة شهداء، كُنّا لا نزال نعبر الممرّ، قبل أنْ نصل إلى الغرفة، قلتُ له: «الرّائحة الشّذيّة صارتْ أقوىٰ». ابتسم: «هَيّا لم يبقَ شيء». ودخلْنا الغرفة. كان هناك ضوءٌ يعمل على الغاز في زاوية الغرفة، ويتقطّعُ ضوؤُه بين لحظةٍ وأخرىٰ، أمّا الثّلاّجات فكانتْ تعمل على المُولّد الوحيد في المستشفىٰ، ألقى الضّوء الخافت شيئًا من الظّلال علىٰ أجسادِ الشُّهداء، لم يكنْ يظهر منهم شيءٌ باستثناء وجوههم، أمّا الشّهيدات فقد غُطّيتْ حتّىٰ وجوههنّ.

هتفَ (نبهان): «الآن، ماذا؟ أينَ تقودُكَ الرّائحة؟». «إنّها تقودني إلىٰ الحرم المكّيّ». «ماذا تقصد؟». «لقد شممتُ هٰذه الرّائحة هناك في إحدىٰ رحلات العُمرة، إنّها رائحة المسك». «تمامًا، لكنْ قلْ أيُّ هٰذه

الأجساد هي الّتي تحمل هٰذه الرّائحة الّتي ذكرتَ؟». واستنشقتُ هواء الغرفة كلّه، ومَيّزْتُ الرّائحة المِسكيّة، وأشرْتُ إلىٰ شهيدٍ يبدو من وجهه أنّه في العشرين، وقلت: «هٰذا». وهتفَ: «صدقت، إنّه يحفظُ القرآن، هٰذا الشّهيد أعرفُه بشكلٍ شخصيّ وأعرفُ أنّه يحفظُ القرآن على القراءات العشر». واستنشقتُ الهواء العابق في الغرفة أكثر، وهتفتُ: «ولٰكنْ...». وسألني نبهان: «ماذا؟» قلت: «إنّ الرّائحة الّتي تفوح من الشّهيد الّذي إلىٰ جانبه أقوىٰ». وأشرتُ إلى الجسد المُغطّىٰ بالكامل. وابتسم (نبهان)، وقال: «هٰذه أُمّه». وعبرتْ دمعةٌ عينَيّ، وسقطَتْ على الأرض، وتناولتُ شاشًا أبيض، واستأذنْتُ (نبهان) أنْ آخذَ شيئًا من دمه علىٰ هذ الشّاش، وهَزّ (نبهان) رأسَه: «هٰذا شأنُك، أنتَ الممرّض». وتقدَّمْتُ إلى الشّهيد الشّاب، وفتحتُ الكفن، فوجدتُ الجرح في صدره جهة القلب، ورأيتُه لا يزال ينزفُ نزفًا وئيدًا، وفاحتِ رائحة المسك آنئذٍ بقُوّة، ومسحْتُ شيئًا من الدّم بقطن الشّاش، وانحنيتُ علىٰ جبهته الطّاهرة فقَبَّلْتُها، ورأيتُه يبتسم، أو هٰكذا خُيِّلَ إلَيّ، وما أعجبَ ما يتراءىٰ لنا الخيالات والطّيوف المرتسمة علىٰ وجوه الشُّهداء، وطويتُ قطعة الشّاش بعنايةٍ، ثُمّ وضعتُها في جيبي، وأعدْتُ تغطية الجسد بالكفن، وصلّىٰ بنا (نبهان) على الشّهداء، وصلّىٰ معنا عددٌ من العاملين، وجميعهم كانوا ينظرون حولهم مُستغرِبين: «من أينَ تأتي هٰذه الرّائحة؟!».

لقد أُصِبْنا بالعجز في طواقمنا الطّبّية، قُصِفتْ كثيرٌ من سيّارات الإسعاف وتعطّلتْ. خرجت المستشفيات عن الخدمة. الجرحىٰ لا علاج لهم، الجرح أحيانًا أشدّ إيلامًا من الجوع، قد يصبر الإنسان

على الجوع لكنّه قد لا يصبر على الجرح، ونحنُ نعاني من ندرة كلّ شيءٍ فيما تبقّىٰ من مستشفياتنا.

بدأتْ بعضُ الطّواقم تبحثُ عن الشّهداء الّذين دُفنوا بشكلٍ عشوائيّ، أو انهالتْ عليهم طوابق مستشفى الشّفاء، أو الّذين أُعدِموا إعداماتٍ ميدانيّة هناك، كان قد مرّ علىٰ إخلاء مستشفى الشّفاء في المرّة الأخيرة حوالي أربعة شهور، ربّما أكثر. احتلّتْه قُوّات الاحتِلال آنئذٍ وحوّلته إلىٰ ثكنةٍ عسكريّة، ولمّا انسحبتْ منه، فكّر كثيرٌ من الّذين فقدوا ذويهم أنْ يعودوا ليبحثوا عن رُفاتهم هناك، ويستخرجوها، ويقوموا بدفنِها بشكلٍ لائق.

هٰذه العودة الاضطراريّة كشفتْ فظائع، وأزاحت السّتار عن آلامٍ ربّما كان من الأفضل أنْ تبقىٰ دونَ نَبْش. مثلُ هٰذا حدثَ في مناطق كثيرة من غزّة، تلك المناطق الّتي تركَها الجيشُ بعدَ احتلالها، وغادَرها بعدَ أنْ ارتكبَ فيها عشرات المجازر.

انتشلَ النّاس في خانيونس، ثلاثين جُثّة لشهداء كانوا مُكبّلي الأيدي. وانتشلوا جُثثًا أخرىٰ بلا رؤوس. وكانوا قد أهيلتْ عليهم فيما يبدو أكوام من الرّمل من قبل جرّافات قامتْ بدفنهم بشكلٍ عشوائيّ في قبورٍ جماعيّة.

أثناءَ بحثِهم عن رُفات الشّهداء صاح أحدُهم بلوعة: «هٰذا أبو السّرور». «الله يرحمه». أتاه صوتٌ من بعيدٍ، يبحثُ في منطقةٍ أخرىٰ: «فيه معاه بناتُه استشهدن. بتقدر طلّعْهنّ». «هاي جاكيتُّه، لقينا جاكيته، بناتو لسّا». «هاي الجاكيتة السوداء؟». «آه هي، فتَّشْها، وتأكّد». وارتجف الطّرف الآخر، وارتعشتْ حروفه: «لا بقدرش، لا بقدرش». «تأكّد قبل ما ترفعه... آه تأكّد

من ثيابه». وجاء أحدُهم ونظَر إلى الجثّة الّتي بجانِبها، وقلّب القِماش المهترئ المُغطّى بالأتربة والبقايا والطّين اليابس: «هاي لابسة جلاّبيّة». «إيش لونها؟». «جلاّبية سمراء». وارتعشَ الصوت مرّة ثانية: «هاي أمّ سرور». «الله يرحمها». «هاتو طوريّة... هاتو كريك.. هاتو حاجة». وراحَ يُزيحُ الرّدم الطّينيّ والنّفايات عن الجثّة، جمَعَ عِظامها في كيس، وتأكّد ثانية من جلابيّتها، ووضعهما في صندوق الجرّافة، لم يكنْ هناك متّسع من أجل أنْ يصطفّ الشّهداء جنبًا إلى جنب في صندوق الجرّافة، اضطرّ العامِلون إلى أنْ يضعوا الجثث بعضُها فوقَ بعض، بعدَ أنْ يكتبوا على الأكياس أسماءَهم. سحبَ أحدُهم من الرّدم قِطعة قماش، نَكَتَ عنها التّراب والطّين، وهتف: «إيش هاي؟». «هاي بلوزته». «بلوزة مين يا عمّنا؟». «بلوزة سرور». «متأكّد؟!». «يا عمّي آه». «طيّب شو هاي؟». «اسحب لَنْشوف؟». وسحب عظمة السّاق المرتبطة بعظمة الفخذ، مُتربةً، استلّها من الطّين، وكادتْ تنفصل من المفصل في وسطها، وهتف»: «هاي رِجله». «متأكّد؟». «آه». ووضعها في كيسٍ يخصّ جُثّة (سرور)، وربطَه ثُمّ ألقاه في صندوق الجرّافة إلى جانب عشرة جُثت أو اثنتي عشرة جُثّة أخرى.

في محيط المستشفيات بوجهٍ عامّ، وفي محيط مستشفيات غزّة في الشّمال بوجهٍ خاصّ، كانتْ تبدأ عمليّات البحث عن الشّهداء أو المفقودين بهذه الطّريقة من الصّباح حتّى غروب الشّمس، لقد أعدمَ الجيش الإسرائيليّ دون هوادةٍ مئات الشُّهداء إعدامًا ميدانيًّا برصاصةٍ من الخلف، وهم مُكبَّلُو الأيدي وراء الظُّهور، ومَعصُوبُو الأعين، ولَمّا سقطوا على وجوههم أهالوا عليهم التّراب.

غامرتُ بالتّجوّل في الشّمال، المكان مرّتْ عليه أنواع القنابل الذّرّيّة والنّوويّة والهيدروجينيّة كلّها، كان هنا بشر، وكان هنا أحياء، وكانَ هنا شجر، المباني كلّها محروقة، أو مسحوقة، والجثث المتفحّمة بالشّوارع، والشّوارع مُجرّفة، وحتّى القبور الّتي دفنّا فيها الشّهداء جرّفها الجيش، وأُخرِجَت منها الجُثث، وألقيت في النّفايات وفي المزابل.

دخلْتُ قِسْم الولادة في مستشفى الشّفاء لأرىٰ، وعلىٰ فظاعة ما رأيتُ من قبلُ لم أحتمل فظائعهم هنا، كانتِ الحوامل قد أطلِقَ عليهنّ الرّصاص، وأُعدِمْنَ إمّا في بطونهنّ أو في صدورهنّ، وكُنّ قد تفسّخَتْ أجسادُهنّ، وكان الدَّم النّاشف على الأرض الّذي اسودّ مع الأيّام إذا سقطَ عليه سائلٌ لَمَع، فكأنّه يبكي، أو يريدُ أنْ يرفع شكوىٰ أهل الأرض إلىٰ أهل السّماء.

رأيْتُ أُمًّا تحتضنُ ابنَين لها، وتقتعدُ الأرض، وقد ماتوا جميعًا، وتحوّلوا إلىٰ جثثٍ متفسّخة، متعفّنة، ولم يبقَ غير عِظامهم وبعضُ ثيابهم. كانَ جسدُ الأمّ لا يزال فيه من اللّحم بقيّة، لم يتحلّلْ مثلَ جسدَي ابنَيها اللّذين تحتضنهما، قدّرْتُ أنّهما ماتا قبلها بأسبوع، وأنّها ظلّتْ تحتضنهم أسبوعًا كامِلاً وهم شُهداء قبل أنْ تلتحقَ بهم.

أهٰذا هو مستشفى الشّفاء الّذي قضيتُ فيه ربع قرنٍ من زهرةِ عمري، وأعطيتُ ربوعه شبابي كلّه؟! لقد صار فُتاتًا مسحوقًا، ورُكامًا متروكًا، وأردامًا محروقة، وساحاته تكوّمتْ فيها أخلاطٌ من التّراب والعِظام والرّؤوس والأيادي والجُثث والدّموع والآهات والدّعوات الجائرات إلى الله حتّىٰ صارتْ تلالاً عالية.

(٦٠) لماذا تركْتَني يا حبيبي؟!

بُمْ... بُمْ... بُممم... تناثرتْ رمال الشّاطئ، وعلتْ أمواجُ البحر حتّىٰ صارتْ جبالاً مُلتهِبة. بُم... بُمْم... بُممم... النّيران تلتهمُ الخِيام، لقد قصفوا المُخيّم. أين يهربُ النّاس؟ لماذا يقصفون الخِيام؟ إنّنا مجموعة من النّازحين المُشرّدين البعيدين عن كلّ شيء. كانت النّيران تلتهم حتّىٰ التّراب!

شنَّت مقاتلات حربيّة السّاعة التاسعة مساءً من يوم السّادس والعشرين من أيّار غاراتٍ جويّةً مجنونة أصابتْ مُحيط منطقة (البَرَكْسات) التي تؤوي النّازحين شمال غرب رفح، انفجر كلّ شيء، لم يكنْ هٰذا إلاّ مُقدّمة لحريقٍ كبير.

لم تمضِ دقائق حتىٰ عاودَ الطّيران الحربيّ غاراتِه مُستهدفًا الخيام قُرب مخازن الأونروا في الشمال الغربي للمخيّم. اشتعلتْ ألسنةُ النّيران في الخِيام، احترقَ النّازِحون فيها، جاءَنا الخبر في مستشفىٰ شهداء الأقصىٰ بالكارثة، كان هو الآخَر يحترق، هُرِعْنا بسيّارات الإسعاف إلى المنطقة، كانَ كلّ شيءٍ فِيّ يرتجف، إنّ (سلام) هناك، ترىٰ هل استُشهِدت؟! كنتُ أرتعشُ في السّيّارة مثلَ ورقةٍ يابِسة، وأهجس: «يا ربّ رحمتك».

وصلْنا إلىٰ مُحيطِ الخِيام المُحترِقة، كانتِ النّيران لا تزال تأكلُ الخِيام، كان النّاس في هرج ومرج، والصّرخات تشقّ الآذان، كانوا يُهرَعون من كلّ مكانٍ لإنقاذ النّاس، لم تكنْ هناك سيّارات دِفاع مدنيّ من أجل إخماد الحرائق، ولا ماء من أجل إطفاء النّيران، كان أقصىٰ ما يستطيعه

المُسعِفون هو أنْ يُخرِجوا النّاس إذا تمكّنوا من داخل الخِيام وإبعادهم عن المكان ومحاولة إسعافهم.

وصلْنا بعدَ حوالي نصف ساعة، كان الحريق قد أتىٰ علىٰ مِئات الخِيام، ومن هنا كان يُمكن أنْ تشمّ رائحة الأجساد المُحترِقة، وحينَ اقتربْتُ أكثرَ عرفْتُ أنّها منطقة الخيام الّتي تسكن فيها (سلام) فسقطَ قلبي!

رحتُ أصيح: «سلام... سلام...» وأركضُ كالمجنون، وأسأل الهاربين والنّاجين: «هل رأيتُم سلام؟». لٰكنْ لم يكنْ أحدٌ ليلقي لأسئلتي بالاً، كان كلُّ واحدٍ مُنشغِلاً بمصيبته.

سمعتُ أحدهم يحمل صبيًّا قد احترقَ شعرُ رأسه ورموشُ عينَيه، وذراعاه الطّريّان، والأدخنة تخرجُ من جسده المشويّ، وهو يصيح: «الولد تبخّر». على الأرض كانت الجُثث المُتفحّمة تبدو كأنّها أشياء احترقتْ وتحوّلتْ إلىٰ كُتَلٍ سوداء غير واضحة المعالم، والأدخنة الصّغيرة تصعدُ منها هنا وهناك.

رأيتُ طِفلاً يصيح برعبٍ أمام خيمةٍ مُحترقة، لم يجرؤ أحدٌ علىٰ دخولها، تردّد الطفل قبل أنْ يُقرّر في النّهاية اقتِحامها وسطَ أمواجٍ من اللّهب تلفحُ بِحَرِّها الوجوه في المحيط كلّه، هتفَ: «أمّي مُصابة يا ناس، ما بتقدر تمشي». وفجأةً غابَ داخل الخيمة كانَ أشجع من الحاضرين كلّهم ومن طواقم الإسعاف جميعها، ومن شِدّة استعار النّار لم نتمكّن من اللّحاق به إلى الدّاخل، ولا ندري ما حلّ به ولا بأمّه بعدَ أنْ دخل، هل نَجَوَا؟ هل تدبّرا أمرهما؟! في اليوم الثّاني ونحنُ نبحثُ في المكان عن الجُثث عثرنا عليه هو وأمّه مُتعانِقَين ومُتفحِّمَين.

كانت صرخات الاستغاثة وسطَ اللّهيب تصكّ الآذان، وكانت

الطّواقم الطّبّيّة قد أصيبتْ بالعجز التّامّ، وشعرْنا أنّنا أُلقينا في النّار كما أُلقِيَ أصحاب الأخدود، وأنّ العرب حول الأخدود يُشاهدون وهم يُدَلُّون سِيقانهم، ويأكلون ويشربون، بل ويضحكون وهم يطبطِبون علىٰ بطونهم المُتكرّشة.

رُحْتُ أتفحّص الوجوه الّتي تخرجُ من الحريق بهلع، «أينَ أنتِ يا سلام؟». كانتِ الجُثَث تخرجُ وقد شُوِيَتْ تمامًا. أرفعُ عن وجوهها البطّانيّات الّتي لُفُّوا فيها، وأترقّب أنْ أرىٰ فيها وجه (سلام)، همسْتُ: «ربّما كانتْ في غير هٰذا الموضع عندما سَقَطَت الصّواريخ. لا بُدّ أنّها كانتْ تُجري مقابلةً في مكانٍ ما من هٰذا المُخيم المنكوب». فأشعر بسحابةٍ خفيفةٍ من الطّمأنينة سرعان ما تتبدّد، وأعودُ إلى الجزع هامِسًا في نفسي: «هنا كانتْ خيمتُنا. يا إلهي... لن أُسامح نفسي إذا حدثَ لها شيء». وفتّشْتُ أكثر، حتّىٰ سمعتُ صوتًا من أحدِ المُسعفين: «أليستْ هٰذه هي الصّحفيّة...». وطعنني الصّوت بمخرزٍ في القلب، وهُرِعتْ إليه، فوجدْتُها هي، كانَ وجهها قد احترق، ودخلتْ في غيبوبة، دارتْ بي الأرض وكدتُ أسقط، تداركْتُ نفسي، حملتُها بين ذراعَيّ، وأنا أصرخ: «سلامَ... يا سلام...». وركَضْتُ بها إلى المُستوصَف الصّحيّ.

كان وجهها قد تشوّه، أغمِيَ عليها فيما يبدو من استنشاق الأدخنة السّامّة، وأكلتِ النّار جانِبَها الأيمن بالكامل، قبل أنْ يتمكّن المُسعِفون من إنقاذها.

بقيتُ معها في المستوصف ليلتَين، قدّمْتُ لها كلّ ما أستطيع. لم يكنْ لدينا أدوية حروق كافية، كانَتْ تصحو لمدّة ثوانٍ وتنظر إليّ من خلال الشّاش الّذي غَطّىٰ وجهها بالكامل ولم يُظهِر سوىٰ عينَيها، تنظر نظرةً ضعيفة صامتة، ثُمّ تعودُ إلىٰ غيبوبتها. إذًا لقد أحرقتمْ زوجتي

أيّها السّفَلة، أحرقْتم حبيبتي، أحرقتم ما تبقّىٰ لي في هٰذه الدُّنيا الظّالِمة، لماذا فعلْتُم ذٰلك؟ ما ذنبُها؟ ما ذنبي أنا حتّىٰ أفقدها؟ وسقطتُ في نوبةٍ بُكاءٍ صامت، وأنا أشدُّ علىٰ عينَيّ والدمّع يتفجّر منهما!

إذا كُنّا سندخل الجنّة، فنريدُ أنْ ندخل جنّة غير الّتي يدخلها العرب، نريدُ جنّة ليسَ فيها عربيٌّ مُتخاذل، لم نعدْ نستنجد بأحدٍ، لا نريدُ أن نرىٰ وجه عربيٍّ واحدٍ، صار العربُ كلُّهم أعداءَنا، ليتنا لم نكنْ نشترك في العروبة والإسلام، نريدُ مكانًا هناك عنده لا يجمعنا بهم، نريدُ ألاّ نتأذىٰ بوجوههم الشّائهة، ولا نريدُ أنْ نسمع مَنْ يقول لنا: إنّنا لا نملكُ لكم إلاّ الدُّعاء. كذبتم تملكون لنا أكثر من ذٰلك لو أردتُم ولٰكنّكم ركنتم إلى الدُّنيا ودفنْتُم رؤوسكم في الرّمال وتركتمنونا وحدنا... نعم وحدنا، ونريدُ أنْ نظلّ وحدنا، فلا نريدُ لله أنْ يجمعَ علينا مُصيبتين: التّفجير ووجوهكم. إنَّ التّفجير وحده كان سيكون كافِيًا، فلتغربوا عن وجوهنا أيّها العربُ المُتخاذِلون. والله لن نُسامح، والله لن نُسامح. اغربوا فإنّنا لا نريدكم، ولا نريدُ منكم شيئًا!

في اليوم الثّالث صحتْ فترةً أطول. صار يُمكنها أنْ تنظر في عينَيّ طويلاً، سمعتهما تقولان: «لماذا تركْتَني يا حبيبي وذهبْتَ إلىٰ هناك؟». وضعتُ يدي علىٰ حافَة السّرير، ونظرتُ إليها بعينَين تَمُوجان بالأسىٰ: «سامِحيني يا حبيبتي. لم يكنْ عَلَيّ بالفِعل أنْ أتركك؟ كان يُمكن أنْ ننجو، أنا أخطأتُ في حقّك، لو بقيتُ إلىٰ جانبك لربّما نجوتِ، أو لربّما احترقْنا معًا. اصمدي يا حبيبتي، أرجوك اصمدي ستعيشين، وستُنجبين ابْنَنا، وسنعيشُ حياتنا كما تُحبّين».

بعد أسبوع، تماثلتْ للشّفاء، أو هٰكذا قدّرْتُ، أو لعلّ الأمل بأنْ تعودَ لي زَيّنَ لي شفاءَها. بعدَ عشرةِ أيّام فكَكْنا بعضَ الأربطة، صار حلم

نجاتها قريبًا، بدا ممكِنًا، وشعرْتُ بأنّها تعودُ إِلَيّ.

لازَمْتُها منذُ ذٰلك اليوم المشؤوم دون أنْ أتركها لحظةً واحدة، كنتُ أترقّبُ في كلّ حينٍ أنْ تتحسّنَ حالُها، لم أعدْ أهتمّ بشيءٍ سِواها. صارَ يُمكنُها أنْ تجلسَ إلى السّرير تُسند ظهرها، وصار يُمكنها الكلام ولو قليلاً.

سألتُها: «كيفَ حالُك يا حبيبتي؟». قالتْ لي: ائتني بالمرآة؟». «لماذا؟». «أريدُ أنْ أرىٰ وجهي». «وجهُكِ أجملُ الوجوه». «ائتني بالمرآة»، وقالتْ ذٰلك بشيءٍ من الإصرار. نَظَرَتْ في وجهها، وشعرتُ أنّ دمعةً قد طفرتْ من عينِها، وهتفتْ بحرقة: «لقد تشوّه وجهي يا فرج». «لم يتشوّه يا سلام، أنتِ جميلة، وستبقَين جميلة، أنتِ أجمل في عيني من نساء الأرضِ كلّهنّ». «إنّني بلا وجه، هٰذه التّجاعيد، وهٰذه الحروق، وهاتان العينان المُشوّهتان، وهٰذا الفم المحروق المُجعّد، وهٰذا...». وأشرْتُ بإصبعي إلىٰ شَفَتَيها: «لا تُكملي يا حبيبتي. أنا أُحبّك الآن أكثر. صدّقيني». ثُمّ أشارتْ إلىٰ بطنها: «هل بقي حَيًّا؟». «بالطّبع، الأطبّاء قالوا إنّه ما يزال سليمًا». وسمعتُها تقول شيئًا لم أتبيَّنْه، واقتربْتُ منها لأسمع: «رجلاه». ورفعْتُ صوتي: «رِجلاه؟! ماذا؟». «لم يعدْ يرفسُ كما كان يفعل في السّابق»، وحاولتْ أنْ تضحك فلم تقدرْ. وأجبْتُها: «لقد صار عاقِلاً» وحاوَلْتُ أنْ أضحك معها.

طُفتُ المستشفيات والمُستوصفات والمراكز الصّحّيّة وكلّ مكانٍ، أبحثُ لها عن أدويةٍ تُخفِّف عنها أَلَمَها، وتُسرِعُ بشفائِها. لم يكنْ هناك ما يُمكن أنْ يدفعَ عنها ألم الحروق وآثارَها كثيرًا، ولٰكنّني لمعرفة الأطبّاء بي، حصلْتُ علىٰ بعضِ الأدوية الّتي تُساعد.

قال لي أحدُ الاختصاصيّين: «إنّها لن تصمدَ هنا طويلاً. تهتّك الأنسجة بسبب الحروق، ودخول الجراثيم بسبب قلّة التّعقيم، سيقتلانها. إذا كنتَ تتركُ الأمور في علاجها للزّمن فأنتَ تُغامر. وإذا اعتمدتَ علىٰ الأدوية المُتوفرّة لدينا فستفقدُها بلا شكّ». «وما العمل؟». «عليكَ أنْ تُخرِجها من هنا». «إلىٰ أين؟». «إلىٰ أيّة مستشفىٰ في مصر أو في قطر أو في أيّ مكانٍ آخر. قدّمْ لها عبر منظّمة الصّحّة العالَميّة». «نريدُ تقريرًا من طبيبٍ بحالتها». «أنا أكتبُه لك».

كان عيد الأضحىٰ يقترب. لقد ضَحّتْ بنا الدُّول العربيّة، وتركَتْنا نُذبَح على النِّطع كما تُذبح الخِراف، وإنّ ذبّاحينا كُثُر، وإنّ آخرهم جيشُ الاحتِلال النّازيّ، فقد ذَبَحَتْنا الأنظمة العربيّة قبله، وذبحَنا الخُذلان، وذَبَحَنا الانتِظار، وذبَحَنا مَنْ ظلّ يلومُنا على الحرب، ويقول بوقاحة لا تصدر إلاّ من لئيمٍ زنيم: «أنتم أشعلتموها وعليكم أنتم أنْ تُطفِئوها!».

آه يا (سلام)، لو كان الحال غير الحال، ولو كُنّا في غير ما اضطُرِرْنا إليه، ولو كان باليدِ حيلة، لكنتُ أحطْتُكِ برموش العين، أيّتها الطّاهرة النّبيلة. آه؛ وما تُجدي الآه! أوّاه وما تُجدي الأوّاه! لقد باعوا آهاتنا كما باعونا من قبلُ.

كانتْ تكزّ علىٰ أسنانها من شِدّة الألم. تُخفي ذٰلك عنّي وأنا أعلمه. وبدأتْ حالتُها تسوءُ في اليوم العاشر، تسمّمتْ مواضعُ الحروق، ولم تعدْ قادرة علىٰ أنْ تقوم أو تتحرّك، وصارَ لا بُدّ من العمل علىٰ إخراجها من هنا بأيّة وسيلة.



(٦١) عليكِ سلامُ الله يا حبيبتي

لم تعدْ تتكلّم كثيرًا، كان الألم يتكلّم عنها، وكانت عيناها تنطفِئان شيئًا فشيئًا، ورُوحها تُسافر بعيدًا؛ إنّها تموتُ أمامي، «لن يحدثَ هٰذا». كنتُ أصرخ في أعماقي. «إذا كنت ستموتين فأريدُ أنْ أموت معك». «لماذا يكونُ العِلاجُ مُحرَّمًا علينا؟! نحنُ لا نطلبُ إلاّ حَقًّا بسيطًا؛ العِلاج. غزّة منكوبة، ليسَ فيها اليوم شيء».

سيَبتُرون يَدَها، إنّها مُتعفّنة، وسيبترون أعضاء أخرىٰ من جسدها من أجل ألاّ ينتشر التّسمّم إلى البقيّة، الوقتُ يمرّ وأنا أفقدها. ركضْتُ إلىٰ المُنظّمات؛ أنا (فرج أبو العوف)، كلّ غزّة تعرفني، أنقذْتُ آلافَ الأرواح من النّاس، أنا أريدُ هٰذه المرّة أنْ أُنقِذَ روحَ زوجتي، لم يبقَ لي في الدُّنيا سِواها، أهٰذا كثيرٌ عَلَيّ؟! ألا يُريدُ أحدٌ أنْ يردّ الجميل لي؟! فقط أريدُ أنْ أُنقِذها، أنْ تخرجَ من المعبر، تخيّلوا أنّ غاية ما أطلبَ أنْ نخرج أنا وهي من المعبر من أجل أنْ نَجِدَ مكانًا تُعالَج فيه، أنا لا أطلبُ شيئًا آخر، سأسافر معها، وفي أيّة مستشفىٰ أنا قادرٌ بخبرتي الطّويلة أنْ أقومَ علىٰ رعايتها الطّبّيّة، فقط اسمحوا لنا بالخروج!

أخذْتُ التّقرير الطّبّي، وأودَعْتُه لدىٰ منظّمة الصّحّة العالَميّة، وقالتْ لي: «إنّ الأمر يتطلّب موافقة مصر وإسرائيل، نحنُ نرسل إليهم مِئات الطّلبات يوميًّا، وعليكَ أنْ تنتظر». «هٰذه حالةٌ مُستعجَلة، لا يُمكنها الانتِظار، امرأتي تموت». «ليستَ وحدها. كثيرون مثل حالتها، والجميع

يموتون». «إذًا أخرجوا الجميع». «هناك بروتوكولات». «لعنة الله علىٰ البروتوكولات الّتي تحكم على النّاس بالموت». كانتْ أنفاسي تغلي وتفور، وتصعدُ إلىٰ رأسي، فأُحِسّ أنّه سينفجر. وبين الغضب والقهر كنتُ أشعر أنّني بحاجة شديدةٍ إلى البُكاء بعيدًا عن أعين النّاس.

«يا فرج». «يا عيون فرج». «سأموت هنا». «لن تموتي، الرّدّ على الطّلب سيأتي قريبًا، سنخرجُ معًا إلىٰ مصر، لقد رتّبْتُ الأمور، وستُعالَجين أحسنَ عِلاج». «أتعرف؟». «ماذا؟». «لم تعدْ حياتي تهمّني، ما يهمّني ألاّ نفقد ابنَنا، أشعر أنّه سيكون امتِدادًا لنا...». تنهّدَتْ مع صوتها الضّعيف قبل أنْ تُتِمّ: «لٰكنْ واحسرتاه، حينَ سيأتي لن يجد غير غزّة المذبوحة، لن نكون قد تركْنا له شيئًا». «لا تقولي ذٰلك يا (سلام)، حينَ سيأتي سيجدُ أنّنا تركْنا أشياء لم يتركْها له أحدٌ مثلنا». «مثلَ ماذا؟». «سنتركُ له تاريخ أبويه من النّضال من أجل الحرّيّة، سنترك له الكرامة، سنترك له ذكرياتنا معًا من العِزّة والصّبر والتّضحيات، وحينَ يأتي سيكونُ عليه أنْ يُتِمّ ذٰلك، سيكون وفِيًّا لتاريخنا المُشترك، إنّ ما تركناه له أعظم مِمّا يتركه الآباء من الأموال والضِّياع، إنّ الأموال والضِّياع ستنتهي، لقد تركنا له ما لا ينتهي». ورمشَتْ بعينَيها موافقة، وأرادَتْ أنْ ترسمَ ابتسامةً علىٰ وجهها المُغضّن المحروق فلم تتمكّن. وسألتْني وهي تُشير إلىٰ بطنها: «كيفَ هو؟». «الأطبّاء قالوا إنّه سليم، وإنّه يحظىٰ بصحّة جيّدة، وإنّ الخطر عليه هو ألاّ يتمّ نقلُكِ للعلاج، ما عدا ذٰلك، فهو يستعدّ للخروج». «ماذا سيرىٰ حينَ يخرج يا فرج؟ سيرىٰ غزّة المُدمّرة!». «سيرى الكرامة، سيرىٰ أنّ الجيل الّذي سبقه ما ركع للغازي، ولا ذلّ للمُحتلّ، وسيرىٰ الدّم يُنادي عليه بالثّأر صباحَ مساء هو وأبناء جيله الّذين سيُولَدون معه،

سنشهدُ جيلاً جبّارًا سيصنع أفضل بكثيرٍ مِمّا صنع جيلُنا.. ثُمّ...» وأردْتُ أنْ أقول لها إنّني هنا إلىٰ جانبها ومعها، ولٰكنّها كانتْ من شدّة الوهن قد نامت.

تضيقُ ثُمّ تُفرَج، يشتدّ إغلاقُها ثُمّ تنفتح، تكونُ الهموم الطّاحِنات ثُمّ يبعثُ الله المسرّات الجالِيات، تكونُ المحن مُقدّمة المِنَح، ويكون الألم طريق الأمل، وتكونُ المعاناة سبيل الغاية العَلِيّة، ويكونُ احتراق الزّيتِ من أجل أنْ يُضيء، ونكون نحنُ شعبَ غزّة وقودَ الحرّيّة الّتي سيعمّ نورُها الأكوان من مشارقها إلىٰ مغاربها.

لا شيء عظيمًا إلا الله وكل ما دُونَه دُون. وكل ما دُونَه يمكن أن تحتمله، يمكن أن لا تكترث له، يمكن أن لا تخافه؛ المرض، السّلطة، الحرب، الطّائرات، الصّواريخ، الراجمات، الكلاب كل شيء خارج عنك وعن إرادتك هو شيء لا تخافه، ولا تجزع له إن أصابك، ولا تفرح إنْ ولّىٰ عنك. أنا مستعدٌّ لأنْ أفقد كلّ شيء وألا أفقدها، إنّ فقد الأحبّة أعظمُ مصيبة!

جاءتْنا المُوافقة في ثاني أيّام عيد الأضحىٰ، فَرِحْنا، سنخرجُ إلىٰ مصر عبر معبر رفح، سيكونُ لهٰذا القادم نورٌ إذًا. حينَ ذهبْنا من أجل إتمام الإجراءات، قالوا لي: «ستذهبُ وحدها». العبارة سقطتْ صخرةً فهشّمتْ رأسي، وعطّلتْ تفكيري: «ماذا تقول؟». «الموافقة جاءتْ لها، ولم تجِئ لك». «كيفَ؟». «لا يُمكننا أنْ نُخرِج إلاّ عددًا مُحدّدًا للعلاج في مصر». «أنا مرافقٌ لها، وكتبْتُ ذٰلك في طلبَ الخروج». «نعرفُ ذٰلك، ولٰكنْ لم تأتِ الموافقة علىٰ خروجك». «ولٰكنْ كيفَ ستتدبّر أمرَها؟ إنّها كما

ترىٰ لا تستطيع أنْ تتحرّك من دون أنْ يكونَ معها أحدٌ يُساعدها». «الأمر ليس بيدي، هي محظوظة أنْ جاءتها الموافقة». وهمسْتُ ساخِرًا: «نعم، نحن أهل غزّة محظوظون إنْ سمحوا لمن تبقّىٰ فيه رمقٌ من الحياة أنْ يخرج لينال شرفَ الحصول علىٰ حقّه البسيط، إنّ نصف الّذين يُسمَح لهم بالخروج يموتون قبل أنْ يخرجوا، ونصف الّذين ينتظرون علىٰ المعبر يموتون وهم ينتظرون، ولا يصل إلاّ الرّبع. آه ما أهونَ حياتَنا علىٰ النّاس!».

نظرْتُ في وجه العسكريّ الّذي يسمح للنّاس: «أنا زوجُها، ولا أحدَ لها سِواي». «المُوافقة لم تأتِ إلاّ لها». «أرجوك». «لا نقدر». وأخذْتُها جانِبًا، وهمسْتُ: «كيفَ سنحلّ هٰذه المُشكلة يا سلام؟». ورَنَتْ نحوي بعنيَين واهِنتَين غير أنّهما صافيتان: «لا تقلق، سأتدبّر أمري وحدي». «لا أستطيع أنْ أبقىٰ من دونك». «وأنا كذٰلك، ولٰكنْ ما باليد حيلة». «آخ بس». «سيرعاني الله، لا تقلق عليّ، سأجدُ في الخارِجين مِن أهل غزّة الكرماء مَنْ يُساعدني».

ودّعْتُها؛ حضنْتُها طويلاً: «ستعودين لي، عِدِيني بذٰلك». «أعدك يا حبيبي، اهتمّ بنفسك، سأعودُ أنا وهٰذا الصّغير». «وهل ستلدينه هناك؟». «لا أدري، ربّما، حسبَ مراحل العِلاج، على الأغلب نعم، سيولَد في مصر إنْ بقيتُ فيها، وإنْ خرجْتُ إلىٰ غيرها فسيُولَد هناك، لا ندري أينَ ستحطّ رحالُنا، ولٰكنْ بعدَ أنْ أتعافَىٰ قليلاً سنعود معًا، أعدكَ؛ سنعودُ معًا بإذن الله». كانَ كُرسيُّها المُتحرّك يبتعد باتّجاه المعبر، كان يقودُه أحدُ المتطوّعين، وكان كلّما ابتعدَ مترًا غصّ قلبي بألفِ طعنة، حتّىٰ إذا غابتْ في الزّحام شعرتُ أنْ روحي اقتُلِعتْ من جسدي.

كيفَ تُهاجر الطّيور؟ كيفَ تملك جناحَين من صبرٍ من أجل أنْ تتركَ موطنها، إنّها لا تتركه إلاّ لكي تعودَ إليه أقوىٰ. نحنُ طيورٌ مقصوصة الجناح يا (سلام)، عليكِ سلامُ الله يا حبيبتي.

لا أدري كيفَ مرّ اليوم الأوّل بعدَ غيبتِها، لم أكنْ أرىٰ شيئًا، بقيتُ في الخيمة مُستلقِيًا علىٰ ظهري، عاقِدًا كَفَّيَّ تحتَ رأسي، ناظرًا في سقف الخيمة الواطِئ، صامِتًا، أُحدّق ببلاهة، وأنتظر ما لا يُنتَظر.

مرّ يومان وأنا غائبٌ عن نفسي. كلّ شيءٍ صارَ مُحايِدًا بالنّسبة لي، لم أعدْ أكترث لشيء، ولا أُحِسّ بشيء. صوتُ الانفِجارات لم يتوقّف، لكنّني لم أكنْ أسمعه، كنتُ غارِقًا في هواجسي الّتي لا تنتهي: هل سيكتب الله لسلام ولي ولابننا حياةً جديدة؟ ماذا لو أنّهما ماتا معًا؟ ماذا لو ماتت ونجا الولد؟ أحدُنا في النّهاية سينجو، لكنْ مَنْ يدري مَنْ ستُكتَب له النّجاة؟!

الأفق رماد. الصّواريخ لعبةٌ مَمْلولة. الحياة قصيرة. الألم حالةٌ تعيشُ في الذّهن، الشّعور مُسافرٌ عابر، نحنُ فُتاتٌ علىٰ مائدة الموت، الموتُ نفسُه سيموت، كلّ شيءٍ سينتهي. مثلما تنتهي لحظات السّعادة ستنتهي لحظات الحُزن. سلامٌ علىٰ روحك الطّاهرة يا سلام!

يتبع....

عمّان

١٨-٦-٢٠٢٤م

الفهرس